عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



ثلاث مدن مشرقية

سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التألق والهاوية

(الجزء الأول)

فيليب مانسيل

ترجمة: مصطفى قاسم

المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

ثلاث مدن مشرقية

سواحل البحر الأبيض المتوسط بين التألق والهاوية

(الجزء الأول)

فيليب مانسيل
ترجمة: مصطفى قاسم

نوفمبر 2017
454

عالم المعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

هاتف: 22431704 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 569 - 3

العنوان الأصلي للكتاب

Levant:

Splendour and Catastrophe on the Mediterranean

By

Philip Mansel

John Murray. UK, 2010

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

صفر 1439 هـ ـ نوفمبر 2017

المحتوى

تقديم المترجم

هل يستحق المَشرق الكوزموبوليتاني أن نبكيه حقا؟

«ستكون هذه الرؤية للمشرق الكوزموبوليتاني صادمةً للبعض بالتأكيد، لكنها «الحقيقة» التاريخية، بغض النظر عن الحنين إلى الماضي أو الصور الذهنية المتخيلة»

بعيدا عن نظرات الشوفينيين المصابين برهاب الأجانب، يعد التعدد والتنوع في كل شيء أفضل للمجتمعات ككل وللإنسان الفرد من الأحادية والتماثل والتطابق في كل شيء. فمن الأفضل للاقتصاد والعلم والحضارة والاجتماع والثقافة أن يضم المجتمع عناصر متنوعة. ومن الأسعد للإنسان الطبيعي أن يرى في مجتمعه أناسا من ثقافات وخلفيات متنوعة ومختلفة، وأن يعيش معهم في وئام وتآخٍ. وربما لذلك نجد الدول الغربية التي كانت تغلق أبوابها اجتماعيا وثقافيا في وجه الآخر، مثل بريطانيا على سبيل المثال، أيام كان المشرق البحر المتوسطي مجتمعا كونيا بكل معنى الكلمة، تفتح ذراعيها اليوم للمهاجرين من مختلف أرجاء العالم وتحتفي بالتنوع والتعدد.

لكن يظل السبق تاريخيا لـ«مشرقنا» البحر متوسطي. إذ شهد حي بيرا في إسطنبول أولا، ومدن مشرقية كبرى أخرى لاحقا، مثل الإسكندرية وبيروت، تفاعلا بين العوالم المختلفة أكبر كثيرا من أي مكان آخر في العالم، وإن كان تفاعلا سطحيا دفعته الاعتبارات النفعية. ففي هذه المدن تعايشت جنبا إلى جنب الأديان الثلاثة - والمذاهب الدينية داخل الدين الواحد - والقوميات والأعراق المتحاربة خارجها، وانتصبت فيها المساجد والكنائس والمعابد جنبا إلى جنب، ومارس أتباع الأديان المختلفة شعائرهم الدينية بمستوى معقول من الحرية، وأظهر أصحاب الانتماءات القومية والخلفيات الثقافية المختلفة اختلافاتهم بمستوى معقول من الحرية. ففي المشرق، تجاورت الأديان واللغات والأزياء والثقافات المختلفة جنبا إلى جنب على نحو جعل من مدن المشرق تلك أكوانا مصغرة تجمع العالم على اتساعه لغويا وثقافيا ودينيا.

يتجلى تفرد هذا المشرق الكوزموبوليتاني بالنظر إلى نقيضه في ذلك العصر. ففي المغرب وإيران، كمثال لدول شرقية إسلامية، كانت السفارات الأجنبية النادرة معزولة في غيتوهات ديبلوماسية، أو في مدن بعيدة عن العاصمة، هما الصويرة وتبريز في الدولتين على التوالي. فلم يحدث في أي مكان، غير مدن المشرق، أن تعايشت أعداد كبيرة من المسلمين والمسيحيين واليهود على مدى قرون كثيرة.

حتى أوروبا التي تحتفي اليوم بالتنوع والتعددية، وتكفل الحقوق والحريات لمختلف قاطنيها، وتفتح أبوابها للمهاجرين من مختلف أنحاء العالم، كانت في عصر «مشرقنا» مجتمعات مغلقة على نفسها، على الأقل في وجه الآخر الديني. ففي مقابل تعايش الأديان في المشرق، كانت الدول الأوروبية في ذلك العصر تعتبر الوحدة الدينية الركيزة الأهم للأمن القومي، ما يجعل الاختلاف الديني في عصرها مكافئا للخيانة السياسية في عصرنا، لذلك كانوا في إسبانيا يعتبرون الأندلسيين طابورا خامسا للإمبراطورية العثمانية، ولم يهدأ لهم بال إلا عندما طردوهم من كامل التراب الأيبيري في الأعوام 1609-1614، بعد أن طردوا اليهود عقب سقوط غرناطة في العام 1492، وظل اليهود الباقون فيها ممنوعين من العبادة حتى العام 1967. وفي لندن، كان على الكاثوليك أن يمارسوا عباداتهم في كنائس السفارات الأجنبية من العام 1559 حتى تشييد أولى الكنائس الكاثوليكية إبان العقد الخامس من القرن التاسع عشر.

وفي باريس كان البروتستانت ممنوعين من العبادة من العام 1685 إلى العام 1788، وتعرضوا للمذابح والطرد والتشتيت. ومع أن معاهدة التحالف الفرنسي - العثماني والامتيازات، بداية من العام 1569، منحت العثمانيين من كل الأديان امتيازات متبادلة في التجارة والإقامة في فرنسا، فقد كان على المسلمين أن ينتظروا حتى القرن التاسع عشر لكي يقيموا في باريس ومارسيليا ويتعبدوا فيهما بشيء من الحرية التي كان الفرنسيون يتمتعون بها في المشرق منذ قرون. وعندما افتُتِح أول مسجد في باريس في العام 1926، كان ذلك لأسباب قومية، وذلك تكريما للمسلمين الذين ماتوا من أجل فرنسا في الحرب العالمية الأولى، وليس من باب الإيمان بالتعددية أو كفالتها. حتى أمستردام أكثر المدن حرية إبان القرن السابع عشر، وعلى رغم أن المعابد اليهودية شُيّدت فيها بعد العام 1639، كان على الكاثوليك فيها أن يتعبدوا في «كنائس سرية». في تلك الأثناء، تفردت مدن المشرق وحدها باحتضان المساجد والكنائس والمعابد جنبا إلى جنب.

وفي مقابل الأوروبيين الكثيرين الذين أقاموا في مدن المشرق واتخذوا منها موطنا، ولو مؤقتا، وتوافدوا عليها تجارا ورحالة وسائحين ودارسين وهاربين ومنفيين، منع التعصب الأوروبي العثمانيين والمسلمين عموما من السفر إلى أوروبا الغربية. فلم يتوافر في أوروبا الغربية نظام لحماية السفارات أو امتيازات أو انكشارية، ولا أماكن عبادة للمسلمين كما توافرت للمسيحيين واليهود في المشرق(1).

ربما يكون المستشرق البريطاني برنارد لويس، في روايته «الاكتشاف الإسلامي لأوروبا»(2)، محقا في إدانته للعثمانيين والمسلمين على معرفتهم السطحية والخاطئة بأوروبا واختراقها تجاريا وثقافيا كما فعل الأوروبيون مع الدول الإسلامية، إذ لم يحاول المسلمون أن يفهموا الغرب، ولم يهتموا بمعرفة عدوهم، وهو ما أرجعه لويس إلى المحظور الديني واحتقار الدين الناسخ (الإسلام) للدين المنسوخ (المسيحية) وتفوق المسلمين في العصور الوسطى وأسباب أخرى. ربما يكون لويس محقا في مذهبه، وربما كان المسلمون أقل فضولا واقتحاما من الأوروبيين، لكن لم يكن ثمة ما يحمي المسلمين في أوروبا «الوحدة الدينية» التي ظلت عقلية الحروب الصليبية تسيطر عليها حتى احتلال بريطانيا لمصر في العام 1882، بل وحتى احتلال فرنسا لدمشق في العام 1920، كما يتجلى في تعليقات الغزاة في الحالتين(3).

ثمة حنين ينتاب المصريين، والسكندريين منهم تحديدا، إلى الإسكندرية الكوزموبوليتانية، إذ تربوا على روايات وأعمال سينمائية وتليفزيونية تمجد هذه الحقبة الكوزموبوليتانية وتبرز التعايش والوئام بين السكندريين من مختلف الأصول العرقية والقومية والدينية. ومن ذا الذي لا تتوق نفسه إلى مدينة متنوعة متآلفة يتعايش فيها المصري والتركي واليوناني والفرنسي والإنجليزي والإيطالي والأرمني في حياة تسودها المحبة والعدالة والتعاون!

لكن هل كان هذا المشرق فعلا جنة للتعايش بين الأديان والأقوام كما في المخيلة المصرية، والسكندرية تحديدا، الميّالة إلى الحنين إلى الماضي وتمجيده ونسيان ظلماته ومظالمه وأهواله، وكما في الروايات المشرقية السكندرية العربية الكثيرة (دون الروايات المشرقية السكندرية الأجنبية التي يتضح فيها إقصاء «الأهالي» المصريين واحتقارهم)؟ وهل كان المشرق ذلك المجتمع التعددي الجميل المتحاب المترابط الذي ظهر في أفلام «الأبيض والأسود» المصرية؟ هل كان هذا المشرق هو «البقال» اليوناني الطيب والتاجر اليهودي «المصري»، على رغم خبثه وجشعه النمطيين في الأفلام المصرية، والبارمان الإيطالي والنادل الفرنسي اللذين يتحدثان لغة عربية مكسرة؟ وعلى نحو أوسع من ذلك السؤال: هل كان من الممكن في هذا الجو العالمي «الجهادي» إسلاميا و«الصليبي» مسيحيا و«الاستعماري» و«المتعالي حضاريا» أوروبيا، أن يسود تعايش حقيقي قائم على الوئام والتعارف والاحترام بين الأديان والقوميات؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة من وحي الكتاب الحالي الذي يبكي هذا المشرق، هي «لا» قاطعة. فعلى رغم اختلاف الظروف المحلية في المدن المشرقية الثلاث التي يتناولها الكتاب - سميرنا والإسكندرية وبيروت - على النحو الذي يبيّنه التقديم لاحقا، فإن شيئا من قبيل ذلك التعايش لم يحدث، إذ تجاورت الجماعات المختلفة، من دون أن تتماس أو تتقاطع أو تندمج، ووُجدت الثقافات المختلفة وأثرت كل منها في الأخرى من دون أن تنتج ثقافة واحدة أو جماعة واحدة، وتماكنت اللغات المختلفة من دون أن يهتم أحد ناطقيها بأن يتعلم لغة الآخرين، باستثناء اللغتين الإيطالية والفرنسية اللتين كانتا لغة المشرق على التوالي (فضلا عن نوع من اللغة المشتركة الهجين من لغات البحر الأبيض المتوسط انتشر على نطاق ضيق بين البحارة

والتجار)، والأهم من ذلك كله أن ما ساد بين الجماعات المختلفة كان الاستغلال الاقتصادي والاحتقار القومي والديني، وليس القبول أو الاحترام.

ثمة مفاهيم معاصرة سُكّت في أواخر القرن العشرين لوصف حال الجاليات الآسيوية المسلمة في أوروبا المعاصرة، تنطبق على حال التجاور دون التعايش التي سادت المشرق العثماني مثل مصطلحي «لندنستان» Londonstan و«أورابيا» Eurabia اللذين سكّهما وأمثالهما كتاب شوفينيون محافظون ويمينيون في أوروبا والولايات المتحدة من أمثال بات يور Bat Yeor وميلاني فيليبس Melanie Phillips وبرنارد لويس وجورج فيغل George Weigel ودانيال بايبس Daniel Pipes وغيرهم لتخويف أوروبا والغرب عموما من هجرة المسلمين، تأسيسا على رفض هؤلاء المهاجرين الاندماج في الثقافة والمجتمع الغربيين[4].

وإذا كانت لندن وباريس المعاصرتان تواجهان «لندنستان» و«باريستان»، فإن سميرنا والإسكندرية عايشتا «إنجليزستان» و«فرنساستان» و«يونانستان» و«هولنداستان» و«إيطالياستان» وغيرها من «الاستانات» الغربية، فضلا بالطبع عن «عثمانياستان» في المدن المشرقية غير التركية. أضف إلى «المشرق» الأوروبي المعاصر، الذي ترفض أقلياته أن تندمج في المجتمعات المضيفة، وأن تتشرب ثقافتها وتؤثر بدلا من ذلك العيش في «كنتونات» ثقافية منعزلة تحافظ فيها على خصوصياتها الثقافية، عقلية المحتل الغالب أو «المتحضر» المتغطرس الذي لا يرى في «الأهالي» غير عبيد ورعاع، يكون الناتج جاليات وطوائف متجاورة ومتعادية يسود بينها الظلم والاحتقار العرقي والديني، على الأقل من جانب جناحي السلطة: العثماني والغربي في جانب، والأهالي في الجانب الآخر، وهو تمييز ينتقل إليه التقديم فيما يلي.

لكن على خلاف سميرنا والإسكندرية، لم تشهد بيروت هذه «الاستانات»، وإن كان لها «استاناتها» الخاصة ممثلة في الطوائف الدينية. ففي مقابل سيطرة الأوروبيين على التجارة والاقتصاد في المدينتين الأوليين، ساعدت بيروت مسيحيتها في الاحتفاظ بالتجارة لعائلاتها الكبرى، فيما سماه المؤلف «جمهورية التجار»، إذ استخدم تجار بيروت الحماية القنصلية الأجنبية لمساعدتهم في المنافسة مع التجار الأجانب، وساعدت الارتباطات الأجنبية لتجار بيروت في إعطائهم ميزة نسبية على من عداهم. وفي الاتجاه عينه، وفي مقابل بقاء «الجاليات» المسيحية (كاليونانيين

والأرمن) منعزلة وغريبة في المدينتين الأوليين، استدمجتهم بيروت بيسر، بالدرجة الأولى بسبب رغبة المسيحيين المحليين في زيادة عددهم في مقابل الطوائف الأخرى.

مؤدى ذلك أننا على رغم وحدة المفهوم (وهو المشرق) ووحدة الفاعلين تقريبا (وهم العثمانيون والأوروبيون والأهالي على اختلافهم - ووحدة الكيان السياسي الضام (وهو الإمبراطورية العثمانية) ووحدة الزمن، لسنا بحال من الأحوال أمام تاريخ واحد، بل تواريخ متعددة اشتركت في قسمات عامة، مثل السيادة العثمانية، الفعلية أو الاسمية، والنخب العثمانية من الأناضول والبلقان والقوقاز كالأتراك والأرمن والشركس والألبان، والتعددية الدينية والعرقية المفروضة والمحمية من جانب الدولة القوية، سواء العثمانية في عهد قوتها أو القوى الأوروبية بعد ضعف الدولة العثمانية. لكن على رغم هذه المشتركات أسهمت السياقات المحلية في المدن الثلاث في إنتاج تواريخ مختلفة.

فعلى رغم التشابه بين المدن الثلاث في مشرقيتها، بمعنى خضوعها للحكم العثماني أو الحكم الثنائي العثماني - الأوروبي، فإن بينها اختلافات جذرية كانت السبب وراء تفرد تواريخها في القرون القليلة التي غطاها الكتاب الحالي، وربما تطورها إلى ما صارت إليه حاليا. فسميرنا كانت - ولاتزال - مدينة تركية، أي مدينة أغلب سكانها من السكان الأتراك وتقع في الداخل التركي وليست مدينة غير تركية في ولاية عثمانية يشكل الأتراك فيها نخبة حاكمة وحسب، بمعنى أنها مدينة تركية شعبا وحُكما، لكن مع سيطرة الأوروبيين على تجارتها ووجود أقليات أوروبية معظمهم من اليونانيين الذين اعتبروها مدينتهم تاريخيا، وأنها ستؤول في نهاية المطاف إلى الدولة اليونانية.

أما الإسكندرية فهي مدينة غير تركية في ولاية بعيدة حكمها العثمانيون كنخبة حاكمة، سواء حكما مباشرا قبل ظهور محمد علي وأسرته أو حكما غير مباشر بعد ظهور هذه الأسرة، إذ ظل العثمانيون يشكلون جهاز دولة محمد علي. وبذلك كانت الإسكندرية مثالا أوضح للحكم الثنائي العثماني - الأوروبي، إذا اعتبرنا أن مصطلح «عثماني» ينطبق على كل النخبة الحاكمة ممن هم ليسوا مصريين من أهل البلاد وليسوا أوروبيين، كالأتراك والشركس والأرمن والألبان وغيرهم من رعايا الدولة العثمانية غير العرب. معنى ذلك أننا في حالة الإسكندرية أمام نخبة حاكمة أجنبية

في معظمها وشعب منقسم بين أهالٍ وأوروبيين وعثمانيين، أيضا بالمعنى الواسع للمصطلح «عثماني»، وسيطرة الأوروبيين على الاقتصاد لمعظم الفترة على الأقل.

وفي حالة مغايرة للاثنتين، كانت بيروت منذ البداية، بسبب التعدد الطائفي، مدينة أمراء الطوائف، ما أضعف فيها نفوذ الدولة العثمانية من جانب، وقوى نفوذ أمراء الطوائف وحماتهم الأوروبيين من جانب آخر، وما جعل منها حكما ثلاثيا بين أمراء الطوائف والقناصل والحكام العثمانيين. لكن وجود الطائفية وتغذيتها من جانب المستغلين الداخليين والخارجيين، عزز سيطرة البيروتيين على اقتصاد مدينتهم وحماهم من بطش النخبة العثمانية والأوروبية، وإن جعلهم عرضة بين الحين والآخر لهبات عنف متبادل بين الطوائف.

تجلت هذه الفروق في معاملة الأهالي في المدن الثلاث، وقبل ذلك في الأحداث الكبرى التي شهدتها هذه المدن. فسميرنا التركية حكما وشعبا - في أغلبتهم بالطبع لأننا إزاء مدن مشرقية كوزموبوليتانية - لم يتعرض سكانها الأتراك للاستغلال والإذلال الذي تعرض له أهالي الإسكندرية، الذين تعاملت نخبتها الحاكمة بشقيها الأوروبي والعثماني، وكذلك المكون الأوروبي بين سكانها مع الأهالي المصريين معاملة المستعمِر للمستعمَر، أو السيد للعبد بلا أدنى مبالغة. بينما حمت الطائفية وأمراؤها وحماتُها الأوروبيون البيروتيين من هذه المعاملة، وإن حل محلها استغلال واستعباد من نوع آخر: من أمراء الطوائف بحق أتباعهم، فضلا عن ممارسة الاستغلال والعنف بحق الطوائف الأخرى.

أما على مستوى الأحداث الكبرى التي نتجت عن هذه البنية المتباينة للنخبة الحاكمة والسكان، فإنه يتجلى في أن المدينة التي شعر أغلبية سكانها بأنهم أسيادها وأصحابها وإن توارت هذه الحقيقة في أحيان كثيرة، أي سميرنا، وبسبب هذا الشعور نفسه، كان في مقدورهم أن يفرضوا انتقامهم على من يحاول إذلالهم واستعبادهم أو انتزاع المدينة منهم، كما حدث في حريق سميرنا وفي أعمال القتل الجماعي بحق اليونانيين والأرمن. وعلى مستوى الأحداث الكبرى الناتجة عن هذه البنية وذلك التاريخ أيضا، كانت هبات العنف الطائفي الكثيرة التي شهدتها بيروت، والتي وصلت ذروتها بالحرب الأهلية اللبنانية، وكان منها أيضا استدعاء البيروتيين أنفسهم - المسيحيين تحديدا - للمحتل الأجنبي الذي رأوا فيه حاميا، ورأى هو

فيهم موضوعات للاستغلال. وفي المقابل، لم يتح للسكندريين أن يفرضوا انتقامهم على أسيادهم العثمانيين أو الأوروبيين من خلال فعل الثورة أو الحرب الأهلية، لأنهم لم يكونوا مهيئين لذلك، بسبب إضعافهم وإقصائهم على مدى قرون، لكن نابت عنهم الدولة المصرية بعد العام 1952، ما مكّنهم من الانتقام من مستغليهم ومستعبديهم العثمانيين والأوروبيين بالطرد ومصادرة الممتلكات، وإن لم تصل الأمور إلى حد العنف والفوضى.

ليس ثمة مبالغة في رد الثقافة السياسية لموانئ المشرق ودوله المعاصرة إلى حقبة المشرق العثمانية، وهو ربط ليس بجديد، إذ فطن إليه الكثير من الكتاب الغربيين[5]. لكن التفاصيل الثرية التي يقدمها التاريخ الحالي للموانئ الثلاثة تجعل هذه الفكرة أكثر وضوحا وإقناعا.

بل إن حالة حقوق الإنسان – فضلا على طبيعة النظام السياسي على متصل الاستبداد – الديموقراطية - في موانئ المشرق الثلاثة، وتوسعا في مناطقها الداخلية، أي الدول المعاصرة تركيا ومصر ولبنان - وتوسعا سورية التي تعد بيروت ميناءها أو بابها كما يقال تاريخيا - لاتزال تعكس هذه البنية المتفاوتة للسلطة والنخب الحاكمة: دولة قوية غير ديموقراطية وحالة حقوق إنسان هشة، حيث كانت النخبة الحاكمة بشقيها أجنبية: مصر وسورية؛ ودولة قوية وديموقراطية ناشئة وحالة حقوق إنسان ناشئة، حيث كان جناح من السلطة وطنيا: تركيا؛ ودولة ضعيفة، أو بالأحرى دولة أمراء طوائف، وديموقراطية قوية، وإن كانت طائفية وقائمة على المحاصصة، وحالة حقوق إنسان قوية، حيث كانت الطوائف المحلية والحماية الأجنبية قويتين (لبنان). وتفصيل ذلك فيما يلي.

بين مدن المشرق الثلاث، نجد أنفسنا أولا أمام الميناء - ومنطقته الداخلية أو دولته - الذي كان جناح من نخبته الحاكمة وطنيا، أي من أهل البلاد، سميرنا، وهو أقرب إلى الثقافة السياسية الديموقراطية وتسوده حالة معقولة من الثقة بين محكوميه وحكامه، ولا ينظر الحكام فيه للمحكومين نظرة المستعمِر إلى المستعمَر، وتسوده بالتالي ديموقراطية واعدة وحالة حقوق إنسان مبشرة، ولا نقول ديموقراطية كاملة النضج أو حالة حقوق إنسان مثالية. وهي ثقافة سياسية وحقوقية راكمت شيئا من التطور على حكم وطني طويل لم يكن ديموقراطيا في معظمه، ولذلك يمكن

أن نسميها «الثقافة السياسية لدولة قومية قديمة»، مع الاعتراف بأن القومية لم يكن لها وجود في أيديولوجيا السلطنة العثمانية التي كانت كيانا متعدد الأعراق والقوميات والأديان، لكنها كانت دولة قومية من منظور أنها كانت دولة الأتراك.

ونجد أنفسنا ثانيا أمام الميناء - ومنطقته الداخلية أو دولته - الذي كان جناحا السلطة فيه أو أجنحتها جميعا من الأجانب، وهو الإسكندرية، أقرب إلى الثقافة السياسية السلطوية وتسوده حالة من الشك والريبة بين حكامه ومحكوميه، وينظر الحكام فيه إلى المحكومين نظرة المستعمِر إلى المستعمَر، ولا تسوده بالتالي ديموقراطية واعدة ولا حالة حقوق إنسان مبشرة. وهي ثقافة سياسية وحقوقية تجمدت - حتى اللحظة الراهنة - عند الحقبة المشرقية، أو أبعد منها زمنيا عند الحقبة المملوكية، ولذلك يمكن أن نسميها «الثقافة السياسية المملوكية» التي تحتكر فيها نخبة سياسية أوليغاركية أو عسكرية أو أسرية السلطة، وتقصي الشعب ولا تعترف له بحقوق من نوع حقوق الإنسان. ومع أن سورية تشكل المنطقة الداخلية الكبرى لبيروت، فيما تشكل لبنان المنطقة الداخلية الصغرى لها، فإن سورية تندرج ضمن هذه البنية والثقافة السياسيتين. فمع أننا هنا أمام مجتمع من أقدم المجتمعات تاريخيا - مصر والشام - بل يقال جزافا من أقدم الدول، فإننا في حقيقة الأمر أمام شعبين أو شعوب توالى عليها على مدى الألفيات حكام ونخب حاكمة أجنبية، كانت حقبة المشرق مجرد تتويج وتكريس لها.

ونجد أنفسنا ثالثا أمام الميناء - ومنطقته الداخلية الأقرب أو دولته الأصغر- الذي كان جناح من السلطة فيه من الأهالي، واعتمد هذا الجناح في صعوده إلى السلطة على الطائفية الدينية والحماية الأجنبية، وهو بيروت، الأقرب بين الثلاثة إلى الثقافة السياسية الديموقراطية وتسوده حالة من الثقة بين محكوميه وحكامه، وإن كان مصطلح الحكام في هذه الحالة ينصرف إلى أمراء الطوائف أكثر منه إلى حكام الدولة القومية الحديثة. وفي مقابل الحالتين الأوليين، تسود علاقة السيد - التابع بين الحكام - أمراء الطوائف - والمحكومين، وبسبب هذه الوضعية، أو بالأحرى بسبب ضعف الدولة أمام أمراء الطوائف، يتمتع المواطن بقدر كبير من القوة في مقابل الدولة، وذلك من خلال وسيط الطائفة الدينية أو أميرها تحديدا، وليس وساطة كيانات حديثة كالمجتمع المدني في نموذج الدولة القومية الأوروبية

الحديثة. هذه الثقافة السياسية، وإن كانت قد قطعت شوطا بعيدا على طريق الممارسة الديموقراطية وترسيخ مفهوم حقوق الإنسان، فإنها ديموقراطية محاصصية طائفية قابلة للانفجار في أي لحظة، على نحو ما حدث في العام 1975 مع اندلاع الحرب الأهلية، وعلى نحو ما حدث كثيرا قبل ذلك. كما أنها أيضا ثقافة حقوقية نشأت بفعل الحماية الطائفية، وهي بالتالي حقوق تضمنها الطائفة للفرد في مقابل الدولة، لكن ليس ثمة من يضمنها للفرد في مقابل الطائفة نفسها. وهي إجمالا ثقافة سياسية وحقوقية تجمدت عند حقبة «المِلل» المشرقية العثمانية، ولذلك يمكن أن نطلق عليها «الثقافة السياسية الطائفية» أو «ثقافة دولة أمراء الطوائف» أو «ثقافة الدول داخل الدولة».

وإذا كان المشرق بهذا السوء - بالنسبة إلى الأهالي وليس الأجانب بالطبع، لأنه كان جنة للأخيرين - وإذا كان المشرق لم يعرف الاندماج بين الجماعات أو التعايش بينها، وإذا كان- في حالة الإسكندرية على الأقل - قد قام على الاستغلال والاستعباد من جانب النخبة الحاكمة والمكون الأوروبي والعثماني من السكان بحق الأهالي المصريين، فمن أين نشأت الصورة الطوباوية للتعايش والتحاب والتفاهم التي تسود الروايات المشرقية السكندرية العربية (دون الأجنبية أيضا)؟

نشأت هذه الصورة الطوباوية للمدن المشرقية الكوزموبوليتانية في حالة الإسكندرية تحديدا من العقدين الأخيرين من عمر المشرق، وتحديدا الأعوام 1936-1956[6]. فمع تنامي قوة الدولة المضيفة، بعد إلغاء الامتيازات والمحاكم المختلطة، وبعد فرض المساواة بين العناصر الأجنبية والوطنية في المدينة، أو بالأحرى بعد تراجع التدخل الأجنبي أو انكماش القوى العظمى، بدأ الأوروبيون، واليونانيون تحديدا، بعد أكثر من قرن ونصف القرن من العيش في المدينة «المصرية»، وبعد أكثر من خمسة أجيال ولدوا فيها، في استخدام اللغة العربية. وكان ذلك في ذاته بداية لكسر الحواجز بين الجاليات التي ظلت منغلقة على نفسها، أو على الأقل منغلقة كجالية أوروبية واحدة في وجه المصريين، وبداية لتعامل المصريين بشيء من الندية مع المشرقيين الأجانب، إذ بدأ الجميع يقفون أمام قاضٍ واحد ويخضعون لقانون واحد، وبذلك لم يعد المصريون يشعرون بأنهم غرباء، ولم يعد المشرقيون الأجانب يشعرون بأنهم مميزون. إلى هذين

العقدين تحديدا يرجع شعور الحنين بين المصريين السكندريين إلى الحقبة المشرقية الكوزموبوليتانية، وفيهما - بتعبير المؤلف - «بدأ الكثير من اليونانيين وغيرهم من الأجانب يتحدثون اللغة العربية بطلاقة، بدرجة أفضل كثيرا من قراءتهم أو كتابتهم لها. وفي المناطق المختلطة، يتذكر السكندريون زيارات جيرانهم أيا كان دينهم، والذهاب معهم إلى المدرسة نفسها، والأكل معهم، والنزول ضيوفا عليهم».

وإلى جانب التفسير السياسي لنوع الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الجماعات في مدن المشرق الذي يقوم على بنية السلطة وأجنحتها في مقابل المحكومين، ثمة تفسير آخر طبقي يفرض نفسه عبر صفحات الكتاب الحالي. فالقسمة في مدن المشرق، كما يتجلى في مدنه الثلاث، بلا استثناء هذه المرة، كانت قسمة طبقية. إذ كانت هذه المدن تنقسم إلى طبقة رأسمالية وطبقة معدمة أو إلى أغنياء وفقراء. شهدت المدن الثلاث تحالفا طبقيا من أعراق وجنسيات وأديان مختلفة - من العثمانيين على اختلافهم والمصريين اللبنانيين والأوروبيين - توافق منذ البداية على استغلال أبناء البلاد وإقصائهم. يتضح هذا النمط في القسطنطينية وسميرنا والإسكندرية وبيروت، وإن حدث في أوضح صوره في الإسكندرية للأسباب التي ذُكرت آنفا عن بنية السلطة. لذلك كان هذا التعايش الذي يبكيه الكثيرون مقصورا – إن وجد - داخل الطبقة الرأسمالية بمكوناتها الدينية والعرقية المختلفة، وكان نادرا أو غائبا بين الطبقتين، وإن ظهر أيضا بين الفقراء من كل الأديان والقوميات خلال هذين العقدين المشار إليهما - إلا إذا اعتبرنا اتخاذ الخدم من المصريين أو المربيات من اليونانيين أو السفرجية من الإيطاليين أو غير ذلك من الحرف «العرقية» التي جمعت الطبقتين في بيوت النخبة، تعايشا من النوع الذين تحن إليه الروايات السكندرية حول المشرق.

ثمة سؤال أخير من النوع الافتراضي: هل كان من الممكن أصلا أن يكون المشرق على ما يصفون من تعايش وتحاب واندماج؟ أو بما يتفق مع المنظور المغاير الوارد في هذا التقديم، هل كان من الممكن أن يكون هذا الشرق أكثر عدلا ومساواة بين عناصره ومكوناته؟ وهل كان من الممكن أن يساوي بين السكندري المصري واليوناني والإنجليزي والفرنسي والإيطالي والعثماني؟ يمس هذا السؤال سؤالا تخيليا مرتبطا:

هل كان من الممكن لهذا المشرق أن يستمر بعد ظهور الدول القومية في مصر وتركيا؟ وهل كان من الممكن أن يستمر بعد أن فُرضت على الجميع المساواة تحت قانون واحد وأمام قاض واحد، حتى إن لم تجنح الحكومات الوطنية مثل حكومة مصطفى كمال في سميرنا والقسطنطينية وحكومة جمال عبدالناصر في الإسكندرية إلى إجراءات عقابية بحق الأجانب، حتى إن لم تقع أحداث كارثية مثل حريق سالونيك السابق على حريق سميرنا وحرب السويس؟

والإجابة هنا أيضا هي «لا». فالأجانب حين جاءوا إلى القسطنطينية أو سميرنا أو الإسكندرية لم يأتوا إليها حبا فيها، ولا رغبة في إثرائها وإعمارها، ولا حبا في التنوع والتعدد، ولا سعيا إلى معرفة الآخر والتعايش معه، وإنما جاء بهم البحر في المقام الأول بسبب الامتيازات التي أعطتها لهم الدولة العثمانية في أيام قوتها. وأساءوا استخدامها في أيام ضعفها، وهي الامتيازات التي مكّنتهم من الثراء السريع على حساب أبناء البلاد.

وعلى ذلك فإن فكرة العدالة والمساواة بين عناصر المشرق كانت غير ممكنة، وفي حال فرضها ينهار المشرق، كما تأكد فعلا عند انهياره. ولذلك أيضا، لم يكن من الوارد أن يستمر المشرق في ظل الدول الوطنية، حتى إن لم تحاول اليونان غزو أراضي تركيا، وإن لم يقع حريق سالونيك أو سميرنا، وإن لم تقع حرب السويس وما تلاها من إجراءات عقابية بحق الأجانب. ببساطة لأن الامتيازات التي أتت بهم في الأصل زالت، ولأن المساواة التي فرضتها الدولة الوطنية كانت في غير مصلحتهم.

ستكون هذه الرواية للمشرق الكوزموبوليتاني صادمة للبعض بالتأكيد، لكنها «الحقيقة» التاريخية، بغض النظر عن الحنين إلى الماضي أو الصور الذهنية المتخيلة. على أن القصد من ترجمة التاريخ، خاصة التواريخ التي تحوي أهوالا وأعمالا بشعة بحق أبناء هذا الدين أو ذلك، أو هذه القومية أو تلك، ليس أن ينكأ الجراح أو يحيي عداوات ميتة أو يثير الكراهية بين أبناء تلك الأديان والقوميات. فالجميع على مر التاريخ كانوا فاعلين وضحايا لهذه الأعمال. وإنما القصد، كما هو من قراءة التاريخ عموما، هو الدرس والعبرة، وتكوين أرحب وأشمل للحياة والعالم وكيف تسير الأمور فيه. ولعل الدرس الأهم هو أنه لا بديل

عن التعايش والتفاهم والاحترام بين الثقافات والقوميات والحضارات، وأن أمة أو دولة أو طائفة مهما بلغت قوتها ووحشيتها لم تتمكن من استئصال شأفة أي أقلية دينية أو قومية.

«على صوت سيد درويش السكندري وفيروز البيروتية والمواويل الشامية ذات الجذور التركية، تُرجِم هذا الكتاب»، هكذا انتويت أن أبدأ تقديمي للكتاب الحالي، وذلك بالدرجة الأولى تأسيسا على الصورة النمطية الوردية للمشرق الكوزموبوليتاني، ولأنه تُرجم فعلا على خلفية هذه الأصوات. لكن آهات القتلى والمعذبين وطقطقات ألسنة اللهب وعبارات الاحتقار وإيماءات الازدراء والغطرسة العرقية والدينية وعبارات الاستعطاف وإيماءات الذل والانكسار حجبت صوت سيد درويش وفيروز وصباح فخري نفسيا وماديا. تماما كما سوّدت صور الترف المفرط والغنى الفاحش، في مقابل البؤس الكامل والفقر المدقع والتجبر على الضعفاء والفقراء وإذلالهم واستغلالهم، الصورة الوردية النمطية.

ليت المشرق كان بالجمال الذي يصوّره البعض، وليته دام مع تحقيق العدالة والمساواة بين الجميع. فمن ذا الذي يكره أن يعيش في مجتمع مختلف الوجوه والألوان والثقافات والخلفيات، على أن تتوافر فيه أبسط معايير الجماعة الواحدة وليس الكنتونات المنفصلة، والعدالة والمساواة وليس الامتيازات، والاحترام المتبادل وليس الاحتقار والإجحاف.

لقد انتقل المشرق تطبيقا - وأفرادا في بعض الحالات - من شرق البحر المتوسط إلى نيويورك ولندن وباريس وجنيف وسنغافورة، لكنه مشرق قائم على سيادة القانون وكفالة الحقوق والحريات والمساواة للجميع، مشرق ينظر المهاجرون إليه وإلى أهله نظرة التبجيل والاحترام وليس نظرة الدونية والاحتقار كمشرقنا، مشرق تمثل ثقافته ومجتمعه حلما للداخلين إليه وليس كابوسا كمشرقنا. ولو تحقق شرط المساواة والعدالة وسيادة القانون في مشرقنا، لكان بالفعل «الجنة المفقودة» وليس «الجحيم الزائل».

ها هو العالم كله يتحول إلى مشرق. فماذا تكون العولمة واللقاءات والتجاور والتعايش بين الأمم والثقافات والحضارات غير «المشرق»؟ وبإمكان الدول وريثة المشرق القديم أن تعيد مشرقها على أسس من الحرية والعدالة والمساواة وسيادة

القانون، أو يمكنها بذلك - على الأقل - أن توقف «رحلات الموت» التي تأخذ أبناءها إلى المشارق الجديدة عبر البحر الأبيض المتوسط.

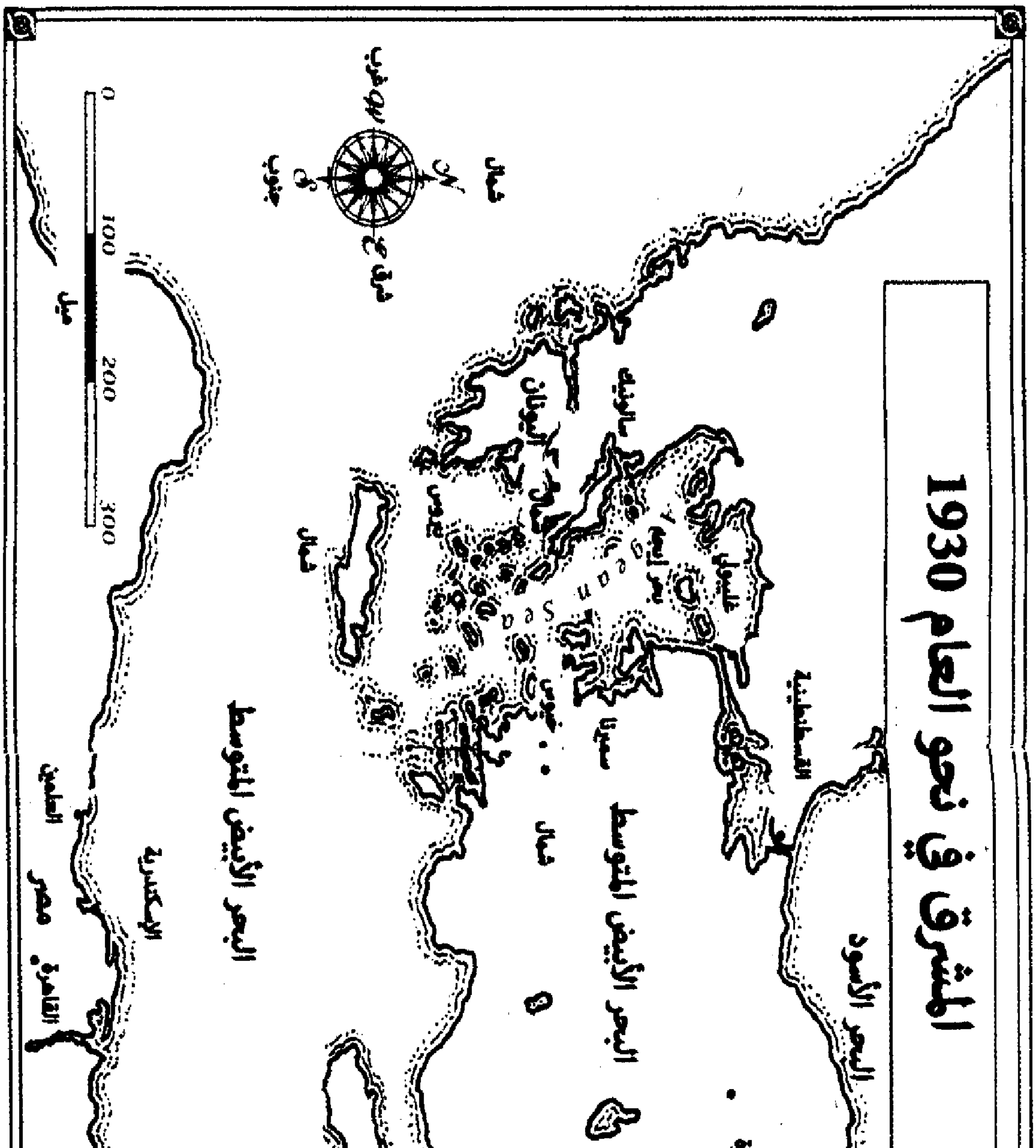
وأخيرا، أود التعبير عن عظيم الامتنان إلى سلسلة «عالم المعرفة» على نشر هذا الكتاب الذي ضَمِن بنشره عبر هذه السلسلة المرموقة أن يصل إلى أيدي أكبر عدد ممكن من قراء العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي. كما أتقدم بالشكر إلى المؤلف الذي أرسل إليّ الكتاب الأجنبي على نفقته ولم يبخل بالرد على استفساراتي حول نص الكتاب.

الدكتور مصطفى قاسم

الرياض، يونيو 2015

لا توجد متعة على الإطلاق تَعْدِلُ التحرر من حدود السفينة الضيقة والنزول على رصيف مدينة مشرقية

Eyre Evans Crowe, The Greek and the Turk; or, Power and Prospects in the Levant, 1853.


المشرق في نحو العام 1930
البحر الأسود
القسطنطينية
أنقرة
تركيا
حلب
سوريا
دمشق
القدس
يافا
صيدا
بيروت
طرابلس
إسكندرونة
البحر الأبيض المتوسط
سالونيك
اليونان
بحر إيجه
Aegean Sea
الإسكندرية
القاهرة
مصر
العلمين
شمال
جنوب
ميل
0
100
200
300

مقدمة

المشرق منطقة وحوار ومسعى معرفي. وكما اشْتُقت كلمة «الشرق» Orient من الكلمة اللاتينية oriens التي تعني الشروق، كذلك اشْتُقت كلمة المشرق Levant من المقابل الفرنسي الذي يعني الشروق أيضا. فبالنسبة إلى الأوروبي الغربي، أصبحت كل تنويعات كلمة المشرق في اللغات الأوروبية تشير إلى الأراضي التي تشرق منها الشمس، وبالتالي الأراضي الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وهي تحديدا الدول الحديثة: اليونان وتركيا وسورية ولبنان وفلسطين ومصر، التي كانت من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، جزءا من الإمبراطورية العثمانية.

وكذلك كان المشرق - ذلك الاسم الغربي لمنطقة شرقية - ضمنا حوارا بين الشرق والغرب، وبالتالي بين الإسلام والمسيحية، بعد الفتوحات الإسلامية لمعظم شرق البحر الأبيض المتوسط

«كان التنوع والمرونة جوهر المدن المشرقية، فكانت مهربا من سجون القومية والتعصب الديني»

إبان القرن السابع. وصف غيبون Gibbon شرق البحر الأبيض المتوسط بأنه «الساحل الذي دوى طويلا في السجال العالمي»[1] بين المسيحية والإسلام، وقد علا دويه في الوقت الراهن أكثر كثيرا منه في أي وقت مضى.

يتناول هذا الكتاب المَشرقَ، وذلك من خلال تاريخ موانئه الثلاثة الرئيسة: سميرنا(*) والإسكندرية وبيروت. كانت تلك الموانئ بحلول القرن التاسع عشر المدن الأكبر والأغنى والأكثر عالمية في المنطقة، فضلا بالطبع عن العاصمة الإمبراطورية: القسطنطينية. وكانت هذه الموانئ أيضا الأكثر كشفا للعلاقات بين الشرق والغرب وللقوة النسبية للطرفين. فوقوعها على ساحل البحر الأبيض المتوسط، في تركيا ومصر ولبنان الحالية - على التوالي - جعلها على الخط الأمامي بين الإمبراطورية العثمانية وأوروبا، وبين الشرق والغرب. كما أنها تتحدى الأفكار النمطية حول الكوزموبوليتانية(**) والقومية، وتقدم رؤية جديدة لتاريخ المنطقة. كانت هذه المدن - في آن معا - نوافذ على الغرب، ومُوَلِّدات للثورة ضده، وأهدافا لبوارجه. وبدلا من أن تكون الكوزموبوليتانية والقومية نقيضين لا يجتمعان، فقد تمكنتا في مدن المشرق من الازدهار معا بين الناس، وكذلك في المدن.

كانت سميرنا والإسكندرية وبيروت تقع في قلب الحوار المشرقي. فكانت في الوقت عينه بحر متوسطية وشرق أوسطية، وعثمانية وأوروبية، وقومية ودولية، تُبنى فيها المساجد والكنائس والمعابد وتنتصب جنبا إلى جنب. وكانت في أغلب الأحيان لا تضم أغلبية مسلمة أو مسيحية واضحة. ويكشف تاريخ هذه المدن عن سبب الحضور الطويل لفرنسا وبريطانيا في المنطقة. ففي مجتمع مقسم، لم تستطع الحكومة فيه أن تقدم الخدمات والحماية الأساسيتين، ولّت المدن والأفراد - ولايزالون كذلك في بعض الحالات - وجوههم شطر «المُخلّصين» الأجانب(***). إذ

(*) سميرنا Smyrna مدينة إغريقية قديمة على الساحل الغربي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط، تأسست في القرن السابع قبل الميلاد، وتقع أطلالها في مدينة إزمير التركية الحالية. ظل الاسم مستخدما للمدينة التركية حتى غيّره الأتراك رسميا إلى إزمير في العام 1922 بعد حريق المدينة وطرد اليونانيين منها. [المترجم].

(**) تشير الكوزموبوليتانية cosmopolitanism إلى التعدديةُ في العرق والدين واللغة والثقافة وما إليها التي تجمع العالم على اختلافه في مكان واحد. [المترجم].

(***) تعد بيروت من أبرز الحالات الباقية لتدخل المخلصين الأجانب والنفوذ الغربي، والفرنسي تحديدا، الذي يُستدعى كثيرا من الداخل لتسوية الخلافات وترجيح كفة أحد الأطراف على الآخرين ضمن التوازن بين القوى السياسية والطوائف الدينية. [المترجم].

كثيرا ما كان القناصل الأجانب في هذه المدن يتمتعون بقوة لا تقل عن قوة الحكام المحليين، على نحو ما تكشف في الشكاوى الكثيرة من جانب هؤلاء الحكام، مع أن الحكام المحليين أنفسهم استخدموا الخدمات التي كان القناصل يقدمونها، أو اتخذوا من القنصليات الأجنبية ملاذا في وقت الحاجة.

تعكس أسماء هذه المدن الحوار المشرقي أيضا. فسميرنا والإسكندرية اشتقتا اسميهما من ماضيهما اليوناني، إذ يُعتقَد أن مستعمرين يونانيين أسسوا سميرنا في العام 688 قبل الميلاد، وأن الإسكندر الأكبر أسس الإسكندرية في العام 331 قبل الميلاد. فيما اشتُق اسم بيروت من كلمة فينيقية قديمة تعني «عين الماء»(*). لكن على النقيض من ذلك، كانت أسماء المدن الداخلية الكبيرة - حلب ودمشق وبغداد والقاهرة - عربية الأصل. وباستثناء حلب، اكتست هذه المدن هالةَ القداسة، إذ وصف النبي محمد نفسه دمشق بالجنة، وكانت بغداد والقاهرة عاصمتين إمبراطوريتين مخططتين، أسسهما خلفاء مسلمون في العامين 762م و969م على التوالي[2]، وكانت مقرات لحكومات إسلامية في الأساس، تختلف كليا عن موانئ المشرق، تماما كما تختلف واشنطن عن نيويورك.

كانت مدن المشرق، الحيوية والمختلفة عن القسطنطينية والبعيدة عنها والهازئة عادة بأوامرها، والتي كانت تدار غالبا عبر وحدات منفصلة منقطعة الصلة عن سلطان العاصمة الإقليمية، أبطالا في الحوارات بين المدن والدول، وبين الموانئ والمناطق الداخلية، وكذلك بين الشرق والغرب. تمثل المدن عموما طريقا ثالثا أو منطقة وسطى بين الدول والأفراد، ومختبرات سياسية وثقافية واقتصادية لعوالم جديدة. وتستطيع «القوة الناعمة» للمدن أن تؤثر في قاطنيها أكثر من تأثير «القوة الخشنة» للدول. فالساحة العامة أو رصيف الميناء يمكن أن يكونا وثيقة سياسية، فضلا عن كونهما مواقع جغرافية. فأوروبا بلا باريس، أو المشرق بلا سميرنا والإسكندرية وبيروت، كانت تواريخها ستأتي مختلفة كليا. وثورة تركيا الفتاة في العام 1908، التي أثرت في المنطقة كاملة، لا يمكن أن تُفهَم من دون حاضنتها سالونيك، وهي ميناء مشرقي آخر سنعرض لتاريخه في هذه الفصول.

(*) لا تزال أماكن كثيرة في لبنان المعاصر تبدأ بالاسم «عين»، بمعنى النبع أو البئر، مثل «عين دارا» و«عين زيتوني» و«عين العروس» و«عين شجرة التفاح» و«عين شجرة الزيتون» وغيرها. [المترجم].

كان التنوع والمرونة جوهر المدن المشرقية. فكانت مهربا من سجون القومية والتعصب الديني. ففي هذه المدن الواقعة بين العوالم، كان الناس يغيّرون هوياتهم بالسهولة عينها التي كانوا يغيرون بها لغاتهم. من أمثلة هذه الشخصيات محمد علي باشا الذي حوّل الإسكندرية في أوائل القرن التاسع عشر من منطقة مقفرة إلى مدينة كوزموبوليتانية، والذي أعلن حفيده الخديو إسماعيل أن مصر جزء من أوروبا. ومنها أيضا أسرة بالتازي Baltazzi في سميرنا، التي كانت في الوقت عينه يونانية وعثمانية وأوروبية، ومنها كذلك الشاعر السكندري العظيم قسطنطين كفافيس(*) الذي سار على درب الكثير من قاطني هذه المدن حين اختار لنفسه ما شاء من الهويات واللغات المختلفة، ومنهم أيضا كُتاب بيروت ثلاثيو اللغة الذين يستخدمون اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية. كانت بعض مدارس سميرنا والإسكندرية وبيروت وجامعاتها دولية عن قصد، الأمر الذي جعل من هذه المدن منارات ثقافية في المشرق. ومن باب رد الفعل على تلك الوضعية، أنتجت هذه المدن أيضا بعض أعظم دعاة القومية في تلك الفترة. فـ«الطلقة الأولى» في حرب التحرير التركية في العام 1919 أُطْلِقت في سميرنا، والبطل القومي المصري جمال عبدالناصر وُلِد في الإسكندرية.

كان المشرق عقلية أيضا. فكان يضع الصفقات في مكانة أعلى من الأيديولوجيا. وبالنسبة إلى الشرق الأوسط، كان المشرق والمشرقية مكافئين لما يعتبره باتريك لي فيرمور Patrick Leigh Fermor دور الرّوْمنة(**) الذي يشير فيرمور به إلى ما بقي من العالم البيزنطي والاتجاهات البيزنطية في عهد الإمبراطورية العثمانية، بينما كانا بالنسبة إلى اليونان يرمزان إلى عالم من «التحولات والتسويات»، بمعنى «تفضيل الطموح الشخصي على التطلعات الأوسع»، وتفضيل التجريب على العقيدة الجامدة. ورأى البعض في المشرقيين «مرادفا للازدواجية»[3]، وأكبرَ غيرُهم فيهم افتقارهم إلى الأيديولوجيا تحديدا. من هؤلاء ثاكري Thackeray الذي أحب سميرنا التي زارها في العام 1839، لأنك «لا تمل سموّها»[4].

(*) قسطنطين كفافيس Constantine Cavafy (من 29 أبريل 1863 إلى 29 أبريل 1933) مصري يوناني من أعظم شعراء اليونان الحديثين، اتسم شعره باللانمطية، انتقد فيه المسيحية والقومية الشوفينية، وعبّر عن التلاقي بين عالمي اليونان الكلاسيكية والشرق الأوسط القديم. [المترجم].

(**) المصطلح الأجنبي المستخدم هنا هو Romiosyne وهو المقابل اليوناني لكلمة «الرّومنة» romanization بمعنى اعتبار الشيء رومانيا أو لاتينيا أو إضفاء الصفة الرومانية عليه أو انتحال ثقافة الرومان وسماتهم. [المترجم].

ينطبق على سميرنا والإسكندرية وبيروت وصف شيشرون للمدن الميناتية(*)، إذ كتب في كتابه «الجمهورية»، في معرض ثنائه على روما لعدم كونها واحدة من هذه المدن، أن المدن الميناتية تشترك في «ضرب من الفساد والانحلال الأخلاقي... فهي خليط من اللغات والعادات الغريبة... والرغبة في التجارة وعبور البحار... والابتهاج بأمثال هذه الأماكن يجر على المرء دائما إغراء المتعة من خلال الإفراط أو التفريط»[5]. لكن في النهاية، انتصرت الحماسة القومية في المدن الثلاث جميعها على «شهوة التجارة» و«إغراء المتعة».

لا يقف الهدف من الكتاب الحالي عند حد تقديم تاريخ لثلاث مدن كبرى، والطرق التي كشفت من خلالها هذه المدن الحوارات بين الشرق والغرب، وبين المدن والدول. فالكتاب أيضا مسعى معرفي، لتقصي ما إذا كانت هذه المدن كوزموبوليتانية حقا - على نحو ما ذهب الكثير من قاطنيها - وتمتعت بإكسير التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود الذي يتوق إليه العالم المعاصر. فهل كانت هذه المدن عولمية من قبل أن يُسكّ مصطلح العولمة، وهل كانت أمثلة مبكرة للمدن المختلطة التي تنبثق حاليا من لوس أنجلوس إلى لندن؟ أم كانت - تحت السطح المتألق - براكين تنتظر الانفجار، على نحو ما حدث لها إبان القرن العشرين، في شكل نكبة سميرنا والحرب الأهلية في بيروت.

اليوم، تعد بيروت آخر مدينة مشرقية، وآخر مدينة لا تسيطر عليها المسيحية أو الإسلام، حيث يسود «التعادل». لكن الاستقطاب الديني المتزايد في أحيائها المختلفة، واغتيالات السياسيين والكُتاب منذ مقتل رئيس الوزراء السابق ورجل الأعمال الدولي رفيق الحريري في فبراير 2005، وصعود «حزب الله» الشيعي في ضواحي بيروت الجنوبية، تكشف جميعها أن بيروت قد تتحول إلى مدينة متجانسة، كما حدث مع المدينتين الأخريين: سميرنا والإسكندرية.

(*) الدولة - الميناء أو الدولة الميناتية، دولة يتألف إقليمها من ميناء فقط أو ميناء وتوابعه، تتطابق مع الكثير من الدول المدينية في حوض البحر الأبيض المتوسط التي سيرد المزيد حولها لاحقا في متن الكتاب والحواشي. [المترجم].

I

كرمة بيرا(*)

يحق للفرنسي المذكور أن يسافر حرا في الأراضي والبحار المبيّنة هنا، خاضعا لإمبراطوريتنا المجيدة... ويحق له أن يدخل أو يخرج أو يستقر هنا، كما يشاء، بموجب أوامرنا العلية، ويُقدَّم له العون والحماية أينما ذهب.

فرمان من شهر فبراير 1788، صادر في «القسطنطينية المحروسة» لمصلحة شارل - سيجيسبير سونيني

Charles -Sigisbert Sonnini

انبثق المشرق الحديث عن أحد أنجح التحالفات في التاريخ، وهو التحالف بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. فمن القرن السادس عشر حتى أوائل القرن العشرين، هيمنت على تاريخ المنطقة ومدنها توازنات النفوذ المتغيرة - السياسي والثقافي والاقتصادي - بين القسطنطينية وباريس.

«كانت الحدود بين الأقوام والأديان تُميَّز بوضوح من خلال اللباس، فضلا على القوانين والعادات، مثل الملابس الضيقة متعددة الألوان ومختلفة الأزياء للأوروبيين، المغايرة تماما للعباءات المتدلية أحادية اللون المتماثلة للعثمانيين»

(*) بيرا Pera (بمعنى «عبْر» أو «ما وراء») هو الاسم اليوناني السابق لمنطقة غَلَطَة بالعاصمة العثمانية السابقة إسطنبول. [المترجم].

في بادئ الأمر، بدا التحالف بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية مستحيلا. فقد كان الجهاد إحدى دعائم الإمبراطورية العثمانية وأحد أسباب صعودها من إمارة أناضولية إلى قوة عالمية تمتد من المجر إلى اليمن، ومن الجزائر إلى أذربيجان. ضمت الإمبراطورية موانئ المشرق، إلى جانب شمال أفريقيا والبلقان ومعظم الشرق الأوسط. وكانت الإمبراطورية تفخر بأنها تضم الكثير من الأقوام والأديان، سواء في عاصمتها القسطنطينية أو في جيشها[1]. غير أن السلاطين العثمانيين أطلقوا على أنفسهم اسم الغزاة أو المجاهدين، ونظر المسلمون بعين الرضا إلى حروب هؤلاء السلاطين، تماما كما فعلوا مع الفتح العربي للمشرق إبان القرن السابع، إذ اعتبروها حروبا «في سبيل الله» ينالون منها الغنيمة أو الشهادة. وبعد أن ضم العثمانيون سورية ومصر ومكة والمدينة في العام 1517، أضاف سلاطينهم إلى ألقابهم لقب «خادم الحرمين الشريفين» وخليفة المسلمين، كما يتكشف في النقش المحفور على باب الجامع السليماني الذي شيّده السلطان سليمان القانوني ليهيمن على الأفق في القسطنطينية، إذ وصف النقش سليمان بأنه «الخليفة المتألق بالمجد الإلهي، الذي ينفذ أوامر الكتاب الخفي». وقد أظهرت قوة الإمبراطورية العثمانية، كما ذهب كثير من رعاياها إلى المسلمين أن الله قيّض لها أن تكون خاتمة الإمبراطوريات، تماما كما كان محمد خاتم الأنبياء[2]. خلاصة القول أن الإسلام كان إحدى دعائم الإمبراطورية التي احتل المسلمون أعلى المناصب فيها.

وإذا كانت الإمبراطورية العثمانية قد تبنت إرث الجهاد الإسلامي، فلا توجد دولة تبنت الإرث الصليبي المسيحي بشكل أقوى من فرنسا. فقد كان ملك فرنسا «الملك الأكثر مسيحية» و«الابن الأكبر للكنيسة». كما قاد الملك المثال سان لويس St. Louis بنفسه حملة صليبية على المسلمين في مصر في العام 1249، ومات في حملة ثانية على تونس في العام 1270(*). وكذلك دخل الملك شارل الثامن نابولي في العام 1494 وهو عازم على غزو الإمبراطورية العثمانية وإعلان نفسه إمبراطورا رومانيا. وهاجمت قوة فرنسية بيروت في العام 1520، كجزء من جهود فاشلة لتخفيف الحصار العثماني على رودس[3].

(*) هو الملك لويس التاسع الذي هُزِم في معركة المنصورة عندما جاء مصر غازيا على رأس الحملة الصليبية السابعة، وأسر وسُجن في دار ابن لقمان؛ وأفرِج عنه بفدية؛ وهو نفسه الذي قاد الحملة تطأ الصليبية الثامنة على تونس لينطلق منها إلى مصر وبيت المقدس، لكن لم تكد أقدام الحملة تطأ بر تونس حتى انتشر الوباء في معسكرهم ومات الكثيرون من حكام الغرب وقادتهم، ومنهم لويس، في 25 أغسطس 1270. [المترجم].

غير أن السياسة الواقعية، في كل من فرنسا والإمبراطورية العثمانية، كُتِبت لها الغلبة في النهاية على الحماسة الدينية. وكانت الاستراتيجية هي السبب وراء ذلك الاختيار. فالإمبراطورية العثمانية التي بناها سلسلة من السلاطين العسكريين على أنقاض عدد من الممالك والسلطنات المغلوبة، كانت تبدو دائما غير شرعية وهشة في الوقت عينه. فعلى الرغم من انتصاراتها المدوية، فإنها لم تقضِ على هويات الأمم المغلوبة، ولا ذكريات الماضي المجيد ما قبل العثماني لدى هذه الأمم(*). وظلت الخرائط الأوروبية تُظهِر ضمن حدود الإمبراطورية العثمانية أماكن مثل اليونان وبلغاريا وأرمينيا وسورية ومصر. وثمة تقدير لديبلوماسي بندقي ذهب إلى أن الإمبراطورية العثمانية تكونت من أقاليم أربعين مملكة مغلوبة[4]. وبحلول القرن السادس عشر، كان العدو الألد للإمبراطورية العثمانية هو الإمبراطور كارلوس الخامس، عميد آل النمسا(**) والإمبراطور الروماني المقدس وملك قشتالة وأراغون ونابولي وصقلية وسيد البلاد الواطئة(***) وأجزاء من العالم الجديد. كان من بين طموحات كارلوس غزو شمال أفريقيا وغيرها، وكان من ألقابه الكثيرة ملك أورشليم، وكان على يقين - مثل الكثير من الحكام المسيحيين اللاحقين - من أن المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية كانوا ينتظرون وصول جيوشه بلهفة[5].

كان كارلوس الخامس يشكل تهديدا لفرنسا هي الأخرى. فقد كانت ممتلكاته تطوّق فرنسا، وكان منافسا للملك فرانسوا الأول على السيطرة على إيطاليا. وحين

(*) نتج ذلك في جزء كبير منه عن رغبة السلاطين العثمانيين أنفسهم، ومنهم محمد الفاتح، في الحفاظ على الهويات السابقة للأمم التي انضوت ضمن إمبراطوريتهم، إما بدافع افتتان الغالب بالمغلوب الأرقى منه ثقافيا، وإما بدافع الظهور في صورة «إمبراطور العالم» كما تسمي بعضهم، أو جعل عاصمتهم «ملاذ الكون» كما أطلقوا عليها، وهذا لم يكن يتأتى من دون الحفاظ على هوية الأمم المغلوبة، كما تجلى في إعادة محمد الفاتح فتح البطريركية المسكونية بعد أن أغلقها أصحابها عندما دانت القسطنطينية للعثمانيين. [المترجم].

(**) آل النمسا House of Austria أو آل هابسبرغ Habsburg، واحدة من أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا العصور الوسطى والعصر الحديث المبكر، كان منهم الأباطرة الرومان المقدسون من العام 1538 إلى العام 1740 وحكام الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الإسبانية وبلاد أخرى كثيرة. استمدت الأسرة اسمها من قلعة هابسبرغ التي بناها بين العامين 1020 و1030 في سويسرا الحالية الكونت رادبوت من كليتغو Radbot of Klettgau، وكان ابنه أوتو الثاني أول من أضاف اسم القلعة «الهابسبرغي» إلى لقبه. حكمت العائلة مناطق واسعة من أوروبا والعالم الجديد في أوجها، وكانت أقوى ممالكها في إسبانيا والنمسا، وانتهت في إسبانيا بموت آخر ذكورها في العام 1700، الذي أطلقت وفاته حرب الخلافة الإسبانية، بينما استمرت في النمسا بعد حرب الخلافة النمساوية (1740-1748) في شخص ماريا تريزا أرشيدوقة النمسا وملكة المجر. [المترجم].

(***) البلاد الواطئة هي المقاطعات التي تكونت منها جمهورية ثم مملكة هولندا لاحقا، وسميت بذلك بسبب انخفاض قسم كبير من أرضها عن مستوى سطح البحر. [المترجم].

أسرت جيوش كارلوس الهابسبرغي فرانسوا الأول في معركة بافيا على سهل لومبارد في الرابع والعشرين من فبراير 1525(*)، لجأ فرانسوا إلى «ملاذ الكون» السلطان العثماني سليمان القانوني، طالبا العون[6](**).

تميّزت الإمبراطورية العثمانية دائما بالتحالف مع القوى المسيحية، منذ أن عبرت قواتها إلى أوروبا لأول مرة إبان العقد السادس من القرن الرابع عشر حلفاء لجنوى. الجهاد لم يكن يعني الحرب نيابة عن الإسلام وحسب، بل أيضا أي عمل طيب، وعلى رأس ذلك العمل يأتي النضال الداخلي من أجل كبح «النفس الدنيّة» واتباع تعاليم الإسلام. وفي حروب النبي لتأسيس دولة الإسلام، هادن النبي هذا العدو أو ذاك، وهو أمر كان متاحا بالتالي لخلفائه[7]. ونتيجة للعداء المشترك لكارلوس الخامس، غدا خليفة المسلمين والملك الأكثر مسيحية حليفين طبيعيين. وكانت الخطابات بينهما يحملها موفدون سريون، مثل النبيل الكرواتي نيكولو فرانكوبان Niccolo Frankopan، اعتادوا السفر متنكرين (حين كانوا يعبرون ممتلكات آل هابسبرغ أو أراضي محايدة)، وكانوا يخفون الخطابات في نعال أحذيتهم. وقد قتل عملاء لآل هابسبرغ أنطونيو رينكون Antonio Rincon الثائر السابق ضد كارلوس الخامس في إسبانيا، بالقرب من بافيا، في الثالث من يوليو 1541، حين كان في طريق عودته إلى القسطنطينية حاملا مشروعا للتحالف الفرنسي - العثماني[8].

في رسائله إلى فرانسوا الأول، حث سليمان «أخاه ملك بلاد فرنسا» على أن يتشجع، «فليس غريبا أن يُهزَم الأباطرة ويؤخذوا أسرى... تشجع ولا تكترث. فلم يتوقف أسلافنا المجيدون وأجدادنا المشهورون - أنار الله قبورهم - يوما عن الحرب لرد أعدائهم أو فتح البلدان... ونحن أيضا حصاننا مسرج وسيفنا مربوط في حزامنا ليل نهار». وفي العام 1526، وجزئيا تلبية لالتماس من والدة فرانسوا الأول، هاجم

(*) وقعت معركة بافيا Pavia في الرابع والعشرين من فبراير 1525 بين إسبانيا وفرنسا بسبب التنافس على إيطاليا، وكانت الحاسمة للحرب الإيطالية للأعوام 1521-1526، هاجم فيها جيش إسباني جيشا فرنسيا بقيادة فرانسوا الأول ملك فرنسا خارج أسوار مدينة بافيا، أسر فيها فرانسوا نفسه وسُجِن وأجبِر على توقيع اتفاقية مدريد المذلة التي تنازل بمقتضاها عن أراض كثيرة في إيطاليا لخَصمه. [المترجم].

(**) كان من الألقاب الكثيرة لمدينة القسطنطينية والسلاطين العثمانيين أنفسهم «عالم بيناب» alem penab التي تعني «ملاذ الكون» أو «مأوى العالم». [المترجم].

السلطان سليمان نسيب كارلوس الخامس الملك لويس عاهل المجر وهزمه وقتله في معركة موهاج Mohacs. وعلى ذلك، فإن ضياع استقلال المجر على مدار السنوات الأربعمائة التالية، كان نتيجة مبكرة للتحالف الفرنسي - العثماني[9].

كان أول سفير فرنسي قوي وألمعي - من بين كثيرين - «يُرسل إلى المشرق سفيرا مقيما على باب السيد الكبير»(*) هو جان دي لا فوريست Jean de La Forest، الفارس برهبانية القديس يوحنا، الذي تعلم اللغة اليونانية(**) في إيطاليا من المنفي البيزنطي تيودور لاسكاريس Theodore Lascaris. وصل فوريست إلى القسطنطينية في العام 1535. وعلى الرغم من الجدل المستمر ورفض المتعصبين الدينيين في البلدين، ظل التحالف الفرنسي لقرنين ونصف القرن واحدة من الثوابت القليلة في الدبلوماسية الأوروبية. فلم يكن لملك فرنسا - كما كان يقال - سوى صديقين في أوروبا: السلطان العثماني والسويسريون. وبفضل التحالف، أصبحت الإمبراطورية العثمانية - وبالتالي مكة والمدينة - جزءا من النظام الدبلوماسي الفرنسي. ومن جانبهم، غدا السفراء والقناصل والترجمانات جزءا من النظام الحكومي العثماني، فكانوا يحصلون على مخصصات معيشية والحق في اتخاذ حرس من قوات النخبة العثمانية المعروفة باسم الانكشارية، فضلا عن الرسل الحكوميين[10].

أراد سليمان تحالفا رسميا مكتوبا، لكن فرانسوا الأول وخلفاءه، مدفوعين بالخوف من «العار» الذي سيراه الكاثوليك في هذه العلاقة[11]، كانوا يتملصون دائما من هذا المطلب. لكن ما أسماه سفير فرنسي لاحق في القسطنطينية «اتحاد الزنبق والهلال»(***)، كان الجانبان يسميانه عادة تحالفا[12]. من ذلك أن السفير الفرنسي مركيز دي نوينتيل Marquis de Nointel تباهى في العام 1672 بأن فرنسا هي

(*) كانت الحكومة العثمانية تسمى «الباب» و«الباب العالي» و«باب السيد الكبير»، والاسم مستمد من الجزء من قصر السلطان الأكثر ارتباطا بممارسة السلطة، إذ كان الجميع ينظرون إلى الحكومة العثمانية باعتبارها إدارة الدولة والعدالة، التي تجري أمام باب السلطان عن طريق أسرته الممتدة ووزرائه. [المترجم].

(**) نظرا إلى وراثة الدولة العثمانية للإمبراطورية البيزنطية بثقافتها ومواطنيها اليونانيين، كانت اللغة اليونانية إحدى أكثر اللغات استخداما في الدولة العثمانية. وكما هي الحال مع الأمم التي تغلب أمما أرقى منها ثقافيا وحضاريا، كان السلاطين العثمانيون يقدرون اللغة والثقافة اليونانيتين، ومنهم محمد الفاتح الذي كان يصدر الفرمانات باللغتين التركية واليونانية، وكلف بكتابة سيرته باللغة اليونانية على الورق نفسه الذي كتب عليه أريان Arrian سيرة الإسكندر، التي كانت موجودة في مكتبة الفاتح وكانت تقرأ عليه يوميا. [المترجم].

(***) كان الهلال شعار الدولة العثمانية، والزنبق رمز الدولة الفرنسية، إذ ظهر في أعلامها وتيجان الملوك وعروشهم وغيرها من رموز الدولة الفرنسية. [المترجم].

«الصديق الأقوى والأقدم والأوفى للباب العالي»، مشيرا إلى «التحالف الفرنسي الذي دام مائة وسبعة وثلاثين عاما» منذ العام 1535[13].

ساعد التحالف الفرنسي - العثماني في توفير إطار للمشرق. فالتنازلات أو الامتيازات (سُميت كذلك لأنها كتبت في فصول)(*)، التي منحها السلطان لملك فرنسا قُدّر لها فيما بعد أن تصبح الأساس القانوني للوجود الأوروبي في المشرق ولنمو تجارة المشرق الدولية. كانت النسخ العثمانية من الامتيازات المصدّرة بالطغراء السلطانية الذهبية(**) واسم السلطان متبوعا بالنعت «المظفر دائما»، تُعرَف باسم العهود ahdnames، يضمنها عهد السلطان وقسمه. وإذا كانت الاستراتيجية الكبرى هي السبب الأصلي وراء التحالف الفرنسي، فإن التجارة كانت السبب وراء الامتيازات الفرنسية، وسرعان ما أصبحت إحدى القوى الدافعة للتحالف. كان التجار الفرنسيون أجانب مسيحيين يحتاجون إلى إطار قانوني للعمل داخل الإمبراطورية العثمانية، لكن خارج إطار الشريعة الإسلامية. وإلى اليوم، لاتزال الوضعية القانونية للأجانب في دول الشرق الأوسط محلا للجدل، خصوصا في العراق وإيران، وفي الدولة الأخيرة أسهم الإعفاء من القوانين المحلية الذي منحه الشاه للأمريكيين في تأليب الإيرانيين عليه. كان النظام العثماني يقوم على التقاليد الإسلامية والبيزنطية. فمنذ العام 1454، وُضع البنادقة المقيمون في الإمبراطورية تحت سلطة مسؤول يدعى البايلو bailo أي الوكيل (كما كان اسمه في الإمبراطورية البيزنطية)(***). كان هذا المسؤول حامي البنادقة لدى الحكومة العثمانية ومديرهم وقائد شرطتهم وقاضيهم، وكان في الوقت عينه السفير البندقي المقيم وكبير الجواسيس، وكان يعين قناصل البندقية في أوروبا[14].

أرست الامتيازات حرية التجارة بين الدولتين وإعفاء الرعايا الفرنسيين من القوانين العثمانية، إذ كانوا في جميع القضايا - باستثناء جرائم القتل - يحاكمون بقوانين دولتهم وأمام محاكم قناصلهم، وليس أمام المحاكم العثمانية، كما كفلت

(*) ترجع كلمة capitulations (امتيازات) إلى الأصل اللاتيني الوسيط capitulate الذي يعني تقسيم المادة إلى فصول capitulae. [المترجم].

(**) الطغراء tughra علامة بخط اليد أو ختم أو توقيع، مزيج من الخط الديواني والإجازة، استعمله السلاطين العثمانيون في توقيع الفرمانات والرسائل السلطانية، كان السلطان أورخان غازي أول من استعمله. [المترجم].

(***) على امتداد الكتاب، يستعاض عن كلمة «بايلو» بكلمة «سفير»، لأن حاملها كان سفير البندقية. [المترجم].

لهم حرية اللباس والعبادة، والإعفاء من العمل القسري ومن الضرائب العثمانية ومن المسؤولية الجماعية عن جرائم الأفراد من مواطنيهم، وكذلك الحق في افتداء الأسرى العاملين على السفن العثمانية(*). وقد أمر السلطان كل رجاله في أنحاء الإمبراطورية كافة بتنفيذ الامتيازات التي نوقشت في العامين 1535 و1536 وصدرت أخيرا في العام 1569[15].

نظريا، ووفقا لتعاليم الإسلام، كانت الامتيازات تنازلات يمنحها سلطان بعينه إلى ملك بعينه ورعاياه، بناء على طلب من هذا الملك أو ذاك. وكان من الممكن سحبها مؤقتا، ولم تكن ملزمة لخلفاء السلطان الذي منحها[16]، بل كان يتحتم تجديدها في عهد كل سلطان تال، كما حدث مع الامتيازات الفرنسية في الأعوام 1581 و1597 و1604 و1673 و1740. لكن على أرض الواقع، استمر تنفيذ الامتيازات، حتى إن لم تُجدد. كانت الامتيازات بمنزلة صفقات بين الدول، نتجت عن الديبلوماسية الفرنسية وعن تهديدات فرنسا بالانسحاب من التجارة والمفاوضات في المشرق، ونتجت في الوقت عينه عن القوة العثمانية. شملت الامتيازات الفرنسية الأولى الصادرة في العام 1569 ثماني عشرة مادة، وتكونت الامتيازات الأخيرة الصادرة في العام 1740، عندما ساعدت فرنسا الإمبراطورية العثمانية في استعادة أراضٍ في منطقة البلقان، من خمس وثمانين مادة، منها مواد مدت الحماية الدينية الفرنسية إلى الكاثوليك (فسرتها فرنسا على أنها تغطي الكاثوليك داخل الإمبراطورية العثمانية) والأماكن المقدسة المسيحية في المشرق[17]. وبحلول القرن التاسع عشر، كانت الامتيازات قد جعلت من مدن المشرق تجارب للتعايش بين الأقوام والأديان المختلفة، وفي ذلك وصفها المعاصرون بأنها مدن لا نظير لها في أي مكان آخر في العالم إبان ذلك العصر.

(*) كان من الممارسات المنتشرة إبان العصور الوسطى والعصر الحديث المبكر أن تتخذ الدولة من الأسرى والمخطوفين من الدول المعادية مجدفين مُلزمين على سفنها الحربية، كانوا يُكبلون بسلاسل في أماكنهم على المجاديف، عُرفوا للتاريخ باسم عبيد القوادس galley slaves أو مجدفي القوادس galley oarsmen، والقادس سفينة شراعية ضخمة ذات مجاديف كانت تستخدم في الأساطيل الحربية. ومع صعود الإمبراطورية العثمانية وحربها المتواصلة ضد القوى الأوروبية، ومع تكثف عمليات «الجهاد البحري» في غرب البحر الأبيض المتوسط - التي تسمى «قرصنة» في التاريخ الغربي - بعد طرد المسلمين من الأندلس، تصاعدت عمليات سبي العبيد من الجانبين الأوروبي والإسلامي للتجديف على السفن. ويقال إن الأسطول العثماني حين هُزم في ليبانتو في العام 1571، حرر الأسطول المسيحي المنتصر ثلاثين ألف مجدف مسيحي كانوا عبيدا على السفن العثمانية. وكانت محاكم التفتيش الإسبانية تحكم على «المُنَصَّرين الجدد» أو «النصارى الجدد» من المسلمين السابقين بالخدمة على القوادس، وهو حكم كان أقرب إلى الإعدام، لأنه كان ينتهي عادة بموت الشخص أو انتحاره، لكن بعد عمل شاق تحت لهيب الصيات. [المترجم].

وبعد العام 1536 أسس السفير الفرنسي سفارته بالقرب من سفارة سفير البندقية، فيما سمي «كرمة بيرا» vineyards of Pera، بسبب وجود أشجار الكرم خارج أسوار المنطقة المسيحية بالدرجة الأولى في حي غَلَطَة بالقسطنطينية (غاصت الآن في المحلات والعمارات السكنية في حي بايوغلو Beyoglu، على الرغم من أن أشجار الكرم لاتزال تنمو في بعض الأفنية). أصبحت بيرا مركزا ديبلوماسيا لأوروبا ونموذجا لمدن المشرق. كانت بولندا حليفا عثمانيا آخر، ومن خلال الدعم البولندي، بسبب العداء المشترك لآل هابسبرغ من جانب كل من بولندا وإنجلترا، تأسست سفارة إنجليزية في بيرا بعد العام 1576، بناء على مبادرة من بعض التجار الإنجليز[18]. فقد وحّد الدولتين الخوف من توسع القوة الإسبانية بعد أن ورث فيليب الثاني الهابسبرغي عرش البرتغال في العام 1580. علاوة على أن القصدير والرصاص الإنجليزيين ساعدا العثمانيين في صنع الذخيرة. وكانت شركة المشرق الإنجليزية(*)، من خلال المزج بين التجارة والاستراتيجية، مسؤولة عن دفع رواتب السفراء، فيما كانوا سياسيا يتبعون التاج البريطاني. وعلى الرغم من العداء الفرنسي والبندقي للإنجليز، مُنِحت امتيازات لإنجلترا في العام 1582، على غرار الامتيازات الفرنسية[19]. فقد قرّب العداء للممالك الهابسبرغية بين إنجلترا والإمبراطورية العثمانية لدرجة أن السفير الإنجليزي إدوارد بارتون Edward Barton وحاشية كبيرة رافقت ممثل السلطان – الصدر الأعظم - في حملة على القوات الهابسبرغية في المجر[20].

كانت هولندا القوة الأجنبية التالية التي تمد أقدامها إلى المشرق، على الرغم من معارضة منافسيها التجاريين البندقية وفرنسا وإنجلترا. كانت الإمبراطورية العثمانية، نظرا إلى إدراكها الاستخدامات التجارية والاستراتيجية الممكنة لهولندا ضد إسبانيا، فاعلا نشطا في هذه العملية، حتى إنها أرسلت مبعوثين إلى هولندا. ووصل أول سفير هولندي، يدعى كورنليس هاغا Cornelis Haga، إلى القسطنطينية في العام 1612، وهي السنة التي مُنحت فيها الامتيازات لهولندا. كانت السفارة الهولندية الأولى تقع بالقرب من مكان القنصلية الهولندية الحالية في «كرمة بيرا»، فيما كان يعرف حينئذ باسم استرادا ميسترا Strada Maestra الذي يعد حاليا

(*) شركة المشرق Levant Company هي المقابل المشرقي البريطاني لشركة الهند الشرقية البريطانية. [المترجم].

أحد أكبر شوارع التسوق وأماكن الفسحة وفاترينات العرض في المدينة، وهو شارع الاستقلال Istiklal Caddesi. وبدلا من أن تنظر الإمبراطورية إلى السفارات الأجنبية باعتبارها شرا لا بد منه، كانت هذه السفارات محل ترحيب في بيرا، حتى إن مفتي إسطنبول، وهو أكبر عالم دين مسلم في الإمبراطورية، كان كثيرا ما يستقبل زيارات من السفراء الأجانب[21].

أما في المدن الأخرى، مثل بغداد القرن التاسع أو بلفاست القرن العشرين، فقد كان الفصل العرقي والديني - ولايزال - هو القاعدة. كتب عالم اجتماع حديث أن الجماعات تفضل أن تعيش كأغلبية في شوارعها أو أحيائها. فـ «الناس يحبون أن يعيشوا مع آخرين ينتمون إلى الثقافة والقيم والمُثل والمعايير عينها، ويستجيبون للرموز نفسها، ويتفقون على تنشئة الأطفال... وأسلوب الحياة». وبسبب رغبة المسلمين المحافظين في حمايـة النسـاء مـن العيـون المحدقـة، فقـد كانوا - ولايزالـون - أكثر حرصا على الفصل[22]. على أن أوروبا المسيحية لم تكن أقل تشددا في هذا الجانب. فمن أجل «حماية» البنادقة من اليهود واليهود من البنادقة، اضطر كل اليهود في البندقية من العام 1516 حتى العام 1797 إلى العيش في غيتو (كلمة بندقية الأصل)، كمدينة صغيرة منفصلة. وكانوا ملزمين قانونا بالاحتباس في الغيتو كل ليلة من السادسة مساء حتى الفجر، وكانوا مجبرين على أن يدفعوا للمسيحيين أجرا في مقابل توفير الحراسة لهم[23].

خلقت الإمبراطورية العثمانية، من خلال علاقاتها الدبلوماسية مع القوى المسيحية، منطقة مشرقية، أولا في بيرا، ثم في موانئ المشرق مع ازدياد أهمية هذه العلاقات. على أن الأمر لم يخلُ من عقبات كثيرة. فقد كان الكاثوليك والأرثوذكس غالبا يكنون العداء بعضهم لبعض، وكذلك المسلمون والمسيحيون. وكان ما يسمى «الأذى اليومي البسيط»، أمرا متكررا. وكانت الحدود بين الأقوام والأديان تُميّز بوضوح من خلال اللباس، فضلا عن القوانين والعادات، مثل الملابس الضيقة متعددة الألوان ومختلفة الأزياء للأوروبيين، المغايرة تماما للعباءات المتدلية أحادية اللون والمتماثلة للعثمانيين. كما كان الأوروبيون يرتدون قبعات (ولاحقا باروكات)، فيما كان المسلمون يرتدون عمائم، وكان الرعايا المسيحيون للإمبراطورية العثمانية يرتدون قلنسوات سوداء تسمى قلباق kalpak.

كان المسيحيون واليهود ممنوعين من ركوب الخيل. وعلى الرغم من المكانة الاجتماعية التي تضفيها وظيفة السفير على شاغلها في القسطنطينية، فقد كانت هذه الوظيفة، كما كتب سفير بندقي متأثرا، «محفوفة بصعوبات جمة». وقد أطلق المسلمون على الحرس الانكشاري للسفراء اسم «قطعان الخنازير»[24]. وفي العام 1614، اشتكى كورنليس هاغا من أنه «لو كان لي أن أتحدث عن الحيف والضيم اللذين يتعرض لهما الفرنسيون والإنجليز والبنادقة الموجودون هنا منذ سنوات كثيرة، حتى في القسطنطينية نفسها، فإن لدي أوجاعا تملأ كتابا ضخما وليس مجرد رسالة»[25].

وبحلول العام 1650، ربما تحولت الأقلية المسلمة في غَلَطَة إلى أغلبية، وحُوّلت الكنائس أحيانا إلى مساجد. ففي العام 1600، ضمت غَلَطَة اثنتي عشرة كنيسة كاثوليكية، انخفضت إلى ست بحلول العام 1700[26]. وعلى الرغم من بناء كنائس كثيرة لاحقا، لا يوجد اليوم غير الكنيسة الدومنيكانية سان بيتر وسان بولس الواقعة على بُعد بضع ياردات من برج غَلَطَة، والتي تؤرخ إلى ما قبل الفتح العثماني في العام 1453، على الرغم من أنها نُقِلت وأعيد بناؤها نتيجة لاحتراقها في خمس مناسبات. وكما كانت الحال في كنائس إسطنبولية أخرى، لاتزال كنيسة سان بيير كيلسي - كما تعرف حاليا - محاطة بأسوار عالية لتوفير الحماية لها.

ومع ذلك، فقد شهدت بيرا أولا، ومدن مشرقية كبرى أخرى لاحقا، مثل الإسكندرية وبيروت، تفاعلا بين العوالم أكبر من أي مكان آخر، وإن كان تفاعلا سطحيا دفعته الاعتبارات النفعية. ففي المغرب وإيران، كانت السفارات الأجنبية النادرة معزولة في غيتوهات ديبلوماسية، أو في مدن بعيدة عن العاصمة، مثل الصويرة وتبريز في الدولتين على التوالي. فلم يحدث في أي مكان، غير مدن المشرق، أن تعايشت أعداد كبيرة من المسلمين والمسيحيين واليهود على مدى قرون كثيرة.

في المقابل، وفرت الحياة في بيرا أشكالا من التعويض، إلى جانب ضروب الأذى. فـ «كرمة بيرا» المقابلة لقصر توبكابي(*) الواقع على الجانب الآخر من القرن الذهبي(**)، باعتبارها مركز الديبلوماسية وجمع المعلومات والتفاعل بين العوالم

(*) قصر توبكابي أو توب كابي سراي أو الباب العالي مركز الحكم في إسطنبول من العام 1465 إلى العام 1853، بناه محمد الفاتح، واتخذ من اسمه اسما للدولة العثمانية برمتها. [المترجم].

(**) القرن الذهبي Golden horn مرفأ بعرض كيلومتر واحد وطول ستة كيلومترات يقع إلى الشمال من إسطنبول ويفصلها عن منطقة غَلَطَة أو بيرا سابقا، سمي بهذا الاسم ربما لأن مياهه تتلألأ بلون الذهب تحت أشعة الشمس. [المترجم].

الإسلامية والكاثوليكية والأرثوذكسية، لم يكن لها نظير في أوروبا أو آسيا. ومن ذلك على سبيل المثال أن ترجمانات بيرا وضعوا معايير لترجمة لغة الأتراك التي كانت غير منتشرة حينذاك[27]. وكانت بيرا أيضا مختبرا تجريبيا للتعايش الديني والعرقي، إذ لم تعرف الغيتوهات. وكورنليس هاغا، على الرغم من شكواه، ظل في القسطنطينية حتى العام 1639. واشترى بيتا و«زيّنه»، وتزوج امرأة هولندية، و«أفسدته عاداتهم» (أي البيريين)(*)، كما قال السفير الإنجليزي سير توماس رو Thomas Roe، لدرجة جعلت منه «عارا على السفراء»[28]. فمن الواضح أنه على الرغم من «الحيف والضيم»، فقد تعلم هاغا أن يمتع نفسه في القسطنطينية. وفي العام 1609، وجد الرحالة الإنجليزي العظيم جورج سانديز George Sandys الأوروبيين الغربيين في المدينة يعيشون «في حرية وبحبوحة من العيش».

وإلى جانب المال والسلطة، كانت الحرية الجنسية مصدرا آخر للجاذبية تمتع به المشرق. وفي ذلك كتب سفير البندقية أن «الاجتراء في طريقة الحياة التركية وفسق النساء التركيات وعادات الكفار الفاسدة تجعل من الملاك شيطانا»[29](**). نادرا ما كانت النساء الغربيات يرافقن أزواجهن إلى المشرق، حتى إن الحكومة الفرنسية حظرت على الفرنسيات السفر إلى المشرق. ومع ذلك، فلم يكن الأجانب مضطرين إلى أن «يناموا وحدهم». فمن خلال شكل من الزواج المؤقت، من نوع الزواج العرفي الذي ينتشر حاليا في مصر ولبنان وإيران، كان من الممكن أن يشتري الأوروبي «فتيات إغريقيات جميلات» من آبائهن كرفيقات مؤقتات، وهي الصفقة التي كانت تعرف باسم الكابينة kabin، واشتق منها لاحقا «زواج الكابينة» الذي أجازه القاضي العثماني في سجلاته (كانت الفتيات اليونانيات يتذللن لرفاقهن لأبعد الحدود، وذلك لأن الواحدة منهن حين تعود إلى بيت أهلها كانوا يعتبرونها «ثوبا ملبوسا»)[30].

كان هذا الزواج واحدا من أمثلة كثيرة حدثت في جميع أنحاء المشرق حتى القرن التاسع عشر لمسيحيين ويهود استخدموا المحاكم الإسلامية. إذ فعلوا ذلك أيضا

(*) البيريون نسبة إلى بيرا. [المترجم].

(**) «الكفار» في الاقتباس هم المسلمون، كما وصفهم سفير البندقية. على أن الفسق الذي ينسبه السفير للتركيات في بيرا كان جله من جانب المشرقيات غير التركيات، خصوصا اليونانيات، كما يتبيّن في كتاب «القسطنطينية - المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924»، سلسلة عالم المعرفة، بعددي يوليو وأغسطس 2015. [المترجم].

في قضايا الميراث، لأن النساء ينلن ميراثهن بمزيد من اليسر في ظل الشريعة الإسلامية أكثر منهن في ظل القوانين الأوروبية. بل إن بعض المسيحيين واليهود اعتنقوا الإسلام لتيسير الزواج أو الطلاق[31]. وفي المقابل، أظهرت المحاكم المسيحية واليهودية المحلية تأثير الشريعة الإسلامية والأعراف العثمانية. وكثيرا ما كان المسلمون يلجأون إلى المحاكم القنصلية الأجنبية، من دون أن تشتكي السلطات العثمانية من ذلك[32].

وفي المشرق أيضا، كانت التجارة تربط بين العثمانيين والأجانب. فكان التجار البنادقة يبيعون المنسوجات (للقصر في أغلب الأحيان) والزجاج والورق (حتى القرن التاسع عشر، كان معظم الورق المستخدم في المشرق يأتي من إيطاليا) والجبن وساعات اليد والحائط التي كانت تتمتع بأهمية خاصة. وكانت القسطنطينية تصدّر المنسوجات والسمك المدخن والأصباغ والحبوب[33]. وكان الناس من مختلف الأديان والقوميات يتسوقون ويمشون جنبا إلى جنب في الشوارع نفسها، وكذلك يشربون معا في حوانيت بيرا وحاناتها. وقدمت الأسر الإيطالية في غَلَطَة، مثل أسرتي تيستا Testa وفورنتي Fornetti، سلالات من الترجمانات للسفارات الغربية، وعملت أسرة سلفاغو Salvago لحساب البندقية (حتى إن سفير البندقية كان يعيش في بيت أحدهم)، وخدمت أسرة فورنتي فرنسا، فيما خدمت أسرة تيستا - وأحيانا بمهارة استثنائية - البندقية وهولندا والنمسا وبروسيا والسويد في الوقت عينه[34].

وعلى نحو ما كانت الحال في عواصم أخرى، كان كرم الوفادة أداة سياسية. فكثيرا ما كان العثمانيون يزورون السفراء ويحضرون مآدب السفارات، كما كانوا يحضرون صلوات الكنائس أيضا، وذلك جزئيا للاستماع للموسيقى (في أعياد الميلاد، كان الأتراك يجلبون معهم الزهور هدايا للمسيحيين)[35]. وكان الديبلوماسيون والتجار الأوروبيون يُدعَون إلى بيت الصدر الأعظم والمفتي وغيرهما من كبار المسؤولين، حيث كانوا يناقشون الأمور السياسية والدينية الجارية. وكانوا في بعض الأحيان يخرجون للصيد معا. واحتفظ أحد سفراء البندقية بما أسماه «خانا دائما في بيتي، إذ كنت كثيرا ما أضطر إلى إقامة ثلاث أو أربع موائد في اليوم الواحد»[36].

مع الوقت، أصبحت بيرا أندلسا جديدة، ذلك العالم المفقود للتعايش الثقافي والديني في جنوب إسبانيا، قبل انغلاق العقول إبان القرن الرابع عشر. لكن نظرا إلى أن بيرا كانت مركزا ديبلوماسيا، فإن الجانب الفكري من ثقافتها كان أضعف من ثقافة

الأندلس، بينما كان جانبها السياسي أقوى من ثقافة الأندلس، الأمر الذي يتأكد من أن فرنسا - من خلال سفارتها في إسطنبول - نشرت بين العامين 1480 و1630 كتبا جديدة حول الإمبراطورية العثمانية ونظام حكمها أربعة أضعاف ما نشرته حول العالم الجديد[37]. وفي الأعوام 1548 - 1550، استقبل السفير غابريال دارامون Gabriel d'Aramon خمسة كُتاب في سفارته، هم: بيير جيليه Pierre Gilles وأندريه ثيفيه Andre Thevet وغيوم بوستيل Guillaume Postel ونيكولا دي نيكولاي Nicolas de Nicolay[38] وبيير بيلون Pierre Belon أبو علم الحيوان الفرنسي[39].

فنتيجة لحاجة الإمبراطورية العثمانية إلى السفارات الأجنبية والأقليات غير الإسلامية المعترف بها رسميا، وفرت هذه الإمبراطورية إطارا للتفاعل أكثر استقرارا منه في إمارات جنوب إسبانيا. ولم تكن الحمّامات العامة بالقسطنطينية تخصص أياما مختلفة للمسيحيين واليهود، كما كانت الحال في الأندلس (على الرغم من الجهود التي كانت تبذل لضمان ألا يستخدموا المناشف وشفرات الحلاقة نفسها التي كان المسلمون يستخدمونها). وكان الفصل العرقي في السكن أقل صرامة[40]. وحتى في الأندلس «المتسامحة» متعددة الأديان، وقعت مذابح دينية. وفي أوروبا الغربية، كانت المذابح وعمليات الإعدام بسبب الدين متكررة: في لندن إبان العقد السادس من القرن السادس عشر في عهد ماري الدموية، وفي باريس في مذبحة عيد القديس بارتيليمي في العام 1572(*)، وفي إسبانيا في عروض الإعدام الطقوسية إبان القرن السابع عشر في الساحة الرئيسة بمدريد بحضور الملك والملكة(**).

وفي العام 1526، وبعد سقوط غرناطة في العام 1492، أُكرِه المسلمون في إسبانيـا - على خلاف التعهدات المنصوص عليها في معاهدات الاستسلام - على

(*) مذبحة عيد القديس بارتيليمي مجموعة من الاغتيالات الموجهة تلتها موجة من أعمال العنف من جانب الكاثوليك الرومان ضد الهوغونوت البروتستانت، ثم الحروب الدينية الفرنسية. بدأت في الثالث والعشرين من شهر أغسطس 1572 في عشية عيد القديس بارتيليمي Bartholomew's Eve، ويعتقد أنها حدثت بتحريض من كاثرين دي ميديشي، أمّ الملك شارل التاسع، لوقف انتشار المذهب البروتستانتي في فرنسا. [المترجم].

(**) عروض الإعدام أو الأوتو دافي auto-da-fé طقوس كانت السلطة الإسبانية تحرق فيها المدانين بالهرطقة في ساحة عامة وفي حضور كبار رجال الدين والدولة، وأحيانا الملك نفسه. كان العرض يبدأ عادة من الليلة السابقة على التنفيذ بمواكب «الصليب الأخضر» للإعلان عن الحدث، وكان العرض يدوم يوما كاملا، ويبدأ بقداس كاثوليكي وصلاة ثم العرض العام للمدانين أمام الجمهور، ثم قراءة الأحكام، ثم اقتياد المدانين إلى مكان الحرق وسط تهليل الغوغاء ورجمهم للمدانين ومحاولة اختطافهم من أيدي الجنود، وأخيرا يشد المدان إلى خازوق فوق كومة من الحطب ويحرق حيا وسط أصوات مبتهجة من الغوغاء واستحسان من رجال الدين والدولة. [المترجم].

إعلان اعتناق المسيحية. وفي الأعوام 1609 - 1614، وفي مثال لـ «التطهير الديني» المسعور، تعرض النصارى الجدد من أحفاد المسلمين، الذين بلغ عددهم زهاء ثمانين ألف شخص، للطرد الجماعي، وانتهت الحال بمعظمهم إلى موانئ شمال أفريقيا التي شكلوا فيها جاليات أندلسية متميّزة[41](*). وفي روسيا التي بدأت في غزو الأراضي الإسلامية إبان العقد السادس من القرن السادس عشر في عهد إيفان الرهيب، استخدمت «وكالة شؤون التنصير» في منطقة الفولغا المذابح والتعميد الإجباري وتدمير المساجد لإدخال المسلمين كرها في المسيحية[42]. وفي مقابل ذلك كله، لم تقع أي مذابح للمسيحيين أو اليهود في مدن المشرق بداية من الفتوحات العثمانية وحتى العام 1770، حتى إن نسبة المسيحيين إلى إجمالي السكان ارتفعت من ستة في المائة إبان القرن السادس عشر إلى عشرين في المائة إبان أوائل القرن العشرين. ربما كان من الأسباب الأخرى لهذا التحول السكاني لجوء المسلمين إلى الإجهاض وازدرائهم الإجراءات الوقائية ضد الطاعون[43].

وبعد التخلص من الأقليات الدينية، استمر فرض الوحدة الدينية في معظم البلدان الأوروبية بشدة هستيرية(**). ففي إسبانيا، لم يسمح لليهود بالعبادة بين العامين 1492 و1967. وفي لندن، كان على الكاثوليك أن يمارسوا عباداتهم في كنائس السفارات الأجنبية من العام 1559 حتى تشييد أولى الكنائس الكاثوليكية إبان العقد الخامس من القرن التاسع عشر. وفي باريس، كان البروتستانت ممنوعين من العبادة من العام 1685 إلى العام 1788. ونظريا، بعد العام 1569، منحت فرنسا العثمانيين من كل الأديان امتيازات متبادلة في التجارة والإقامة، ومع ذلك فقد كان على المسلمين أن ينتظروا حتى القرن التاسع عشر لكي يقيموا في باريس ومارسيليا ويتعبدوا فيهما بشيء من الحرية التي كان الفرنسيون يتمتعون بها في المشرق. وقد افتتح أول مسجد في باريس في العام 1926 لأسباب قومية: تكريما للمسلمين الذين

(*) نُشر للمترجم أخيرا كتاب مترجم يتناول حالة المسلمين الذين بقوا في إسبانيا بعد سقوط آخر معاقلهم فيها - غرناطَة - في العام 1492 حتى عملية الطرد الجماعي التي تعرضوا لها في الأعوام 1609-1614 بعنوان «الدين والدم - إبادة شعب الأندلس»، من تأليف ماثيو كار، صادر عن مشروع «كلمة» - هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2013. يرفع هذا الكتاب عدد المسلمين الذين طردوا من إسبانيا إلى ما بين ثلاثمائة وخمسمائة ألف شخص. [المترجم].

(**) كانت الدول الأوروبية في ذلك العصر تعتبر الوحدة الدينية الركيزة الأهم للأمن القومي، ما يجعل الاختلاف الديني في زمنهم مكافئا للخيانة السياسية في زمننا، لذلك كانوا في إسبانيا يعتبرون الأندلسيين - قبل طردهم - طابورا خامسا للإمبراطورية العثمانية، وكذلك نظرت فرنسا إلى البروتستانت، وإنجلترا إلى الكاثوليك. [المترجم].

ماتوا من أجل فرنسا في الحرب العالمية الأولى. وحتى في أمستردام، أكثر المدن حرية إبان القرن السابع عشر، وعلى الرغم من أن المعابد اليهودية شُيّدت فيها بعد العام 1639، كان على الكاثوليك هناك أن يتعبدوا في «كنائس سرية». طوال تلك القرون، تفردت مدن المشرق وحدها باحتضان المساجد والكنائس والمعابد جنبا إلى جنب.

ونتيجة للتعصب الأوروبي، لم يسافر غير بضعة مسلمين عثمانيين إلى أوروبا الغربية، لكن في المقابل وفر وجود الأماكن المقدسة والعصور القديمة الكلاسيكية في المشرق لأبناء أوروبا المسيحية حافزا للسفر إلى الإمبراطورية العثمانية(*). علاوة على أن المسلمين المشرقيين وجدوا أوروبا المسيحية مكانا مرعبا. فلم يكن ثمة مشرق للمسلمين في أوروبا، إذ لم يتوافر هناك نظام لحماية السفارات أو امتيازات أو انكشارية، ولا أماكن عبادة للمسلمين. وكان المسلمون عرضة للأذى أو التجسس أو الاعتداء أو ما هو أسوأ من ذلك[44]. في البندقية وحدها، كان المسلمون يستطيعون أن يعيشوا ويتاجروا في سلام، كما تجلى في تخصيص القصر الذي سمي لاحقا فندق الأتراك Fondaco dei Turchi على القنال الكبير، مسكنا وسوقا ومستودعا لهم في العام 1618[45]. وحتى في البندقية، وعلى الرغم من وجود قاعة للصلاة في الفندق، لم يكن للمسلمين فيها مسجد قط.

بيد أن المشرق لم يتميّز بالجغرافيا والديبلوماسية والامتيازات وحسب، بل باللغة أيضا، أولا باللغة المشتركة lingua franca، أو لسان الفرنجة lisan al-farinji كما تسمى في اللغة العربية(**)، ثم باللغة الفرنسية بعد العام 1850. واللغة المشتركة لغة محايدة نشأت عن الحاجة إلى التواصل، نظرا إلى افتقار الدول الأوروبية أو الإمبراطورية العثمانية إلى المتحدثين الطليقين في لغات الطرف الآخر. وتعد اللغة المشتركة دليلا على شبكات التجارة والديبلوماسية التي ربطت الشواطئ الأوروبية والإسلامية للبحر الأبيض المتوسط، وعلى رغبة المسلمين في التواصل مع

(*)تشير العصور القديمة الكلاسيكية إلى حقبة طويلة من التاريخ الثقافي المتمركز حول البحر الأبيض المتوسط للحضارتين المترابطتين اليونان وروما القديمتين، اللتين تعرفان معا باسم العالم اليوناني - الروماني، وهي فترة ازدهار المجتمعين اليوناني والروماني وتأثيرهما الكبير في أوروبا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط، تبدأ من أول الشعر اليوناني المدون لهوميروس إبان القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، مرورا بظهور المسيحية، حتى انهيار الإمبراطورية الرومانية. [المترجم].

(**) تشير كلمة الفرنجة إلى الأوروبيين الغربيين عموما، وتحديدا إلى الفرنسيين، خصوصا عندما يميّز بينهم وبين بقية الأوروبيين الغربيين. [المترجم].

الأوروبيين، وكانت في الأساس لغة إيطالية مبسطة تخلو من الأزمنة أو النحو أو التمييز بين المذكر والمؤنث، وتضمنت – بناء على الموقع الذي تستخدم فيه - كلمات فرنسية وبروفانسية(*) وقشتالية وتركية وعربية. ربما ترجع أصول هذه اللغة إلى الحاجة إلى التواصل على متن السفن وفي البيوت المملوءة بالبحارة أو العبيد الذين يتحدثون لغات مختلفة[46].

كانت اللغة المشتركة لغة تحدث فقط، وليست لغة مكتوبة، أي لغة للتواصل اليومي المباشر، وليس للأدب أو الكتب المقدسة. وقد قلل الدارسون والكُتاب من انتشار هذه اللغة في المشرق أو تجاهلوه تماما إلى أن ظهر حديثا الكتاب الرائد لجوسلين داخليا Jocelyne Dakhlia. ينقض الاستخدام الواسع لهذه اللغة بداية من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر، فكرة العالمين المتعاديين وفكرة تحول العالم الإسلامي إلى الانغلاق على الذات[47].

بيد أن الرحالة، بخبراتهم المباشرة عن الموانئ والمدن، كانوا أكثر واقعية من الدارسين. فقد كتبوا عن اللغة المشتركة باعتبارها اللغة «المستخدمة في كل أنحاء المشرق» (du Chastelet des Bois, 1665)، «التي يفهمها الناس عموما على شواطئ المشرق جلها» (La Guilletiére, 1675)، و«المستخدمة بين البحارة في البحر الأبيض المتوسط والتجار الذين يذهبون للتجارة في المشرق، ويفهمها الناس في الأمم جميعها» (Abbé Prevost, 1755). من ذلك أن شخصية ثرفانتس في رواية «دون كيخوتة» كانت ملمة باللغة المشتركة من سنوات العبودية التي قضتها في الجزائر، وتصفها بأنها «خليط من كل اللغات التي نستخدمها لكي يفهم الناس جميعا بعضهم بعضا»[48].

من أمثلة هذه اللغة: ?Ti voler per questo التي تعني «هل تريد أن تشتري هذا؟» و?Ti star consul o non star التي تعني «هل أنت قنصل أم لا؟» و Christiani j star furbi التي تعني «المسيحيون مخادعون»، وVen acquig التي تعني «تعال هنا»[49].

كانت اللغة المشتركة منتشرة بين أمراء البحر والسفراء في القسطنطينية، وكذلك التجار في سميرنا والبحارة في الإسكندرية، والحكام في تونس والجزائر، والعبيد

(*) نسبة إلى ولاية بروفانس الفرنسية. [المترجم].

وملاكهم. ويقال إن الانكشارية كانوا «بوجه عام يفهمون ما يسمى اللغة المشتركة». وقد استخدمها موليير في مسرحية «البرجوازي النبيل» في العام 1669. وعرف روسو بعضا من كلماتها، وكان له أقارب من صناع الساعات في بيرا. وتعلم بيرون ما أسماه «اللغة الإيطالية المشرقية» إضافة إلى الإيطالية نفسها، حين قضى الشتاء 1809 - 1810 في أثينا[50].

من خلال التجارة والديبلوماسية، كانت الإمبراطورية العثمانية جزءا من النظام الديبلوماسي الأوروبي. كما أسهمت الإمبراطورية العثمانية، أكثر من أي إمبراطورية إسلامية أخرى، في تيسير السفر والترحال، ما جعل المشرق مفتوحا ومتاحا أكثر من دول مسيحية كثيرة. وكما كانت الحال مع الامتيازات، اعتمد السفر والترحال في المشرق على السفارات. فإذا اشترت سفارة لمسافر ترخيص السفر المعروف باسم يول أميري yol emri، أي فرمانا إمبراطوريا تتصدره طغراء السلطان الحاكم، فقد كان باستطاعة هذا المسافر أن يتنقل خلال الإمبراطورية ويدخل المساجد بسهولة. وحين كان المسافر يخرج الوثيقة لأي مسؤول، كان الأخير يمس بها على شفتيه وجبهته تعبيرا عن الولاء والإذعان.

تغيرت الرسائل المتضمنة في وثائق السفر على مر القرون. جاء في رسالة صادرة في العام 1631: «تقضي رغبتنا العلية بأن يحظى (هؤلاء المسافرون) بالاحترام والاستقبال الجيد»[51]. وطلب فرمان مُنِح لقنصل بريطاني في العام 1800 من المسؤولين السماح لضابطين بريطانيين بأن «يتنقلا بحفاوة مع مرافق لأغراض معروفة، وأن تقدم لهما في رحلتهما احتياجات السفر، وأن تراعى معهما عادات الكرم»[52].

وفي حال كانت أخلاق المسافر طيبة وهداياه مقبولة ولا توجد حرب، فإن المسؤولين العثمانيين في المشرق كانوا عموما منفتحين ومضيافين. ففي بيروت في أوائل القرن التاسع عشر، وجد وليام تيرنر William Turner «الأغا متمدنا ولطيفا لأبعد الحدود، وألح علي إن كانت لي حاجة في أي شيء في مقدوره أن أطلبه منه فورا»[53]. وفي العام 1812، كتب بيرون (وهو أحد المحبين للإسلام، كتب قصائد حول موضوعات تركية أكثر مما كتب حول موضوعات يونانية) النصيحة التالية إلى صديقه وليام بانكس William Bankes الذي كان قد بدأ ترحاله: «تأكد من الحصول على فرمانات، ولا تسمح لأحد بأن يبتزك أو يخيفك، فأنت في تركيا تلقى

حماية أكثر من أي مكان آخر، ولا تثق باليونانيين، وخذ بعض الأشياء البسيطة كهدايا، مثل الساعات والمسدسات وغيرها لتقديمها إلى البايات والباشوات... وسوف تجد حشودا من الإنجليز في المشرق»[54].

كان المشرق منفحتا أمام الجميع وساحرا لهم، ولذلك جاء عدد روايات المسافرين المذكورة في هذا الكتاب كبيرا. ولذلك أيضا كان المشرق معروفا للأوروبيين أفضل من الكثير من البلدان الأقرب إلى أوطانهم. ففي لندن وباريس نُشرت صور لمعابد بعلبك الواقعة على مسافة بضعة أيام سفر من بيروت في وقت أسبق على نشر صور أطلال قصر دقلديانوس Diocletian's palace الواقعة في مدينة سبليت Split على ساحل دلماسيا(*). وحتى مدينة تَدْمُر الواقعة في وسط بادية الشام أُعيد اكتشافها(**) (في العام 1691 على يد تاجر إنجليزي في حلب يدعى وليام هاليفاكس William Halifax) وسُجلت في صور في وقت أسبق على مدينة باستوم Paestum الواقعة في جنوب نابولي[55]. وكانت مدينة سميرنا المعروفة باسم «لؤلؤة المشرق»، وجهة مفضلة للمسافرين العازمين على زيارة أطلال إفسوس(***).

(*) دلماسيا Dalmatia إحدى المناطق التاريخية الأربع التي تشكل كرواتيا الحالية، إلى جانب كرواتيا نفسها وسلافونيا وإيستريا، وهي عبارة عن شريط ساحلي يمتد في شرق البحر الأدرياتيكي. [المترجم].

(**) كانت تَدْمُر عاصمة مملكة قوية بالاسم نفسه تقع على طريق تجارة القوافل في بادية الشام، ازدهرت إبان أوائل القرن الثاني قبل الميلاد، وكانت قوية إلى درجة مكّنتها من هزيمة الإمبراطورية الساسانية في العام 261. تُعرَف المدينة حاليا باسم عروس الصحراء وتتبع محافظة حمص السورية. [المترجم].

(***) إفسوس أو إفسس Ephesus مدينة يونانية قديمة، ولاحقا مدينة رومانية كبرى على ساحل أيونية، كانت إحدى المدن الاثنتي عشرة ضمن الحلف الأيوني إبان العصر اليوناني الكلاسيكي، توجد حاليا ضمن الأناضول الغربي التركي، ارتبط اسمها في العصر المسيحي بمجامع إفسوس المسكونية في الأعوام 431 و449 و575. [المترجم].

2

سميرنا
عين آسيا

إن مـوانـئ المـــشرق - كما تعلم - هي الأغنى والأكثر سكانا! خصوصا سميرنا وفيرة الثراء.

القيصر ألكسندر الأول للجنرال كومت دي كولونكور Comte de Caulaincourt، سفير نابليون الأول، في الثاني عشر من مارس 1808.

تلتقي آسيا وأوروبا في إزمير التي تقع على نهاية خليج طويل على الساحل الغربي للأناضول، وهناك يتوغل البحر الأبيض المتوسط عميقا في الطرف الغربي لآسيا. وإلى جانب الموقع، تتمتع إزمير بميزة كونها مرسى طبيعيا. فخليج إزمير الذي تصب فيه ستة أنهار، واسع وعميق إلى درجة تمكن أكبر السفن- حتى يومنا- من الإبحار بالقرب من الشاطئ[1]. ومثلما قَدَّرت

«أطلق الرحالة على سميرنا اسم «لؤلؤة المشرق»، لكنها كانت في الحقيقة أيضا مدينة الزلازل والطاعون والحرائق والمذابح – التي كانت متكررة جدا..»

الطبيعة للقسطنطينية أن تكون عاصمة لإمبراطورية عظيمة[2]، قَدَّرت لسميرنا، وهو الاسم الذي كانت إزمير تُعرَف به حتى العام 1922، أن تكون ميناء عظيما.

كانت سميرنا واحدة من أكثر المدن اليونانية تألقا في الأناضول, ومهد الرياضيات، و- كما يُعتقَد - مسقط رأس هوميروس. ونظرا إلى كونها المدينة الأكبر والأكثر تَرَوّما بين مدن آسيا الصغرى(*)، فقد أُطلِق عليها في عهد الإمبراطورية الرومانية اسم «بهجة آسيا وزينة الإمبراطورية»[3]. كانت المدينة أيضا مقرا لإحدى أقدم الكنائس، وهي كنيسة أسسها القديس بولس بنفسه في أثناء زيارته للمدينة في الأعـوام 53-56. تعرضت المدينة لاحقا للنهب والتخريب، إذ تعرضت لهجمات متوالية من جانب الأتراك السلاجقة (1082) والجنويين (1261) وفرسان القديس يوحنا (1344) وتيمور لنك (1402) والبندقية (1472). ومنذ العام 1425، أصبحت سميرنا جزءا من الإمبراطورية العثمانية (الاسم التركي إزمير مشتق من المقابل اليوناني eis teen Smyrna ومعناه «إلى سميرنا»، تماما كما اشْتُق الاسم إسطنبول من المقابل اليوناني eis teen polis ومعناه «إلى البوليس أي المدينة»). لم تكن سميرنا حينذاك غير سوق صغيرة تخدم المنطقة المحيطة. وفي العام 1580، ضمت المدينة زهاء ألفي ساكن. وتركزت البنايات الرئيسة فيها بين الأطلال الكلاسيكية، أسفل الحصن الضخم الواقع على قمة التل والمعروف باسم كاديفيكالي Kadefekale أو قلعة فيلفيت Velvet Castle، التي أُنشئت في العصر الهيليني وأعاد البيزنطيون بناءها ثم الجنويون ثم البنادقة، وتركزت البنايات حول حصن أصغر بجانب البحر شيّده محمد الثاني فاتح القسطنطينية. كان الميناء الرئيس في المنطقة يقع على جزيرة خيوس Chios على بعد ستة أميال من الساحل الأناضولي[4].

بعد العام 1600 شهدت سميرنا عصرا ذهبيا ثانيا. كانت الموانئ الأخرى تتلقى العون من حكوماتها. كما فعل أدواق توسكانا في العام 1591، حين أعلنوا ليفورنو Livorno ميناء حرا مفتوحا أمام اليهود والمسلمين. كما تعهدت الحكومة الفرنسية في العام 1661 لميناء مارسيليا، بإعطائه احتكار تجارة المشرق الفرنسية[5]. أما سميرنا، فكانت ميناء صنعه التجار. وكانت المدينة بداية من العام 1600، أكثر حرية

(*) التروّم بمعنى تبني الطابع والثقافة الرومانيين. [المترجم].

وكوزموبوليتانية من منطقتها الداخلية، وكانت قادرة على تحدي أوامر السلطان والقيود الاقتصادية والدينية للإمبراطورية[6].

نتج إحياء الميناء عن رغبة التجار في الإفلات من الاقتصاد الموجه للحكومة العثمانية والرسوم الجمركية وقيود الأسعار. ومنذ العام 1574، وهو وقت مبكر جدا، كانت القسطنطينية تعاني نقصا؛ لأن السفن العثمانية القادمة بالمؤن من مصر إلى العاصمة كانت تفرغ حمولاتها في سميرنا التي كانت تحصل فيها على أسعار أفضل من الأسعار المخفضة اصطناعيا من جانب الحكومة الإمبراطورية، التي كانت تُفرَض في أنحاء الإمبراطورية جميعها في محطات التقدير الرسمية[7].

ومع نهاية القرن السادس عشر، كان الأسطول العثماني قد فقد الصدارة نتيجة للإهمال الذي تعرض له في أثناء حروب الإمبراطورية المطولة والمتزامنة ضد الممالك الهابسبرغية وبلاد فارس، حتى قيل إن الله أعطى البر للمسلمين والبحر للكفار[8]، وخشي البعض من أنه «لن يمضي وقت طويل» قبل أن يستخدم الأوروبيون سيطرتهم على أعالي البحار «لحكم الأراضي الإسلامية»[9]. وقد ابتُلي بحر إيجة بسيل من القراصنة الإنجليز والمالطيين والبربر والدلماسيين، كانوا ينطلقون من قواعدهم على جزر باروس Paros أو ديلوس Delos لأسر السفن والبشر، وفي الأغلب بدعم من المسيحيين المحليين. وقد تباهى سفير إنجليزي بأن السفن الإنجليزية كان في مقدورها أن «تغير على التجارة على السواحل والجزر التركية... وتستولي على سفن سورية والإسكندرية متى تشاء». فلا أحد ولا شيء في مأمن منها[10].

استغلت السفن الأجنبية والعثمانية حالة الفوضى للوصول خلسة بالقرب من سميرنا لشراء منتجات محلية مثل الحبوب والزبيب والتين. كانت الحكومة الإمبراطورية نظريا تحظر تصدير الحبوب بغرض توفير غذاء رخيص لرعاياها، لكن طلبات السوق في أوروبا، خصوصا في سنوات المجاعة، كانت تتغلب على مراسيم الباب العالي[11]. فقد ساعدت السوق، فضلا عن انتشار قطع الطرق في الأناضول، المدينة في التخفف من السيطرة الحكومية. من ذلك أن الباب العالي اشتكى في العام 1593 من أن العنب الأسود الإزميري لم يكن يتوافر «فورا» للقصر؛ ذلك لأن السكان المحليين - بمن في ذلك المسلمون- كانوا يحصدونه ويصنعون منه نبيذا لاستهلاكهم[12].

كانت خيوس حتى ذلك الوقت الميناء الرئيس في المنطقة، إذ كانت تقع في ملتقى الطرق البحرية بين القسطنطينية والإسكندرية وغرب البحر الأبيض المتوسط، وكانت مقر القناصل البنادقة والفرنسيين والإنجليز، وكانت الميناء الأكثر كوزموبوليتانية على جزر بحر إيجة. وقد أعطتها الثلاثة قرون ونصف القرن من الحكم الجنوي بعد العام 1202 شبكات اتصال عبر البحر الأبيض المتوسط، فضلا عن استقلال الروح. وعلى رغم أن خيوس كانت تدفع جزية للإمبراطورية العثمانية منذ العام 1528، فإنها لم تخضع للحكم العثماني المباشر إلا في العام 1566، بحجة أن بعض الخيوسيين ساعدوا فرسان مالطا في أثناء الحصار العثماني لجزيرتهم[13](*). ومع ذلك، فقد ظل الخيوسيون «يلبسون ويعيشون على طريقة الجنويين»، وتمتعوا بدرجة كبيرة من الحرية تشي بأن جزيرتهم لم تكن جزءا من الإمبراطورية[14].

وفي العام 1610 وجد جورج سانديز أن سكان المدينة «في حالة من إطلاق العنان لعبوديتهم، وفي غفلة من العقل... لا يفوّتون يوم أحد أو عطلة من دون فسحة عامة يختلطون فيها بالنساء ويرقصون طوال اليوم، وتطيل الكؤوس المترعة بهجتهم... وتتسرب موسيقاهم إلى الشوارع طوال الليل[15]. وأثنى رحالة آخرون على جمال نساء خيوس وفجورهن ونظافتهن (وفي المقابل، وُصِفت نساء جزيرة ليسبوس Lesbos بأنهن «أقبح مومسات رأيتهن، لا يفوقهن في ذلك إلا المومسات الأرمنيات في القسطنطينية»)[16]. وكانت البيوت الحجرية في المدينة الأروع بين نظيراتها في المشرق. وحوى الميناء مرفأ صخريا ممتازا كانت السفن الأجنبية ترسو فيه[17]. و«مناخ سيو مبهج(**)، وهواؤها أنفع للصحة من هواء أي جزيرة أخرى في المشرق» كما كتب الرحالة الإنجليزي توماس ماكغيل Thomas MacGill[18].

كان حرير خيوس يباع في أنحاء المشرق كافة، وكان نبيذها («السائغ والشهي») ممتازا، وكانت ليمون الجزيرة الأجود في المشرق، لكن منتجها المميز الذي تخصصت فيه- ولاتزال- كان المصطكاء، أو العلكة التي تصنع من صمغ شجيرات خضراء صغيرة تنمو على التلال الجنوبية بالجزيرة. ضم السلطان منطقة الشجيرات لممتلكاته،

(*) الخيوسيون نسبة إلى جزيرة خيوس. [المترجم].

(**) سيو Scio هو الاسم الإيطالي لجزيرة خيوس، علما بأن الإيطالية كانت اللغة الدولية للبحر الأبيض المتوسط إلى أن حلت الفرنسية محلها في نحو العقد الخامس من القرن التاسع عشر. [المترجم].

وأخذت تنتج أربعة أنواع مختلفة من العلكة، كان أفضلها يحجز للسيدات بالحريم السلطاني[19]. تعايشت الجماعات المختلفة على الجزيرة في وئام. وكان كثير من العشرة آلاف مسلم يتحدثون اللغة اليونانية، وبعض من المائة ألف يوناني يلبسون العمائم، وكان مسموحا لهم - كما هي الحال على جزر بحر إيجة الأخرى- بأن يدقوا أجراس كنائسهم. وضمت الجزيرة ثلاثة آلاف كاثوليكي أيضا. لكنها مع ذلك ظلت عرضة للهجوم، من ذلك أن دوق توسكانا الأكبر حاول الاستيلاء عليها في العام 1599. ولذلك انتقلت التجارة إلى سميرنا[20].

في الأعوام 1592-1598 شُيّدت على البحر أول بناية كبيرة في سميرنا الحديثة، وهي جامع حصار Hisar Cami أو جامع القلعة (الذي يشكل حاليا جزءا من السوق). يمكن تحديد السنة التي حلت فيها سميرنا محل خيوس ميناءً رئيسا للمنطقة من خلال سجلات الجمارك العثمانية التي راجعها دانيال غوفمان Daniel Goffman. ففي العامين 1604 و1605، فاقت العائدات الجمركية من خيوس نظيراتها من سميرنا بواقع مليون وأربعة وستين ألفا وخمس وعشرين أقجة، في مقابل تسعمائة وواحد وثمانين ألفا وثمانمائة وأربع وخمسين أقجة(*)، بينما في العامين التاليين تفوقت العائدات الجمركية من سميرنا على عائدات خيوس بواقع مليون وثلاثمائة واثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثلاث وثلاثين أقجة، في مقابل ستمائة ألف ومائة واثنتين وتسعين أقجة[21]. وفي العام 1610 كتب جورج سانديز- بالإجحاف الذي ميّز ذلك العصر- أن «جمال سميرنا تحول إلى تشوه، ومعرفتها إلى بربرية، ودينها إلى كفر». لكنه على رغم ذلك، وجد أن التجار الأجانب والمحليين يرتادون المدينة. وقد استقر السكان المحليون هناك جزئيا للهرب من ثورات أوائل القرن السابع عشر الأناضولية الكبرى بقيادة قطاع الطرق والفلاحين (وربما كان لهذه الثورات نَفَس شيعي)، التي بلغت قوتها أحيانا حد تهديد القسطنطينية نفسها.

بل إن الثوار هاجموا سميرنا هي الأخرى، لكن دافعت عنها «سفن إنجليزية كانت تكمن في الطريق»، إذ بحلول العام 1595، وفي غضون ثلاثة عشر عاما من تأسيس العلاقات الديبلوماسية مع الإمبراطورية العثمانية، كانت السفن الإنجليزية

(*) الأقجة akce هو اسم العملة العثمانية التي بدأ سكها في العام 1327، كانت تحمل على أحد وجهيها شهادة الإسلام، وعلى الوجه الآخر اسم الأمير، كنوع من الدعاء له بدوام الملك. [المترجم].

تتمركز في طرق الشحن البحري بالمشرق. كانت السلعة الرئيسة لسميرنا هي القطن الطبي الذي كان ينمو فيها بوفرة» (لاتزال إزمير اليوم تحيطها حقول القطن، مع أن المنافسة الأجنبية وتكلفة العمالة التركية تجعلانها غير مربحة على نحو متزايد)[22].

كان التين الغض والوفير أحد المنتجات الأخرى لسميرنا. كان هذا التين الذي ينضج في وديان الأناضول المشمسة - ولايزال - يُجفَّف ويُعلَّب ويُصدَّر إلى القسطنطينية وأوروبا. ولاحقا قال أحد الرحالة إن «بَلِيّة طائفة التجار في سميرنا» هي أنهم لا يتحدثون عن شيء غير التين[23]. وفي شهري أغسطس وسبتمبر من كل عام كانت أصوات «الدق الرهيبة» للرجال الذين يصنعون البراميل لنقل التين المجفف لا يعلو عليها صوت آخر في المدينة. فإذا كانت هناك مدن أخرى قد بُنيت على القماش أو الحرير، فإن سميرنا بُنيت على التين[24].

أسهمت الدبلوماسية الأوروبية، فضلا عن قوى السوق، في صعود سميرنا. ففي العام 1610، أمرت الحكومة الإمبراطورية مفتش السوق بالمدينة بتفتيش حمولة السفن الفرنسية بحثا عن سلع ممنوعة من نوع شمع العسل والبنادق. فردّ الفرنسيون على ذلك بشهادات إنتاج مزيفة أو مشتراة من القسطنطينية. وكان على السلطات العثمانية أن تلتزم الحذر في أثناء عمليات التفتيش، وذلك بسبب الأوامر الصادرة لهم بعدم «إيذاء الفرنسيين أو تهديدهم أو اعتقالهم»، إذ جُدّدت الامتيازات الفرنسية ومُدّدت في العام 1604، وكانت الإمبراطورية العثمانية لاتزال في حاجة إلى فرنسا حليفا لها ضد ملك إسبانيا والإمبراطور الروماني المقدس[25].

أكد وصول القناصل روابط سميرنا الوثيقة مع أوروبا. فبحلول العام 1612، كان قنصل البندقية ونائب القنصل الهولندي قد وصلا إلى المدينة، وفي العام 1619، نُقل القنصل الفرنسي في خيوس إلى سميرنا[26]. كان هذا المبعوث الفرنسي القنصل الأهم في الإمبراطورية، إذ غطت سلطته الأناضول وكثيرا من جزر بحر إيجة التي كان يعين نواب القنصل فيها[27]. ساعد قنصل البندقية الرهبان الفرنسيسكان في استعادة كنيسة يونانية باستئجارها في العام 1597. وفي أوج الحركة المضادة للإصلاح(*)،

(*) يشير الإصلاح المضاد أو الحركة المضادة للإصلاح Counter-Reformation إلى فترة الإحياء الكاثوليكي التي بدأت بمجمع ترنت (1545-1563) وانتهت بحرب الثلاثين عاما (1648)، وقد ظهرت كرد فعل على الإصلاح البروتستانتي. [المترجم].

كانت الكنيسة الكاثوليكية تعمل بقوة على غزو المسيحيين الآخرين وضمهم إلى حظيرتها. وفي ظل المنافسة بين فرنسا والبندقية على مكانة حامي الكاثوليك في الإمبراطورية العثمانية، ساعد ملك فرنسا لويس الثالث عشر الجزويت والكابوشيين في الانتقال إلى المشرق. فبُنيت كنيسة للجزويت في العام 1623، وشيّد الرهبان الكابوشيون مصلى للقنصل الفرنسي في العام 1628. وبدأت الطائفتان في الوقت نفسه ممارسة التعليم والتبشير لمذهبيهما عبر أنحاء المشرق كافة، خصوصا في بيروت والمنطقة المسيحية شبه المستقلة الواقعة شرقي بيروت التي تسمى جبل لبنان[28].

كانت قيادة التجارة الدولية في سميرنا منذ البداية في أيدي التجار الفرنسيين والهولنديين والإنجليز، فيما أُقصي المسلمون بسبب الصعوبة التي واجهوها في التجارة في الموانئ الأوروبية. من ذلك أن لويس دييه دي كورمنين Louis Deshayes de Courmenin لاحظ وهو في طريقه إلى أورشليم في العام 1621 أنه في حين كان الأتراك واليونانيون واليهود يقيمون في الداخل(*)، اصطفت مساكن التجار الأجانب على شاطئ البحر وعاش أصحابها «في حرية وافرة»[29].

إلى جانب التجارة، ساعدت آثار العصور القديمة في ربط سميرنا بأوروبا. في الإمبراطورية العثمانية، كانت رؤية المسلمين للتاريخ تسترشد بالقرآن وشخصيات مثل النبي محمد وصحابته وخلفائه، وكذلك الفخر بالعائلة العثمانية، بينما كان للمسيحيين ماضيان، إذ استرشدوا بتعاليم السيد المسيح والحواريين وأنبياء العهد القديم، وكذلك باليونانيين واللاتينيين الوثنيين، من أمثال هوميروس وأرسطو وتاسيتس وغيرهم. وتوضح الخرائط مدى ارتباط الأوروبيين بالماضي الكلاسيكي، إذ كان بعضها يفضل الأسماء اليونانية أو اللاتينية القديمة للمدن على أسمائها الحديثة[30]. وكان من السهل على الأوروبيين، بمرافقة انكشارية قناصلهم، أن يذهبوا من سميرنا لزيارة أطلال إفسوس أو لشراء العملات المعدنية والأوسمة اليونانية والرومانية والمجوهرات المرصعة من السوق[31].

(*) تستخدم أسماء المدن، ومنها الأسماء المختلفة للقدس، وفقا لأسمائها في المراحل التاريخية التي يغطيها الكتاب، وكذلك وفقا للجماعة التي تستخدم هذا الاسم أو ذلك. ولا ينطوي عدم استخدام الاسم العربي الحالي أو القديم للمدينة - بيت المقدس والقدس - على أي مغزى سياسي، تماما مثل استخدام اسم «بلاد ما بين النهرين» لفترة ما قبل استخدام اسم «العراق». [المترجم].

من ذلك أن السفير الإنجليزي في القسطنطينية سير توماس رو نظّم في العام 1625 بعثات إلى سميرنا وإفسوس والمدن والجزر المحيطة بإذن من السلطات العثمانية للبحث عن «المرمر المخفي في باطن الأرض» نيابة عن دوق بكنغهام وإيرل أروندل Duke of Buckingham and the Earl of Arundel. وعلى ذلك فإن المجموعات الرئيسة الأولى من آثار العصور القديمة الكلاسيكية بالجزر البريطانية قد تشكلت إبان حكم الإمبراطورية العثمانية. وفي العام 1628، ذهب رو إلى سميرنا بنفسه وهو في طريقه مغادرا الإمبراطورية العثمانية للإشراف على «جمع وشحن» المرمر على السفن المتجهة إلى إنجلترا[32].

وفي المدن الأخرى، مثل القسطنطينية وحلب، عملت السلطات العثمانية، بغرض تأكيد السيادة العثمانية، على تشييد مساجد ذات قباب ومآذن عثمانية مميزة لكي تهيمن على الأفق. أما سميرنا، فكان مظهرها العام تجاريا أكثر منه دينيا. فكان الامتداد الواسع للخليج المحاط بجبال تكسوها الغابات، يكتظ بسفن ذات أشرعة بيضاء أكثر علوا من أعلى بنايات المدينة، فضلا عن المئات من «مراكب التهريب الصغيرة». أما المدينة المحاطة ببساتين البرتقال والليمون والتوت وحقول الخضراوات ومزارع الكرم، فقد بُنيت على أرض منخفضة ومنبسطة، كأنها ارتفعت من فورها من البحر[33]. وداخل أسوار المدينة، كانت البيوت المبنية من الخشب والأسيجة الخضراء والطابوق غير المنتظم ترتفع كلما ابتعدت عن الشاطئ إلى أعلى التل حتى القلعة الضخمة المتربعة على القمة، مرورا برقع من الأرض تغطيها خضرة داكنة، يعلن فيها الشاش القبرصي الأسود وجود جبّانة للمسلمين. كانت البيوت متماثلة تماما، حتى كانت المدينة تبدو للناظر من القلعة كأنها سقف واحد باللون البني الفاتح[34].

شُيِّد حصن جديد ليؤكد ازدهار سميرنا المتزايد وتنامي اهتمام الحكومة العثمانية بها. ففي الثامن والعشرين من سبتمبر 1644، استولت قوادس مالطية على أسطول عثماني كان في طريقه من القسطنطينية إلى مصر(*)، وقتلت كبير الخصيان السود المقرب من السلطان وأخذت الحجاج الذين كانوا على متن السفن عبيدا، ثم أبحرت إلى جزيرة كريت وباعت غنائمها. أطلق هؤلاء القراصنة بذلك حربا على كريت بين البندقية والإمبراطورية العثمانية. وإبان العقد السادس من

(*) القادس، والجمع قوادس، سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف كانت تستخدم في الأساطيل الحربية. [المترجم].

القرن السابع عشر، استولى أسطول البندقية على جزيرتي ليمنوس وساموثريس Samothrace، وهددوا القسطنطينية نفسها. ولذلك، شيّد الصدر الأعظم محمد كوبرولو Mehmed Koprulu في العامين 1656 و1657 حصنا يحرسه مدفع كبير تسع فوهته إنسانا كاملا، على مدخل خليج سميرنا، لردع السفن البندقية المهاجمة والتجار الذين يتهربون من الجمارك العثمانية بإجبارهم على أخذ حمولاتهم إلى الميناء. كانت حامية الحصن تتكون من مائتي رجل يتقاضون رواتبهم من العائدات الجمركية لسميرنا. وكان على السفن المغادرة أن تتوقف لتقديم شهادة تثبت أنها دفعت الضرائب وتسلمت تخليصا جمركيا[35].

كان أوليا جلبي Evliya Celebi واحدا من أعظم الكتاب العثمانيين، والوحيد بينهم الذي نذر نفسه للسفر والترحال. ويعد كتابه في الرحلات مصدرا أساسيا حول الإمبراطورية العثمانية. ولد جلبي في القسطنطينية في العام 1610، وأمره هاتف في المنام بأن ينذر نفسه للترحال. وأوليا الرفيق الحميم للسلطان مراد الرابع وابن كبير صاغته، كان يستطيع أن يتلو القرآن كاملا في ثماني ساعات(*). وكان يحتقر «الفرنجة [الأوروبيين الغربيين] المخادعين» واليهود والأرمن «الغادرين»، ودعا الله أن يديم الإمبراطورية العثمانية إلى الأبد. لكنه مع ذلك، انتقد استخدام العثمانيين للتعذيب والإصرار الستاليني من جانب السلطان في أثناء الثورات على حصة الرؤوس وفرضها على حكام الأقاليم(**). علاوة على أن جلبي تمتع بعقل متسائل وحاول أن يخضع بعض بياناته لتدقيق المؤرخ[36]. كان أوليا واعيا لماضي سميرنا غير الإسلامي، واعتقد أن الإسكندر الأكبر هو الذي أنشأ المدينة، وعرف أن الفرنجة كانوا ينقبون عن كنوز دفينة فيها. وعلق على إحدى القلاع قائلا: «إنها ليست من بقايا الكفار»، وكأن غيرها من بقاياهم.

زار أوليا جلبي سميرنا في العام 1671 في عامه الستين من العمر. وفي «كتاب السياحة» Seyahatname الذي ألفه برعاية ملك أحمد باشا Melek Ahmed Pasha، كتب أن المدينة تتحمل التزاما ضريبيا قدره مائتا ألف قطعة ذهبية. كانت تقوم على

(*) شغل أوليا جلبي وظيفة المصاحب musahib في القصر الإمبراطوري، وهو شخص يختار من بين أرباب العلم والفن لتسلية السلطان بحسن الحديث. [المترجم].

(**) الستاليني نسبة إلى ستالين الزعيم السوفييتي. [المترجم].

تنفيذ أوامر السلطان كتائب من نخبة الانكشارية والبستانجية التابعة للسلطان وسلاح الفرسان المحلي بقيادة آمري القلعتين(*). أما كبار المسؤولين بالمدينة فشملوا القاضي الذي يقوم على تطبيق الشريعة الإسلامية، وأمين الجمرك gumruk emini، والمتسلم الذي يتولى الشؤون المدنية(**)، وكان مقرهم في مانيسا Manisa الواقعة على بعد مائة ميل إلى الشمال الشرقي، إذ لم تكن سميرنا عاصمة الولاية[37].

وصف أوليا جلبي سميرنا مادحا بأنها الميناء الأكثر شهرة في الإمبراطورية، بفضل عدد السفن التي تُحمَّل وتُفرَّغ فيها، على رغم أنه لم يستسغ الضوضاء الناتجة من إطلاق نيران المدفع مع وصول كل سفينة جديدة. وحين كانت تأتي سفن أجنبية من مارسيليا أو أمستردام أو لندن، كانت آلاف المراكب الصغيرة تندفع نحوها على أمل قطع الطريق على السماسرة وتبادل الحرير والوبر المحليين أو العنب والخوخ الطازجين في مقابل القماش والقصدير وأدوات منزلية مثل المرايا والأطباق والإبر والسكاكين[38]. كان الأحمر هو اللون الأكثر رواجا، وقد أتت سفينة من مارسيليا باثنين وعشرين ألف قبعة قماشية حمراء[39]. وأحصى أوليا جلبي اثنين وثمانين خانا «تشبه القلاع»(***)، وأعجبه ثراء تجار المدينة، المسلمين وغير المسلمين على حد سواء. كانت ثلاثة آلاف وستمائة دكان تدفع الضرائب مرة في الأسبوع لمفتش السوق وللشرطة الانكشارية المعروفة باسم «العصي الست» the six sticks. وإضافة إلى ذلك، ضمت المدينة أربعين مقهى وسبعين مصنع صابون ومائتي حانة كحول وعشرين حانة بوظة تبيع ذلك المشروب الكحولي الوطني المخمر الذي يصنع من

(*) على خلاف الاسم «بستانجي» الذي يعني البستاني أو الجنائني (بستان زائد لاحقة اسم الفاعل في اللغة التركية «جي»، كما في الكلمات العربية العامية الكثيرة المشتقة على الطريقة التركية)، كان البستانجية من قوات الحرس الإمبراطوري، مسؤولين تحديدا عن تأمين قصر السلطان والبنايات التابعة له، وكان كبيرهم يدعى «البستانجي باشي» ويحمل رتبة باشا، وربما جاء الاسم من انتشارهم في حدائق القصر الإمبراطوري، أو لأنهم كانوا يبدأون حياتهم المهنية بستانية في القصر. [المترجم].

(**) المتسلم mutesellim، لقب لرجال الدولة في الإمبراطورية العثمانية ينطبق على كثير من المناصب على هرم السلطة العثماني بناء على السياق، وينصرف بالدرجة الأولى إلى الحكام المدنيين للمدن الذين كانوا مسؤولين عن جمع الضرائب والحفاظ على النظام والأمن. ألغي هذا المنصب في العام 1842، وجبى الحكام العسكريون الضرائب لفترة قصيرة، إلى أن أوجد قانون الولايات الجديد منصب المتصرف mutasarrif. [المترجم].

(***) الخان مجمع سكني عام، كان بمنزلة فندق للتجار الأجانب، وكان يضم إلى جانب نُزل الإقامة في الأدوار العليا مستودعات ومخازن للبضائع وأفنية لحيوانات الحمل في الطوابق الأرضية. كانت تبنيها الدولة أو أهل الخير كأوقاف خيرية، ومنها ما كان يسع حتى ثلاثة آلاف مسافر ببضاعتهم وحيواناتهم مثل خان السلطانة الجدة بإسطنبول. تطورت الخانات لاحقا إلى مناطق صناعية وحوانيت للبيع لأصحاب الحرف المختلفة مثل خان صناع الجوارب في إسطنبول والخان القاهري الأشهر «خان الخليلي». [المترجم].

الحنطة(*). ذلك أن تحريم شرب الكحول كان ضربا من الخيال بالنسبة إلى كثيرين من المسلمين في المشرق[40].

بينما تذمر أوليا من أن سميرنا تشبه محيطا من البشر. فقد كانت شوارعها مزدحمة جدا إلى درجة أن الناس يحتكون بعضهم ببعض ولا مجال لأن تمشي مرتاحا. وقد وافقه على ذلك ألكسندر دروموند Alexander Drummond الذي زار المدينة بعد مائة عام. فسميرنا «لم تكن جميلة على الإطلاق، فشوارعها ضيقة جدا حتى أنها تستحق اسم أزقة، وقذرة طوال الوقت مثل أوجار الكلاب، ومزدحمة جدا في المكان الذي توجد فيه الأعمال التجارية للفرنجة، حتى إن المرء لا يستطيع أن يمر خلالها إلا بشق الأنفس». وكانت الشوارع تنحرف وتغير اتجاهها من بيت إلى آخر. وفي السوق كانت تصطف على جانبي الشوارع أكشاك خشبية ينادي أصحابها بأسعار الكرنب أو البطيخ. وكانت البعير والبغال وسائل النقل الرئيسة. وكان الناس يضطرون إلى أن ينتحوا جانبا في الأزقة للسماح للبعير بالمرور أو الاستناخة لتنزيل الأحمال[41]. وحتى الشارع الرئيس بحي الفرنجة المسمى شارع الفرنجة، الموازي للساحل، كان «قذرا وضيقا ورديء الرصف»، وتجري في منتصفه قناة للصرف[42]. كانت الكومبة cumba أو الشرفة البارزة التي تُبنى طلبا للضوء ومشاهدة حياة الشارع، إحدى الخصائص الأساسية للبيوت في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كافة، من دمشق إلى سراييفو[43]. وفي سميرنا كانت بعض الكومبات تبرز إلى درجة أنها تكاد تلامس نظيراتها على الجانب المقابل من الشارع وتمنع الضوء من الاختراق إلى الشارع[44]. ولم تكن هناك شوارع أو ميادين كبيرة.

ثمة تأكيد آخر على الأهمية الدولية لسميرنا، جاء في أثناء الصدارة العظمى لفاضل أحمد كوبرولو Fazil Ahmed Koprulu. ربما صدمت الصدر الأعظم صعوبة اتخاذ سميرنا قاعدة عثمانية في أثناء الحرب لانتزاع جزيرة كريت من البندقية. فعادت الإمبراطورية إلى أعمال التشييد والبناء. وفي العام 1676، بنى الصدر الأعظم خان الوزير Vizier Han بالقرب من البحر، جزئيا من بقايا المسرح اليوناني الواقع في أعلى المدينة. وهذا المبنى المستطيل المسور الضخم المكون من طابقين

(*) كانت البوظة تباع حتى وقت قريب - وربما لاتزال - في بعض الأسواق الأسبوعية في الريف المصري. [المترجم].

من غرف النوم للتجار المسافرين فوق أفنية مقنطرة مملوءة بالدكاكين، لايزال رائعا إلى اليوم[45]. وبنى الوزير أيضا قناة مزدوجة وأسبلة لضمان إمداد المدينة بالمياه. وحتى نهاية الإمبراطورية، كان وقف الوزير الذي شمل أسواقا ومخازن ودكاكين، أحد أرباب العمل الأساسيين في المدينة. وفي العام 1675، بُني على أبراج معدنية على البحر جمرك خشبي أصبح التجار ملزمين بعد إنشائه بعرض سلعهم للفحص من جانب موظفي الجمارك العثمانيين ودفع الرسوم، وكان للجمرك سلم يمكّن من تفريغ السلع من المركب مباشرة، بما يمكّن السلطات العثمانية من التأكد من التهرب ومنعه. وكان من العلامات الأخرى على زيادة السيطرة الإمبراطورية، نقل سميرنا من سلطة القبطان الباشا Kaptan Pasha، وهو قائد الأسطول العثماني إلى ولاية أيدين Aydin وهي مدينة إسلامية تبعد مائة ميل في الداخل، وإعادة تخصيص العائدات الضريبية من المدينة إلى والدة السلطان[46].

وإذا كان الأجانب قد سيطروا على تجارة سميرنا مع أوروبا ومع الموانئ العثمانية البعيدة مثل الإسكندرية وصيدا (كان نصف السفن الفرنسية التي تصل إلى سميرنا يأتي من موانئ عثمانية أخرى)، فقد سيطر العثمانيون على التجارة مع الموانئ الأصغر ضمن الإمبراطورية ومع المنطقة الداخلية. وقد تعزز صعود سميرنا بوصفها محورا رئيسا لشبكة واسعة من طرق التجارة الداخلية بفعل تيقن التجار الأوروبيين من أن منتجاتهم ستجد فيها مشترين لها. فسميرنا، بتعبير أحد المعاصرين، كانت المكان الذي تأتي إليه آسيا للتسوق من أوروبا[47].

كانت قوافل البعير تستخدم طرق التجارة البرية. فمنذ الغزو العثماني لسورية ومصر في العام 1517، انتشرت الجِمال في الأناضول[48]. فمن بلاد فارس، عن طريق حلب، وفي رحلات تستغرق الواحدة سبعة أشهر، كانت القافلة التي تضم ألفا وخمسمائة بعير وحصان تجلب الأفيون والحرير والمنسوجات الهندية، فضلا عن المهاجرين الأرمن العاملين في الحرف ذات الصلة. وكانت القوافل تعود بالتوابل وسلع أوروبية مثل المقصات والمرايا والساعات(*). وكانت المنطقة المحيطة بأنقرة تصدر

(*) من أمارات العولمة الاقتصادية القديمة أن التوابل كانت تأتي من جنوب شرق آسيا من خلال التجار والمستعمرات الأوروبية هناك، أولا عن طريق البحر الأحمر ومصر، ولاحقا عن طريق رأس الرجاء الصالح، لتباع في أسواق لندن أو أمستردام أو يُعاد تصديرها إلى المشرق والبلاد الإسلامية. [المترجم].

الموهير (وبر الماعز أو البعير)، فيما كانت سميرنا والمنطقة المحيطة بها تصدر السجاد والرواند والمصطكاء من خيوس(*)، فضلا عن التين والزبيب والنبيذ والقطن[49]. وهنا أيضا، كانت السياسة الدولية في مصلحة سميرنا، فبداية من العقد الثالث من القرن السابع عشر، بدأت هذه القوافل تتجنب مدينة حلب التجارية الداخلية الكبرى بسبب تجدد الحروب الفارسية - العثمانية، وصعوبة تجنب الرسوم الجمركية، والرعب الذي ارتبط بمينائها إسكندرونة الذي وصف بأنه «مقبرة الفرنجة». فهذا الميناء المحاط بالمستنقعات، كان هواؤه فاسدا، وقاطنوه «أسوأ من الشياطين»[50].

سرعان ما طورت سميرنا أحياء مختلفة لليونانيين واليهود والأرمن، وكذلك للأتراك والفرنجة. فكما هي الحال في بيرا، كانت سميرنا منذ نشأتها مدينة للكنائس والمعابد، فضلا عن المساجد. إذ سادت المدينة «حرية دينية كاملة» أدهشت الأوروبيين[51]. وفقا للشريعة الإسلامية، كان من الممكن بناء الكنائس أو إعادة بنائها بشرط أن تقتنع السلطات العثمانية بأنه كانت هناك كنيسة سابقا في الموقع عينه، وبالنظر إلى عدد الكنائس البيزنطية الخربة في المدينة، فقد كان من اليسير الحصول على تراخيص لبناء كنائس جديدة. وكان المهندسون الحكوميون يصدرون تراخيص تحدد كيف تُبنى الكنائس وأبعادها[52].

كما نالت سميرنا ضريحا مسيحيا خاصا بها. ففي العام 1654، وربما نتيجة لتحرك من جانب السلطات العثمانية ضد الدراويش، استولى الرهبان المسيحيون على ضريح للدراويش. ونظرا إلى أن التقاليد الدينية «تُصنَع وتُؤبد بالسهولة نفسها»، فقد وُلد هذا المكان من جديد باسم مدفن وضريح وكنيسة القديس يوحنا بوليكارب St John Polycarp، الأسقف الرابع لسميرنا الذي أحرقته السلطات الرومانية حيا في العام 167. وتلك الكنيسة المختفية وراء الأسوار، والتي يصعب الوصول إليها وتشكل حاليا مقر رئيس الأساقفة الكاثوليكي الروماني وتسمى عزيز بوليكارب كيليسيAziz Polikarp Kilesi(**)، لاتزال إلى اليوم تقيم الطقوس الدينية، وإن كان عدد المصلين فيها لا يتجاوز عدد أصابع اليدين إلا نادرا. تحوي الكنيسة تمثالا أسود لمريم العذراء مكسوا بالفضة، وأرضيتها مرصوفة بشواهد قبور منقوشة رائعة

(*) الرواند عشب من الفصيلة البطباطية ذو منافع طبية.[المترجم].

(**) في اللغة التركية، تعني كلمة عزيز aziz قديسا. [المترجم].

لتجار كاثوليك من المدينة، أُنقذت من جبّانة مهجورة[53]. وفي سميرنا، كما هي الحال في بيرا، كان المسلمون يدخلون الكنائس - وحتى يضيئوا الشموع - لسماع الموسيقى أو لنيل حماية إلهية إضافة إلى تلك التي كانوا ينالونها من المساجد[54].

كانت سميرنا عثمانية وأوروبية في الوقت عينه. فبحلول العام 1700، كانت المدينة تضم ثلاث كنائس كاثوليكية وكنيستين يونانيتين وكنيستين أرمنيتين وثمانية معابد يهودية[55]. وفي بعض الشوارع، كان من الممكن أن يسمع المرء أصوات الأرغن متسللة من الكنائس الكاثوليكية[56]. وفي شارع الفرنجة، كان المرء يشعر كأنه في دولة مسيحية. وكان من الوارد أن يسمع اللغة الهولندية والإنجليزية والإيطالية والفرنسية، والبروفانسية على وجه الخصوص، ويرى الرهبان الجزويت والكابوشيين بعباءاتهم المميزة. وفيما كان العثمانيون يلبسون العمائم دائما، ويلبس الرعايا المسيحيون واليهود القلنسوات، كان رجال الحي الفرنجي يلبسون القبعات[57].

منذ وقت مبكر، وتحديدا في العام 1610، تذمر الباب العالي من أن اليهود أخذوا ينتقلون إلى سميرنا من سالونيك ومانيسا، وقرر أنهم يجب أن يرجعوا «فورا». برز اليهود في الالتزامات الضريبية (كان كثير من مصادر الإيرادات الحكومية تعطى بنظام الالتزام لمقدم أعلى سعر لتسريع عملية جمع الضرائب)، كما برزوا في الجمارك[58]. وكانت أول مطبعة في سميرنا يهودية، استخدمت الأبجدية العبرية، وبدأت العمل هناك في العام 1649[59]. وثمة طبّاع يهودي من سميرنا كان يطبع باللغة الإسبانية (اللغة اليومية لليهود العثمانيين الذين تحدّرت أغلبيتهم من اليهود الذين طُرِدوا من إسبانيا في العام 1492[*])، وطبع لاحقا أول كتاب إنجليزي في الإمبراطورية العثمانية، وهي النسخة التي أعدها بول رايكوت Paul Rycaut (القنصل الإنجليزي في سميرنا بين العامين 1667 و1678) من الامتيازات التي جُدِّدت في العام 1662 بين تشارلز الثاني ومحمد الرابع[60].

بل إن سميرنا أنتجت حتى مسيحا منتظرا مشرقيا، هو شبتاي تسفي Sabbatai Sevi، الذي وُلد في سميرنا في العام 1626 لسمسار يهودي يعمل لمصلحة التجار الإنجليز

(*) بعد استكمال استرداد إسبانيا بالاستيلاء على مملكة غرناطة في العام 1492، شرع الملكان الكاثوليكيان فرناندو الأراغوني وإيزابيلا القشتالية في طرد اليهود من كل شبه جزيرة أيبيريا، بما في ذلك البرتغال، حتى من سبق أن أكره منهم على التنصر وعرفوا باسم «المارانو». توجه كثيرون منهم إلى أراضي الدولة العثمانية التي قيل إن حاكمها السلطان بايزيد أبدى دهشته من «الملوك الإسبان الذين طردوا شعبا في ذكاء اليهود». [المترجم].

جاء من اليونان في نحو العام 1614. في العام 1648، زعم شبتاي الحالم والمصاب بهوس اكتئابي أنه المسيح المنتظر، وبعد أن فشل في إتمام زيجتين، زوّج نفسه للتوراة من خلال وليمة. وحين طرده أحبار غاضبون من مدينته، هام حول البحر الأبيض المتوسط. ولدى عودته إلى سميرنا في العام 1665، أعلن نفسه ملك إسرائيل السلطان شبتاي تسفي الذي «سيأخذ الملك من حاكم تركيا»[61]. نال شبتاي شعبية بسبب هذا التأكيد على السلطة والمُلك، في وقت كان اليهود المحليون فيه يشعرون بالضعف اقتصاديا مع تزايد أعداد المسيحيين وثرائهم. فأخذ يجوب شوارع المدينة محاطا بحرس من «الرعاع المهووسين» الذين كانوا يستمعون إليه كما لو كان صوت الله[62].

ومن سميرنا، انتشرت المشاهد الهستيرية للتوبة العلنية الجماعية، انتظارا لنهاية العالم الوشيكة، إلى جاليات يهودية بعيدة جدا مثل بولندا. وحتى الأحبار اعتقدوا أن السلطان سيتنازل عن عرشه لشبتاي. وحيث إنه سيد الجالية اليهودية بسميرنا، فقد أبطل الصوم وأعلن أخويه ملكين ليهودا وإسرائيل وإمبراطورين لروما وتركيا على التوالي. وبدأت المعابد تدعو «لملك الملوك السلطان شبتاي تسفي»، وليس للسلطان العثماني. كان شبتاي متحررا جنسيا وسياسيا. فكان يأمر أتباعه بأن يرسلوا إليه بناتهم العذارى اللاتي كان يعيدهن بعد أيام قليلة مقسما بأنه لم يمسسهن[63]. وثمة اتهامات، ليست بلا أساس، بأن أتباعه مارسوا الجنس المشاع أو طقوس تبادل الزوجات، التي استمرت حتى القرن العشرين.

تعاملت الحكومة العثمانية مع الموقف سريعا. وحين أُوقِف أمام السلطان في إدرنة في سبتمبر 1666، أنكر شبتاي مطالبته بالمُلك. وأخيرا، خُيّر بين اعتناق الإسلام أو الموت على الخازوق، فرمى قبعته اليهودية على الفور وارتدى العمامة الإسلامية. ومات باسم عزيز محمد أفندي في المنفى فيما يعرف حاليا باسم الجبل الأسود في العام 1676(*). وفي سميرنا، استمر كثير من أتباعه في حالة من «الغم»

(*) نجا شبتاي تسفي من الموت بسبب إعجاب الصدر الأعظم فاضل أحمد الكوبرولي بذكائه ووقاره ولغته العربية، ولذلك خيّره بين القتل أو اعتناق الإسلام. فأسلم على الفور، وأصبح اسمه عزيز محمد أفندي وخُصّص له راتب ووظيفة، وتحول اسم زوجته سارة إلى فاطمة قادين. لكنهما عادا إلى دينهما بعد فترة قصيرة. وعاشا على القرن الذهبي، يترددان حينا على المساجد وأحيانا على المعابد. وبعد أن صار قِبلة للحج، نُفي «الكافر العنيد» كما وصفه الكوبرولي حينها، إلى ألبانيا في العام 1672، ومات هناك بعد أربع سنوات. لكن أتباعه المعروفين باسم الدونمة Donme باتوا يشكلون- ولايزالون- طائفة أخرى متميّزة ضمن فسيفساء إسطنبول. يعيش معظمهم باعتبارهم مسلمين محافظين، ويحتفظ بعضهم سرا ببعض التقاليد اليهودية، مثل تلاوة الصلاة باللغة العبرية. ولاتزال مجموعة أصغر منهم تنتظر عودة شبتاي تسفي باعتباره المسيح المنتظر. [المترجم].

وعادوا إلى اليهودية التقليدية. وثمة آخرون ظلوا يؤمنون بشبتاي تسفي، حتى بعد أن أعلن هو نفسه أنه لم يعد يؤمن بنفسه. واعتقدوا أن ظله على الأرض فقط هو الذي أسلم، بينما رُفِع جسده وروحه إلى السماء. وبعضهم اتبع نصيحة شبتاي باعتناق الإسلام وانتحلوا أسماء وممارسات خارجية إسلامية، فيما ظلوا سرا مؤمنين باليهودية أو بشبتاي، فاحتفظوا بالقواعد الغذائية اليهودية والميل إلى الزواج من الجالية اليهودية واستخدام الصلوات اللادينووية والعبرية سرا[64](*). وقد ظل هؤلاء المتحولون المعروفون باسم الدونمة[65] وفيري العدد والقوة في سميرنا وسالونيك، ومارسوا لاحقا تأثيرا كبيرا في ثورة تركيا الفتاة وفي الجمهورية التركية.

لكن على الرغم من حيوية جالياتها المسيحية واليهودية، كانت سميرنا مدينة إسلامية في المقام الأول، إذ شجع ازدهارها المهاجرين المسلمين من الريف على الانتقال إليها، ومن أجلهم بُنيت المساجد. وتهيمن على وصف أوليا جلبي للمدينة إحصاءات إسلامية تعبر عن الانتصار. فقد أحصى ثلاثمائة وعشرة محاريب أو أماكن للعبادة في المدينة وسبعة وسبعين مسجدا وأربعين مدرسة، ومساحة شاسعة مفتوحة للصلاة تسعمائة ألف شخص على الشاطئ. وعلى خلاف الكنائس والمعابد، كانت المساجد تستخدم نهارا وليلا. من ذلك أن «الجامع الملتحي»(**) الذي بُني فوق حوانيت العطور، ويشبه في جماله لؤلؤة بيضاء، لم يكن يخلو من المصلين قط. وقد جيء لجامع أحمد أغا الذي بُني في العام 1668، بجانب الميناء عند بداية السوق الجديد، بزجاج ملون من القسطنطينية «يليق بالملك سليمان»، وحين تشرق الشمس، كان يشبه الزمردة. وكانت «عظمته تنير مدينة إزمير». بنى هذه المساجد وغيرها أشخاص من أمثال الحاج يوسف والشيخ مصطفى فايق باشا وأم أحمد أغا. ويسجل أوليا شيئا يعتبره غريبا وهو مسجد لا يحوي مكانا جانبيا مخصصا لصلاة النساء[66].

ذكر أوليا تجارا مسلمين أثرياء آخرين، منهم محمود أفندي وحسن أغا وكوجك حسين أغا وأحمد أغا. واتُّخذَت مقبرة ماركوس فابيوس Marcus Fabius

---

(*) اللادينووية أو لغة اللادينو Ladino لغة مزيج من الإسبانية والعبرية انتشرت بين اليهود في إسبانيا وانتقلت معهم إلى المنافي بعد طردهم. [المترجم].

(**) ربما سُمي الجامع الملتحي Bearded Mosque بهذا الاسم بسبب شكله أو بسبب حوانيت العطارين أسفله وارتباط العطور باللحية؛ بناء على ما دار في اتصال شخصي مع المؤلف. [المترجم].

سبيلا لسقيا الناس في حديقة أحمد أغا الغنّاء[67]. لقد جمع حب العصور القديمة الكلاسيكية أحمد مع واحد من أغنى تجار المدينة، يدعى إمام أوغلو Imamoglu، جاء من أنقرة في منتصف القرن السابع عشر ببضع بالات من وبر الماعز. وفي نهاية حياته، كان يمتلك قطعانا من الغنم والماعز وعبيدا ومنازل لا تحصى وكثيرا من بساتين الخضراوات خارج المدينة. ومهما كانت الأثمان التي تعرض على إمام أوغلو، فإنه ما كان ليبيع التماثيل المرمرية التي اكتشفها تحت ممتلكاته[68].

برهنت سميرنا على أن الإمبراطورية العثمانية، حتى في أوج قوتها، كانت تُحكَم بلمسات خفيفة. فإبان العقد الثامن من القرن السابع عشر، كانت الإمبراطورية قد انتزعت جزيرة كريت من البندقية وإقليم بودوليا Podolia من بولندا منذ وقت قصير؛ كانت تستعد لمهاجمة فيينا نفسها. ومع ذلك، ففي سميرنا، فزع أوليا جلبي من ثراء الفرنجة وقناصلهم وقوتهم، فـ«سفن الفرنجة تأتي بكثرة، حتى غدا نصف مدينة إزمير يشبه فرنجستان [أوروبا]. وإذا ضرب أحدهم كافرا [غير مسلم]، فإن الجميع يحيطون به على الفور ويأخذونه إلى القاضي القنصلي أو يعدمه الكفار. وفي ذلك الوقت يختفي المسلمون، حتى تغدو المدينة أشبه بمكان فرنجي موحش مثل مالطا»[69]. كانت مالطا، مقر فرسان القديس يوحنا الذين احترفوا الإغارة على السفن الإسلامية (والمسيحية أحيانا) في أنحاء المشرق كافة، مرادفا للرعب بالنسبة إلى المسلمين، بسبب آلاف العبيد المسلمين المحتجزين عليها. وقد كان من السهل على الفرسان أن يتعرفوا على المسلمين من بين ركاب السفن المخطوفة ويأخذونهم عبيدا، «لأنهم كانوا يُختَنون» كما كتب ريتشارد بوكوك Richard Pococke الذي شهد إحدى هذه الحوادث في العام 1739[70](*).

كان القناصل أصحاب النفوذ الأساسيين في المشرق. وفي سميرنا، كما في بيرا، كانوا بغرض تعزيز مكانتهم وحماية أنفسهم، يسيرون برفقة حرس من الانكشارية يحملون عصيا طول الواحدة منها ست أقدام ولها مقابض عاجية يضربون بها على الأرض، فضلا عن سُعاتهم ذوي الأزياء المميزة. كان من المتوقع من القناصل أن تظل بيوتهم مفتوحة للمسافرين والتجار، وهو أمر لم يكن يكلف الكثير بالنظر إلى أن

(*) كان الختان في هذه الأزمان لصيقا بالإسلام، حتى إن المسيحيين في البلاد المسيحية مثل إسبانيا وجماعات القراصنة مثل فرسان القديس يوحنا كانوا يتعرفون على المسلمين الذين يدعون المسيحية لأي سبب بالكشف عن عورتهم للتأكد من أنهم مختونون، وبالمثل كان المسلمون يتعرفون على المسيحيين بالطريقة عينها، إذ لم يكونوا يختتنون، وكذلك كان لزاما على من يعلن إسلامه من العبيد الأسرى أن يُختن ولو كان طاعنا في السن. [المترجم].

أسعار الطعام والنبيذ كانت «لا تذكر». وكان القنصل الفرنسي، الذي سكن فيما يشبه «قصرا صغيرا»، يقدم لضيوفه النبيذ الفرنسي والإسباني والإيطالي والمحلي، ويستقبلهم «على صوت القناني والأباريق». وكان يمتلك أيضا مكتبة تضم أحدث الصحف[71].

يعد بول رايكوت مثالا لأهمية القناصل بوصفهم ناقلين للثقافة، تماما مثلما كان السفراء في بيرا. فرايكوت المولود في لندن في العام 1629 من أصول هولندية، جاء إلى القسطنطينية في العام 1661 سكرتيرا للسفير الإنجليزي لورد وينشلسيا Lord Winchilsea. وفي العام 1667 دخل رايكوت سميرنا قنصلا إنجليزيا يرافقه مائة تاجر وستة بواقين. ففي المشرق، كما في أوروبا، كانت الموسيقى من أمارات السلطة. وفيها اشتغل بالتجارة واهتم بآثار العصور القديمة والتفاوض على معاهدات مع حكام الجزائر وتونس وطرابلس لمنع القرصنة. وشرع أيضا في تأليف كتبه الرائدة حول الإمبراطورية العثمانية: «الحالة الراهنة للإمبراطورية العثمانية» (1667)، و«الحالة الراهنة للكنائس اليونانية والأرمنية» (1679)، و«تاريخ الإمبراطورية التركية» (1680)، و«تاريخ الأتراك» (1700). كان رايكوت يتحدث اللغة التركية واليونانية القديمة والحديثة واللاتينية والفرنسية والإنجليزية. واعتمدت كتبه على السجلات العثمانية وعلى إخباريين مشرقيين، كان من بينهم موظف بقصر توبكابي اسمه الأصلي ألبرت بوبويسكي(*) والترجمان الإمبراطوري ماموشا ديلا تور Mamucha della Torre(**) وطبيب السلطان الدكتور مارسيليني Dr Marcellini وصديق من سميرنا يدعى شيطان إبراهيم، الذي كان حاكم مصر ولاحقا القائد العام للقوات العثمانية في المجر(***). وعلى الرغم من

(*) ألبرت بوبويسكي Albert Bobowski هو الاسم الأصلي لترجمان للسلطان يدعى علي بيه Ali Bey، كان تتر القرم قد سبوه من بولندا وباعوه للقصر الذي تلقى فيه تعليمه، وكان أحد الوسطاء بين القسطنطينية والعالم الغربي الذين أسهموا في تحديث القسطنطينية من جانب، ومعرفة الغرب بالإمبراطورية العثمانية من جانب آخر. وكان أيضا أول من دوّن الموسيقى التركية ونغماتها. [المترجم].

(**) الصفة «إمبراطوري» للترجمانات والقناصل نسب إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت فيينا مقرها. تكوّنت الإمبراطورية في العام 962 عندما توّج البابا يوحنا الثاني عشر الأمير أوتو الأول إمبراطورا على اتحاد من ألمانيا وإيطاليا، كامتداد للأباطرة الكارولينجيين، مع أنها لم تشمل فرنسا. وألغاها الإمبراطور نابليون الثالث الفرنسي بتحويل لقب أباطرتها إلى «إمبراطور النمسا» بدلا من الإمبراطور الروماني المقدس. [المترجم].

(***) شيطان إبراهيم Sheytan Ibrahim رجل دولة وقائد عثماني، غيّر السلطان اسمه إلى «ملاك إبراهيم باشا» بعد انتصار الأخير على الهابسبرغيين النمساويين في معركة كرز إلياس، وعُيّن واليا لمصر في العامين 1660 و1661، وأعدم في 3 ديسمبر 1685 بأوامر الصدر الأعظم بعد سيطرة النمساويين على قلعة أويفار، إذ اتهم بالمسؤولية عن سقوطها. [المترجم].

الأخطاء التي احتواها كتابه «الحالة الراهنة للإمبراطورية العثمانية»، فقد تُرجِم إلى اللغات الفرنسية والإيطالية والهولندية والألمانية والبولندية والروسية. وبذلك، لم تكن سميرنا «عين آسيا» وحسب، بل أيضا إحدى عيون أوروبا على آسيا[72].

كرس رايكوت حياته المهنية للإمبراطورية العثمانية، وأعجب بالصدر الأعظم فاضل أحمد كوبرولو وامتدح الانضباط والإحسان العثمانيين. وفي العام 1675، بعد تجديد الامتيازات الإنجليزية التي ظلت سارية حتى العام 1923، كتب أن «التكريم والامتياز اللذين تحظى بهما أمتنا هنا والأمن على أرواحنا وممتلكاتنا في دولة الأتراك... أفضل كثيرا مما كانت عليه الحال في الأزمان السابقة». لكنه مع ذلك كان متحيزا ضد العثمانيين، كعادته مع الأجانب الآخرين. فرأى أن الإمبراطورية العثمانية «لا يمكن أن تُربي على الرقة وفنون السلام ومداهنته»، وكتب أن التركي «لا يستطيع أن يقيم صداقة حقيقية مع المسيحي»، ورأى أن أحد أسباب منع الكتب التي طبعها مسلمون، أو طُبِعت للمسلمين، من التداول في الإمبراطورية العثمانية (كان مسموحا لليهود والمسيحيين بطباعة الكتب) كان خوف حكومتها من «حدة الذهن الناتجة عن التعليم التي تتناقض مع بدائية حكمهم وتضر به»[73].

لكن كانت هناك في الواقع أسباب أخرى لتحريم الكتب، منها صعوبة طباعة الحروف العربية، والخوف من البطالة التي قد تنتج عنها بين صفوف الخطّاطين، وحب الخط اليدوي. وفي ذلك ذكـــــر الدارس الفرنســـــي أنطـــوان غالاند Antoine Galland أنه حتى بعد أن توافرت نسخة مطبوعة أرخص من كتاب للعالم العربي ابن سينا، ظل المشترون يفضلون المخطوطات اليدوية. ربما كان السبب الرئيس وراء ذلك هو الاعتقاد بأن القرآن كلمة الله الحرفية، وأن الخط اليدوي من أرقى الفنون. وكان امتلاك مخطوطة للقرآن مكتوبة بخط جميل من علامات المكانة الاجتماعية. وحين سُمِح للمسلمين باستخدام الطباعة، في العام 1727، كان ذلك بشرط ألا تطبع الكتب الدينية[74]. وللأسباب عينها، لم تستخدم الإمبراطوريتان الفارسية والمغولية الطباعة.

ولذلك، فحتى انتشار الطباعة والخرائط الفرنسية الدقيقة (مثل مجموعة الخرائط الرائعة لموانئ البحر الأبيض المتوسط لجوزيف رو Joseph Roux التي طُبِعت في مارسيليا في العام 1764 وأُهدِيت إلى وزير الخارجية الفرنســـي دوق

شـــــوازول Duc de Choiseul إبان أواخر القرن الثامن عشر)، لم تكن الإمبراطورية العثمانية تمتلك خرائط موثوقا بها. وأدى غياب الكتب المطبوعة كذلك إلى انخفاض مستوى التعليم، إذ يعتقد أن نسبة معرفة القراءة والكتابة في الإمبراطورية كانت نحو 1 في المائة قبل العام 1800، ربما ارتفعت إلى 15 في المائة بحلول العام 1914[75]. فقد كانت أغلبية الناس في الإمبراطورية العثمانية مقطوعي الصلة بالثورات المعلوماتية المعاصرة.

ولاحظ رايكوت أيضا أنه في سميرنا «يميل اليونانيون إلى قيصر موسكو أكثر من أي أمير مسيحي آخر، لأنه ينتمي إلى مناسكهم ودينهم، ويسمونه إمبراطورهم وحاميهم، وينتظرون منه وفقا للنبوءات القديمة والتنبؤات الحديثة تحرير كنيستهم»[76]. وبما يؤكد هشاشة الإمبراطورية العثمانية، وانعدام شرعيتها في نظر البعض إبان القرن السابع عشر، أرسل البطاركة المسكونيون مرارا وتكرارا – وهو ما يعكس بلا شك رغبة رعيتهم – رسائل سرية من القسطنطينية إلى القيصر في موسكو، معرضين حياتهم للخطر، ليطلبوا منه غزو الإمبراطورية وتحرير الأرثوذكس، ويقترحون عليه اللحظات والمسالك الملائمة (لاتزال الرسائل المكتوبة باللغة اليونانية موجودة في الأرشيف الوطني في موسكو). وقد زادت أحلام التحرر لدى اليونانيين من قابلية المشرق للاشتعال[77].

وإذا كان القناصل قد عاشوا حياة الأمراء، فإن التجار الغربيين الذين ربما بلغ إجمالي عددهم في العام 1678 خمسمائة أو ستمائة فرنسي وإنجليزي وهولندي وبندقي في سميرنا، قد عاشوا حياة اللوردات[78]. نظريا، كان محظورا على الأجانب التملك في الإمبراطورية العثمانية. لكن سميرنا كانت قانونا في ذاتها. فبحلول منتصف القرن السابع عشر، كان الأجانب يمتلكون بيوتا ريفية في القريتين اليونانيتين القريبتين بوكا Buca وبورنوفا Bornova، وكانوا يرفّهون عن أنفسهم بصيد الخنازير والدببة والوعول والبط، بواسطة الكلاب والبنادق[79]. وكان التجار الإنجليز الأكثر ثراء بين الجميع، فكانوا يستوردون كلاب الصيد لاصطياد الأرانب البرية، وقيل إنهم كانوا يشربون قدرا من النبيذ يكافئ ما كان يشربه الأجانب الآخرون مجتمعين[80].

وإبان القرن السابع عشر، سيطر الهولنديون والإنجليز على التجارة الدولية لسميرنا. فقد أظهر الهولنديون في المشرق الطاقة نفسها التي دفعتهم إلى تأسيس

محطات تجارية من ناغازاكي إلى أمستردام الجديدة، كما كان يُطلَق على نيويورك عند تأسيسها في العام 1626، وهو الوقت نفسه الذي أصبحت سميرنا فيه ميناء كبيرا. وقد اشتهر التجار الهولنديون بالنزاعات مع قنصلهم وإقامة علاقات غرامية مع النساء المحليات وإقامة المآدب[81].

كانت عائلة دي هوشبيد de Hochepied من أبرز العائلات الهولندية في سميرنا، وقد قدمت قناصل لسميرنا وسفراء للقسطنطينية. كان دانيال جان دي هوشبيد Daniel Jean de Hochepied «الدمث والمهذب والمتملق»، وهو القنصل الهولندي من العام 1688 إلى العام 1723، يحظى باحترام كبير، حتى إنه كان يُنادَى باللقب «السيد القنصل»، كأنه القنصل الوحيد في المدينة. وحين مات، حضر جنازته آلاف المسلمين واليونانيين والأرمن، فضلا على الفرنجة. وانتقلت زوجته كلارا كاثرين Clara Catherine إلى القسطنطينية التي حصل فيها أبوها جوستينوس كولير Justinus Colyer، السفير الهولندي من العام 1668 إلى العام 1682، على تجديد الامتيازات الهولندية بتكلفة ضخمة في العام 1680. كانت علاقات مدام دي هوشبيد بوالدة السلطان وثيقة جدا لدرجة مكّنتها من استصدار فرمان في العام 1710 يجيز بناء كنيسة جديدة للفرنسيسكان في سميرنا. وعلى الرغم من أن عائلة هوشبيد كانوا من الكالفينيين، فقد أصبحوا الحماة الرسميين للكنيسة، وهو ما عزز مكانتهم في المدينة وداخل الجالية الهولندية[82].

كان الأبناء يرثون شبكات العلاقات التي بناها الآباء. فخلف دانيال ألكسندر Daniel Alexander الذي ولد في سميرنا في العام 1689، أباه هوشبيد قنصلا هولنديا في العام 1723، وجمع مجموعة رفيعة من الأوسمة وآثار العصور القديمة. وشغل أخوه ألبرت دي هوشبيد Elbert de Hochepicd منصب السفير الهولندي في القسطنطينية في الفترة 1747 - 1763[83]. ولاحقا كان أحد أفراد العائلة قنصلا هولنديا ونائبا للقنصل النمساوي في سميرنا في الفترة 1796 - 1810 والفترة 1814 - 1824[84]. ولم تغادر العائلة سميرنا إلا بعد كارثة العام 1922.

كان التجار الإنجليز يشترون الحرير العثماني ويبيعون القماش الإنجليزي. وكان هؤلاء التجار عموما من الأبناء الأصغر سنا لعائلات نبيلة كانت تمتلك أسهما في شركة الشحن البحري المسماة «وكيل سميرنا» Smyrna Factor أو «تاجر المشرق» Levant Merchant،

وكانوا يسيطرون بالتالي على شركة المشرق في لندن. وعند التقاعد والعودة إلى إنجلترا، كان هؤلاء التجار يمتلكون غالبا مالا يكفي لشراء ضيعة ريفية أو تزويج بناتهم داخل عائلات النبلاء[85]. وقد بلغت الثقة بالنفس لدى التجار الإنجليز في سميرنا في العام 1646 حد أن قسمتهم النزاعات بين البرلمانيين والملكيين في الداخل البريطاني فوضعوا «المدينة كاملة... على حافة الحرب»، وعجز الباب العالي عن إيقافهم[86].

وفي حين عاش التجار الأجانب في حلب حبيسي خاناتهم ليلا، كما يحدث مع الطلاب في كليات أكسفورد[87]، عاش نظراؤهم في سميرنا في بيوت ملكهم. كانت هذه البيوت المبنية في الأغلب من الحجارة، تبدو «أجمل كثيرا» مقارنة ببيوت الأهالي «غير الأنيقة وغير اللائقة». وإجمالا، كانت للتجار الأجانب واجهة على شارع الفرنجة، وخلفها المستودعات وصفة المنازل، وناحية البحر تبرز المعارض والمراحيض الخشبية[88]. فقد كانت أوروبا واقعا ملموسا في سميرنا أكثر منها في المدن الأوروبية ذاتها، وفي سميرنا قيل إن الأوروبيين عاشوا في «اتحاد مميز لا تمزقه اختلافات الدين أو القومية أو الانتماء الحزبي، حتى في أوقات الحروب». وكانت بيوت الجميع مفتوحة[89]. وربما بغرض تجنب الإيذاء أو لتخفيف تأثيرات درجة الحرارة المرتفعة، كان معظم الأوروبيين يرتدون ملابس تركية، ومعها قبعة تعلن أنهم مسيحيون. وكما كانت الحال في القسطنطينية والموانئ المشرقية الأخرى، تمثلت اللغات السائدة حتى العقد الرابع من القرن التاسع عشر في اللغة الإيطالية واللغة المشتركة[90].

حين عاب غالاند على بعض التجار الفرنسيين عدم تعلمهم اللغة التركية، أجابوه بأنهم لا يحتكون بالأتراك بالدرجة التي تضطرهم إلى تعلم لغتهم. كما أن تجار سميرنا استعملوا اليهود الذين كان الكثيرون منهم يتحدثون التركية (منهم مثلا والد شبتاي تسفي) سماسرة في التجارة. فـ «كل التجارة ينفذها اليهود»، كما كتب عالم النبات الفرنسي بيتون دي تورنفور Pitton de Tournefort في العام 1702. وإجمالا، فإلى جانب اللغة المشتركة، كانت تُسمَع اثنتا عشرة لغة في شوارع سميرنا: التركية والعربية والفارسية والأرمنية واليونانية والروسية (يتحدثها العبيد) والعبرية والإيطالية والبرتغالية والفرنسية والإنجليزية والهولندية[91].

كان يوم العمل بالنسبة إلى المسلمين في سميرنا تقسمه الصلوات الخمس، وبالنسبة إلى الفرنجة يقسمه الإفطار في الثامنة صباحا والغداء في الواحدة ظهرا

والقيلولة. وكان العشاء في الثامنة مساء تليه زيارات إلى بيوت بعضهم البعض. فكما كانت الحال في بيرا، ربطت شبكات الزيارات بين القناصل والتجار الأجانب ووجهاء الأتراك. فحين زار القبطان باشا سميرنا بأسطوله في أثناء تفتيشه السنوي لجزر بحر إيجة، التي كان هو نفسه واليها، توقع أن يستقبل من التجار المحليين زيارات ويتلقى منهم هدايا في شكل مناظير أو أقمشة مطرزة[92]. لكن الزيارات نادرا ما كانت تتحول إلى ولائم، وذلك لأن الأتراك كانوا يجلسون على وثار أو وسائد بدلا من الكراسي، ويأكلون بأيديهم بدلا من السكاكين والشوكات. ولذلك كان من الأسهل على غير الأتراك أن يدخنوا البيبة أو يشربوا القهوة مع الأتراك من أن يتناولوا العشاء معهم[93]. وفي حدث استثنائي، حضر القس جون كوفيل John Covel في نوفمبر 1670 عشاء مع شخص تركي غني، وهو «رجل دمث جدا ومحب لكل أمتنا». جلس كوفيل «مربع القدمين» على سجادة، واستمتع بـ «طعام صحي وبسيط وطيب»، وكتب لاحقا «كانت كل الأشياء مختلفة تماما عن طريقة حياتنا لدرجة أدهشتني وأعجبتني أيضا»[94].

وعلى الرغم من أن رؤساء الطوائف الحرفية في سميرنا كانوا عموما من المسلمين، فقد عمل المسيحيون والمسلمون معا، كما حدث مثلا في طوائف الصباغين أو النجارين. ويكشف الصمت النسبي للأرشيفات المركزية عن غياب النزاعات في أماكن العمل، ولو وقعت نزاعات، فإنها كانت في الأغلب بين حرفيي سميرنا المسلمين والمسيحيين واليهود من ناحية، وذوي الأصول الأجنبية أو الذين يعملون لمصلحة الأجانب من ناحية أخرى. من ذلك أن القنصل الهولندي حصل في العام 1685 على أمر من الباب العالي بوقف خياط سميرني عن مضايقة خياط هولندي كان يحيك ملابس الهولنديين. وفي العام 1817، اشتكى نجارون سميرنيون من محاولات منعهم من العمل في حي الفرنجة[95].

عاشت النساء المسلمات السميرنيات في «عالمهن الخاص». كانت النساء اللاتي كن يغطين أنفسهن من الرأس إلى أصابع القدم بخمر بيضاء وحجاب أسود يخفي الوجه، ما عدا فتحتين صغيرتين للعينين، يخضعن لهيمنة العائلة، فضلا عن تقواهن الشخصية. وكن أحرارا في القيام بزيارات إلى الأسواق للتسوق أو إلى الجبّانات للدعاء أمام قبور أقاربهم وشرب القهوة. وكن يظهرن في خمرهن «محدبات بلا أناقة في أعين الإنجليز»[96].

في المقابل، وفرت النساء المسيحيات في سميرنا - كما قال واحد ممن زاروا بيوتهن - «أجمل توليفة رأيتها في حياتي من الوجوه الأنثوية الساحرة»[97]. وكتب أوليا جلبي عن «المحبوبات» الكافرات اللاتي كان «الشباب المسلمون يفقدون صوابهم حين يرون شعرهن السائب حلو الرائحة». ولاحقا، لم يكن الزوار أقل تأثرا، فـ «السيدات السميرنيات، بجمعهن بين الطبائع والعادات الشرقية والفرنجية، كن جذابات جدا»[98]. فمن خلال الجمع بين حسن الإيطاليات وحيوية اليونانيات و«السيماء المهيب» للعثمانيات، كانت نساء سميرنا تمتلكن «سحرا لا يقاوم»[99]. وحين كن يجلسن في المساء في شارع دي روز Rue des Roses، كن يثرن الإعجاب بشفاههن القرنفلية وأعينهن التي تشبه النار و«منظرهن الذي يخرق دماغك». وحتى التحول إلى الأزياء الأوروبية إبان العقد الخامس من القرن التاسع عشر، كن يلبسن جواهر وعملات ذهبية في أغطية رؤوسهن، حتى «يخلبن العرسان الممكنين بجمالها وقيمتها»[100]. وكانت نساء سميرنا - علاوة على ذلك - «لطيفات ومجاملات جدا مع الغرباء». فقد كانت سميرنا - كما قيل - جنة البحارة[101].

وكما كانت الحال في بيرا، اشتهرت سميرنا بالحرية الجنسية، ولاتزال كذلك إلى اليوم. فحتى منتصف القرن العشرين، كانت نساء البر الرئيس اليوناني تَرتَبن في نساء سميرنا لأنهن «ناعمات» إلى درجة العهر[102]. وقد ألهمت سمعة المدينة واحدا من أشهر الكتاب المسرحيين إبان القرن الثامن عشر، هو كارلو غولدوني Carlo Goldoni، الذي كتب المسرحية الكوميدية «مدير فرقة سميرنا» L'impresario di Smirna (1759) حول رغبة تاجر تركي ثري من المدينة في تشكيل فرقة أوبرالية في المدينة، مدفوعا برغبته في أجسام المغنيات وليس موسيقاهن. والمسرحية تحذير من العواطف المدمرة[103].

لم يكن نبيذ سميرنا أقل جمالا من نسائها. وعموما كان الفرنسيون والإنجليز فيها في حالة مزاجية جيدة، كما شهد الرحالة الفرنسي مسيو بوليه Monsieur Poullet في العام 1668، لأن «النبيذ هناك رائع جدا لدرجة أنك إن لم تكن متبلدا بالطبيعة، فستفقد هناك كل الأحقاد والكآبة»[104]. وكان الإنجليز يلزمون ضيوفهم بالشرب حتى إن لم يرد هؤلاء الضيوف الشرب، وكانوا في أثناء سُكْرهم يهاجمون القنصلية الفرنسية صائحين «الفرنسيون الكلاب» وإهانات أخرى، ويشعلون النيران

في ملابس الفرنسيين، حتى إن بعضهم كان يعلن إسلامه[105]. وعلى أرصفة الميناء، كانت الحانات تظل مفتوحة طوال الليل، وكان الناس يرقصون على الموسيقى «على الطريقة الفرنسية» أو «على الطريقة اليونانية» أو «على الطريقة التركية». وبحلول العقد السابع من القرن السابع عشر، كان موسم المرح السابق على الأسابيع الأربعة للصوم الكبير، المعروف في أنحاء أوروبا الكاثوليكية كافة باسم الكرنفال، يُحتفَل به في سميرنا - كما في بيرا السابقة - بالشرب والرقص الجنوني، حتى إن الأتراك كانوا يظنون في المحتفلين الجنون (ربما جاء الكرنفال إلى سميرنا من أوروبا الكاثوليكية، وليس من بقايا الماضي الوثني، كما في الجزر اليونانية)[106]. وإبان القرن الثامن عشر، حاول القناصل الأوروبيون منع الأتراك من ارتياد الحانات بالحي الفرنجي، التي كانوا يتمتعون فيها بـ «الحرية المطلقة... لارتكاب أي فعل»[107]. وحتى بالنسبة إلى الحكومة العثمانية، كانت سميرنا مرادفا للنبيذ. وحين حاول الصدر الأعظم، من حين إلى آخر، منع بيع النبيذ في القسطنطينية، كان يصدر أوامره بعدم تدخل موظفي الجمارك بأي شكل من الأشكال في نبيذ الأجانب في سميرنا[108].

ارتفع عدد سكان المدينة من خمسة آلاف في العام 1600 إلى ما بين ثلاثين وأربعين ألفا في العام 1650، ثم إلى زهاء مائة ألف في العام 1700، ربما كانوا موزعين بنسبة سبعة أتراك إلى يونانيين اثنين وأرمني واحد ويهودي واحد[109]. وعلى الرغم من أزقة سميرنا الضيقة وممراتها النتنة، كان الرحالة يحبونها. وقد أثنى أوليا جلبي على حلاوة هوائها ومائها وثراء تجارها وكرمهم، وجودة صابونها وعسلها[110]. وكتب الرحالة والصائغ الفرنسي جان باتيست تافرنيه Jean-Baptiste Tavernier في العام 1634 أن «سميرنا اليوم بالنسبة إلى التجارة عن طريق البحر والبر أشهر مدينة في المشرق كله وأشهر سوق لكل السلع الآتية من أوروبا إلى آسيا ومن آسيا إلى أوروبا». أما بيتون دي تورنفور الذي زار المدينة في العام 1702 عندما أرسلته الحكومة الفرنسية لتقصي نباتات الأناضول، فقد اعتبرها «إحدى أغنى المحطات التجارية في العالم»[111].

كانت سميرنا على درجة كبيرة من الثراء جعلتها تؤثر في السياسة الدولية. فكان الهجوم الإنجليزي في زمن السلم على «أسطول سميرنا» الهولندي في

العام 1664، إيذانا باندلاع الحرب بين البلدين. وكان التدمير الفرنسي «لأسطول سميرنا» الإنجليزي - الهولندي قبالة جبل طارق في يونيو 1693، الذي أسر فيه أكثر من مائة سفينة أو أغرقها، كارثة أطاحت بوزير الخارجية التوري(*) المسؤول عن النكبة إيرل نوتنغهام Earl of Nottingham، وأسهمت في تأسيس بنك إنجلترا لتمويل إنشاء أسطول جديد. كان لويس الرابع عشر متلهفا لسماع أخبار هذا العمل لدرجة أنه طلب من الحُجّاب أن يكسروا الباب عليه حين يصل الخبر[112].

أطلق الرحالة على سميرنا اسم «لؤلؤة المشرق». لكنها كانت في الحقيقة أيضا مدينة الزلازل والطاعون والحرائق والمذابح - التي كانت متكررة جدا - حتى إن قدرة سكانها على التكيف وعدم ملاءمة الموانئ المنافسة يفسران وحدهما ازدهارها المستمر. فقد تفشى الطاعون خلال معظم سنوات القرن الثامن عشر. ويقال إن تفشي الطاعون في الأعوام 1739 - 1742، على سبيل المثال، حصد أرواح عشرين في المائة من السكان، وتفشيه في الأعوام 1759 - 1765 حصد نحو خمسين ألف روح (نصف سكان المدينة)، وفي العام 1784 حصد آلافا أكثر، وفي الأعوام 1812 - 1815 نحو خمسة وأربعين ألف روح[113]. كان الناس لا يعرفون شيئا عن النظافة والعادات الصحية. فكان يُسمَح للكهنة اليونانيين ببيع ملابس الموتى من ضحايا الطاعون، ما كان يتسبب في نشر العدوى[114]. وكما كانت الحال في القسطنطينية، كان معظم الأتراك يظلون في المدينة في أوقات الطاعون ثقة في الله، على الرغم من حشرجات الموت التي تصم الآذان في الشوارع. بينما كان الفرنجة والمسيحيون المحليون - لو تمكنوا - ينسحبون إلى الريف أو يغلقون بيوتهم على أنفسهم لأشهر، وهي فترة كانت تعرف باسم «الإغلاق». وكانوا يحصلون على احتياجاتهم بتدلية سلال مربوطة بحبال، أو من السفن الأجنبية عبر المعارض الموجودة وراء بيوتهم من دون أن تلمس قدم أحدهم الأرض. وكانت الخطابات تُبخَر بالنترات والكبريت[115]. وتتمثل بقايا شهور الطاعون في الأسوار الهائلة التي بُنيت لإبعاد العدوى، والتي لاتزال تحيط حدائق بورنوفا.

(*) التوري Tory حزب بريطاني ظهر في العام 1678 لمعارضة قانون إقصاء ووريث العرش البريطاني جيمس دوق يورك الذي تبناه حزب الويغ Whig الإصلاحي، وظل التوري حزبا معارضا للإصلاح ومؤيدا للملك حتى حُل في أوائل القرن التاسع عشر، وهو سلف حزب المحافظين الذي ورث أفكاره ومبادئه. [المترجم].

ضرب زلزالان المدينة في العام 1688 والعام 1788، ويقال إن الأخير قتل خمسة عشر ألف شخص. وقد اشتبه في تورط القاضي في إشعال حريق أكل ثلثي المدينة في العام 1742. واندلع حريقان آخران في العامين 1752 و1763. وشكّل الفرنجة في العام 1787، مدفوعين بالخوف من اندلاع حرب روسية - تركية أخرى، قوة شرطة خاصة بهم لإطفاء الحرائق في حيهم[116].

شهدت المدينة كوارث أخرى من صنع الإنسان. فتحت سطح سميرنا الباسم، كان هناك بركان ينتظر الانفجار. وفي العام 1678، أرجع غالاند السلام النسبي الذي ساد بين الجماعات المختلفة إلى «صرامة» القوانين العثمانية، فحتى المسيحيون من الطوائف المختلفة، وكذلك المسلمون واليهود، كانوا في داخلهم يكره بعضهم بعضا «كراهية الموت»، لكنهم كانوا مجبرين على التظاهر بخلاف ذلك[117]. وكان يمكن لأي علامة من علامات الفخر المسيحي أن تثير غضب المسلمين. من ذلك أنه في العام 1636 على سبيل المثال، حين وصلت سفينة إنجليزية إلى الميناء ترفع علما عليه الصليب الأحمر للقديس جورج، هاج الناس «لأن الكفار ما كان لهم أن يتجرأوا على رفع صليبهم عاليا في ميناء السيد الكبير»(*). وبعد ثلاثة أو أربعة أيام من الاضطرابات، ذهب القناصل الأجانب مجتمعين إلى القاضي وهددوا بأنه إذا لم تتوقف أعمال الشغب، فإنهم سيغادرون المدينة. وبعد ذلك، «هدّأ القاضي غضب الناس» بوسائل لم تعرف(**). وكان وجود البحارة من شمال أفريقيا أو القبطان باشا وأسطوله في الميناء يثير الاضطرابات غالبا، ذلك لأن البحارة السكارى كانوا عادة يهاجمون الفرنجة أو كنائسهم الواقعة في شارع الفرنجة[118].

في أثناء حرب الاتحاد المقدس بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبولندا والبندقية من جانب والإمبراطورية العثمانية من جانب آخر، في الأعوام 1683 - 1699، حين اخترقت الجيوش النمساوية والبولندية الأراضي العثمانية في البلقان، سارعت البندقية التي لم تكن قوة منهَكة بحال من الأحوال إلى غزو معظم اليونان، وحتى لويس الرابع عشر أرسل جواسيسه لتحديد المدن العثمانية الأسهل في انتزاعها(***). وفي الثامن والعشرين من أبريل 1694، استولى أربعة عشر ألف جندي

(*) «السيد الكبير» و«عظيم الترك» كانا من ألقاب السلطان العثماني بين الأوروبيين. [المترجم].

(**) بمعنى أنه ربما كان المحرض الحقيقي للاضطرابات، ولذلك هدأت بأوامره. [المترجم].

(***) ربما بسبب إحدى معارك هذه الحرب، أعدم شيطان إبراهيم الذي ورد ذكره آنفا. [المترجم].

بندقي على خيوس وطردوا سكانها المسلمين وهددوا سميرنا نفسها. كانت دفاعات سميرنا، كما لاحظ غالاند في العام 1678، ضعيفة مثل معظم المدن العثمانية. لكن لو قررت البندقية مهاجمة المدينة، فربما كان المسلمون ينفذون مذبحة انتقامية بحق المسيحيين، فضلا عن نهب المستودعات. وهنا بدأ النظام المشرقي سريعا في العمل. فأقنع القنصل الفرنسي، ربما بمعرفة السلطات العثمانية، وبالتأكيد بموافقة نظيريه الإنجليزي والهولندي، أمير البحر البندقي بسحب أسطوله[119]. وكذلك مرت الحرب في أوروبا بين فرنسا وإنجلترا وهولندا بسلام في سميرنا، إذ حالت إمكانية هجوم المسلمين على مسيحيي سميرنا هنا أيضا دون الهجوم من جانب أي قوة أجنبية، فكانت في حقيقة الأمر ضمانا للمدينة كاملة، إذ أدى الخوف من المذبحة إلى الحؤول دون الغزو[120].

ووقعت النتيجة الوحيدة لتلك الحروب والتهديدات على خيوس، التي تخلت عنها البندقية عند وصول أسطول عثماني في فبراير 1695، وتدهورت أوضاع الكاثوليك، فشُنق بعضهم، ودُمِّرت كنائسهم أو حُوِّلت إلى مساجد أو كنائس أرثوذكسية. وحظرت السلطات العثمانية على الكاثوليك ارتداء القبعات أو اللباس الجنوي وألزمتهم بأداء التحية للمسلمين[121].

***

هيمنت فرنسا إبان القرن الثامن عشر على التجارة الخارجية - وكذلك العلاقات الخارجية - للإمبراطورية العثمانية. وعلى الرغم من أن تجارة المشرق تراجعت بالأرقام النسبية مقارنة بالتجارة العالمية، فقد غدت سميرنا أكبر وأغنى ميناء في الإمبراطورية، حتى فاقت القسطنطينية نفسها. من أدلة ذلك أنه في الفترة من 1748 إلى 1789، كانت سفينة واحدة من كل أربع سفن تغادر مارسيليا تذهب إلى سميرنا، الأكبر بين جميع الموانئ الأجنبية بالنسبة إلى التجارة الدولية الفرنسية. وأدت تجارة سميرنا إلى تعزيز ارتباطها بأوروبا أكثر منها بالإمبراطورية نفسها. فقد قُدِّرت تجارة سميرنا مع فرنسا بعشرين مليون فرنك فرنسي، ومع القسطنطينية بسبعة ملايين. وبحلول العام 1740، كان هناك رصيف على طول البحر «تأتي إليه المراكب الصغيرة وتُحمِّل مباشرة»[122].

لايزال لبعض التجار الذين جاءوا إلى سميرنا من فرنسا وهولندا إبان القرن الثامن

عشر، أحفاد يتاجرون هناك اليوم، مثل عائلات غويز Guys وباغي Pagy وجيرو Giraud وكوين Keun. يتحدر الكثير من أفرع عائلة جيرو من جان باتيست جيرو، الذي جاء إلى سميرنا من أنتيب في العام 1780(*)، وتزوج في العام 1787 من هيلين Helene ابنة قنصل البندقية الأخير لويجي كورتازي Luigi Cortazzi[123]، وورث حماه بأن أصبح القنصل النمساوي، حين ضمت النمسا البندقية. وبذلك ارتبط «المشرق الثاني» الناطق بالفرنسية الذي تشكل إبان القرن التاسع عشر من خلال الزواج بـ «المشرق الأول» الناطق بالإيطالية الذي ساد القرون السابقة[124]. أما عائلات أليوتي Aliotti وداندريا d'Andria وماركوبولي Marcopoli الكاثوليكية، فكانت من أصول بندقية أو جنوية، جاءت من خيوس إلى سميرنا إبان أواخر القرن الثامن عشر أو أوائل القرن التاسع عشر، وعمل أفرادها قناصل وتجارا، غالبا في الوقت نفسه.

ومع أن سميرنا ازدهرت بعد العام 1750، فقد بدا أن الإمبراطورية العثمانية على شفا التفكك. إذ بدأت الإمبراطورية تراجعها الطويل في البلقان، وكذلك توقف اعتناق الإسلام الذي ظل شائعا إبان القرن السابع عشر. وبعد تجديد الامتيازات في العام 1740، حازت فرنسا امتيازات أكبر من ذي قبل، ومعها مكافآت لأتباعها. كانت الإمبراطورية واعية إلى أنها تضعف، ولذلك بدأ المسؤولون العثمانيون أنفسهم يستخدمون سفن النقل الفرنسية بدلا من السفن العثمانية، فضلا على استخدام القناصل والسفراء الفرنسيين وسطاء مع حكومتهم العثمانية[125].

جاب الأدميرال دي بوفريمون de Bauffremont، الذي أصبح لاحقا «نائب أمير البحر في بحار المشرق»، المشرق بالأسطول الفرنسي في العام 1766. وثمة صورة رائعة توجد الآن في متحف البحرية في باريس، تحيي ذكرى موكبه خلال سميرنا على طول شارع الفرنجة لزيارة المتسلم، أو الحاكم، في الثامن والعشرين من سبتمبر 1766، ترافقه الانكشارية وضباط البحرية وترجمانات وتجار فرنسيون، وترقبه «زوجة القنصل الفرنسي ومعها سيدات الأمة» و«سميرنا كلها». وقد توقف موكبه كثيرا ليسمح للخدم الأتراك برش العطر وماء زهرة البرتقال على أمير البحر الفرنسي.

(*) أنتيب Antibes مدينة فرنسية تقع في مقاطعة الألب البحرية في أقصى جنوب شرق فرنسا. [المترجم].

تمجد هذه الصورة التحالف العثماني - الفرنسي. وكان القبطان باشا قد استقبل بوفريمون منذ وقت قصير على متن بارجته بالقهوة والشربات والمربى وعروض الخدمة «لي شخصيا ولسفن الملك... يفعل السيد الكبير كل ما في وسعه من أجل صديقه إمبراطور فرنسا».

غير أن بوفريمون لم يعد يثق في مستقبل الإمبراطورية. ففي «سجل رحلته»، ومع أنه امتدح سميرنا على مباهجها و«حلاوة روحها»، كتب «في كل جانب ترى ثورات... وكل شيء يعلن تدهورها، وربما تأتي النهاية أقرب مما نعتقد... والسيد الكبير مكروه جدا من رعاياه»[126]. ليس من المفاجئ - إذن - أن يحدث تدخل خارجي في الإمبراطورية العثمانية، بل المفاجئ أنه لم يحدث سريعا.

وفي العام 1768 أعلنت الإمبراطورية العثمانية الحرب على روسيا للمرة الثالثة منذ العام 1700، بسبب الغضب من التدخل الروسي في بولندا وبتحريض من الحكومة الفرنسية وتشجيع من مواطنيها العثمانيين. وفي واحدة من أروع المفاخر البحرية في القرن، أبحر أسطول روسي في العام 1769 من سانت بطرسبورغ حول أوروبا عبر مضيق جبل طارق إلى شرق البحر الأبيض المتوسط، واتخذ من جزيرة باروس ببحر إيجة قاعدة له. كان ذلك بداية نهاية الإمبراطورية العثمانية. إذ لم تعد القوات العثمانية قادرة على إظهار المهارة والشجاعة التي مكّنتها من هزيمة روسيا في العام 1711 والبندقية في العام 1715 والمملكة الهابسبرغية في العام 1739.

ووقعت ثورة في شبه جزيرة بيلوبونيز Peloponnese بمساعدة روسية، ارتكبت فيها أعمال وحشية من الجانبين. هرب المسلمون واليونانيون كلاهما إلى أمان الأناضول[127]. وسيطرت روسيا على شرق البحر الأبيض المتوسط. وفي السابع من يوليو 1770، أحرقت أربع وعشرون سفينة روسية الأسطول العثماني في جشمه Çeşme الواقعة على بعد خمسين ميلا من سميرنا. كانت الهزيمة في بحر إيجة مرادفا لإهراق الدماء في شوارع سميرنا، لأن «تعصب» اليونانيين لإمبراطورة روسيا كاترين الثانية كان أمرا معروفا[128]. فقد آمنوا بنبوءات قديمة تقول إن تحررهم سيحدث على أيدي جنس أشقر من الشمال وإن الإمبراطور المرمري الذي نام تحت الباب الذهبي للقسطنطينية سينهض

ويستعيد الإمبراطورية البيزنطية[129](*). وفي سميرنا في الثامن من يوليو، قتل المسلمون آلاف اليونانيين والترجمان الهولندي، بتحريض من مسؤول متعصب بالجمرك يدعى إبراهيم أغا. ولجأ الكثير من المسيحيين إلى السفن الأجنبية الراسية في الميناء[130]. وعلى نحو ما حدث مع البنادقة في العام 1694، وللأسباب نفسها، امتنع الأسطول الروسي في العام 1770 عن مهاجمة سميرنا لإنقاذ أرواح المسيحيين. ففي هذه المدينة الآسيوية، كانت أوروبا واقعا سياسيا. وفي الثاني من أغسطس، ذكر ضابط روسي أن «سفينة صغيرة وصلت إلى مؤخرة سفينة أمير البحر ممتلئة بالتجار الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين أرسلهم قناصل سميرنا ليتوسلوا للكونت أورلوف Count Orloff (القائد الروسي) ألا يأتي بأسطوله قبالة المدينة، لأنهم يخشون من أن يؤدي ذلك إلى مذبحة عامة للمسيحيين جميعا»[131]. ومع ذلك فقد ظل يلوح في الأفق ما أسماه القناصل في رسالة مشتركة إلى سفرائهم في العاصمة «فوضى مطلقة» ومزيد من المذابح من جانب «غوغاء المدينة»[132]. إذ تحولت سميرنا من مأوى للتجارة إلى برميل بارود.

وفي يونيو 1772 ومرة أخرى ولخمــــسة أشهر - من أكتوبر 1773 إلى فبراير 1774 - استولت السفن الروسية على بيروت، ليكون أول ميناء مشرقي على البر الرئيس تحتله قوة أجنبية منذ الحملات الصليبية. كانت بيروت في ذلك الوقت مدينة يقطنها زهاء خمسة آلاف شخص، كان حصنها الرئيس قلعة صليبية سابقة بُنيت بحجارة من المعابد الرومانية. نهب الروس المدينة، وأجبروا أهلها على الركوع أمام لوحة لكاترين الثانية نُصِبت فوق الباب الرئيس بسور المدينة[133].

كما هددت السفن الروسية القسطنطينية نفسها. ولذلك رُمِّمت حصون البسفور والدردنيل على عجل بمساعدة مهندسين فرنسيين أتى بهم السفير الفرنسي كومت دي سان بريست Comte de Saint Priest، وكذلك ساعد القنصل الفرنسي في سميرنا في

(*) بعد فتح القسطنطينية، راجت أسطورة بين اليونانيين تقول إن الكاهن الذي كان يقيم القداس الذي قطعه الفتح العثماني قد تخفى في شكل عمود مرمري بالكنيسة، وأنه حين تأتي ساعة التحرير، سيخرج من مخبأه بوجه متألق وفي يده كأس ويستأنف القداس. وتقول الأسطورة أيضا إن الإمبراطور الأخير لم يمت، بل تحول إلى مرمر وأخذ ينام في كهف في باطن الأرض تحت الباب الذهبي للمدينة الذي كان النقطة التقليدية لدخول الأباطرة البيزنطيين المنتصرين، وإنه في يوم من الأيام سيسمع نداء من السماء ويعطيه أحد الملائكة سيفا ويعيده إلى الحياة ويمكنه من طرد الأتراك بعيدا. بدافع الخوف من هذه النبوءة، شيّد العثمانيون جدارا حول الباب الذهبي للمدينة. [المترجم].

تنظيم ترميم الحصون التي تحمي المدينة. كما اعتمد تزويد العاصمة بالمواد الغذائية أيضا على السفير الفرنسي الذي نظم نقل القمح من سالونيك على متن سفن فرنسية، إذ كانت السفن العثمانية عرضة لأن يستولي الأسطول الروسي عليها[134].

سمحت معاهدة كيتشوك كاينارجي Kuchuk Kainardji التي وُقّعت في الحادي والعشرين من يوليو 1774 لروسيا بإقامة قنصليات في أنحاء الإمبراطورية كافة، وتأسيسا على إساءة تفسير متعمدة لإحدى مواد المعاهدة، بدأت روسيا في الادعاء بأن من حقها حماية المسيحيين الأرثوذكس، مع أن المعاهدة لم تعطِ الحكومة الروسية غير الحق في بناء كنيسة أرثوذكسية روسية في بايوغلو أو بيرا[135]. أوضحت الهزائم العثمانية في حرب الأعوام 1768 - 1774 ضعف الإمبراطورية العثمانية الذي تحدث عنه الرحالة والديبلوماسيون منذ وقت طويل. فكانت الحكومة العثمانية قد ركنت إلى السلبية بفعل الخوف ونقص المعلومات، وأخذ السلطان يحيل القرارات إلى السلطات الدينية، وبدأ الصدر الأعظم والمجالس الاستشارية المختلفة تتخوف من اتخاذ القرارات واعتمدوا على نصائح السفير الفرنسي[136].

***

في العام 1776، جاء بارون دي توت Baron de Tott، الضابط الفرنسي الذي ساعد في إصلاح حصون البسفور في العام 1772، في مهمة «التفتيش على موانئ المشرق»، بينما أخفى في نفسه غرضا سريا، كان هذا الغرض تعليمات شفهية من لويس السادس عشر ووزير البحرية، ربما لم يعرفها حتى بقية مسؤولي الحكومة الفرنسية. فقد أُمِر دي توت بالبحث عن طرق لغزو مصر وبيروت، بعد أن تكشفت الأهمية الإستراتيجية للأخيرة عند استيلاء الروس عليها. وجاء تقرير توت يعكس رغبته ورغبة سيده أكثر مما يعكس الواقع الإستراتيجي.

كانت الإسكندرية، وهي الباب إلى مصر، يحميها «حصن وحيد، أبراجه سيئة البناء، تستطيع سفينة واحدة من سفن الملك أن تجبرها على الاستسلام في الحال»[137]. والمدينة التي كانت ميناء دوليا مزدهرا حتى القرن السادس عشر، كان عدد سكانها حينذاك زهاء خمسة عشر ألفا، مع أن سفنا كثيرة كانت لاتزال تأتي إلى الميناء، يحمل أغلبيتها حجاجا في طريقهم من شمال أفريقيا إلى مكة. ونظرا إلى أن الإسكندرية ميناء معرض للهجوم من جانب الأوروبيين، فإن العيش فيها كان شكلا من أشكال الجهاد، ما جعل المدينة أكثر جاذبية للمسلمين المتدينين. وقد

بُنيت مساجد المدينة حول أضرحة رجال من الصالحين المسلمين الذين ماتوا في الإسكندرية مثل أبي العباس المرسي (من مرسية الأندلسية) وسيدي بشر وسيدي جابر[138](*). وكان معظم الأهالي يعيشون على اللسان الضيق خارج أسوار المدينة القديمة. وكان الميناء الحديث محاطا بأطلال من الأعمدة المكسرة والصهاريج المدفونة، وهي بقايا القرون التي كانت فيها الإسكندرية بفنارها ومكتبتها ومتحفها أول مدينة كوزموبوليتانية ومركز التجارة والعلم في العالم الكلاسيكي(**).

كانت مصر نفسها فريسة لسوء الإدارة على مدار قرون في ظل السيطرة العثمانية، وتمثل هذا السوء في المماليك، وهم النخبة العسكرية المجندة من العبيد القادمين من القوقاز. أكد بارون دي توت أن «الغزو سيحدث بمنتهى السهولة»، ويمكن السيطرة على البلاد بخمسة عشر ألف جندي فرنسي. رجع توت إلى فرنسا بخرائط مفصلة للمدن والحصون وخطط للعمليات، بقيت إلى ما بعد الثورة الفرنسية وأُخِذت من ملفات الوزارة في العام 1798 لكي تستخدمها حملة بونابرت على مصر. ولاحقا، نشر بارون دي توت مذكرات وصف الأتراك فيها بأنهم حمقى همجيون، كانت إمبراطوريتهم على وشك الزوال. على أن الخطط الفرنسية كان أمرها قد ذاع، حتى إن القنصلية الفرنسية حين نُقلت من القاهرة إلى الإسكندرية في العام 1777، كان الكثيرون في مصر على يقين من أن ذلك علامة على قرب الغزو الفرنسي[139].

لكن من سميرنا، كان مستقبل الإمبراطورية يبدو مختلفا. فالقنصل العام الفرنسي في سميرنا شارل كلود دي بيسونيل Charles-Claude de Peyssonnel جاء من عائلة من الترجمانات والقناصل من مارسيليا. وكان أبوه قنصلا في سميرنا في الفترة 1747 - 1755، وخدم هو نفسه هناك في الفترة 1766 - 1787.

تجاوز بيسونيل في كتاباته الأفكار النمطية حول الهمجية العثمانية والتفوق الغربي. وشدد على لهفة الحكومة العثمانية إلى التحالف الفرنسي والفنيين الفرنسيين، ورغبة

(*) ثلاثتهم - المرسي وسيدي بشر وسيدي جابر - من أصول أندلسية ومغاربية، إذ كانت مصر عموما، والإسكندرية خصوصا، لوقوعها على طريق الحج بالنسبة إلى الأندلسيين والمغاربة، محطة وربما مستقرا لهم. وربما تكون الكلمة «سيدي» بكسر السين في الأسماء «سيدي بشر» و«سيدي جابر» هي لقب الوجهاء والقادة الأندلسيين والمغاربة مثل «سيدي عبدالقادر» و«سيدي حامد الجيلي» الذي لايزال واضحا في أسماء البلدات والمدن المغاربية مثل «سيدي بنور» و«سيدي بلعباس» و«سيدي بوزيد» في المغرب والجزائر وتونس على التوالي. وكانت الإسكندرية أيضا من المدن التي استقبلت المطرودين من الأندلس في الأعوام 1609 - 1614. [المترجم].

(**) راجع حاشية سابقة في الفصل الأول حول العصر القديم الكلاسيكي. [المترجم].

الأتراك في التواصل مع الغربيين التي تجلت في حضورهم حفلات الاستقبال في السفارة وتبنيهم عادات المأكل والمشرب الأجنبية. وذهب قبل كل شيء إلى أنهم أبعد ما يكونون عن الهمجية، إذ «ربما لا توجد حكومة في العالم أكثر إنسانية من الأتراك»، فهي تقمع السكان بدرجة أقل من غيرها، وتطلب منهم ضرائب أقل من غيرها، وتفرض على التجارة رسوما أكثر اعتدالا من غيرها. وشرح السفير بعناية لماذا قُتل المترجمون في بعض الأوقات[140]. وشبّه الإمبراطورية بـ«شجرة ثابتة بقوة يمكن أن تجف في رعاية بستاني مهمل وعديم الخبرة، لكن في حال توافر زارع فطن وماهر يمكن في فترة وجيزة أن تستعيد كل حيويتها وشبابها وطراوتها وترفع رأسها عزيزة فوق كل ما يحيط بها»[141].

3

سميرنا
المذابح والمرح

لم أرَ قط في حياتي مثل هذا
الضحك والمرح المنفلتين يجتمعان
مع كل هذا الحسن الطبيعي.

بولين، كونتيسة نوستيتز
Pauline Countess Nostitz, 1835

في العام 1782 بدأت روسيا والنمسا التخطيط لتقسيم الإمبراطورية العثمانية، وكانت كاترين الثانية تطمح في أن يتوّج حفيدها قسطنطين إمبراطورا في القسطنطينية(*). خرجت سميرنا سالمة من الحرب العثمانية ضد الروس والنمساويين في الأعوام 1787-1792،

«أدى استقلال اليونان إلى هجرة اليونانيين إلى سميرنا، إذ انتشرت أعمال السرقة وقطع الطرق في اليونان المستقلة أكثر منها في الإمبراطورية العثمانية، ولذا فضّل آلاف اليونانيين «الأنين تحت النير التركي» والازدهار في الإمبراطورية على الاستقلال والفقر»

(*) كان اسم الحفيد في ذاته «برنامجا سياسيا»، إذ هو «قسطنطين» من «القسطنطينية» وعلى اسم الإمبراطورين البيزنطيين: مؤسس المدينة قسطنطين الأكبر، ومن انتزع منه الأتراك المدينة قسطنطين الحادي عشر. وقد عهدت كاترين بالطفل إلى مربيات يونانيات لتنشئته. راجع كتاب «القسطنطينية - المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924» الصادر عن سلسلة عالم المعرفة، عددي يوليو وأغسطس 2015. [المترجم].

إذ أدى التحالف العثماني مع السويد إلى منع الأسطول الروسي من دخول البحر الأبيض المتوسط كما حدث في العام 1769. وأثبتت الإمبراطورية العثمانية قدرتها على الإفلات، بينما تغيرت معالم أوروبا كثيرا، إذ قُسِّمت بولندا بين روسيا والنمسا وبروسيا. وفي العام 1792 أطيح بالملكية الفرنسية التي كثيرا ما تنبأ رجالها من أمثال بوفريمون وتوت بزوال الإمبراطورية العثمانية، وشهدت باريس حقبة من الإرهاب.

وفي العام 1797 عاشت سميرنا حقبتها الخاصة من الإرهاب، التي كانت تحذيرا ثانيا، بعد مذبحة العام 1770، من هشاشة المشرق. إذ أدت جريمة قتل لا تترتب عليها عواقب كارثية في الأماكن الأخرى، إلى انفجار الأوضاع في سميرنا. ففي المشرق، كانت التوترات بين الجاليات تصل إلى مستوى من الحدة يُعْجِز السلطات عن إيقاف أعمال القتل والنهب. وكشف اندلاع العنف أيضا عن مدى السخط المحلي من إساءة استخدام الامتيازات - التي كانت حجر الأساس للمشرق - لحماية المجرمين. فمع نهاية القرن الثامن عشر، كانت السفارات والقنصليات الأجنبية تبيع شهادات حماية ديبلوماسية تسمى براءات berats - شملت الإعفاء من الضرائب العثمانية - لمئات المسيحيين واليهود، والمسلمين أيضا في بعض الأحيان، الباحثين عن الأمن والحماية، بعد أن كان هذا الإعفاء مقصورا في السابق على موظفي السفارات والقنصليات، وهو دليل آخر على تآكل الثقة في قوة الإمبراطورية العثمانية. من ذلك على سبيل المثال أن عائلة كانيتي اليهودية القاطنة في إدرنة، أسلاف الكاتب إلياس كانيتي(*)، اشترت شهادة حماية من السفارة الهولندية. ويقال إن السفير البريطاني سير روبرت ليستون Robert Liston ربح ثلاثة أو أربعة آلاف جنيه إسترليني بهذه الطريقة[1].

وفي العام 1796 بدأ «السلافونيون المتشردون» (بالدرجة الأولى الرعايا الدلماسيون للبندقية)(**) في التوافد بأعداد كبيرة على سميرنا، ما أدى إلى زيادة عدد الحانات و«حوانيت الكحول» التي تمثل «حضّانات للصوص»[2]. وفي أنحاء الإمبراطورية كافة

(*) إلياس كانيتي Elias Canetti (من 25 يوليو 1905 إلى 14 أغسطس 1994) كاتب وروائي ألماني، ولد في بلغاريا، وعاش بقية حياته في بريطانيا، حصل على جائزة نوبل للأدب في العام 1981. [المترجم].

(**) السلافونيون نسبة إلى سلافونيا Sclavonia (أو Slavonia) وهي منطقة تاريخية في كرواتيا تقع بين نهري درافا Drava وسافا Sava، ضمها العثمانيون في الأعوام 1536-1552، وانتزعتها منهم الإمبراطورية الهابسبرغية في العام 1699، انتقلت من دولة إلى أخرى حتى عادت إلى كرواتيا في العام 1995 (سلافونيا الغربية) والعام 1998 (سلافونيا الشرقية) بعد استيلاء صربيا عليها عقب تفكك يوغوسلافيا والحرب الأهلية. [المترجم].

تحوّل الانكشاريون المتمركزون في المدن الكبرى للحفاظ على القانون والنظام، إلى مثيرين للفوضى والابتزاز. وكان اجتماع مصدري الفوضى قاتلا بالفعل.

في الثاني عشر من يناير 1797، في أثناء عرض في المسرح المحلي لبهلوانات إيطاليين كانوا يرتحلون تحت حماية القنصل الإمبراطوري (النمساوي)، قُتِل حارس انكشاري على أيدي يونانيَين اثنين من جزيرة كيفالونيا Cephalonia (ويعدون بالتالي من رعايا البندقية) أرادا أن يشاهدا العرض من دون أن يدفعا ثمن التذاكر. مرت عملية القتل بلا عقاب، على الرغم من مطالب السلطات. وأنكر القنصلان البندقي والروسي (كان الأخير مشتبها به لأن الكثير من اليونانيين كانوا يدعون الحماية الروسية) وترجماناتهما أي معرفة بمكان القاتلين - ماتيو وأنطوان بانا Mathieu and Antoine Pana - اللذين هربا بزورق. فسادت المدينة حالة من الهياج، بسبب السخط الذي عمّها منذ وقت طويل من إجرام البنادقة. وقال القاضي للترجمانات إنه غير مسؤول عن العواقب إن لم يسلموا القاتلين.

وفي الخامس عشر من يناير، جاب الانكشاريون شوارع المدينة بقميص رفيقهم المقتول الملطخ بالدماء «مهددين بإهراق دم المسيحيين»، بتعبير القنصل البريطاني فرانسيس ويري Francis Werry. ودخل ستمائة انكشاري شارع الفرنجة بـ«حزم من الحطب»، وأشعلوا النار في خان مسيحي على أحد طرفي الشارع، وبدأوا يقتلون أي شخص يقع في أيديهم، ومنعوا رجال الإطفاء ومعداتهم (منها المعدات المملوكة للقنصلية الفرنسية) الذين هرعوا لإطفاء الحرائق، من الاقتراب. ساعدت الرياح الجنوبية في نشر الحرائق في الحي الفرنجي واليوناني والأرمني. وبتعبير القنصل العام الإمبراطوري بارون دي كريمر Baron de Kraemer الذي حث نظراءه على تسليم القاتلين، فإن «كل ما يأتي إلى مسامعك من كل جانب هو أصوات إطلاق نار مصحوبة بصيحات مرعبة، تشكل مع الصرخات المروعة لمن يموتون ويُجرحون مشهدا بشعا». لم ينجُ غير أربعة بيوت أوروبية ومستودعين بريطانيين، بفضل بعض الانكشارية المخلصين، ودُمِّر شارع الفرنجة كاملا والكثير من الكنائس وتسع قنصليات. وأزهقت أرواح زهاء ألف وخمسمائة مسيحي، معظمهم من اليونانيين، كان من بينهم مدرسة كاملة أحرقت بستين تلميذا كانوا بداخلها. وبيع الأطفال المسيحيون عبيدا. ولجأ الفرنجة جميعا وكثيرون غيرهم إلى السفن الأجنبية الراسية

في الخليج. وبحلول المساء، وحين لم يتبقَ أحد للذبح، انسحب الانكشاريون إلى مبنى الجمرك لمراقبة تقدم النيران التي أضرموها.

نزلت أطقم السفن البندقية وبعض السفن الروسية والكثير من الدلماسيين إلى المدينة ليس لإطفاء الحرائق وإسعاف المنكوبين، بل ليشاركوا في عمليات النهب والقتل، وأخذوا يقتحمون المستودعات المتبقية بحثا عن الغنائم. كتب ويري «إننا في زمن السِّلم والتمتع بحماية الامتيازات عوملنا معاملة لا تصدر إلا عن همج بحق أعدائهم في أبشع الحروب. ولم يكن السلوك الوحشي من جانب أطقم السفن الراسية في الخليج أقل همجية من سلوك الأهالي». بدت السلطات إما عاجزة وإما جبانة أو حاقدة. فـ«على النقيض من كل الحالات السابقة، لم يأتِ شيخ أو رجل مسلم أو مسؤول تركي» للمساعدة في إطفاء الحرائق أو حماية المسيحيين. و«كانت سلامتنا الشخصية في ذلك اليوم المشؤوم بيد المصادفة وحدها»[3]. وفي تحرك معتاد لتبييض السجل التاريخي، أجبرت السلطات المحلية في اليوم التالي السكان المحليين على توقيع عريضة إلى الحكومة المركزية تقر بأن الأحداث كانت عملا عابرا غير مؤثر[4].

وأخيرا جاءت المساعدة من واحدة من عائلات الوجهاء وملتزمي الضرائب التي تتوافر في أبنائها بعض سمات النبالة الوراثية، والذين كانوا قد بدأوا في تحديث بعض الولايات العثمانية، وهي عائلة قرة عثمان أوغلو Karaosmanoglu. بفضل إدارة هذه العائلة لولاية أيدين منذ أواخر القرن السابع عشر، كان السكان فيها - كما قيل- «يبدون في حال أفضل، إن لم يكونوا أفضل فعلا من غيرهم في أرجاء البلاد كافة»[5]. كانت هذه العائلة التي كانت من أغنى العائلات في الإمبراطورية، والتي سيطرت على معظم جنوب غرب الأناضول وتجارة القوافل فيه، والمسؤولة عن جمع الضرائب للحكومة المركزية، والتي شغل أبناؤها منصب المتسلم في مانيسا على مدار معظم القرن الثامن عشر حتى العام 1816، قد دأبت على دعوة آلاف اليونانيين من الجزر(*) وشبه جزيرة بيلوبونيز للعمل في أراضيهم، حتى إنهم شيّدوا لهم كنائس. وفي سميرنا، شيّدت العائلة خانين. كان القنصل الفرنسي بيسونيل يدعوهم إلى الحفلات والمسرحيات، ويرسل إليهم طبيبه الخاص عند الضرورة. ومن جانبه،

(*) تشير الجزر في المطلق إلى جزر بحر إيجة مثل خيوس وباروس. [المترجم].

كان الحاج مصطفى أغا قرة عثمان زاده Karaosrnanzade Hajj Mustafa Aga يدعو بيسونيل إلى حفلات المبارزة. وكان يختم خطاباته بالتوقيع: «إلى صديقي اللامع والحكيم والمبجل والمخلص والصادق وقنصل فرنسا الأشهر في سميرنا»، «أفاض الله عليه نعمه ومدّ أجله، وتحياتي إلى زوجة القنصل وابنته وأبنائه»[6]. سبق لعائلة قرة عثمان أوغلو أن ساعدت في حماية سميرنا من قطاع الطرق في العام 1739، واستعادة النظام في العام 1770، وأيدوا السلطان الإصلاحي سليم الثالث. وفي العام 1792، عُيّن أحد أفراد العائلة قابجي باشي(*). وكذلك أمدت العائلة الحكومة المركزية بألفين وخمسمائة جندي. وحين أرسل إليهم القناصل خطابا يناشدونهم التدخل، أعادوا النظام، وعاقبوا الخارجين على القانون، وفرضوا شكلا جديدا من الحكم في المدينة[7].

«لقد انتهت سميرنا... ضاعت سميرنا إلى الأبد»، هكذا كتب ترجمان البندقية جوزيف فرانشيسكي Joseph Franceschi وهو يتوسل بالدموع لإعفائه من وظيفته. ألقى الترجمان باللائمة بالدرجة الأولى على «السلافونيين والبنادقة»، «لأنهم منذ وقت طويل يثيرون الأتراك»، وهو حكم اتفق معه فيه ربابنة السفن الروسية[8]. وبأمر من الباب العالي في الخامس عشر من مايو، طُرِد من سميرنا والموانئ البحرية الأخرى كل الرعايا البنادقة غير المتزوجين القادمين من الجزر الأيونية ودلماسيا الذين وصفهم المرسوم بأنهم «أناس عصاة وهمج اعتادوا الأفعال الشائنة»(**). وفي التاسع عشر من مايو، أُعدِم ثمانية عشر تركيا وثلاثة بنادقة. وحُظِر على الأتراك حمل الأسلحة[9]. وجاء زوال جمهورية البندقية على يدي الجنرال بونابرت، وضمها إلى المملكة الهابسبرغية في العام نفسه لينهي قرونا من حضور البندقية في المشرق. ومن ذلك الحين فصاعدا، وُضِع البنادقة والدلماسيون، بعد أن أصبحوا رعايا نمساويين، تحت سيطرة أشد صرامة، وإبان القرن التاسع عشر، حل المالطيون محلهم في إثارة الشغب والقلاقل في موانئ المشرق.

(*) القابجي باشي kapici bashi هو حاجب السلطان أو كبير البوابين، ربما كان مقابله في البلاط المصري هو الشماشرجي الذي يهتم بغرف نومَ الحاكم وملابسه الخاصة وحياته الاجتماعية. [المترجم].

(**) الجزر الأيونية سبع جزر كبيرة وعدد من الجزر الصغيرة قريبة من الساحل الغربي لليونان في البحر الأيوني الواصل بين البحر الأبيض المتوسط جنوبا والبحر الأدرياتيكي شمالا، وتحده غربا جنوب إيطاليا وجزيرة صقلية وشرقا ألبانيا إلى الشمال واليونان إلى الجنوب. [المترجم].

استعادت سميرنا ازدهارها وهدوءها سريعا بفضل موقعها. وذهب أحد التقديرات إلى أن عدد سكانها في العام 1813 بلغ زهاء مائة وثلاثين ألفا: سبعين ألف تركي، وثلاثين ألف يوناني، وخمسة عشر ألف أرمني، وعشرة آلاف يهودي، ونحو خمسة آلاف فرنجي[10].

في ذلك العام، ذكر مصرفي إنجليزي يدعى جي أو هانسون J. O. Hanson، لم يشهد أهوال العام 1797، أن «شرطة سميرنا جيدة والمدينة هادئة عموما. ولا يُسمَع هنا عن جرائم القتل إلا نادرا ... والسماء تظل صافية لأشهر طويلة»[11]. في تلك الفترة، كان التجار من سراييفو إلى دمشق يعلقون مناظر مرسومة للقسطنطينية على جدران بيوتهم الحجرية أو الخشبية الفخمة، إذ كانت القسطنطينية مركز عالمهم. ويمكن تفسير التماثل الملحوظ في الأسلوب عبر المناطق المختلفة للإمبراطورية الشاسعة بأن هذه الجداريات كانت ترسمها فرق من الحرفيين المتجولين من جبال مقدونيا، انتقلوا من راع إلى آخر. بينما في سميرنا، رُسِمت مناظر لسميرنا نفسها على المنبر الجديد لجامع القلعة وعلى سبيلين في خانين جديدين: دونرتاش Donertas (1805) وكاكال أوغلو (1814-1813)[12] Cakaloglu.

مرّ شاتوبريان بسميرنا في طريقه للحج بالقدس(*)، ووصفها بأنها «باريس أخرى» و«واحة الحضارة، وتَدْمُر في وسط صحاري الهمجية». أعجب شاتوبريان بزوجات التجار اللاتي وجدهن يرتدين أحدث الأزياء من شارع فوبور سان أونوريه [13](**). وأثنى آخرون على طعام المدينة، مثل جي إم تانكوين J. M. Tancoigne الذي كتب: «لم أرَ في أي مكان آخر بالمشرق موائد تضم كل هذه الاختيارات وتلك الوفرة التي رأيتها في سميرنا»[14]. وكما فعل زوار آخرون، وثّق تانكوين أنه بحلول العام 1800، إن لم يكن قبل ذلك، كانت سميرنا قد أصبحت وطنا للفرنجة مثل مارسيليا تماما. فمن خلال الثقة التي تولدها الثروة، شعر الفرنجة بأن سميرنا مدينتهم مثل الأتراك

(*) فرانسوا رينيه فيكونت دو شاتوبريان Francois-Rene viconte de Chateaubriand (من 4 سبتمبر 1768 إلى 4 يوليو 1848) كاتب ورجل دولة ودبلوماسي ومؤرخ فرنسي، يعد أحد رواد الرومانسية في الأدب الفرنسي، زار إنجلترا وأمريكا، وطاف ببلاد حوض البحر الأبيض المتوسط - اليونان وإسبانيا وآسيا الصغرى ومصر وفلسطين - وحول رحلته إلى المشرق كتب مؤلفه «الرحلة من باريس إلى القدس». [المترجم].

(**) لايزال شارع فوبور سان أونوريه Rue ue du Faubourg Saint-Honore الباريسي إلى اليوم مركز الموضة والأزياء لفرنسا والعالم. [المترجم].

واليونانيين والأرمن واليهود، وربما أكثر منهم، لأنهم كانوا يسهمون في ازدهارها أكثر من الجميع[15]. وسميرنا حين جعلت أقواما وأديانا مختلفة تشعر بأنها مدينتهم، كانت مدينة كوزموبوليتانية بكل معنى الكلمة.

كَتَبَ هانسون:

> من طول المقام في المدينة، أصبح التجار جزءا من المكان. فكثيرون منهم يتحدثون اللغة التركية [وهو تحسن استجد لم يكن شائعا في الماضي]، وجميعهم يتحدثون اليونانية والفرنسية والإيطالية، ومعظمهم متزوجون من نساء البلاد ويظهرون أمارات الأناقة وكرم الوفادة في تنظيم بيوتهم واستقبال المسافرين. وفي أثناء مقامي في سميرنا، كان من عادة عائلتين تعيشان في المدينة أن تقيما أمسية عامة أسبوعيا.. وقد وجدت هذه الحفلات رائعة جدا.. كنا نلتقي مبكرا من دون مراسم أو شكليات ونقضي المساء في الأغاني والألعاب والورق.. كان التعرف على عائلة واحدة يؤدي حتما إلى معرفة المجتمع كله.

لدى دخولك بيوتهم، كنت تُستقبَل أولا وعلى الفور بالقهوة والحلوى، كما هي العادة في البيوت اليونانية أو التركية، وكانت البيوت تُدفأ بمدفآت فحم تركية[16].

بعد فترة تراجع اقتصادي إبان أوائل القرن التاسع عشر، تعافت ثروات التجار البريطانيين. جاء شارلتون ويتال Charlton Whittall، مؤسس أسرة إنجليزية شهيرة بقيت في سميرنا والقسطنطينية حتى العقد قبل الأخير من القرن العشرين، إلى سميرنا من ليفربول في العام 1809. وسرعان ما كوّن ثروة وتزوج من مادلين جيرو Madeleine Giraud ابنة القنصل النمساوي. وبفضل البيوت الريفية لعائلة ويتال وغيرهم من التجار الأجانب، بحدائقها المعتنى بها جيدا و«مشاتل الزهور الكثيرة فيها»، بدأت بورنوفا وبوكا تقتربان في شكلهما من القرى الإنجليزية أكثر من القرى اليونانية، وإن ظلت بحراس أتراك لإبعاد اللصوص وقطاع الطرق. وفي الصيف، حين كان السميرنيون ينتقلون إلى الريف لتجنب الحرارة وتفشي الطاعون في المدينة، كانت تقام حفلات كل ليلة، ولا تبقى عائلة واحدة في منزلها[17]. وقد تذمر زائر فرنسي، يدعى مكسيم دو كامب Maxime du Camp من «أنه من

المحزن أن مَنْ تهرب منهم في كل مكان [الإنجليز]، تجدهم على غير المتوقع في كل مكان تحت شمس آسيا»[18]. وإلى جانب تكوين الثروات، حققت عائلة ويتال اكتشافات لعملات معدنية قديمة وأنواع جديدة من الحيوانات أو الزهور، مثل زهرة فريتيلاريا ويتالي Fritillaria Whittallii. وفي العام 1906، شارك خمسة أفراد من عائلة ويتال ضمن الفريق التركي في دورة الألعاب الأوليمبية في أثينا.

بعد أحداث العام 1797، أسس الفرنجة مؤسسة خاصة بهم على البحر بجانب القنصلية البريطانية تسمى النادي أو الكازينو. وفي العام 1808، وصف توماس ماكغيل هذا النادي الذي كان يفتح أبوابه كل مساء من الثامنة بأنه «واحد من أفضل الأماكن التي رأيتها تنظيما»، وقد اشتمل على غرفة مطالعة وصحف فرنسية وغرفة بلياردو وطاولات للعب الورق و«عدة غرف صغيرة للمحادثات الخاصة»[19]. كانت قيمة الاشتراك السنوي في النادي خمسة جنيهات إنجليزية، ولم يكن المسافرون يدفعون شيئا إلا إذا طلبوا «نبيذا أو مشروبات كحولية أو عشاء». زار سميرنا لورد بيرون نفسه مع صديقه جون كام هوبهاوس John Cam Hobhouse في الثامن من مارس 1810، في أثناء رحلتهما الطويلة خلال الإمبراطورية العثمانية[20].

في أثناء موسم الكرنفال، كانت تقام في سميرنا حفلات راقصة مرتين أسبوعيا، يحضرها زهاء ثلاثمائة شخص، و«أصحاب البزات الرسمية من القناصل والضباط البحريين من كل الدول» و«سيدات فاتنات» يرتدين ملابس يونانية، كن يصلن بعد الرقص إلى «حالة غير محتشمة». كانت هذه الحفلات أكثر إمتاعا من نظيراتها في القسطنطينية، إذ أفسدت حفلات الأخيرة «الغيرة وإيتيكيت الحاشية المتصلب وفكرة التشامخ الحمقاء»، خاصة إذا حضرها السفراء، والأسوأ لو حضرتها زوجات السفراء بحاشياتهن المصغرة[21].

لكن حتى هذه المؤسسة المخصصة للبهجة لم تنأ بنفسها عن التوترات القومية. كان مسموحا لوجهاء الأتراك بدخول الكازينو. فكان الحاكم يحضر الحفلات الراقصة، ويفضل شرب الرم والبراندي، على أساس أنها - على خلاف النبيذ - لم يحرمها النبي بالاسم[22]. وفي إحدى الحفلات الراقصة التي أقامها القنصل البريطاني، شرب الحاكم التركي نخب ازدهار سميرنا، وكذلك نخب شراكة الفرنجة فيها[23]. ولكن اليونانيين والأرمن واليهود، مهما بلغ ثراؤهم، وعلى رغم سنوات من الالتماسات،

كانوا ممنوعين من دخول الكازينو، وكذلك ربابنة السفن من كل القوميات[24]. فلم تكن التحيزات الاجتماعية أقل حدة من التحيزات العرقية. وفي العام 1819، أسس اليونانيون قبالة كنيسة يونانية في شارع الفرنجة كازينو خاصا بهم، عُرِف باسم النادي اليوناني (تميّز بالقمار برهانات كبيرة)[25].

***

في الوقت نفسه الذي انتحلت فيه سميرنا دور «باريس المشرق»، كانت تتحول مجددا إلى مدينة يونانية كبرى. على أنه لم تكن هناك استمرارية بين المدينة اليونانية الجديدة وماضيها الكلاسيكي أو البيزنطي، إذ كانت التجارة ضمن الإمبراطورية العثمانية ركيزتها. بلغ التجار اليونانيون في سميرنا مستوى من الثراء مكّنهم من إنشاء مدارس يونانية حديثة في العام 1733 والعام 1808 (جزئيا لصون اليونانيين من التبشير الكاثوليكي)[26].

وبعد انتهاء الحرب الروسية - العثمانية في الأعوام 1768 - 1774 تزايدت أعداد اليونانيين القادمين من جزر بحر إيجة للعمل في سميرنا، الذين كان يمكن التعرف عليهم من خلال «عجرفة مشيتهم ومرحهم الصاخب»[27]. كانت اللغة اليونانية المستخدمة في سميرنا أشبه بتلك التي يتحدثونها في الجزر منها بتلك التي يتحدثونها في الأناضول. وقد تجلت الأهمية المتزايدة لليونانيين في بناء كنائس جديدة (أو بالأحرى إعادة بنائها) في الأعوام 1772 و1778 و1799 و1801 و1804، وإن ظلت غير شرعية نظريا وفقا للشريعة الإسلامية[28]. وانتشرت اللغة اليونانية والزوجات والخادمات اليونانيات في سميرنا حتى بدأت العائلات الإنجليزية تتحدث اللغة الإنجليزية بالتنغيم الغنائي الذي يميّز اللغة اليونانية، وبدأت تستخدم في محادثاتها الكثير من الكلمات اليونانية فضلا على الكلمات الفرنسية[29].

كان أدامانتيوس كوراي Adamantios Korais الشخصية البارزة في حركة التنوير اليونانية، وأول من نشر معنى القومية الحديثة بين رفاقه اليونانيين. ولد كوراي في سميرنا في العام 1748، وتلقى تعليمه على يد القس الهولندي برنارد كوين Bernhard Keun، وغادر سميرنا لإطلاق مشروع تجاري في أمستردام في العام 1772، وعاش في باريس من العام 1788 حتى وفاته في العام 1833، وكان حلقة وصل حية بين سميرنا والتنوير الأوروبي والاستقلال اليوناني[30].

كان اليونانيون يراكمون الأموال، فضلا على التعليم. وكان من بين التجار اليونانيين البارزين في المدينة أفراد عائلات رالي Ralli وبالتازي Baltazzi وأرجنتي Argenti. ربح هؤلاء التجار من فتح أوروبا الغربية موانئها أخيرا أمام التجار العثمانيين. وبحلول العام 1782، على أقل تقدير، كانت لهم مكاتب في مارسيليا وتريسته(*). وأخيرا، سمحت الحكومة البريطانية لـ«السفن العثمانية» بالوصول إلى لندن في العام 1797، على رغم معارضة شركة المشرق. كما تعزز صعود اليونانيين بفعل انهيار التجارة الفرنسية بسبب حروب الثورة الفرنسية، والحصار القاري الذي فرضه نابليون على أوروبا، وبفضل وضعيتهم المحايدة باعتبارهم رعايا عثمانيين في أثناء تلك الحروب[31].

وبحلول العام 1803 أعلن كوراي أن اللغة الفرنسية، وهي لغة أوروبا المتعلمة، كانت منتشرة بين اليونانيين، وكذلك اللغة الإيطالية. وأنشئ مزيد من المدارس اليونانية الحديثة، وتُرجِمت كتب أجنبية إلى اليونانية وطُبِعت. وتمتعت بعض المناطق اليونانية التابعة للإمبراطورية العثمانية، مثل بيلوبونيز وهيدرا Hydra وخيوس وآيفاليك Ayvalik على الساحل الإيجي البعيدة عن سميرنا، باستقلالية كبيرة[32].

وبحلول العام 1813، كان هناك أكثر من ستمائة سفينة يملكها يونانيون من الإمبراطورية العثمانية. كما شغل بحارة يونانيون الرتب الدنيا بالأسطول العثماني. وأبحرت السفن اليونانية حتى مونتيفيديو(**)، وحققوا أرباحا ضخمة من شحنات النبيذ والجلود[33]. وفي تحد للتعليمات العثمانية، ظل التجار اليونانيون، حتى حين كانت المجاعة تهدد المناطق اليونانية أو القسطنطينية نفسها، يعملون «بلا رحمة» من أجل الأرباح الضخمة، في تصدير القمح على سفن خفيفة سريعة إلى فرنسا أو جيش دوق ولينغتون في إسبانيا(***). جاء في قصيدة لكاهن يوناني أنهم «امتصوا

(*) تريسته Trieste مدينة وميناء في شمال شرق إيطاليا على خليج بالاسم نفسه بالقرب من حدود إيطاليا مع سلوفينيا، تأثرت على مر تاريخها بوقوعها على تقاطع الطرق بين الثقافات اللاتينية والسلافية والألمانية، كانت قبل انضمامها إلى إيطاليا رابع أكبر مدينة في إمبراطورية النمسا - المجر بعد فيينا وبودابست وبراغ. [المترجم].

(**) مونتيفيديو Montevideo (معناها جبل الرؤية) عاصمة دولة أوروغواي بأمريكا الجنوبية وميناؤها الرئيس. [المترجم].

(***) دوق ولينغتون الأول 1st Duke of Wellington أو الفيلد مارشال آرثر ويلسلي Arthur Wellesley (من 1 مايو 1769 إلى 14 سبتمبر 1828) أحد قادة الجيوش الإنجليزية في الحروب النابليونية وقائدها على ساحة شبه جزيرة أيبيريا من العام 1809، كبّد نابليون عدة هزائم على أرض شبه الجزيرة وعلى تراب فرنسا إلى أن تخلى نابليون عن السلطة. وبعد فرار نابليون من منفاه واستعادته السلطة، كان ولينغتون على رأس الجيش الإنجليزي - إلى جانب الجيش الألماني - الذي سحق نابليون نهائيا في معركة وترلو في العام 1815. [المترجم].

دماء الفقراء كما تفعل وحوش البرية ... ولم يكن أمام الأتراك واليونانيين كليهما إلا أن يتضرعوا إلى الله». كان ليونانيي سميرنا عَلم خاص بهم عبارة عن خمسة أشرطة متناوبة من اللونين الأزرق والأبيض، فيما كان عَلم المسلمين أحمر وأخضر وأحمر، وعلم اليونانيين الآخرين أحمر وأزرق وأحمر(34). وكذلك كان ليونانيي سميرنا «مجلس شيوخ» خاص بهم يتكون من اثني عشر وجيها كانوا يجتمعون في إحدى الكنائس لتنظيم دفع الضرائب للحكومة العثمانية، فضلا على أمور مثل إنشاء بنك أو استيراد سيارة إطفاء(35).

وفي العام 1818، وهو وقت شهدت فيه الأرستقراطية الفنارية اليونانية(*) أوج قوتها وثقتها بنفسها في القسطنطينية وأسهمت في إدارة الديبلوماسية العثمانية وحكم إمارتي فالاسيا (الأفلاق) ومولدافيا الواقعتين في رومانيا الحالية، أظهر التجار الخيوسيون في سميرنا روحا مماثلة. فقد نظموا تجارة المنسوجات بالمدينة لمصلحتهم على حساب الأوروبيين(36). من ذلك أنه في كتاب نُشر في فيينا في العام 1817، تباهى مدرس سميرني يوناني يدعى قسطنطينوس أويكونوموس Constantinos Oiconomos بـ«مجد» سميرنا والحضارة الإغريقية، وكتب أن المدينة التي كانت في الماضي مسقط رأس هوميروس وأولى مدن آسيا وأجملها، أصبحت مقرا لمدارس يونانية ممتازة وكنائس جديدة ومصدرا للازدهار والتنوير للأمة اليونانية. غير أن مدرسة هذا المدرس نفسه أُغلِقت في العام 1819 بسبب عداء البطريرك المسكوني والغوغاء اليونانيين «للفلسفة الحديثة»(37).

كان أرمن سميرنا أيضا يزدادون عددا وثقة. أنشئت مطبعة أرمنية في العام 1758، ومدرسة حديثة في العام 1799، ومستشفى في العام 1801(38). وثمة عائلة أرمنية سميرنية ثرية تدعى تاتيكيان Tatikian كانت تدير مطبعة حجرية نشرت طبعات عبّرت عن القوميات والمهن المختلفة بالمدينة(39).

***

بعد العام 1800، بدأت الدول المستقلة في الظهور في الأركان المختلفة للإمبراطورية. ففي الأعوام 1803-1805، نُهِبَت الأضرحة في النجف وكربلاء وحتى

(*) الفناري نسبة إلى حي الفنار بإسطنبول، الذي كان مركز يونانيي المدينة وفيه توجد بطريركيتهم المسكونية إلى اليوم. [المترجم].

في مكة والمدينة. وعلى مدار أربعة أعوام، أُغلِقت المدينتان المقدستان في وجه الحجيج[40]. وفي العام 1804، وضعت ثورة في صربيا، كانت في بادئ الأمر ضد اضطهاد الانكشارية وليست ضد السيادة العثمانية، تلك الأمة على طريقها الطويل إلى الدولة المستقلة، إذ إنها لم تفقد يوما إحساسها بالهوية المنفصلة في ظل الحكم العثماني. وفي القسطنطينية، خلعت الانكشارية المتمردة السلطان الإصلاحي سليم الثالث في العام 1807، بسبب رفضهم لجيش النظام الجديد الذي أنشأه السلطان. وفي العام 1808، خطط نابليون الأول وألكسندر الأول لتقسيم الإمبراطورية العثمانية. وفقا لهذه الخطة، كان مخططا أن تؤول سالونيك إلى النمسا، وشرق البلقان والقسطنطينية إلى روسيا، وموانئ المشرق إلى فرنسا[41]. وفي العام 1809، أعلن نص يوناني أن «الدولة العثمانية تعاني اليوم آلام الاحتضار ويمكن تشبيهها بجسم بشري أصابته سكتة دماغية»[42].

في أثناء رحلاته خلال الإمبراطورية العثمانية مع لورد بيرون، دوّن جون كام هوبهاوس في مذكراته بتاريخ التاسع من ديسمبر 1809: «لاحظنا انتشار كراهية معلنة من جانب اليونانيين لسادتهم الأتراك». وحَلُم بيرون بتحرر اليونان، وترجم القصيدة الدموية للشهيد القومي ريغاس(*)، التي كان اليونانيون ينشدونها كثيرا أمام أتراك غير فاهمين لها بسبب حاجز اللغة:

يا أبناء اليونانيين انهضوا!

.....

يا أبناء اليونانيين قوموا بنا
يدا بيد ضد العدو
حتى يسيل دمهم المقيت
في نهر فوق أقدامنا[43].

(*) ريغاس فيرايوس Rigas Feraios (من 1757 إلى 24 يونيو 1798)، كاتب وأديب ومفكر سياسي يوناني نشط في حركة التنوير اليونانية الحديثة ويعد من الأبطال القوميين لليونان بمشاركته في الثورة البلقانية ضد الأتراك، وفي التبشير لحرب استقلال اليونان. تواصل مع نابليون بونابرت لدعم استقلال اليونان. وفي طريقه لمقابلة قائد جيش إيطاليا الفرنسي، خانه صديق وكشفه في مدينة تريسته للسلطات النمساوية التي كانت حينذاك حليفة للإمبراطورية العثمانية وعدوة لفرنسا الثورية، خوفا من انتشار الثورة إليها، ولذلك اعتقلته وأسلمته لحاكم بلغراد العثماني الذي أرسله بدوره إلى إسطنبول، لكن خوفا من أن ينجح صديقه عثمان بازوانتوغلو Osman Pazvantoglu في الشفاعة له، أقدم الحراس الأتراك في الطريق على خنقه هو ورفاقه الخمسة وإلقائهم في نهر الدانوب. [المترجم].

أدى التراجع في الأرباح بعد انتهاء الحصار القاري، ومعه وضعيتهم المحايدة في أثناء الحروب النابليونية، إلى شحذ شهية اليونانيين للاستقلال، إذ كان أكثر من نصف أعضاء جمعية الصداقة Friendly Society القومية التي أُسِّست في أوديسا في العام 1814 من صغار التجار[44]. وفي الخامس والعشرين من مارس 1821 أطلق رئيس أساقفة باتراس ثورة فاجأت السلطات العثمانية(*)، مع أن الرحالة والقناصل الأجانب توقعوها قبل وقت طويل[45]. وبطريقة ربما كانت متعمدة قُتِل كامل سكان بيلوبونيز المسلمين واليهود البالغ عددهم زهاء عشرين ألفا، ربما لقطع الطريق على أي اتفاق سلام لاحق مع الحكومة العثمانية[46]. أثارت أخبار هذه الثورة حالة من السخط خلال الإمبراطورية.

صدمت السلطان محمود الثاني وبعض مسؤوليه هذه الخيانة من عرق كان موضع ثقتهم، فنكصوا إلى لغة الجهاد. إذ تكشف لهم أنهم في خطر أكبر مما كانوا يظنون. وانهار التوليف المشرقي، ولجأ المسلمون إلى السلاح، وأخذوا يقتلون اليونانيين في شوارع القسطنطينية لمجرد أنهم يونانيون. واختار السلطان أسماء ليونانيين أثرياء (خصوصا ممن كان يدين لهم بالمال) من قائمة أجبر كبير ترجماناته الأمير موروسي Prince Moroussi على كتابتها، ثم أمر بإعدامهم واحدا بعد الآخر، ومنهم موروسي نفسه، وشُنِق البطريرك المسكوني على باب فناء البطريركية[47]، وبيع العبيد في الأسواق، وكُوِّمت الرؤوس المقطوعة على باب قصر توبكابي «بكميات لم تُرَ أو يُسمَع عنها من قبل»، على نحو ما تباهى السلطان الذي قال: «إنني في غاية السرور. وأدعو الله القدير أن يكون النصر حليف المسلمين في كل مكان وزمان. آمين». وطُرِد الموظفون والبحارة اليونانيون أو شُنِقوا، وحل مسلمون محلهم. وكتب السلطان أنه «في ظل الظروف الراهنة لا يمكن أن نثق بالملة [الطائفة] اليونانية، وعلى وجه التحديد رعايا الجزر ... وبعد هذه المؤامرة لم يعد مسموحا باستعمال اليونانيين في البحرية الإمبراطورية. ويتحتم تجنيد البحارة المسلمين. ابحثوا عنهم وأتوا بهم من الآن»[48].

***

(*) باتراس Patras ثالث أكبر مدينة يونانية وعاصمة مقاطعة غرب اليونان على البحر الأيوني. [المترجم].

أما سميرنا المركنتيلية(*)، فلم تندلع فيها الثورة، مع أن رسائل فرانسيس ويري تكشف عن هشاشة المدينة، وسرعة اشتعال الأحقاد العرقية والدينية وخمودها فيها، كما حدث في العامين 1770 و1797. وفي الثامن من أبريل 1821 بدأ انكشاريون سكارى في تهديد المسيحيين، وهاجموا القنصل الإسباني علنا. وفي الحادي عشر من أبريل، خرج مسلمون مسلحون، كثيرون منهم من جزيرة كريت (التي كان المسلمون المهتدون من المسيحية فيها أشد عداء للمسيحيين من المسلمين الأتراك)، إلى الشوارع. وأخذ مجلس من القناصل والقاضي والحاكم يجتمع «في حالة من الانسجام التام» وفي «كامل أبهتهم»، وذلك غالبا في الكازينو، «لضمان الهدوء والأمن في المدينة». كان القنصل البريطاني جزءا من ماكينة الحكم العثمانية، تماما كما كان جزءا من ماكينة الحكم البريطانية. وقد حث السلطات على أن تكون «على وفاق مع الفرنجة، خصوصا معنا»، وذلك من خلال تزويدهم بـ «كل المعلومات التي أتلقاها منكم». فر اليونانيون إلى البحر بحثا عن سفن. وقفز بعضهم إلى الماء لإنقاذ أرواحهم من الأتراك. لقد كانت هيمنتهم الاقتصادية كبيرة لدرجة «أن التجارة شُلّت تماما» بهروبهم. وبدا معظم أجزاء المدينة «مهجورا كليا»[49]. وكتب القنصل الروسي أن الرواتب لم تُدفع، وأن الخبز أصبح صعب المنال، خصوصا على الفقراء. وألقى باللائمة على السفن الأجنبية عن نشر أخبار الأعمال الوحشية التي اقترفها اليونانيون في بيلوبونيز[50].

أخذت السفن اليونانية تهاجم السفن التركية في بحر إيجة، وفي العام 1821 قتلوا إمام مكة وزوجاته على إحدى السفن، بل وذهبوا أكثر من ذلك إلى حد تفتيش السفن البريطانية والمالطية لإخراج الأتراك وقتلهم. وخشي ويري من أن يهاجم اليونانيون سميرنا نفسها[51]. وفي محاولة لمنع وقوع مزيد من العنف، حاول أن يوقف تدفق أخبار المذابح، سواء على أيدي الأتـراك أو اليونانييـن، إلى

(*) المركنتيلية mercantilism مذهب اقتصادي ساد أوروبا إبان عصر النهضة والعصر الحديث المبكر، وسُميت به هذه الفترة، كان يقوم على أن رخاء الدولة يعتمد على ما تملكه من رأس المال، كما يقاس بمخزونها من سبائك الذهب والفضة ونصيبها من التجارة، وأن حجم التجارة العالمية ثابت لا يتغير، وعليه فإن الزيادة في جانب أي طرف تكون بالضرورة خصما من طرف آخر، ولذلك مارست الحكومات في ظلها دورا حمائيا في الاقتصاد بتشجيع الصادرات وتقليل الواردات عن طريق تقديم الإعانات للأولى وفرض التعريفات الجمركية على الثانية، ولذلك أيضا وقعت حروب كثيرة بين القوى الأوروبية للسيطرة على تجارة جنوب وشرق آسيا والأمريكتين. [المترجم].

سمـــيرنا. وفي السابع عشر من مايو، وصلت بارجتان بريطانيتان إلى الميناء، ومع ذلك ذكر القنصل أن «القتل انتشر في النهار وفي الليل أيضا». وفي أغلب الأحيان، كان المتطوعون من الأناضول الداخلية في طريقهم لقمع التمرد في بيلوبونيز، وكذلك المسلمون الآتون من كريت - الشرسون والمتعطشون للغنائم - هم «المحرضين الأساسيين»، وليس مسلمي سميرنا.

وفي عيد القديس قسطنطين، مؤسس القسطنطينية، قُتِل ستة عشر يونانيا رميا بالرصاص في السوق. كتب ويري أن «هؤلاء الناس المتعصبين مضللون تماما، حتى إنهم (الطبقات الدنيا) هنأوا بعضهم بعضا أمس باقتراب الغد، وهو اليوم الذي حددته السماء لتحريرهم من النيّر العثماني وإعادة عرقهم - عرق الأمراء - إلى العرش واستعادة القسطنطينية. سمع بذلك الأتراك الذين دخلوا أمس في صوم رمضان، وبدأوا صومهم في المساء بأضحيات بشرية، وأخشى أن يتفاقم الأمر أكثر من ذلك». وبغرض الحفاظ على النظام، وافق الباب العالي على طلب القناصل الذي رفعه سفراؤهم بالإبقاء على حسين باشا المعتدل والسمح حاكما للمدينة. وأغلق الكثير من اليونانيين دكاكينهم وشمعوها، وفروا إلى أمان السفن الأجنبية الراسية في الميناء.

وحين وصلت أخبار بأن اليونانيين استولوا على سفينة عثمانية، بدأ الأتراك يطلقون النار على اليونانيين على الشاطئ، أو قل بدأ الصيادون يصطادون البشر «فرائس» بتعبير القنصل الروسي، ربما قُتِل نحو مائة وستين شخصا. ومع خروج المدينة عن السيطرة، تحول المسلمون بغيظهم إلى سلطاتهم أيضا. فتحصن الحاكم في بيته يأسا من الوضع، وقُتِل القاضي، وقُتِل ما بين عشرة وخمسة عشر شخصا يوميا. تظهر كلمتا «الرعب» و«الذعر» بانتظام في رسائل القنصل البريطاني. وفي صباح الثامن عشر من يونيو، وضع القنصلان البريطاني والفرنسي مواطنيهم على متن السفن الراسية في الميناء.

انقسمت المدينة بذلك إلى مدينتين منفصلتين: سميرنا البرية في حالة من الفوضى، وسميرنا البحرية على متن السفن الراسية في الميناء. كانت سميرنا البرية تمتلك المدافع، بينما تمتلك سميرنا البحرية المال. ولم يكن في مقدور سميرنا البرية أن تعمل اقتصاديا من دون عودة اللاجئين العائمين. ولم يكن لسميرنا البحرية مكان

يمكن أن تذهب إليه. وأخيرا، طلب وفد من المدينة من اللاجئين أن يعودوا ويفتحوا دكاكينهم. وبذلك نجت التوليفة المشرقية في العام 1821 بدافع الضرورة.

وفي الثاني من أغسطس، ذكر ويري بارتياح أن «الباشا الحاكم اتخذ إجراءات لمعاقبة الأتراك. ولم تقع عمليات قتل لليونانيين لبعض الأيام. وفُتِحت الدكاكين جميعا، وعاد اليونانيون إلى مرحهم المعتاد. فهم أناس فريدون في هذا الجانب». كان تناوب المذابح والمرح خاصية لسميرنا، أصبحت لاحقا موضوعا لأغنية كتبها يوناني من عائلة سميرنية، هو ميكيس ثيودوراكيس Mikis Theodorakis. وفي السابع عشر من سبتمبر، «أدى استمرار السكينة والهدوء يوما بعد آخر إلى بث الثقة لدى السكان المسيحيين وإنعاش التجارة، مع توقف الفوضى»[52]. وتمثل ضمان إضافي في رسو سفن هولندية وإنجليزية وفرنسية ونمساوية عليها مدافع كبيرة في الخليج. ووقعت أعمال شغب أخرى في نوفمبر مع وصول أخبار حول وقوع مذابح أخرى في اليونان، لكن العنف تراجع إجمالا. بيد أن التوترات العرقية ظلت عالية جدا حتى إن ويري كتب أن «مزاج جماهير الأتراك يمكن أن يثير عصيانا عاما، إذا قُتِل مسلم عقابا على قتل كافر يوناني»[53].

***

في سميرنا نجت التوليفة المشرقية، فيما غرقت خيوس في الدماء. يمكن قراءة تلك القصة على أنها مثال للعواقب المدمرة للنزعة القومية. فالخيوسيون القانعون بحياتهم المشرقية التجارية لم يكونوا راغبين في استقلال اليونان، فضلا عن الكفاح من أجله. إذ تبنوا آفاقا أرحب. لكن في الخامس والعشرين من مارس 1822، نزل على ميناء خيوس أسطول آتٍ من جزيرة ساموس Samos المنافسة يضم ألفا وخمسمائة جندي شرعوا في قتل الأتراك. وجاء الرد على المذبحة اليونانية بأوامر من السلطان محمود الثاني[54] عبر مذبحة مضادة هائلة. ففي الحادي عشر من أبريل، نزل جنود أتراك على الجزيرة، بعضهم في حالة أقرب إلى التمرد على قياداتهم، وذبحوا نحو خمسة وعشرين ألف خيوسي، أو أحرقوهم أحياء، منهم نزلاء مستشفى، واستعبدوا خمسين ألفا آخرين، أغلبيتهم من النساء والأطفال (منهم الصدر الأعظم المستقبلي إبراهيم أدهم)، ما تسبب في هبوط الأسعار نتيجة لتخمة السوق بالعبيد، وذكر ويري أن سميرنا كانت تعج بهؤلاء العبيد. فانخفض عدد سكان خيوس من مائة وعشرين ألفا إلى زهاء خمسة وعشرين ألفا. ووجد القس روبرت

والش Robert Walsh قسيس السفير البريطاني لورد سترانغفورد Lord Strangford أن رائحة الموت تعّم المدينة، سواء بسبب الموتى من البشر أو من الحيوانات. لم يكن أحد يظهر في الشوارع. ونُهبت الفيلات الحجرية الرائعة. و«بين القمامة توجد جماجم وأذرع وجثث مأكول نصفها وسط الورق والكتب والأثاث المحطم». وكانت الجثث «الممرغة» تشبه «أكوام الخرق البالية»(55). لاتزال صناديق زجاجية في غرف الانتظار بدير خيوس تعرض جماجم وعظام «الضحايا» للزوار الفضوليين.

كانت خيوس أول جنة مشرقية تُدَمَّر. فالجزيرة اليونانية التي سعت إلى الاستقلال بدرجة أقل كثيرا من غيرها، عانت أكثر من غيرها بسببه. وقد ترسخ نمط سيتكرر في سميرنا في العام 1922: في بادئ الأمر يهاجم اليونانيون، يلي ذلك انتقام مفرط من جانب الأتراك، ما يضر بالمصالح التركية على المدى الطويل. فبعد المذبحة مباشرة، بدأت الحكومة البريطانية تعامل اليونانيين معاملة مناضلي الحرية، وتعبر لوحة ديلاكروا Delacroix وقصائد فيكتور هوغو Victor Hugo التي ألهمتهما مذبحة خيوس عن الاشمئزاز الفرنسي(56).

كانت خيوس النموذج الأول لظاهرة ستغير المشرق كليا إبان القرن العشرين، تقوم على وجود «شعوب غير ممتزجة»، والفرار إلى الغرب، وذوبان الهويات لاحقا في الدول المضيفة في الغرب(*). فقد فر إلى لندن الكثير من الخيوسيين، مثل عائلات رالي Ralli وكالفوكوريسي Calvocoressi وسكيليزي Skilizzi، وفيها شكلوا حتى منتصف القرن العشرين جالية منفصلة لها أعمالها التجارية وتقاليدها الخاصة، مثل الزواج من اليونانيين والعيش في حي بيزوتر Bayswater (57). واختار آخرون سميرنا أو أوديسا أو جزيرة سيروس Syros الكاثوليكية الصغيرة ضمن مجموعة جزر كيكلادس Cyclades التي شكلت أحد الجيوب الكثيرة المستقلة ضمن الإمبراطورية العثمانية والتي تمتع فيها ديران بالحماية الفرنسية. وفي سيروس، بنى المهاجرون الأرثوذكس الآتون من خيوس مدينة جديدة أطلقوا عليها هيرموبوليس Hermoupolis، على اسم هيرمس Hermes إله التجارة. وعلى مدى السنوات

(*) هذه تحديدا هي مشكلة المشرق: عدم ذوبان الهويات أو حتى تقارب بعضها من بعض بحد أدنى يخلق جماعة أو مجتمعا مكونا من الكل وليس جماعات منفصلة، على نحو ما فعلت هذه الجماعات بعد انتقالها إلى الغرب. [المترجم].

الخمسين التالية، حلت سيروس محل خيوس، وأصبحت هونغ كونغ مشرقية، تضم أكبر ميناء وقصورا فخمة وأفضل مدارس ومسرحا في اليونان[58].

واصل القراصنة اليونانيون في بحر إيجة الاستيلاء على السفن العثمانيـــة. وفي يونيـــو 1822، أحرقوا بارجة القائد العثماني قبالة خيوس، وقتلوا فيها القبطان باشا وكثيرا من البحارة[59]. واستولوا على مدينة شاندرلي Candarli شمال سميرنا في العام 1823، وهاجموا بيروت في العام 1826، ونهبوا ميناء إسكندرونة في العام 1827، وفي العام نفسه هددوا الإسكندرية نفسها[60]. وحين جاء السفير الفرنسي كومت غيمينو Comte Guilleminot إلى فوكا Foca القريبة من سميرنا لإقناع القبطان باشا بضمان أمان الفرنجة في سميرنا، اضطر إلى أن يسافر برا، لأن القراصنة اليونانيين سيطروا على البحار[61].

وأخيرا، اضطرت فرنسا وبريطانيا وروسيا، مدفوعة بالرأي العام الذي روّعته مذابح خيوس والأعمال الوحشية الأبشع في بيلوبونيز وتزيين بنايات القسطنطينية بأشلاء اليونانيين[62]، إلى العمل من أجل استقلال اليونان (على النقيض من ذلك، كانت النمسا الخائفة من التوسع الروسي، تؤيد العثمانيين، علاوة على أن تجار مدينة تريسته تربحوا من حرب استقلال اليونان بزيادة نصيبهم من التجارة مع سميرنا). وفي التاسع من سبتمبر 1827، خطط أميرا البحر دي ريني de Rigny وكودرينغتون Codrington، قائدا الأسطولين الفرنسي والبريطاني في شرق البحر الأبيض المتوسط، في أثناء زيارة ودية إلى السلطات العثمانية في سميرنا، لهجوم مشترك على الأسطول العثماني. وفي العشرين من أكتوبر 1827، دمرت السفن البريطانية والفرنسية والروسية، في نوارين على الساحل الغربي لشبه جزيرة بيلوبونيز(*)، من دون إعلان الحرب، سبعين من سفن الأسطول العثماني. كانت هذه العملية كارثة أسوأ من جشمه في العام 1770[63](**).

(*) إلى بيلوبونيز، مركز الثورة وحكومتها، توجه إبراهيم باشا ابن محمد علي على رأس الأسطول، بعد وعد لأبيه بأن ينال إبراهيم حكم بيلوبونيز وراثيا، ونجح إبراهيم في اختراق شبه الجزيرة والاستيلاء على معقل الثورة، وقضى عليها، على رغم استمرار بعض عمليات المقاومة المتفرقة. دفع ذلك أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا - من دون إعلان الحرب - إلى فتح النيران على الأسطول المصري - العثماني، فأغرقت معظم سفنه أو أعطبتها. [المترجم].

(**) تذكر أنه في جشمه الواقعة على بعد خمسين ميلا من سميرنا أحرقت أربع وعشرون سفينة روسية الأسطول العثماني في السابع من يوليو 1770. [المترجم].

صدمت خيانة الكفار السلطان، فأعلن الجهاد في العام 1828. كان الكفار والمسلمون عدوين بالطبيعة. وامتثالا لرغبة «الأمة الإسلامية برمتها»، لا يمكن «لأمة محمد العلية»، كما أطلق السلطان على الإمبراطورية العثمانية، أن تتحمل «الهراء الشنيع» المتمثل في قيام دولة يونانية، إذ «ربما يحوّلون مساجدنا إلى كنائس ويقرعون أجراسهم». وذهب السلطان إلى أن الكفار خططوا لاستئصال شأفة المسلمين من على وجه الأرض[64].

خاف سفراء فرنسا وبريطانيا وروسيا وموظفوهم على حياتهم، بعد ضرب كبير الترجمانات النمساوي دي كليزل de Klezl حتى الموت، فغادروا القسطنطينية للمرة الأولى في تاريخ الإمبراطورية، تاركين شؤون بلدانهم في رعاية السفارة الهولندية التي كان القائم بأعمالها هو المترجم المشرقي المسن (الذي كان يعرف كل اللغات ما عدا الهولندية) غاسبار دي تيستا Gaspard de Testa[65]. أدى الجهاد إلى المزيد من الهزائم العثمانية. وأخيرا، مع اقتراب الجيوش الروسية من القسطنطينية، اضطرت الإمبراطورية العثمانية في العام 1828 إلى توقيع معاهدة سلام، اعترفت فيها بمملكة اليونان حديثة الاستقلال كدولة صغيرة تقتصر على مجموعة جزر كيكلادس وشبه جزيرة بيلوبونيز وثيساليا Thessaly الجنوبية. وظل معظم اليونانيين رعايا للإمبراطورية العثمانية، وعاد السفراء إلى القسطنطينية.

***

بعد المذابح، استأنفت سميرنا مظهرها الكوزموبوليتاني وعادات المرح التي لم يقطعها بعض السكان الذين واصلوا ارتياد الكازينو طوال الوقت[66]. وفي العام 1818، كان أول رئيس أساقفة كاثوليكي للمدينة قد وصل. وفي العام 1824، أسس تاجر فرنسي شاب يدعى ألكسندر بلاك Alexandre Blacque أول صحيفة في الإمبراطورية العثمانية، هي «لوسميرنين» Le Smyrneen التي عُدل اسمها لاحقا إلى «لوكورييه دي سميرن» Le Courrier de Smyrne [بريد سميرنا]، ليستخدمها في مهاجمة استقلال اليونان. وكما فعل الفرنسي السميرني شارل دي بيسونيل قديما، دافع بلاك عن الإمبراطورية العثمانية، ودعا إلى التسامح الأوروبي مع الإسلام. توضح حياة بلاك العملية مدى العلاقة الحميمة التي ربطت الفرنجة بالمجتمع العثماني. ففي العام 1831 استدعاه السلطان إلى القسطنطينية ليؤسس أول صحيفة منتظمة في المدينة، باللغتين الفرنسية والتركية، تحمل اسم «لومونيتير أوتومان»

Le Moniteur ottoman [المرصد العثماني][67]. وفي العام 1833 رُبِطت سميرنا لأول مرة بخدمة بواخر منتظمة، أولا بتريسته ثم بمارسيليا. وبعد سنتين، بدأت باخرة (تسمى لوفون [المشرق]) بالقيام برحلات منتظمة بين سميرنا والقسطنطينية. وبدأت الرحلات إلى لندن في العام 1840، وإلى الإسكندرية في العام 1844[68].

في الوقت نفسه، لاحظ القس البريطاني فرانسيس أرونديل Francis Arundell مؤلف كتاب «اكتشافات في آسيا الصغرى» Discoveries in Asia Minor، أن البيوت الخشبية أفسحت المجال «لقصور حجرية انتصبت في كل الاتجاهات». وغدا البازار يوفر «معظم أشكال الراحة والترف... من لندن وباريس»[69]. وبعد العام 1830، فتح المبشرون الأمريكيون مدارس جديدة للأولاد و- لأول مرة - للفتيات، ما «ألقى كل سكان سميرنا في حالة من الذهول»، على رغم أنها في هذه المرحلة لم يرتدها غير بنات المسيحيين. وشعر المبشرون بأن «سميرنا مدينة حرة نسبيا»، وجلبوا معهم مطبعة[70]. بيد أن أحدهم توجس من المدينة التي اتسمت بـ«جو أخلاقي فاسد تماما»[71].

انجذب الرحالة من الدول القومية المتجانسة مثل فرنسا وإنجلترا إلى تنوع «القوميات واللغات والأزياء والطبائع» في سميرنا الذي اعتبروه أوضح منه في أي مدينة أخرى على وجه الأرض[72]، وهو ادعاء تدحضه حالتا القسطنطينية وفيينا. وامْتُدح الشاطئ الذي هيمنت عليه قنصليات يرفع كل منها علم دولته، على إظهار «السمات المميزة لكل أمم الشرق تقريبا وكل الأهواء الإنسانية التي تغيرت مرارا وتكرارا بفعل عدد كبير من الحوادث»[73].

كانت المدينة - في بعض الأحيان - تَسَع مائتي سفينة تجارية وألفا وخمسمائة بعير في آن معا. وعادة كانت بارجة بريطانية واحدة على الأقل من أسطول البحر الأبيض المتوسط ترسو في «الطرق» بين السفن التجارية، إذ رأى القنصل البريطاني، وهو محق في رأيه، أن تمركز سفينة بريطانية من الأسطول الحربي «بشكل دائم في هذا الخليج» هو الضمانة الوحيدة للقانون والنظام[74]. ومنذ توقيع المعاهدة ضد فرنسا في العام 1799[*]، كانت

(*) هي معاهدة التحالف بين الإمبراطورية العثمانية وإنجلترا وروسيا لطرد الحملة الفرنسية من مصر. وفي العام 1827، بدلت الأطراف مواقعها، حين اتحدت إنجلترا وفرنسا وروسيا ضد الإمبراطورية ومصر في معركة نوارين البحرية، وتبدلت ثانية بعد ضم محمد علي للشام، حين اتحدت الدول الثلاث في العام 1940 مع الإمبراطورية ضد مصر. [المترجم].

بريطانيا حليفا عثمانيا رسميا، ولذا أمرت الحكومة العثمانية الإدارات المحلية بتزويد الأسطول البريطاني بالمؤن بالأسعار الجارية[75]. وفي بعض الأحيان، كان الضباط يقيمون «حفلات بحرية راقصة» على متن سفينتين مربوطتين معا[76]. وفي أوقات أخرى، كان البحارة ذوو السترات الزرقاء «المعروفون باسم النوتيّة» يأتون إلى الشاطئ، وفي أثنائها - بتعبير واحد منهم يدعى جورج هاوثورن George Hawthorn- «كنا خلال يومين ننجح في التخلص من قدر كبير من المال في شراء الغليونات والمحافظ والطعام وعطور الورد والقبعات اليونانية والصفارات وبيبة التبغ وخيوط صيد السمك الحريرية وما يبيعه اليهود واليونانيون الغشاشون (كان اليونانيون أسوأ من اليهود) وارتياد الحمّامات التركية والتدخين وشرب القهوة وما إلى ذلك»[77].

في روايته المشرقية العظيمة «أنستاسيوس» (1819) Anastasius التي تقوم على رحلاته خلال الإمبراطورية العثمانية في الأعوام 1796-1798، وصف توماس هوب Thomas Hope الرجال الأتراك عراة الصدر على أرصفة الميناء في سميرنا وهم يرتدون «ملابس رائعة غالية»، ويضعون صبغة قرمزية على شفاههم وظلا حول عيونهم. كان «مظهرهم واثقا، ونبرتهم متغطرسة وهازئة، ومشيتهم أيضا متغطرسة ومختالة». وكانت النساء المحتشمات يتجنبنهم، والرجال المحترمون يفسحون لهم الطريق[78]. وفي عين رحالة آخر هو جيمس إمرسون James Emerson، كان الأتراك «أفضل الأقوام هيئة في العالم» بلباسهم التقليدي زاهي الألوان وعمائمهم وسيوفهم وأحزمتهم التي تتدلى منها مسدسات، ومقارنة بهم، يبدو الأوروبيون بستراتهم وبناطيلهم «مظهرا بائسا»[79]. وبالإشارة إلى الحمّالين الأتراك الذين كانوا يستخدمون وسادة مبطنة بالقماش لتخفيف ضغط الأحمال التي يحملونها على ظهورهم في الشوارع، كتب رحالة لاحق يدعى فرانسيس هرفي Francis Herve: «لم أرَ من قبل صدورا وأكتافا ضخمة مثل صدور هؤلاء الرجال وأكتافهم، وكذلك أذرعهم وأرجلهم. لقد بدوا لعيني مثل ساطيرات عملاقة(*). كانت قمصانهم تكشف دائما عن صدورهم، ما يظهر غابة من الشعر تشبه فراء الحيوانات». وعلى رغم قوتهم، أو ربما بسببها، كانوا «أناسا هادئين ومهذبين ومسالمين جدا»[80].

(*) الساطير satyr أحد آلهة الغابات عند الإغريق، له ذيل وأذنا فرس، تميّز بولعه الشديد بالقصف والعربدة وانغماسه في الملذات. [المترجم].

أذهلت القلنسوات والقبعات في سميرنا أحد زوارها:

> القلباق المنتفخ للأرمن الهادئين، والقبعة السوداء المدببة المصنوعة من جلد الغنم للفرس شاحبي الوجوه، والعمامة الفخمة للعثمانلية المسنين، والطربوش الذي يرتديه المسلمون الحداثيون غير الراغبين في أزياء مجتمعهم، والقبعة العالية المخروطية للدراويش، وتلك التي لا تقل عن السابقة علوا للزيبق zeibec (سكان الجبل الأناضوليين المسلحين)، والقبعة المنخفضة عديمة الحافة للآباء اليونانيين، والقبعة القشية ذات الحافة العريضة للربابنة الأمريكيين، والقبعة الأصغر والأكثر أناقة للنوتية البريطانيين، والقبعة مردودة الحافة للضباط البحريين، والإكليل غير المحبب للرهبان، والمنديل المربوط على الحواجب لليهود، وقبعات متنوعة جدا لليونانيين والإيطاليين. هذا الشيء في ذاته يجعل الرائي في حالة مزاجية جيدة[81].

تميّزت سميرنا كذلك بتنوع الأصوات، فضلا عن الأزياء، مثل عواء ابن آوى في التلال ونباح الكلاب، وفي بعض الفصول نقيق الضفادع[82]. وكان الزوار يُنصحَون بأنه في حال أحاطت بهم كلاب تكشر عن أنيابها، فإن الحل الأمثل هو أن يذهبوا إلى المخبز ويشتروا لهم خبزا[83]. وداخل أسوار سميرنا، كانت نداءات بائعي الشربات والفاكهة تختلط مع أغاني البحارة البريطانيين، والأغاني الشعبية و«الدردشة والصراخ على مجموعة من ورق اللعب» في مقهى، وأذان المؤذنين للصلاة [84].

***

تعززت كوزموبوليتانية المدينة بفضل التسامح الذي طال السلطان محمود الثاني متأخرا. فمع انتهاء حرب استقلال اليونان، تبنى السلطان هوية جديدة وزيا عسكريا حديثا أزرق داكنا يشبه أزياء الغربيين. وبدلا من العمامة التقليدية، لبس السلطان طربوشا صوفيا قرمزيا، كان البحارة في البحر الأبيض المتوسط يستخدمونه كثيرا. وشهدت الإمبراطورية العثمانية ثورة في اللباس. وفي الثامن والعشرين من يونيو 1829، كتب ديبلوماسي بريطاني يدعى آر سي مليش R. C. Mellish من القسطنطينية:

> إن ما يلفت انتباه الجميع هنا هو التغيير الاستثنائي الذي يحدث يوميا في عادات أولئك الناس... فبعد بضعة أعوام أخرى لن تظهر العمامة مطلقا. فالصدر الأعظم والرئيس أفندي [المسؤول عن التعامل مع الشؤون

> الخارجية] والعلماء والموظفون من كل نوع، باتوا يرتدون الطربوش الأحمر، والبنطلونات القوزاقية، والأحذية الطويلة السوداء، وعباءة حمراء أو زرقاء تُزرر من تحت الذقن. ولم يعد هناك شيء من التطريز الذهبي أو الجواهر أو السترات المزركشة. ويرتدي السلطان سترة زرقاء وبنطلونا قوزاقيا وحذاء طويلا أسود وطربوشا أحمر مثل الآخرين[85].

وأخذ السلطان يرفع القيود عن المسيحيين واليهود وينادي بالمساواة أمام القانون. وجاء في فرمان صدر في يوليو 1829 أنه «في المستقبل لن يكون هناك أي تمييز بين المسلمين والرعايا، وسيأمن الجميع على ممتلكاتهم وأرواحهم وشرفهم بضمان الشريعة المقدسة ورعايتي العلّية». وتكررت هذه الأفكار كثيرا. وبدأ بعض رعايا السلطان يصفونه بـ«السلطان الكافر»[86].

كان ابنه عبدالمجيد الذي خلفه في العام 1839 مترفا ومهذبا، سرّع عجلة تحديث الإمبراطورية. ففي الثاني من يونيو 1842، سمح للكاثوليك في سميرنا لأول مرة منذ الفتح العثماني بإقامة العيد الكاثوليكي الكبير الذي يحيي ذكرى القربان المقدس، المعروف باسم عيد الجسد أو القربان، بموكب خلال شوارع مزيّنة بزهر البرتقال والأقمشة المطرزة، أصبح يقام سنويا منذ ذلك الحين. كان الموكب يتقدمه حراس القناصل والحاكم المعروفون باسم القواسين بزيهم الرسمي(*)، يليهم تلاميذ المدارس وممثلو الجمعيات الخيرية الكاثوليكية وترجمانات القناصل، وبعدهم رئيس الأساقفة تحت مظلة، وتمثال لمريم العذراء، ويرافقهم ثلاثمائة من تلميذات المدارس، ورجال الدين الكاثوليكي والوجهاء والقنصل العام لفرنسا وقائد السفينة الفرنسية الراسية في الميناء ممثلا للقوة الحامية الرسمية لكاثوليك الإمبراطورية التي بدأ المسؤولون العثمانيون يعترفون بها منذ ذلك الحين. وفي كل مرة يتوقف فيها الموكب أمام مذبح منصوب في الشارع، كانت السفن الفرنسية والنمساوية في الميناء تطلق مدفعا تحية للموكب. كان جنود أتراك يرافقون الموكب، وتشاهد الجميعَ حشودٌ مشدوهة. وكان الحاكم نفسه يحرص على الوجود في الشوارع لضمان النظام[87].

(*) القواس cavass أو kavass في اللغة التركية هو الحارس المسلح، ربما تكون مشتقة من حامل القوس في اللغة العربية، وهم تحديدا الحرس الخاص الذي سمحت الإمبراطورية العثمانية للبطاركة المسيحيين والقناصل الأوروبيين بأن يتخذوهم حرسا خاصا. [المترجم].

كانت سميرنا، مثل باريس وسانت بطرسبورغ وأوديسا، برهانا على المرونة الغربية التي تمتعت بها المدن الكوزموبوليتانية في أثناء صعود الأيديولوجيا القومية إبان القرن التاسع عشر. لم يكن لويس فافول Louis Fauvel القنصل الفرنسي السابق في أثينا الذي ساعد «جامعي» آثار العصور القديمة من أمثال لورد إلجين Lord Elgin في نقلها إلى بلادهم، يؤمن بأن اليونانيين الحديثين يستحقون التحرر. وفي العام 1828، غادر فافول إلى سميرنا التي قضى فيها السنوات الأخيرة من حياته على معاش تقاعدي حكومي هزيل، وظل يلعن القومية اليونانية الحديثة، مع أنه كان يحيط نفسه بنماذج من أثينا القديمة[88].

أدى استقلال اليونان إلى هجرة اليونانيين إلى سميرنا، إذ انتشرت أعمال السرقة وقطع الطرق في اليونان المستقلة أكثر منها في الإمبراطورية العثمانية، ولذا فضّل آلاف اليونانيين «الأنين تحت النيّر التركي» والازدهار في الإمبراطورية على الاستقلال والفقر. وفي ذلك كتب ألكسندر كينغليك Alexander Kinglake في روايته «من الشرق» Eothen في العام 1834: «يوجد مجال للمشروع التجاري، وحتى للطموح اليوناني، تحت الصولجان العثماني، أكبر مما يوجد تحت سلطان أوتو Otho [أول ملك لليونان]»[89]. كان عدد سكان سميرنا أضعاف سكان أثينا. وبحلول العام 1840 (أو العام 1870 وفقا لبعض الروايات)، وللمرة الأولى منذ القرن الرابع عشر، فاق عدد اليونانيين في سميرنا عدد الأتراك. فمن بين سكان بلغ عددهم زهاء مائة وثلاثين ألفا، كان نحو خمسة وخمسين ألفا من اليونانيين، وخمسة وأربعين ألفا من الأتراك، وثلاثة عشر ألفا من اليهود، واثني عشر ألفا من الفرنجة، وخمسة آلاف من الأرمن[90]. وبذلك صدق عليها وصف الأتراك: «سميرنا الكافرة». وأصبحت الأقلية أغلبية. على أن منافس سميرنا الحقيقي لم يكن أثينا العاصمة اليونانية الفقيرة، بل ميناء مشرقي آخر، هو الإسكندرية.

4

الإسكندرية
باب مصر

تتطابق حياة العائلة الحاكمة

مع حياة مدينتها.

ابن خلدون، نحو العام 1380

«بحلول العام ١٨٣٩، كانت قيمة تجارة الإسكندرية وحدها تكافئ قيمة تجارة مصر كلها قبل عشر سنوات»

كانت سميرنا الحديثة صنيعة التجار، بينما كانت الإسكندرية الحديثة صنيعة رجل واحد، هو محمد علي باشا، الذي حكم مصر من العام 1805 إلى العام 1849.

حين وصل محمد علي إلى السلطة في العام 1805، كانت الإسكندرية قد انحدرت بها الحال إلى ما دون مستواها في أواخر

القرن الثامن عشر(*). وكان عدد سكانها نحو ستة آلاف شخص. في أثناء مروره بالإسكندرية في طريق عودته من أورشليم في العام 1806، وجدها شاتوبريان مقارنة بسميرنا «أتعس مكان في العالم وأكثر المدن هجرا من الناس»[1].

«تحوي الإسكندرية من الأسباب التي تجذب الرحالة الراغبين في إشباع رغبات أبعد من مجرد الفضول، أقل مما يحويه أي مكان آخر عاينته حتى الآن... فلم تكن المدينة تحوي أي مظهر من مظاهر الثقافة، وكل شيء فيها غارق في الإهمال»، هكذا كتب رحالة آخر، هو وليام بيرتش William Birch في العام 1810. فالمدينة المحاطة ببقايا مجدها الكلاسيكي، كانت تعطي «إحساسا بالبؤس لا نظير له حتى في هذه الأرض الخربة»، كما ذكر توماس جوليف Thomas Jolliffe في العام 1817. كانت المدينة تضم خانا واحدا فقط[2]. وحين مات محمد علي في العام 1849، كانت الإسكندرية مدينة لأكثر من مائة ألف ساكن، وكانت في الوقت عينه ميناء ومدينة كوزموبوليتانية وباب مصر إلى المستقبل.

جاء محمد علي - مثل الإسكندر الأكبر - إلى مصر من الجانب الآخر للبحر الأبيض المتوسط. ولد الرجل في العام 1770 في ميناء قوّلة الواقع على الطريق الرئيس من القسطنطينية إلى سالونيك، في شمال شرق اليونان الحالية، الذي لايزال بيت العائلة العثماني الكبير فيه مثارا للإعجاب إلى اليوم. كان أبوه تاجرا تركيا يبيع التبغ المحلي لمصر[3]. وجاء محمد علي إلى مصر لأول مرة في العام 1801 ضابطا متطوعا في «أورطة» ألبانية أُرسِلت لقتال الغزاة الفرنسيين.

منذ وقوع الغزو في العام 1798، لم تنجز سنوات الاحتلال الفرنسي الثلاث الشيء الكثير في مصر، اللهم إلا تأليب نفوس المصريين. وعلى ذلك فإن هناك من الأسباب ما يجعل من صعود محمد علي إلى السلطة «بداية الشرق الأوسط الحديث» أكثر

(*) كانت الإسكندرية حتى وصول العثمانيين أحد أكبر موانئ البحر الأبيض المتوسط ومدنه، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق، لكن الاضمحلال أخذ يلفها ومعها الدولة المصرية المملوكية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في العام 1498، الذي حوّل التجارة بين شرق العالم وغربه بعيدا عن مصر والبحر الأحمر، واكتمل «موت» الإسكندرية بفقدان مصر استقلالها مع الغزو العثماني في العام 1517، وربما لولا هذا الاكتشاف وما نتج عنه من ضعف دولة المماليك لما تمكن جيش سليم الأول من هزيمة طومان باي. لكن قدر الإسكندرية بموقعها هو أن تكون ميناء بحر متوسطيا كبيرا وعاصمة ثانية لمصر، شريطة أن تكون مصر مركز الدولة وليس ولاية تابعة لعاصمة تبعد عنها آلاف الأميال، وهو الشرط الذي تحقق بانتزاع محمد علي حكم مصر وراثيا له ولأبنائه. [المترجم].

من وصول الفرنسيين، إذ لم يرث محمد علي عن بونابرت رجالا ولا أفكارا ولا مؤسسات. غادرت القوات الفرنسية مصر في العام 1801، بعد هزيمتها أمام جيش بريطاني - عثماني خارج الإسكندرية (كانت أول معركة برية ينتصر فيها جيش بريطاني على جيش لفرنسا الثورية). وكان من علامات ظهور بريطانيا بوصفها قوة عالمية، واستعدادها للتدخل في المشرق، استخدامها مالطا في هذه الحملة قاعدة لها في البحر الأبيض المتوسط واستخدامها فرقا يقودها ضباط بريطانيون من رأس الرجاء الصالح والهند[4](*).

بعد العام 1801، أصبحت «الأورطات» الألبانية في مصر، البالغ عددها نحو خمسة آلاف رجل، إحدى دعائم قوة محمد علي في الصراع بين السلطة العثمانية وأمراء المماليك والجماعات المحلية والقوى الأجنبية الذي أوصل مصر إلى حالة من الخراب، بعد أن تراجعت طاعة الألبان للسلطات العثمانية بسبب تأخر دفع رواتب الجند[5].

كانت القاهرة قاعدة أخرى للسلطة. وكانت الرغبة في إنهاء حالة الفوضى في فرنسا في العام 1799 شديدة حتى إن بونابرت لدى عودته من مصر استولى على السلطة في انقلاب برومير Brumaire. كان المؤرخ العظيم عبدالرحمن الجبرتي عالما طبيعيا ودينيا ينتمي إلى عائلة من شيوخ الأزهر. سجل الجبرتي الأحداث في كتابه الكلاسيكي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار». وعلى الرغم من أنه كتب أن الفرنسيين كفار أشرار، فقد اعترف بأنه في غضون بضع سنوات من رحيلهم، بلغ السخط بالمصريين من سوء إدارة البلاد حدا جعلهم «جميعا» يتوقون إلى أن تحتل بلدهم أي دولة أوروبية، أيا كان جنسها[6].

وأخيرا، أعلن علماء الأزهر في القاهرة محمد علي - «قائد الألبان» كما أسماه القنصل الفرنسي - باشا لمصر في الثاني عشر من مايو 1805، من دون إطلاق طلقة واحدة. كان محمد علي مناورا ماهرا. فوعد أعلى مسؤول عثماني في مصر، هو القبطان باشا، بأنه سيدفع جزية أعلى للسلطان، ويطيعه دائما، ويحمي الفقراء.

(*) إلى جانب مستعمراتها في الهند وأمريكا الشمالية وغيرها، استولت بريطانيا على مستعمرة رأس الرجاء الصالح في جمهورية جنوب أفريقيا الحالية من هولندا بعد معركة في العام 1795، وأعادتها لها بموجب معاهدة أميان للعام 1802، ثم أعادت انتزاعها بمعركة أخرى في العام 1806. [المترجم].

وكذلك أعد بيانات موقعة (كانت بعض التوقيعات مزورة) من الأعيان تلتمس من السلطان إبقاءه في حكم مصر[7]. وفي مقابل الاعتراف الرسمي، طلب منه الباب العالي أن يقمع الثورة الوهابية في بلاد العرب[8]. وبذلك مُلئ فراغ السلطة الكبير في مصر. وفي السنوات الأربعين التالية، استطاع محمد علي أن يفعل في مصر ما تمنى أن يفعله حكام محليون آخرون في أماكن أخرى من الإمبراطورية العثمانية، وهو تأسيس عائلة حاكمة على قاعدة إقليمية مستقرة.

سرعان ما تحوّل محمد علي، أكثر من أي حاكم عثماني معاصر، إلى حاكم مطلق لولايته. وفي شهر سبتمبر 1807، هزمت قواته جيشا بريطانيا مكونا من ثمانية آلاف جندي وطردته بعد أن احتل الإسكندرية في شهر مارس، بعد تقارير من قنصل بريطاني غلبته الحماسة، يدعى مستر ميست Mr Missett، بأن غزوا فرنسيا آخر كان وشيكا[9]. جعلت هزيمة البريطانيين من محمد علي بطلا في أعين الشعب المصري والحكومة العثمانية. وبعد أن كانت الإسكندرية في السابق يحكمها حاكم منفصل عن سلطان القاهرة، وضعها محمد علي رسميا تحت سلطته. كان من أمارات بصيرة محمد علي أنه أعاد أسرى الحرب البريطانيين بدلا من إعدامهم أو استعبادهم وفقا للممارسة العثمانية، إذ أدرك أن تقديم حسن النية للبريطانيين سيكون مفيدا في المستقبل. وفي ضربة حظ أخرى، مات القائد المملوكي الموالي للبريطانيين محمد بك الألفي في السنة نفسها(*). حينها فقط، قال محمد علي إنه شعر بأنه فتح مصر. وفي العام 1809، شعر بأمان كافٍ للإتيان بزوجته وأطفاله من قوّلة. وبذلك بدأت عائلة حاكمة[10].

توالت نجاحات محمد علي. ففي الأول من مارس 1811، دعا الضباط المماليك إلى مأدبة في قلعة القاهرة للاحتفال بتعيين ابنه طوسون قائدا للجيش الخارج لقتال

(*) على الرغم من أن اللقب Bey المستخدم في مدن المشرق لقب تركي - عثماني لحاكم إمارة أو مقاطعة تسمى بايليك Beylik - كما في لقب الباي حاكم تونس - وصار لاحقا رتبة اجتماعية ولقبا تشريفيا عثمانيا هو الأدنى على هرم المراتب العثمانية للقب الباشا، فإن مقابله في المنطقة العربية إبان عهد السلطنة العثمانية - بك - ربما كان امتدادا للقب المملوكي Bek أو Baig الذي كان مستخدما قبل وصول العثمانيين، والتشابه بين اللقبين منشأه الأصل الجغرافي والثقافي المتقارب للأتراك والمماليك الذين كانوا في أغلبيتهم من الأتراك والشركس والقوقازيين عموما. لذلك يترجم اللقب هنا إلى «بك» إذا كان حامله من الولايات العربية الشرقية وإلى «بيه» إذا كان حامله تركيا. مع العلم أن هذا اللقب لايزال يستخدم على نحو غير رسمي في مصر بالنطق العثماني «بيه»، وفي الشام بالنطق الذي يمكن أن نعتبره مملوكيا «بك». [المترجم].

الوهابيين في بلاد العرب. وبينما كانوا يسيرون في مجاز ضيق، فتح الألبان النار عليهم فقتلوا منهم أربعمائة وخمسين، وقُتِل ألف آخرون في القاهرة[11]. وبحلول العام 1815، كان محمد علي قد أسس حكومة شبه مستقلة في مصر له فيها كبير خصيان وحامل بيبة ورئيس تشريفات وحامل ختم، تماما مثل السلطان العثماني. ضمت الحكومة ست نظارات - للشؤون الخارجية والعسكرية والبحرية والمالية والتجارية والتعليمية - ومجلسا استشاريا. ونظرا إلى أن النظارات كانت تضم القليل من المسؤولين، فقد كان في مقدورهم أن يتبعوا الباشا أينما ذهب، وهذا ما حدث فعلا[12]. وبالتوازي مع صعود قوة محمد علي، ارتفعت منزلته أيضا. وبحلول العام 1819، أو ربما في وقت أسبق، لم يعد القناصل والزوار الأجانب وكذلك مسؤولو محمد علي يسمونه والي مصر أو حاكمها، بل صاحب السمو نائب السلطان[13].

تميّز محمد علي عن الحكام العثمانيين الآخرين بأنه لم يكن متعصبا. وربما أسهمت أميته المبكرة (حيث إنه علّم نفسه القراءة في العام 1815 في عمر الخامسة والأربعين)[14] في تحرره من بعض القيود العقلية التي كبلت بعض العثمانيين المتعلمين. فمنذ العام 1812، وهو وقت مبكر فعلا، حين كان محمد علي يدخل إجراءات الحجر الصحي، لاحظ القنصل الفرنسي أنه «لا يفوّت فرصة لزعزعة نير التعصب»[15]. وتكشف ملحوظة للقنصل في العام 1825 بعض الشك في تدين محمد علي، حين سمح الأخير للمسيحيين بدق أجراس الكنائس في مصر، وقال القنصل في ذلك إنه من التعاسات الكبرى أن يشعر المرء بأن دينه ليس الدين الحق[16](*).

كان المسؤول عن إدارة الشؤون الخارجية - والعائدات الجمركية - وكبير مترجمي الباشا، هو الأرمني السميرني بوغوص يوسف بك(**)، وهو الأول بين أرمن كثيرين أداروا الشؤون الخارجية لمصر، بدأ حياته العملية ترجمانا للقنصل البريطاني في سميرنا. وفي العام 1810، انجذب بوغوص، كما حدث مع كثير من الشباب الطموحين الآخرين في الإمبراطورية العثمانية، إلى الشمس المشرقة، فانتقل إلى مصر. وكانت طباعه المهذبة ولغته الفرنسية الممتازة محل تقدير عام[17].

(*) كأن القنصل يقول إن سماح محمد علي بدق أجراس الكنائس ناتج عن نقص إيمان لديه بالإسلام، وليس عن تسامح وعدم تعصب. [المترجم].

(**) بوغوص يوسف بك Boghos Yussuf Bey (أو بوغوص يوسفيان) ومسمى وظيفته «ناظر التجارة والأمور الإفرنجية». [المترجم].

وقد وصفه القنصل الفرنسي بأنه «رجل قوي جدا لدرجة أن القناصل إذا أرادوا أن يتجنبوا كل أنواع المنغصات، كان عليهم أن يتوسطوا لديه هو، أكثر حتى من الباشا نفسه»[18].

كان القنصل الفرنسي برناردينو دروفيتي Bernardino Drovetti، البيدمونتي الذي تحلى بطباع رجال الحاشية ومظهرهم(*)، أحد المسيحيين الآخرين الذين أثروا في محمد علي. كان دروفيتي، كما لاحظ القنصل البريطاني بكثير من الحسد، «يذهب مع محمد علي أينما ذهب». ومنذ وقت مبكر، نحو العام 1806، كتب دروفيتي إلى وزير الخارجية الفرنسي تاليران Talleyrand: «هذا الرجل يمتلك أفكارا عملاقة»[19]. وبعد العام 1819، كان محمد علي أول حاكم غير مسيحي يرسل بعثات من الشباب لتلقي التعليم في أوروبا، أولا إلى إيطاليا، وبعد العام 1826 إلى باريس. وقد أنشئت في باريس مدرسة مصرية بناء على نصيحة من دروفيتي الذي رأى أن المدارس في باريس كانت أفضل وأن باريس كانت المسرح العظيم لتعهد المبتعثين(**). وبالنسبة إلى محمد علي وكثير من معاصريه، كانت فرنسا جذابة كمصدر للثقافة أكثر منها كإمبراطورية غازية. وبحلول العام 1848، كان أكثر من ثلاثمائة مصري، منهم أبناء الباشا حليم وحسن وحفيده إسماعيل، قد تعلموا في باريس أو لندن أو فيينا[20].

كان محمد علي أيضا في طليعة حكام الولايات الآخرين في اهتمامه بالطرق الجديدة لجمع المال. فكان تاجرا، فضلا عن كونه حاكما. وسرعان ما أنهى النظام العثماني القائم على الالتزام الضريبي، وأنشأ دائرة تسجيل الأراضي واحتكارا حكوميا لبيع القمح. وألزم الفلاحين ببيع محاصيلهم بأسعار ثابتة لوكلاء الحكومة. وبدأ في الإكثار من التردد على الإسكندرية لكي يبيع للتجار الأجانب مباشرة القمح والأرز والخضراوات الأخرى التي كان يأخذها من المصريين، في مقابل الذهب والقصدير والحديد والمنسوجات والسلع الأوروبية الأخرى. وبعد ذلك كان يبيع السلع الأوروبية للتجار المصريين بأسعار كان يحددها بنفسه[21]. وفي العام 1810، وعلى

(*) البيدمونتي نسبة إلى بيدمونت Piedmont (بالإيطالية بيمونتي) التي تشكل حاليا إحدى مناطق إيطاليا العشرين وعاصمتها تورينو. [المترجم].

(**) كانت هذه المدرسة تُعرف باسم المدرسة المصرية College Egyptien؛ اتصال شخصي مع المؤلف. [المترجم].

الرغم من المراسيم التي تحظر تصدير القمح من الإمبراطورية العثمانية، كان القمح المصري يصدر عن طريق الإسكندرية ومالطا لتموين جيش ولينغتون، الذي كان يحارب القوات الفرنسية في إسبانيا، ما كدّر قناصل نابليون[22].

وسرعان ما اتخذ محمد علي وكلاء تجاريين في البندقية ومالطا وسميرنا وبومباي، وأنشأ مصانع للقطن والحرير في مصر. كما أنشأ مصانع للمدافع والبنادق والذخيرة أيضا. وبحلول العام 1811، كان يُعتقَد أن محمد علي أغنى باشا في الإمبراطورية. وكان يرفض الإذعان للأوامر القادمة من الباب العالي التي تتعارض مع مصالحه الخاصة[23].

في مقابل حالة الإهمال السابقة، كان ميناء الإسكندرية في العام 1817 «مشهدا يعج ببناء السفن وتحميلها وتفريغها، وأكوام من الحبوب وبالات السلع على طول الشاطئ. لكن ما أذهل الأوروبي الغريب هو حشود الحمّالين العراة الذين يكدحون في عملهم وحشود الشحاذين المروعين الذين يلحون على هذا الأوروبي بلا انقطاع ويفطرون قلبه»[24]. وفي العام 1820، وصل مسافرون إلى الميناء بحرا، فشاهدوا غابة من الصواري في الميناء، ترفع أعلام مختلف الأمم التجارية، وعلى اليمين نحو مائتي طاحونة رياح بيضاء بين النخيل المتناثر[25]. ومع صعود الإسكندرية، تراجعت موانئ مصرية أخرى، مثل دمياط ورشيد، وفقدت سكانها وتجارتها[26].

بعد القمح والقطن، جاء تصدير سلعة ثقيلة أخرى من ميناء الإسكندرية على مدى السنوات المائة التالية، هي آثار العصور القديمة. كان محمد علي يفتخر بأنه أرسى ما أسماه القنصل البريطاني هنري سولت Henry Salt «الهدوء الاستثنائي وسلامة الأرواح ... في أنحاء مصر كافة» وأجاز للأوروبيين التنقيب عن «الرؤوس الضخمة» والتوابيت والمسلات وحتى أجزاء كاملة من معابد، وتصديرها. وقد كرّس القناصل وقتا كبيرا لجمع آثار العصور القديمة، وتنافس البريطانيون والفرنسيون على الاستئثار بأكبر قدر من الآثار. وفي إحدى المناسبات، حين تردد محمد علي في منح الفرمان المطلوب، هدده سولت بتعليق «كل الاتصالات الودية بيننا». واليوم تزيّن الآثار المصرية المتحف البريطاني واللوفر، ومن الإسكندرية نُقلت المسلات التي منحها محمد علي وخلفاؤه، إلى مدن لندن وباريس ونيويورك[27].

وبغرض تسريع وتيرة التحديث، عمد محمد علي إلى توظيف الفرنسيين في مصر، فضلا على تعليم المصريين في فرنسا. وبناء على مبادرة من بوغوص ودروفيتي، طُبق في الإسكندرية نظام للحجر الصحي لمنع انتشار الطاعون في العام 1817، قبل عشرين عاما من تطبيقه في بقية الإمبراطورية العثمانية[28]. وفي العام 1818، ساعد المهندس والمخطط الفرنسي باسكال كوست Pascal Coste في تدشين قناة طولها ستة وأربعين ميلا لربط الإسكندرية بالفرع الغربي للنيل. كانت أجور العمال جيدة، ولذا توافدوا بأعداد كبيرة على العمل في الحفر، وربما لم يخلُ موقع العمل من مائة ألف عامل في أي وقت من الأوقات، على الرغم من الإصابات المروّعة. وافتتحت القناة في فبراير 1821 باسم ترعة المحمودية، تكريما للسلطان محمود الثاني، سيد محمد علي الساخط عليه برغم كل شيء. أسهمت هذه الترعة التي لاتزال قيد الاستخدام إلى اليوم، في تحسين وصول الإسكندرية إلى منطقتها الداخلية وماء الشرب، ومكّنت من نشر الزراعة في الريف المحيط بالمدينة، وبذلك تحررت الإسكندرية من القيود التي أعاقت نموها على مدى القرنين السابقين[29].

***

بعد أن أمّن محمد علي سيطرته على القاهرة، وبهدف تعزيز تجارته الشخصية مع التجار الأجانب، بدأ في قضاء وقت أطول في الإسكندرية بعد التخلص من المماليك: ستة أسابيع في العام 1811، وشهرين في العام 1812، وأربعة أشهر في العام 1818. وبداية من العام 1812، حصّن محمد علي الإسكندرية، مع أن هنري سولت وصف التحصينات بأنها «ضعيفة جدا ومتفرقة جدا لدرجة تفقدها قيمتها في حالة الحصار». وبحلول العام 1822، قيل إنه يقضي كل وقته هناك، وفي ذلك العام نقل القناصل العامون مكاتبهم من القاهرة إلى الإسكندرية[30].

ذكر القنصل الروسي، في العام 1830 أن محمد علي وابنه الأكبر إبراهيم باشا، ذلك القائد العسكري الرائع الذي كان يصغر أباه بعشرين عاما، يتناوبان على الوجود في القاهرة والإسكندرية[31]. تحوّلت الإسكندرية في عهد محمد علي من مكان قصي عن القاهرة إبان القرن الثامن عشر إلى العاصمة غير الرسمية لمصر، وكانت بالنسبة إلى حكومتها تقابل لندن وباريس بالنسبة إلى الحكومتين البريطانية

والفرنسية. وفي عهد أحفاد محمد علي، ظلت الإسكندرية العاصمة الصيفية لمصر التي تلجأ إليها الحكومة والسفارات في شهر يونيو من كل عام هربا من حرارة القاهرة، وهو النمط الذي استمر حتى المغادرة النهائية للملك فاروق ابن ابن حفيد محمد علي من الإسكندرية في يوليو 1952[32].

آثر محمد علي أن يبني قصره على الحافة الغربية للسان بارز في البحر من شبه الجزيرة التي بُنيت عليها الإسكندرية. وأطلق عليه اسم رأس التين. وكما كانت الإسكندرية تقع في مصر من دون أن تكون جزءا منها، كان رأس التين أيضا يقع في الإسكندرية من دون أن يكون جزءا منها، ذلك أن السراي المحاط بالبحر، كليا تقريبا، يقع في عالم آخر، وهو اختيار مناسب لرجل صاحب طموحات عملاقة وجذور بحر متوسطية.

بُني السراي في الأعوام 1811 - 1817 على «طراز رومي» كما قيل، من الخشب والجص، بإفريزات عريضة بارزة ونوافذ مستطيلة بارزة، وربما بناه مهندسون وحرفيون تقليديون من جبال مقدونيا. ضم السراي قسمين: الحريم الذي يشبه ديرا مسوّرا، والديوان أو المكتب وأبنية الاستقبال. وسرعان ما تكشفت التغيرات في عادات الباشا وتأثير مهندس من ليفورنو يدعى بييترو أفوسكاني Pietro Avoscani على خارج السراي وداخله اللذين أخذا يقتربان شيئا فشيئا من النمط الأوروبي. كانت إضاءة السراي بالغاز يوفرها توماس غالاواي Thomas Galloway، ممثل شركة تأسست محليا. وكان وصول طاولة بلياردو في العام 1827 مثار إعجاب الإسكندرية. وظهرت بعد ذلك لوحات ملكية وطاولة فسيفسائية وثريات جاءت هدايا من الملك لويس فيليب عاهل فرنسا والبابا وشركة الهند الشرقية. وفي قطيعة أخرى مع التقاليد، كانت لوحات عائلة محمد علي تعلق على الجدران. وبُني حمّام وسلم من المرمر. ومع نهاية حياة الباشا، كان أثاث غرفة نومه أوروبيا تماما، مع أنه كان ينام على فرشة على الأرض[33](*).

(*) حتى زمن محمد علي، كان الأتراك، حتى علية القوم، لا يستخدمون أسرة دائمة للنوم، بل مراتب توضع في دواليب في الجدران نهارا ثم تُفرَد على الأرض ليلا لتعمل عمل الأسِرة. [المترجم].

خارج السراي، كان يوجد عمود إشارة ينقل أوامر الباشا إلى القاهرة في خمس وأربعين دقيقة[34]، وكذلك الحرس وحدائق من النخيل والموز وبيوت للوزراء وثكنات للحرس وطريق طويل مشجر بالطلح يؤدي إلى الإسكندرية[35]. مدرس إنجليزي لأحد أحفاد محمد علي أحب في رأس التين «حدائقه الجميلة التي يظللها النخيل وأشجار الطلح المتوهجة بزهور ذات رائحة وروعة نادرتين، والتي ترطبها جداول ونافورات باردة»، وأحب في السراي أيضا صوت الأمواج الآتي من الميناء و«المشهد المتغير دوما مع توافد السفن الكبرى ورحيلها واندفاع المراكب العربية الصغيرة على صفحة الماء المتلألئة. وإجمالا، لا يمكن تخيل مكان أكثر سحرا من ذلك، حتى إن السحر الذي يثيره في النفس لا يمكن أن ينسى»[36].

كان سراي رأس التين في عهد محمد علي مركز الإسكندرية. وكان تجسيدا معماريا وبشريا للمشرق، مثل شارع الفرنجة في سميرنا أو الشارع الكبير في بيرا. كان باب الباشا مفتوحا دائما، إذ كان حريصا على استقبال الزوار الذين يأتون إليه بالأخبار من أوروبا أو الإسكندرية. وذكر ضابط بحري إنجليزي أن الباشا كان «مولعا بالقيل والقال، ويقال إنه كان يحاط علما بكل شيء يقال أو يحدث في الإسكندرية. وكان له أصدقاء كثر من الفرنجة»[37]. ولم يكن الذهاب إلى السراي يحتاج إلى إخطار مسبق[38].

وفي الأعوام 1821 - 1829 على وجه التحديد، جعلت حرب اليونان من أجل الاستقلال من الأخيرة مكانا طاردا، ولذلك تدفق الرحالة والكُتاب الأجانب على مصر، مفتونين بمحمد علي وإصلاحاته، وكذلك بآثار مصر القديمة. وقيل عن جون باركر John Barker ابن أحد تجار سميرنا الذي أصبح القنصل العام البريطاني في الإسكندرية في الأعوام 1827-1830 ومستشار محمد علي وإبراهيم باشا، إنه بسبب عدد الزوار البريطانيين إلى مصر «كانت مائدته ممدودة دائما والطعام جاهزا في أي ساعة، كأنها مائدة لوكولوس(*)». وكان شعاره «ساعة يد أو منظار أو بعض المسدسات، حين تُقدَّم بالطريقة الملائمة، يمكن أن تزيل أي نوع من سوء النية»[39].

(*) لوسيوس ليسينيوس لوكولوس Lucius Licinius Lucullus (118 - 57/56 قبل الميلاد)، سياسي وقائد روماني في عهد الجمهورية الرومانية المتأخرة صاحب انتصارات عسكرية، اشتهر بعشقه للطعام وموائده التي لا تنقطع حتى اشتقت من اسمه الصفة lucullan التي تعني «سخي» أو «مترف» أو «ذواقة». [المترجم].

ربما لم يلهم بلد عددا من كتب الرحلات في فترة زمنية قصيرة أكثر من مصر في عهد محمد علي[40]. والباشا من جانبه حاول أن يستخدم الزوار الأجانب، ومنهم شخصيات مختلفة مثل دزرائيلي Disraeli والمارشال مارمون Marshal Marmont وهوراس فيرنيه Horace Vernet (التقط رفيقه مسيو غوبل فيسكويه Goupil-Fesquet أول صور شمسية في مصر لرأس التين في السابع من نوفمبر 1839، بعد أحد عشر شهرا من ظهور هذا الاكتشاف لأول مرة في باريس)، لنقل صورة إيجابية له ولمصر في أوروبا بغرض المساعدة في تحقيق طموحاته[41].

كان من المعتاد أن يدخل الرحالة على الباشا فور وصولهم إلى الإسكندرية. وفي ذلك كتب جيمس سانت جون James St John في العام 1834 أن «أي شخص لديه وقت ولا يعرف طريقة أفضل لتمضيته، يستطيع أن يذهب كل مساء إلى السراي، سواء كان له عمل هناك أو لا، وإذا لم يشأ أن يفرض نفسه على الباشا، يستطيع أن يدخل في واحدة من الغرف الرائعة الأخرى ذات الإضاءة الجيدة أو في غرفة المقابلات ويتبادل الحديث - إن شاء - مع أي من الرفاق الكثيرين المجتمعين هناك». لذلك شبّه نوبار ابن أخت بوغوص يوسف بك، الذي تولى لاحقا نظارة نظار مصر ثلاث مرات، سراي رأس التين بالمقهى العام الذي يذهب إليه الناس إذا لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه. وقد أكثر المسافرون الأجانب في وصف السراي[42].

ذكر فرانسيس شرويدر Francis Schroeder كيف صعد هو وأصدقاؤه

> سُلما عريضا ضخما من المرمر، ومررنا بعدة قاعات فسيحة وممرات، ووجدنا أنفسنا بعد مسافة طويلة في صالون بيضاوي الشكل فسيح ومزيّن ومنقوش ومطلي ومزخرف بألوان زاهية، وجلسنا وسط أثاث عثماني حريري فاخر... ونقوش عربية كثيرة (من القرآن) وأعمال أرابيسك... هنا كنا في حضرة بطل الشرق... وجهه مألوف ووسيم، لا يظهر عليه شيء من أثر السنين، وشفتاه مكتنزتان، ورأسه منتصب، وطلعته عفيّة وفتيّة، وعيناه... لم تعتما بعد.

كان الباشا يبدو أصغر عشر سنوات عن عمره الحقيقي، وكان أقصر قليلا من المتوسط. وكانت طباعه مثارا للإعجاب، في عصر كانت الطباع فيه في أهمية اللباس. فكان «لماحا ومفعما بالحياة، ويضحك كثيرا من قلبه، وكان متحررا كليا من تلك البلادة الكئيبة التي تميّز الأتراك»[43].

وصلنا أكمل وصف للباشا في مذكرات تشارلز موراي Charles Murray، الذي عمل قنصلا عاما لبريطانيا في مصر من العام 1846 إلى العام 1853. أحب موراي في محمد علي «تربيته العالية وطباعه الساحرة» و«الحماسة الجامحة الغريبة» التي تبدو في عينيه الرماديتين اللامعتين. كانت للباشا «أنف مستقيم بمنخرين واسعين، وفم واسع، وإن كان حسن الهيئة، وتحته ذقن كبيرة تغطيها لحية شيباء أكملت طلعة طُبِعت بإرادة ثابتة وعزيمة لا تلين». وكانت كفاه صغيرتين ومنمقتين. وكان في العادة يرتدي نعلا أصفر، وملابس زرقاء واسعة وزنارا من الكشمير وعمامة بيضاء، من دون أي جواهر، ولا قرط حتى. وبعد العام 1838، استعاض عن عمامته بطربوش حديث، وبعد زيارة إلى القسطنطينية في العام 1846، تبنى البزة شبه الغربية التي أدخلها السلطان محمود الثاني هناك قبل عشرين عاما[44].

كان الباشا يجلس عادة في زاوية من غرفة الاستقبال تطل على الميناء، على النهاية اليمنى لديوان ضخم أو صدر يلتف حول جدران الغرفة(*). وكان يقضي الوقت في مراقبة الميناء من خلال منظاره والحديث وشرب القهوة والتدخين. وبيبة التدخين الخاصة بالباشا، وهي القطعة الأفخر في قصره، كان طولها سبع أقدام ونصف القدم، ولها ساق مغطى بالألماس وشُرابات فضية وتجويف مُذَهّب يستقر فوق صحن فضي[45].

كان الباشا مع القناصل «لطيفا جدا ومولعا بوجودهم حوله»، طوال اليوم وكل يوم. وأحيانا كان يستضيفهم على العشاء[46]. كتب هنري سولت أن الباشا حين يريد، «كانت طباعه تنفث سحرا يصعب تصوره من دون رؤيته»، فتلمع عيناه ويتودد إلى جليسه ويتحدث معه حديث الأصدقاء[47]. كان الباشا يتحدث عن كل شيء: عدد الناس الذين ذبحتهم القوات المصرية في اليونان مقارنة بعدد الذين ذبحتهم القوات البريطانية في الهند، أو عادة تقبيل إصبع قدم البابا: «أيقبل الناس إصبع قدمه فعلا؟ إنه أمر غريب أن يقبل الناس إصبع قدم المفتي. هل سأضطر إن ذهبت إلى روما إلى تقبيل إصبع قدمه؟»[48]، وكان من حين إلى آخر يناقش أمور الحكم: «لا بد أن تعرف المصالح المتعارضة الكثيرة التي يتحتم عليّ أن أوفق بينها، وأنواع الإجحاف الكثيرة التي يجب أن

(*) الديوان أو الصدر هو المجلس العربي المنتشر حاليا الذي لا يرتفع كثيرا عن الأرض. [المترجم].

أتغلب عليها، ومدى دقة هذا الأمر وصعوبته! وفيما يتعلق بالباب العالي، فإنني لا أعيره اهتماما... فأنا لا أجد من يفهمني أو ينفذ أوامري وتعليماتي. وكثيرا ما أتعرض للخداع وأعرف أنني خُدعت. لقد كنت وحيدا طوال معظم حياتي تقريبا»[49]. وكان من الوارد أيضا أن يتحدث الباشا حول طموحاته: «إذا دعمتني حكومتكم - كما أتمنى - وإذا اعترفت بي حين يجد الجد أميرا مستقلا، سأكون ممتنا. ستقيم هنا في يوم لا أظنه بعيدا بصفة أخرى غير صفة القنصل»، وإنما سفير من حاكم مستقل إلى حاكم مستقل[50](*).

بعد سنوات، تذكر فنسينت بينيديتي **Vincent Benedetti** الذي بدأ حياته المهنية في الدبلوماسية الفرنسية من الإسكندرية، أيضا «السحر الفريد في هذا السراي الذي كنت تجده على الفور بسيطا ومألوفا»[51]. كان المال أيضا جزءا من هذا السحر. وكان من بين أسباب انتقال محمد علي إلى الإسكندرية رغبته في الشراء والبيع. ذهب الجبرتي إلى أن الباشا لا يفكر إلا في المال وانتزاع أرباح الآخرين[52]. وذكر جيمس سانت جون أن «كل نظرة أو كلمة أو ابتسامة من الباشا تخضع لحساب رياضي للتحقق من قيمتها بالقروش». وكان بعض التجار الأجانب يقلدون التمينة العثمانية بتقبيل حافة ديوان الباشا والتظاهر بجمع التراب من تحت قدميه ونثره على جباههم(**). وأضاف سانت جون أنه «هنا يتجلى المبدأ الملكي في كل جماله السافر مجردا من الأقنعة الكثيرة التي تحجبه في أوروبا بفعل تاريخ من عادات الحاشية والبلاط»[53].

***

كان الأجانب أكثر وجودا في السراي من المسلمين المتدينين. بنى داعية سكندري محبوب من أصل جزائري، يدعى الشيخ إبراهيم، مسجدا في المدينة في العام 1824، وأدار المدرسة القرآنية المعروفة هناك(***). وكان الشيخ في خطبه يشجب البدع، حين ذهب إلى أن اللحم الذي يذبحه مسيحيون أو يهود لا يمكن أن يكون حلالا،

(*) لاحظ أن التمثيل الدبلوماسي في سميرنا والإسكندرية وبيروت كان على مستوى القناصل لأنها كانت تابعة فعليا أو اسميا لإسطنبول التي كان من حقها وحدها أن تستضيف السفراء بوصفها عاصمة الدولة. [المترجم].

(**) التمينة temenna إيماءة للتعبير عن الاحترام بوضع أصابع اليد اليمنى على الشفتين ثم الجبهة، وهي عادة لاتزال تلاحَظ في بعض المجتمعات العربية. ربما منها أيضا محاكاة جمع التراب من تحت القدم ونثره على الرأس. [المترجم].

(***) هو إبراهيم باشا الشيخ، عميد أسرة سكندرية عريقة من أصول جزائرية، كان عالما وفقيها، بنى في العام 1240 هجرية (1824 ميلادية) جامعا لايزال قائما ويحمل اسمه «مسجد الشيخ إبراهيم باشا» في حي المنشية بالإسكندرية، كان يضم مدرسة لا تنقطع فيها الدروس حتى شبهها البعض بأزهر القاهرة. [المترجم].

ولذلك نفاه الباشا لفترة قصيرة[54]. وسحق الباشا ثورة بقيادة شيخ أطلق على نفسه اسم المهدي وأعلن أن محمد علي كافر[55](*). فلم يسمح الباشا بأي معارضة إسلامية. وبذلك فقدت الإسكندرية تلك الاستقلالية المشاكسة التي تمتعت بها إبان القرن الثامن عشر. وكتب قنصل فرنسي أن محمد علي اشترى أغلب العلماء المصريين، ومن عارض مشاريعه نفاه[56]. ففي عهد محمد علي تحولت مصر التي كانت في السابق إحدى أكثر ولايات الإمبراطورية العثمانية تعصبا والتي كان الرحالة يشعرون فيها بأنهم «محاطون بالعداء»[57]، إلى واحدة من أكثر ولايات الإمبراطورية تسامحا.

على أن الكثير من المسلمين كانوا في طويتهم ساخطين على شغف محمد علي بالأجانب. وقد تذمر الجبرتي من أن المسيحيين «أعداء ديننا» أصبحوا «رفاق صاحب السمو وأصدقاءه المقربين». وكان المسيحيون - في رأي الجبرتي - يقترحون ضرائب جديدة، ويساعدون في مشاريع الباشا التجارية، ويحصلون على أفضل الوظائف والبيوت، بل حتى يستعملون المسلمين خدما[58].

كان الأجانب أكثر تأثيرا في الجيش والأسطول مما عداهما. ففي العام 1819، بدأ كولونيل سابق مفلس في جيش نابليون يدعى جوزيف سيف Joseph Seve، قدمه باسكال كوست لمحمد علي، في المساعدة في تدريب جيش الباشا، ولكي يعزز سيف سلطته على جنوده، اعتنق الإسلام، وأصبح يعرف باسم سليمان باشا. كان جيش النظام الجديد الذي استحدثه السلطان سليم الثالث أحد العوامل المؤثرة في تشكيل جيش محمد علي، وكان منها أيضا بعثة عسكرية فرنسية من أربعة عشر ضابطا أرسلت في العام 1824 بقيادة الجنرال بواييه Boyer الذي خدم في مصر في أعوام الحملة الفرنسية 1798-1801. كان بواييه يجلس مع الباشا يوميا، لكن كانت له أيضا مهمة سرية كلفه بها رئيس الوزراء الفرنسي جان باتيست دي فيليل Jean-Baptiste de Villele تمثلت «في تهيئة الأحداث التي تمكننا يوما ما من امتلاك هذا البلد»[59]. فمن أجل استمالة الرأي العام الفرنسي، أراد شارل العاشر أن يحاكي غزو بونابرت لمصر. وسرعان ما بدأ الجيش المصري القوي المكون من زهاء مائة ألف جندي يظهر في التقارير كقوة عسكرية جيدة الانضباط، وذكر دروفيتي برضا أنه كان «على النموذج الفرنسي كليا»[60].

(*) لا يُعرَف الكثير حول هذه الثورات وتلك المعارضة لحكم محمد علي لأنه كان قاسيا في إسكات الأصوات المعارضة، على النحو الذي تعامل به مع المؤرخ العظيم عبدالرحمن الجبرتي، كما سيرد في حاشية لاحقة. [المترجم].

غير أن هذا الجيش الجديد «المذهل» من المجندين إلزاميا، على نحو ما وصفه هنري سولت[61]، «جُمع بتكلفة نادرا ما يذكرها القناصل وتجار الإسكندرية. فمحمد علي الساحر مع الأوروبيين في قصره، كان وحشيا خارج القصر، حتى بمعايير زمانه. ففي حملته على بلاد العرب في الأعوام 1811 - 1813 التي أعادت مكة والمدينة إلى حظيرة السلطان، أسرف في ذبح الوهابيين[62]. وحين استقال أحد الضباط احتجاجا على عدد الثوار اليونانيين الذين قُتلوا في جزيرة كريت، اعترف الباشا: «أما بالنسبة إلى عدد القتلى، فإنه عيبي وذنبي»[63](*).

كان محمد علي إمبرياليا مثل أي حاكم أوروبي. في بادئ الأمر، جند الباشا جندا من سورية والبلقان[64]. وفي الأعوام 1820 - 1822، ضم السودان، وربما فكر أيضا في ضم إثيوبيا، لولا أن هنري سولت حذره من أن غزو مملكة مسيحية قديمة كهذه «يمكن أن يورطه مع الحكومة الإنجليزية»[65]. ومع أن فتحه للسودان مدّ حكمه إلى منابع النيل، فقد كان الغزو في حقيقته غارات لاصطياد العبيد، تستهدف أسر أفارقة لتجنيدهم في جيشه، أو كما كتب «لجلب السود إلينا لاستخدامهم في شؤون الحجاز والقوات الأخرى المماثلة». وقد اعتبر محمد علي السود أثمن من الجواهر. لكن معظمهم ماتوا في الرحلة البرية المروّعة إلى مصر، تماما كما مات أغلب من قطعوا «الرحلة الأطلسية» من أفريقيا إلى أمريكا(**). ومع ذلك، فقد

(*) بعد أن تسلم محمد علي حكم مصر من أيدي الشعب المصري وزعمائه في العام 1805، الذين فرضوه فرضا على الدولة العثمانية، عمد إلى تغييب هذا الشعب بالإقصاء والعنف وتشتيت زعمائه بالسجن أو النفي أو القتل. تعامل الباشا بمنتهى القسوة مع رفض المصريين للسخرة في أعماله الإنشائية أو في الجيش الذي اعتبره المصريون سخرة أيضا بسبب القرون الطويلة التي أبعدوا فيها عن أمور الحكم والدفاع من ناحية، وبسبب معاملة ضباط محمد علي «الأجانب» لهم معاملة العبيد من ناحية أخرى، حيث كانت المشانق تنصب على أبواب القرى ويُعدَم الناس أو يجلدون فورا وعلى الملأ بلا محاكمة، وهو النهج نفسه في معاملة المصريين الذي واصله ورثته، وإن خفت حدته واستخدم أدوات الدولة الحديثة مثل المحاكم بعد أن «انبثق» الشعب المصري إلى الوجود مجددا بعد الثورة العرابية، وخفت حدته أكثر بعد أن تأكد «وجود» الشعب المصري بعد ثورة 1919 والحكم البرلماني والانتخابات بصدور دستور 1923. [المترجم].

(**) تشير الرحلة الأطلسية Atlantic passage أو الرحلة الوسطى middle passage إلى رحلات نقل العبيد من غرب أفريقيا إلى العالم الجديد التي شكلت جزءا مما عُرف باسم التجارة المثلثية التي نقل خلالها ملايين الأفارقة إلى العالم الجديد كجزء من تجارة العبيد عبر الأطلسي، ونشأت مثلثيتها من أن السفن كانت تبدأ رحلتها من أوروبا محملة بالبضائع إلى أفريقيا (الضلع الأول للمثلث) التي كانت تبادل فيها بالعبيد - فضلا على اختطافهم بلا مقابل - ثم تأخذهم إلى الأمريكتين (الضلع الثاني للمثلث)، وهناك يباعون أو يبادلون بمواد خام، كانت تنقل بعد ذلك إلى أوروبا (الضلع الثالث للمثلث)، لتبدأ الرحلة من جديد. من كتاب «القوة والوفرة – التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (جزءان)، تأليف رونالد فيندلاي وكيفين أورورك، ترجمة مصطفى قاسم، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، 2015. [المترجم].

ظلت عائدات السودان تُدفَع لمحمد علي في شكل عبيد حتى زيارته التالية في العام 1838[66].

تحوّل محمد علي بعد العام 1822 إلى الفلاحين المصريين. فشن ضباطه غارات على القرى، وأخذوا يسوقون الفلاحين من بيوتهم مكبلين بالحبال من رقابهم، ويسجلونهم ويجندونهم في الجيش ويعلمونهم الانضباط. كان تعلق الفلاحين ببيوتهم وعائلاتهم شديدا جدا لدرجة أن ضابطا فرنسيا زائرا شبّه وادي النيل بوادي الدموع[67](*). واستهجن زائر آخر «أقسى أشكال الظلم والانتزاع التي تعرض لها بشر على الإطلاق». ومن جانبهم، أظهر القرويون بغضهم للتجنيد الإلزامي بالفرار أو العصيان أو حتى تشويه الذات (بقطع إصبع قدم أو يد أو إعماء أعينهم بسم الفئران). وبعضهم رفض الزواج لكي لا يرْزق أطفالا يتعرضون لهذه المحنة[68]. قال الباشا إن الرجال الذين يضعون سم فئران في أعينهم وحوش في هيئة بشر ولا بد من أن يؤخذوا إلى السخرة مدى الحياة، وثمة عقوبة أخرى تمثلت في أخذ فرد آخر من عائلته ليحل محله في السخرة. وكانت النساء اللاتي يساعدنهم يعاقبن بالإعدام إغراقا أو شنقا[69](**).

استُخدِم التجنيد الإجباري في الأسطول أيضا. وغدت الإسكندرية قاعدة بحرية أكبر من أي مدينة أخرى في المشرق، ما عدا العاصمة القسطنطينية، ولاتزال كذلك إلى اليوم. كان ولع محمد علي بالأسطول، فضلا على جمع المال، سببا آخر لانتقاله إلى الإسكندرية وبناء قصره في رأس التين. كان الكثير من ضباط الأسطول أوروبيين يرتدون سترات أوروبية وعمائم إسلامية. وبداية من العام 1822 كان المدرب الرئيس للأسطول دلماسيا خدم في السابق في البحرية الفرنسية يدعى فيلنيتش Villenich، وكان قائد الأسطول عثمان بك يعرف اللغة الفرنسية هو الآخر. وأنشئت مدرسة للبحرية بجانب رأس التين في العام 1826، كان من بين تلاميذها الألف ومائتين سعيد بن محمد علي،

(*) وادي الدموع vale of tears مفهوم في المسيحية يشير إلى المحن والابتلاءات التي تقول المسيحية إن المرء يتركها وراء ظهره عندما يغادر العالم ويدخل الجنة. [المترجم].

(**) كان من بين أسباب رفض المصريين التجنيد في الجيش الحديث إضافة إلى تعلقهم ببيوتهم وأهاليهم وقراهم، أن التجنيد كان في نظرهم أقرب إلى السخرة والعبودية في دولة كان حكامها جميعا من الأجانب، أضف إلى ذلك أن توالي الغزاة والمحتلين منذ العصور القديمة عوّد شعوبنا جميعا على أنهم ليسوا أهلا للجيوش والحروب بسبب وجود عرق أجنبي دائما يتولى وظيفة الحرب والقتال. [المترجم].

الذي سيصبح لاحقا «الرجل الجبل» الذي شوهته السمنة، ولم تفلح تعليمات أبيه إليه بالتخلص من «البدانة البغيضة في كل العيون». وكان مدير ميناء الإسكندرية هو بيسون بك Besson Bey، وهو أيضا ضابط سابق بالأسطول الفرنسي. كان بيسون وضابط فرنسي آخر يدعى كويني Koenig مسؤولين عن تعليم سعيد وضمان أن يتحدث لغة فرنسية جيدة[70].

في العام 1829، غادر لويس شارل لوفيفر دي سوريس Louis Charles Lefebvre de Cerisy فرنسا إلى مصر بموافقة الحكومة الفرنسية، ليكون مديرا عاما للأشغال البحرية، وبدأ في الإشراف على بناء ترسانة جديدة بين رأس التين والمدينة. استخدم دي سوريس زهاء خمسة آلاف رجل، منهم عمال من القاعدة البحرية الفرنسية في تولون، وأصبحت الترسانة برج بابل مشرقيا آخر(*)، «يعمل فيه جنبا إلى جنب فرنسيون وإنجليز وإيطاليون ومالطيون وعرب وأتراك وأرمن وأقباط وأعراب، ويفهم أحدهم الآخر بأقصى ما يستطيعون». وضمت القوة العاملة في الترسانة أيضا نساء وعمال سخرة وسجناء. كانوا يُخْضَعون أحيانا لتجارب طبية. وإلى اليوم لاتزال اللغة العامية المصرية تضم الكلمة التركية «ليمان» liman التي تعني ميناء أو مرفأ والتي استخدمت حينذاك للإشارة إلى ترسانة الإسكندرية، لكنها في العَامية المصرية غدت مرادفا لكلمة سجن[71]. والفلاحون الذين شاهدهم شخص إنجليزي مقيم بالإسكندرية يساقون خلال الشوارع «مكبلين رقبة إلى رقبة، ويدا كل واحد منهم مقيدتان في فتحتين في نير فوق عاتقه» لأنهم فروا من قراهم، لا بد أنهم كانوا في طريقهم إلى الليمان[72].

بالنسبة إلى الغرباء، كانت السلسلة الطويلة من البنايات الحجرية التي تُصنَع فيها السواري والحبال وأزياء الجند وتخزن، «تشبه مصنعا إنجليزيا متضخما». وقد

(*) ورد في سفر التكوين بالتوراة أنه بعد الطوفان كان البشر يتحدثون لغة واحدة وأن أبناء نوح أرادوا أن يبنوا برجا يطاول السماء بالمعنى الحرفي للكلمة، وأنهم شرعوا في بناء برج شاهق، ما أغضب الرب الذي فرق ألسنهم، أي «بلبلها»، وشردهم في الأرض ليردعهم ويعاقبهم: «وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقالوا: هلمّ نبنِ لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء. ونصنع لأنفسنا اسما لئلا نتبدّد على وجه كل الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دُعي اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض» (التكوين 11: 1-9). تساق هذه القصة عادة كتفسير ديني أو أسطوري لتعدد لغات البشر، ويسوقها المؤلف مجازا لتعدد اللغات في ترسانة الإسكندرية. [المترجم].

استخدمت أحجار من الأطلال الكلاسيكية وجبّانات المسلمين الواقعة خارج البلدة في بناء الترسانة وأحواض السفن وأربعة زواحل حجرية لبناء السفن(*). كان المنافس الأقرب لترسانة الإسكندرية هو نظيرتها في القسطنطينية[73].

كان محمد علي في الصيف يقضي معظم يومه في التفتيش على الترسانة. وحتى حين لم يكن حاضرا فيها بشخصه، كان يراقبها غالبا بمنظار من حمّام خشبي خاص بُني له بارزا في البحر من حديقة رأس التين. فقد كان الباشا يثمّن نسيم البحر وإمكانية التحدث في حمّامه من دون أن يسمعه أحد[74]. بل إن انتقال محمد علي إلى الإسكندرية حدث لدوافع طبية، إضافة إلى الدوافع السياسية والتجارية، إذ تمثل أحد الأسباب، وفقا للقنصل الفرنسي في العام 1811، في نصيحة أطبائه له بأخذ حمّامات بحرية، وهو العلاج الشائع الذي وُصِف في الوقت عينه لجورج الثالث في ويموث ولجورج الرابع المستقبلي في برايتون[75](**).

أصبح الأسطول هاجسا استحوذ على انتباه الجميع. فحين زار الرحالة الألماني الأمير بوكلر موسكاو Puckler-Muskau الإسكندرية في أثناء أحد الأعياد الإسلامية وسمع رعد مدافع السفن الذي يصم الآذان عندما أطلقت نيرانها احتفالا بالعيد، «كأن الإسكندرية كانت بركانا يقذف نيرانه في كل الاتجاهات»، كتب أن «عبقرية الرجل الذي يحكم هذه البلاد يبدو أنها تكمن في المياه»[76].

***

لم يكن السراي والجيش والأسطول قوى التحديث الوحيدة في الإسكندرية. فالمدينة نفسها، على نحو ما أراد محمد علي، خلقت حيويتها الخاصة. فخارج السراي والترسانة، امتدت مدينة مزدهرة، تشبه «نافذتين أخريين على الغرب» امتلكتا مناطق داخلية شاسعة، كانت الإسكندرية تُشبَّه بهما أحيانا، هما سانت بطرسبورغ وأوديسا.

كانت المدينة في العام 1820 لا تختلف كثيرا عن الحالة التي تركها عليها شاتوبريان في العام 1806. فالشوارع كانت قذرة وغير منظمة وغير معبدة. والبيوت «منظرها منفر وبليد» وأسقفها مسطحة. لم يكن الأتراك والمصريون يختلطون

(*) الزحول بناء مائل تبنى عليه السفن تمهيدا لإنزالها إلى الماء. [المترجم].

(**) ويموث Weymouth بلدة إنجليزية تقع على خليج ويموث عند مصب نهر واي في القنال الإنجليزي، وبرايتون Brighton مدينة إنجليزية تقع في شرق ساسكس في جنوب شرق إنجلترا على القنال الإنجليزي. [المترجم].

بالمئات القليلة من الأجانب الذين كانوا يعيشون فيما سُمي - كما في سميرنا - «الحي الفرنجي». وكان لا بد من فانوس وعصا في الليل «للحماية من الأذى». وكانت النساء المحليات يغطين أنفسهن بعباءات سوداء أو زرقاء، ولا يبين منهن إلا الأنف والعينين، «حتى أطراف أصابعهن لم تكن تُرى»[77].

لكن بعد العام 1825، على نحو ما كتب القنصل الروسي، فإنك في كل يوم «ترى بعض التجديدات على الطريقة الأوروبية تستهدف تحسين المدينة أو المنفعة العامة». ففي العام 1829 وجهت الأوامر للدوائر الحكومية بأن تسجل حساباتها باستخدام الأرقام الأوروبية. وأنشئت محكمة تجارية في العام 1826 تضم أربعة أعضاء مسلمين وعضوين كاثوليكيين وعضوا يونانيا وعضوا فرنسيا وآخر يهوديا[78]. وفي العام 1831 أنشئ مكتب للصحة العامة في غرفة بالقنصلية الفرنسية[79].

ساعد توفر القناصل على المعلومات والتقنية في تمكينهم من أداء وظيفة مزدوجة. إذ تمكنوا من التدخل في الولايات العثمانية نيابة عن حكوماتهم، إلى جانب استخدام الحكومة العثمانية نفسها لهم مديرين تنفيذيين بدلاء لتجنب الموظفين غير الأكفاء أو غير المطيعين، وهو مثال آخر لمرونة الجنسية في المشرق. ومع تزايد أعداد مواطنيهم الذين يعيشون في مصر، أخذ كل قنصل، كما كتب هنري سولت، يعتبر نفسه «مَلكا من نوع ما. فكل قنصلية هنا حكومة صغيرة، وكل من يقيمون في البلاد يحظون بحمايتها الحصرية»[80]. وسرعان ما انتشر القول إن القناصل في الإمبراطورية العثمانية كانوا أهم من السفراء في أوروبا[81].

كان بمقدور القناصل أن يغيروا مسار التاريخ. ففي الجزائر في التاسع والعشرين من أبريل 1827، وفي أثناء شجار حول مال كانت الحكومة الفرنسية تدين به إلى داي الجزائر، نال القنصل الفرنسي بيير دوفال Pierre Deval (ولد في بيرا في العام 1758 لعائلة من الترجمانات)[82] «من حسين باشا داي الجزائر ثلاث ضربات بمقبض مخفقة الذباب»، كانت «ضربات عنيفة» وفقا للقنصل و«ضربات خفيفة» وفقا للباشا الذي ادعى أيضا أن القنصل أهان الإسلام والسلطان. وبعد ثلاثة أعوام استخدم شارل العاشر هذه الإهانة للقنصل ذريعة (مع أنه كان في حقيقة الأمر يسعى إلى زيادة شعبية حكومته، وسبق أن فكر في غزو مصر للغرض نفسه) لإرسال قوات فرنسية إلى الجزائر، لم تغادرها إلا في العام 1962. استخدم شارل العاشر

خطط بونابرت للجزائر، كما سبق أن استخدم بونابرت خطط لويس السادس عشر لمصر. فقد تغيرت النظم الفرنسية، لكن الرغبة الفرنسية في التوسع في البحر الأبيض المتوسط لم تتغير[83].

كان من الأمارات العلنية على سطوة القناصل وتحديث الإسكندرية بناء الميدان «النظيف والمفتوح» الوحيد في المدينة، وهو أول ميدان حديث في الشرق الأوسط، كان يوازي الميناء الشرقي بين المدينة العثمانية على شبه الجزيرة وبقايا المدينة الكلاسيكية في الداخل. كان الميدان أقرب إلى الفضاء الطبيعي منه إلى الفضاء المخطط، ووصف في العام 1813 بأنه «ميدان فسيح قرب البحر... أنشأه الأوروبيون الذين يجيئون هنا لتنفس نسيم البحر، كما أنهم يهيمنون عليه». وسرعان ما أطلق عليه اسم «ميدان السلاح» نظرا إلى أن الجند كانوا يتدربون فيه. وبحلول العام 1828، حين جاء بعض القناصل للعيش فيه، تغير اسم الميدان إلى «ميدان القناصل» أو «الميدان الكبير»[84].

وفي أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر أعاد منفي سياسي من الدولة البابوية يدعى فرانشيسكو مانشيني Francesco Mancini تصميم الميدان ليتخذ شكلا مستطيلا، وخصص منطقة محيطة لشوارع مستقيمة عريضة، الأمر الذي شكّل – وفقا لمحمد عوض - تحديا للشوارع العوجاء بالمدينة العثمانية المجاورة[85]. وبأوامر من محمد علي بُنيت حول الميدان مجمعات حجرية كبيرة تعرف باسم الوكالات (لاتزال نسخ لاحقة منها تحيط بالميدان) تحتوي أفنية ودكاكين ووحدات سكنية، وكانت طوابقها العليا تسع أحيانا حتى ستمائة ساكن. كانت هذه الوكالات نسخة القرن التاسع عشر من مراكز التسوق shopping malls الحالية. وكانت محلاتها تعرض «كل منتجات أوروبا»[86].

وسرعان ما انتقلت إلى الميدان القنصليات الفرنسية والأمريكية والسويدية واليونانية، وضم فندقين وثيرين: أوتيل دوروب [فندق أوروبا] (الذي نزل فيه أمير ويلز في العام 1868) وأوتيل دي لوفون [فندق المشرق]، وبيوتا ذات نوافذ فرنسية وبوابات عربات. كانت شوارع البلدة القديمة تغص بالعير. وحول ميدان القناصل، كما ذكر زوار إنجليز في العام 1843، كانت «تُشاهَد عربات من كل نوع تمتلئ بسيدات أنيقات الملبس تقطع الطرق بهن على مدار الساعة». في ذلك الوقت، كان

الشارع المستقيم بطول ثلاثة أميال المعروف باسم شارع بورت دي روزيت (شارع الحرية حاليا) يقطع المدينة كاملة، على طول الطريق البطلمي القديم من باب الشمس إلى باب القمر[87](*).

أكدت المراسم الصعود في مكانة القناصل وفي عولمة المدينة. ففي العام 1803، هاجم جنود محليون بيوت القناصل في الإسكندرية لأنهم تجرأوا على رفع أعلام بلادهم، كما كان القناصل يفعلون في جهات المشرق الأخرى، ففر القناصل إلى أمان السفن العثمانية في الميناء، إلى أن عوقب الجنود[88]. بينما في ظل حكم محمد علي كان القناصل يرفعون بفخر أعلاما ضخمة على أسطح منازلهم[89].

وبداية من العام 1811 بدأ القناصل العامون الجدد يدخلون المدينة دخولا رسميا بتشريفات، على ظهور خيول أرسلت من إسطبلات الباشا. من ذلك أن القنصل العام البريطاني الجديد، الكولونيل باتريك كامبل Patrick Campbell، دخل الإسكندرية في العام 1833 يرافقه حرس شرف عربي وترجمانات و«عدد من ضباط البحرية وجميع المقيمين البريطانيين»، مع تحية من مدافع السفن الراسية في الميناء وقلعة قايتباي التي تحرس مدخل الميناء، وعزفت فرق السفن موسيقى فرنسية وعربية، ثم ألقى خطابا أثنى فيه على «الصداقة والتفاهم اللذين يسودان حاليا على نحو مبهج بين البلدين»، كأن مصر دولة مستقلة[90].

كان أول قنصل عام لليونان بعد استقلالها، ويدعى ميشيل توسيزا Michel Tossizza، إحدى القوى الدافعة لإحياء المدينة. كان هذا القنصل صديقا لمحمد علي. في بادئ الأمر، كان توسيزا رئيسا للجالية اليونانية السكندرية، وبنى لاحقا بيتا كلاسيكيا مُعَمّدا في صدر ميدان القناصل، صممه مهندس البلاط، وهو راديكالي إيطالي آخر كان مقيما في مصر يدعى بييترو أفوسكاني. كان توسيزا والباشا صديقين من أيام قوّلة، التي يقال إن عائلة توسيزا فيها أعطت محمد علي الشاب قرضا في لحظة حرجة. أسهم ميشيل وأخوه تيوذور أيضا في بناء أول مدرسة ومستشفى يونانيتين في المدينة، لاتزال المدرسة والمستشفى اللتان خلفتهما تعملان في الإسكندرية إلى اليوم[91].

(*) كانت الإسكندرية في العصر البطلمي محصنة بأسوار حجرية ذات أبراج، بطول ما بين عشرة وخمسة عشر كيلومترا، بها أربعة أبواب: الباب الشمالي أو باب القمر ويؤدي إلى الميناء، والباب الجنوبي أو باب الشمس ويصلها ببحيرة مريوط، والباب الشرقي الكانوبي ويبدأ عنده شارع كانوب، والباب الغربي ويصل المدينة بحي الجبّانات نكروبوليس جنوب غرب المدينة. والاسم البطلمي لهذا الشارع هو «كانوبك» أو «الشارع الكانوبي». [المترجم].

كان القنصل العام السويدي، ويدعى ياني أنستازي Yanni Anastasi، صديقا يونانيا آخر لمحمد علي، وكان يقيم هو الآخر في ميدان القناصل. جاء أنستازي إلى الإسكندرية من جزيرة ليمنوس في العام 1809، وتعاون مع هنري سولت في جمع الآثار المصرية القديمة. وأصبح أغنى تاجر في مصر، وكان من علامات ثرائه أنه في العام 1847 - على سبيل المثال - اشترى من محمد علي كامل محصول الصمغ القادم من سنّار السودانية بثمانين ألف جنيه إسترليني. ومع صعود ياني أنستازي تغير اسمه إلى جيوفاني أنستازي، وأخيرا النبيل جان دي أنستازي[92]. كان أنستازي وتوسيزا كلاهما تاجرين دوليين لهما وكلاء في موانئ بحرمتوسطية أخرى مثل مارسيليا وليفورنو[93].

وعلى نحو ما حدث في سميرنا، أخذت الإسكندرية تتحول ثانية إلى مدينة يونانية، إذ ازداد عدد اليونانيين فيها عنه في أي وقت سابق منذ استسلام المدينة للجيش العربي الفاتح في العام 642. في البداية، جاء اليونانيون إلى الإسكندرية بأعداد كبيرة كعبيد بعد مذبحة خيوس في العام 1822 وبعد حملة إبراهيم باشا على شبه جزيرة بيلوبونيز في العام 1826. كان من بين هؤلاء - على سبيل المثال - ميشيل زيزينيا Michel Zizinia مؤسس حي زيزينيا، الذي جاء من خيوس عبدا يدعى تسيسنيا Tsisinia. كما جاء اليونانيون إلى الإسكندرية بكامل إرادتهم أيضا - على نحو ما فعلوا في سميرنا - لتكوين ثرواتهم. نتج نجاح اليونانيين في جزء منه عن اللغة، وذلك لأن محمد علي لم يتعلم اللغة العربية قط، وحتى العقد السابع من القرن التاسع عشر، كانت اللغة التركية، وليس اللغة العربية، هي اللغة الأولى للعائلة الحاكمة والبلاط والحكومة في مصر. وحيث إن المهاجرين اليونانيين (وبوغوص يوسف بك وزير الخارجية) جاءوا من مناطق من الإمبراطورية العثمانية آوت أعدادا كبيرة من السكان الأتراك، فربما كانوا ملمين باللغة التركية. وحيث إن السوريين والمصريين جاءوا من مناطق ناطقة باللغة العربية ولم تكن بينهم أعداد كبيرة من السكان الأتراك، فربما لم يكونوا ملمين باللغة التركية[94]. كما عمل اليونانيون أيضا بأعداد كبيرة بستانيين وبنّائين في الإسكندرية[95].

أكد تفشي الكوليرا في العام 1834 قوة القناصل. كان القناصل قد ساعدوا من قبل في وضع ضوابط الحجر الصحي الدائمة وفرضها في العام 1828. وفي العام

1834، طلب محمد علي من القناصل أن يتعاملوا مع الكوليرا، وأعطى القنصل العام البريطاني الكولونيل كامبل عشرين ألف جندي لفرض كردون صحي. لكن المصريين، اعتقادا منهم أن كل الإجراءات الوقائية عديمة الفائدة، كانوا يخفون المرضى والموتى، فانتشر المرض الذي أودى بحياة زهاء عشرين ألف إنسان. كتب محمد علي أن «هؤلاء الجُهال لا يميزون بين الخير والشر ويرغبون في نشر المرض في مدينة الإسكندرية العظيمة»، وأفزعه موت امرأة من حريمه، ففر إلى أمان إحدى السفن، وذهب ابنه إبراهيم باشا إلى الصعيد، بينما كان القناصل يوسعون الشوارع ويهدمون الأحياء الفقيرة[96].

كانت الإسكندرية مقرا للبلاط، فضلا عن كونها ميناء بحريا وتجاريا، وقد أدارها محمد علي من خلال أحد أزواج بناته، وهو مهاجر آخر من قوّلة يدعى محرم بك. وبداية من العام 1828، كان محرم بك حاكم المدينة وأميرالاي في الأسطول وقابجي باشي للباشا، وحين مات في العام 1847 ترك لأبنائه أطيانا كثيرة خارج الإسكندرية[97]. وفي العام 1834 أنشأ محمد علي ديوان الأشغال العمومية للإشراف على تشييد الطرق والبنايات وتوزيع الأراضي على محاسيبه مع توسع المدينة. وكما حدث مع الترسانة والمحكمة التجارية، أسهم ديوان الأشغال في ترسيخ كوزموبوليتانية الإسكندرية، فكان أول رئيس له هو القنصل اليوناني ميشيل توسيزا، وكان القناصل الآخرون وكبار التجار وشيخ مصري أعضاءه الآخرين.

اعتنى محمد علي بالرفاه الروحي للأوروبيين السكندريين، فضلا على رفاههم المادي. فمنح كنيسة سانت كاترين الكاثوليكية الواقعة خلف أحد جوانب ميدان القناصل، والتي بُنيت في العام 1634، أرضا واسعة، وأعيد بناؤها في العام 1834[98]. وكانت البناية الدينية الوحيدة في الميدان نفسه هي الكنيسة الإنجليزية المكرسة للقديس المصري مار مرقس، التي وضع القنصل العام البريطاني الكولونيل كامبل حجر الأساس لها في السادس عشر من يناير 1840 «على أرض منحها بجوده محمد علي نائب السلطان»، كما يعلن نقش لاتيني فوق مدخلها. صمم جيمس وايلد James Wild الكنيسة على طراز الأرابيسك الأنجليكاني، واكتمل بناؤها في العام 1854. والكنيسة التي تضم الكثير من الألواح التذكارية لقومندانات بشرطة

مدينة الإسكندرية ماتوا منذ فترة طويلة، تعد متحفا للإسكندرية البريطانية، مع أن الطقوس الدينية تقام فيها حاليا باللغة العربية ولغة الدينكا(*)، إضافة إلى اللغة الإنجليزية.

أصبحت الإسكندرية جزءا من الاقتصاد العالمي. فكان ميناؤها يحوي عادة مائتي سفينة على الأقل. و«كانت السفن التجارية والسفن الحربية ذات الأشرعة المفتوحة والأعلام المرفرفة التي تدخل الميناء أو تغادره» يحيطها - كما كانت الحال في ميناء سميرنا - الكثير من «المراكب والفلوكات الأصغر ومراكب الإرشاد، تنطلق بأشرعة بيضاء كبيرة على طول الشاطئ». كانت «هذه المراكب المملوءة بالعرب والأتراك فضلا على الإيطاليين الأقذار» تقترب من السفن الأكبر و«تتحدث معها بنبرة سريعة للمساومة والاتفاق»[99]. وفي العام 1835، أسهم بناء رصيف جديد على طول الميناء الغربي الرئيس في تيسير توسع التجارة. وبحلول العام 1839، كانت قيمة تجارة الإسكندرية وحدها - بمعدل مليونين وثمانمائة وخمسة وعشرين ألفا وثمانمائة وثمانين جنيها سنويا - تكافئ قيمة تجارة مصر كلها قبل عشر سنوات[100]. وارتفع عدد الشركات الأوروبية التي تأسست في الإسكندرية من ثلاث وعشرين في العام 1822 إلى تسع وستين في العام 1837[101].

جاء الأوروبيون السكندريون من خلفيات كثيرة. فكان من بينهم منفيون سياسيون إيطاليون، وأتباع المذهب الاقتصادي الراديكالي لهنري دي سان سيمون، المعروفون باسم السانسيمونيين(**)، وضباط بولنديون فروا بعد فشل ثورة وارسو للعام 1831. واستمرت العائلات التجارية البريطانية مثل باركر Barker وبيل Peel وكارفر Carver في إدارة أعمالها التجارية في الإسكندرية حتى طردهم ومصادرة ممتلكاتهم بعد العدوان البريطاني- الفرنسي- الإسرائيلي على مصر في العام 1956.

(*) هي إحدى اللغات النيلية الصحراوية لقبائل جنوب السودان. [المحررة].

(**) السانسيمونية Saint-Simonianism مذهب سياسي واقتصادي قام في النصف الأول من القرن التاسع عشر على أفكار المفكر الفرنسي كلود هنري درفوروا كونت سان سيمون Claude Henri de Rouvroy، comte de Saint-Simon (1760-1825) التي تركزت على أن النمو في التصنيع والاكتشاف العلمي يحدثان تغييرات عميقة في المجتمع، وأن ذلك يتطلب إعادة هيكلة المجتمع من خلال التخلي عن السلطة الزمنية والروحية، بما يؤدي إلى مجتمع منتج قائم على مبدأ المساواة. نحى أتباعه - ومنهم أوغست كونت ومهندس قناة السويس فرديناند ديليسبس- نحو الاشتراكية وتبنوا أفكارا غريبة مثل إلغاء الميراث داخل العائلة، بأن تؤول تركة المتوفى إلى الدولة، وهو شكل من أشكال تنظيم الدولة للإنتاج. [المترجم].

وعمل أحد أفراد عائلة مارسيلية شهيرة في مجال الشحن البحري يدعى جان باتيست باستر Jean-Baptiste Pastre في الإسكندرية من العام 1825 إلى العام 1835، وبعد عودته إلى مارسيليا «سيطر على التجارة بين النيل والرون حتى كادت تصبح حكرا عليه»[102].

***

أصبحت الإسكندرية المدينة الكوزموبوليتانية المشرقية الثالثة بعد القسطنطينية وسميرنا. ومثلهما، كانت المدينة جمعا من المتناقضات. أخذ السكان المصريون المسلمون يتزايدون بسبب وفرة فرص العمل وفرار الفلاحين من الريف هربا من التجنيد وغارات النهب من جانب البدو. وفي المدينة العثمانية القديمة الواقعة على اللسان «يوجد مشهد لا يصدق يتشكل من حشد مختلط من البشر من كل الألوان والأزياء، منهم المتأنقون والرائعون، وكثيرون منهم بؤساء شبه عراة، فضلا على الضجيج المتداخل لصيحاتهم ونداءاتهم. إذ سرعان ما تدور رأس المرء من المشاهد الغريبة والأصوات الغريبة». وإلى جانب العير والمشعوذين والنساء اللاتي يتهادين بعباءات زرقاء واسعة وأحجبة بيضاء على وجوههن «مثل أكياس صوف متحركة»، وقطعان الكلاب «الناحلة ذات الآذان المنتصبة مستدقة الطرف الشبيهة بالذئاب»، ضمت الإسكندرية أيضا جنودا وضباطا ببزات أنيقة، وكذلك سعاة يركضون خلف عربات سادتهم. بلغ عدد سكان المدينة في العام 1834 نحو ستة وثلاثين ألفا، باستثناء الحامية المكونة من أكثر من خمسة آلاف جندي[103]. وفي المدينة القديمة كان الزمن- ولايزال - يُعَلَّم بالأعياد الدينية، مثل رمضان ومولد النبي والعيدين، وكذلك موالد الأولياء المسلمين المحليين بعروضها وألعابها. ربما يفسر هذا الارتباط الطويل للإسكندرية بالإسلام لماذا لم يعتبرها المصريون - على رغم استبداد محمد علي- جسما غريبا في بلادهم، مثلما فعل بعض الروس مع سانت بطرسبورغ[104].

ضمت المدينة الجديدة أربعة آلاف وثمانمائة وستة وثمانين أوروبيا، كان وجودهم واضحا جدا[105]. ومنذ وقت مبكر، تحديدا في العام 1834، أعلن سوريس أن «هوس البناء استحوذ على الجميع، وأصبح كل واحد منا يمتلك عدة بيوت رائعة، حتى بمقاييس باريس»[106]. وقد أعجب علي مبارك، المصري المولود في الإسكندرية الذي

عمل ناظرا للمعارف في العام 1868، ببيوت الأجانب التي كانت «نموذجا للروعة المعمارية»، ولاحظ أن السكندريين بدأوا يتخلون عن طريقة حياتهم السابقة. وأرجع علي مبارك إحياء مدينة الإسكندرية إلى كرم العائلة الحاكمة[107]. ومع ذلك، فإن السكندريين الأغنياء لم يذعنوا لأوامر محمد علي بإرسال أبنائهم لتلقي التعليم في باريس، وآثروا إرسال أبناء الحمّالين بدلا منهم، فعاقب الباشا الأهالي بإجبارهم على المساعدة في التخلص من تلال القمامة التي كانت تحيط المدينة[108]. كان المسافرون الأجانب الذين يأتون من القاهرة أو أي مكان آخر بالمشرق ويرون «الشوارع الواسعة جيدة التهوية» بالجزء الحديث من الإسكندرية، ويرون الناس يرتدون ملابس أوروبية ويتحدثون لغات أوروبية، يشعرون بأنهم في أوروبا، وهو الشعور الذي استمر على مدار المائة سنة التالية[109].

بدأت الإسكندرية تستعيد مكانتها كمركز للتعليم. أنشئت في الإسكندرية أول مطبعة في مصر - بعد المطابع التي جلبها الغزاة الفرنسيون وأخذوها معهم والمطبعة الأميرية التي شيّدها محمد علي في بولاق بالقرب من القاهرة في العام 1820 - وهي المطبعة الأوروبية لصاحبها سنيور دراغي Signor Draghi، التي نشرت في العام 1824 أول كتاب إنجليزي في مصر «مصر: قصيدة وصفية» Egypt: a descriptive poem لمؤلفه هنري سولت. وضمت الإسكندرية أيضا ناديا للكتاب ومكتبة عامة تأسسا في العام 1827 في ميدان القناصل[110]، وصحيفة حكومية كانت تطبع باللغتين الفرنسية والعربية، وخدمة بريدية أسسها في العام 1820 السنيوران ميراتي Merati وتشيني Chini. وكانت الطوابع البريدية الأولى في مصر تحتوي نقوشا باللغة الإيطالية[111].

وبحلول العام 1840، وفقا لكلوت بك الطبيب الذي جاء في العام 1825 من فرنسا إلى الإسكندرية وأصبح كبير الضباط الطبيين لمحمد علي، ضمت المدينة مستشفى أوروبيا (تأسس في العام 1817 بمبادرة من عائلة دروفيتي)، ومسرحا فرنسيا وآخر إيطاليا، وثمانية مطاعم أوروبية أو عشرة، وكان الثلج اللازم لمطاعم الإسكندرية يأتي من جبال جنوب تركيا. وفي العام 1820، تذمرت البارونة فون مينوتولي Baroness von Minutoli، زوجة المبعوث البروسي، من أن «مجتمع الإسكندرية لا يوفر غير مصادر قليلة... بينما تتوافر كل الشائعات والقيل والقال

التي تميّز بلدة ريفية صغيرة». لكن بعد عشرين عاما جاءت أوصاف كلوت بك كأنها مقدمة أو استباق إلى «رباعية الإسكندرية» للورنس داريل(*). ربما كان كلوت بك يسعى إلى جذب زوار من أوروبا: «إنه [أي مجتمع الإسكندرية] يحب السرور والحفلات، وكثيرا ما يجتمع في أمسيات وحفلات راقصة رائعة... والآداب مخففة في المجتمع الفرنجي، والعلاقات الغرامية منتشرة فيه»[112].

جاء الكرنفال من سميرنا أو إيطاليا إلى الإسكندرية في عهد محمد علي. وفي أثناء موسم الكرنفال، كانت تقام حفلات راقصة كثيرة خاصة وعامة، معظمها في بيوت القناصل الذين اعتبروا إقامتها واجبا عليهم، وكانت الدعوات يسهل الحصول عليها. وكما كانت الحال في سميرنا، كانت تقام حفلات أيضا في «كازينو» أوروبي. وفي بعض الحفلات الراقصة، كما كتب مسافر يدعى سي روتشفورت سكوت C. Rochfort Scott بعد مشاهدة مسلمين يرقصون الفالس مع بنات القناصل، «كان التنوع كبيرا في الطباع والأزياء لدرجة أنني وجدت صعوبة في إقناع نفسي بأنني لم أكن في حفلة تنكرية خيالية»[113]. كانت المسارح صغيرة وغير جيدة، ومن ذلك أن عرضا لمسرحية «نورما» Norma لبليني Bellini اضطر الصحافي الفرنسي جول كونيه Jules Coignet إلى مغادرته بعد أربعين دقيقة[114].

أخذت الإسكندرية تشتهر بالترف والحرية الجنسية، وهي الشهرة التي استمرت حتى العقد السابع من القرن العشرين[115]. وقد لاحظ المارشال أوغست مارمون، الذي عاد إلى المدينة في العام 1834 ضيفا على محمد علي لزيارة المدينة التي حكمها نيابة عن الجمهورية الفرنسية من نوفمبر 1798 إلى أغسطس 1799، وجود عدد كبير من «المومسات» في الشوارع، افترض أنهن يتحرشن بالعمال المصريين بالدرجة الأولى، «ويقال إن إمكاناتهن غزيرة على رغم فقرهن المدقع ورصانتهن المذهلة». كما استمتع المارشال أيضا بالحفلات المقامة في قصر جان دي أنستاسي الفخم إيطالي الطراز[116]. وفي حين شغف الضيوف الآخرون بجمع الآثار القديمة، هام فنسينت بينيديتي بجارية يونانية جميلة كان قد اشتراها من بين الناجين من مذابح خيوس.

(*) «رباعية الإسكندرية» The Alexanria Quartet مجموعة من أربع روايات من تأليف الروائي الإنجليزي لورنس داريل (1912-1990) Lawrence Durrel نُشرت بين العامين 1957 و1960، تدور أحداثها في الإسكندرية إبان الحرب العالمية الثانية، وأجزاؤها الأربعة هي جوستين Justine وبلتازار Balthazar وماونت أوليف Mount Olive وكليا Clea، ترجمها إلى العربية فخري لبيب. [المترجم].

ففي الإسكندرية كان معظم الأجانب الأثرياء، فضلا على المصريين، يمتلكون عبيدا، ما عدا الإنجليز و«الأشخاص المحترمين من الفرنسيين»[117]. تزوج بينيديتي جاريته، وفي العام 1864 رافقت الكونتيسة بينيديتي Comtesse Benedetti التي كانت واحدة من أجمل نساء الإمبراطورية الثانية زوجها إلى برلين التي عُيّن فيها سفيرا لفرنسا[*]، وهي السفارة التي استمرت حتى الحرب الفرنسية - البروسية. فبفضل الإسكندرية تمكنت جارية من خيوس من أن تصبح سفيرة في برلين[118].

مع اتساع المدينة وتحديثها، بدأت تتكون حولها مدينة أخرى من أكواخ الطين بين الأطلال الكلاسيكية. وحيث إن الرحالة كانوا مهتمين بالأطلال، فقد شاهدوا بؤس الفقراء عن قرب. ذَكَرت تلك الأكواخ التي يتكون الواحد منها من غرفة بارتفاع ست أقدام مغطاة بالجص الأبيض، فلورنس نايتنغيل Florence Nightingale بجيش من النمل الأبيض[119]. وفي عيني زائر أمريكي يدعى ديفيد ميلارد David Millard، كان «منظرها الأكثر حقارة وقذارة» ويقدم لوحة «للبؤس الشديد»[120]. ووصفها جيمس سانت جون بأنها «لا تليق من حيث الراحة والمظهر كأوجار للكلاب أو حظائر للخنازير»، ولا ترتقي حتى إلى مستوى «أكواخ الإيرلنديين»[121][**]. كان سكان الأكواخ يعيشون بين الحيوانات، كالأبقار والماعز و«الكلاب التي تهاجم الغرباء، كأن الجوع قد دفعها إلى البحث عن فرائس». فاق فقر الأكواخ وقاطنيها «الحدود المتخيلة»، فكان الرجال يلبسون أسمالا بالية، وكان أطفالهم شبه العراة هزيلين ومرضى وكروشهم منتفخة. ولم يكن المكان يحوي أي حياة نباتية، مجرد «قفر كئيب غير متناه من الرمال»، تتخلله أشجار نخيل متفرقة[122].

يفسر الفقر المدقع سبب استياء الرحالة من «جشع المراكبية الذين كانوا لا يشبعون قط، مثل كل الطبقات الأخرى في الإسكندرية»، و«الابتزاز الملحف من جانب الصبية من مكاريي الإسكندرية وشحاذيها»[***]، وكذلك «تكرار كلمة بقشيش مصحوبة بإيماءة ذات معنى والإلحاح عليها.. حتى إننا استنتجنا على الفور أن هذه الكلمة هي كل لغتهم»[123].

(*) هكذا صار لقب الجارية اليونانية واسمها بعد زواجها من الكونت. [المترجم].
الإمبراطورية الثانية - كما سيرد في حاشية لاحقة - هو اسم النظام الفرنسي من الثاني من ديسمبر 1851 حتى العام 1870. [المترجم].
(**) كان الإيرلنديون في ذلك الوقت محتلين من إنجلترا، وربما عاشوا في ظروف مماثلة للمصريين. [المترجم].
(***) المكاري شخص ينقل الأفراد من مكان إلى آخر على حماره في مقابل أجر، أو يؤجر حماره للآخرين لاستخدامه في تنقلاتهم، كانت حرفة منتشرة قبل ظهور وسائل النقل البرية الحديثة. [المترجم].

5

الإسكندرية
محاولة لبناء إمبراطورية

«إن مصر ملك لنا، وأهلها
ليسوا أكثر من عبيد لنا».

إبراهيم باشا لمحمد علي

الخامس من سبتمبر 1832

لم تكن الإسكندرية عاصمة لمصر فقط، بل كانت أيضا عاصمة سعت إلى بناء إمبراطورية. فكما تحدّت إسكندرية كليوباترا روما، كذلك تحدّت إسكندرية محمد علي القسطنطينية على امتلاك إمبراطورية الشرق. إذ وجد محمد علي في تدهور الإمبراطورية العثمانية فرصة مواتية لاستخدام إحدى ولايات الإمبراطورية لفتح الولايات الأخرى.

«إذا كانت الإسكندرية تراثا غامضا، تكمن فيه عوامل القوة والخطر معا، فإن محمد علي هو الآخر كان حاكما غامضا»

كان محمد علي فذا في زمانه وثقافته. وأبدى الباب العالي نفسه تقديرا لنجاحه وكفاءته في مصر. وبعد أن نجح في قمع الثورة الوهابية في بلاد العرب، طُلِب منه قمع الثورة في اليونان. وفي العاشر من يوليو 1824، أبحر إبراهيم باشا من الإسكندرية بأسطول يضم مائة وستين سفينة (صُنع كثير منها لحساب أبيه في مارسيليا أو ليفورنو) وجيش يضم ستة عشر ألف جندي لإخضاع شبه جزيرة بيلوبونيز. في البداية، حقق إبراهيم نجاحا باهرا. وكانت السفن المصرية تقطع البحر جيئة وذهابا بين جيشه والإسكندرية[1]. وضع ذلك الإسكندرية على الخط الأمامي. ولذلك تعرضت السفن المصرية في ميناء الإسكندرية مرتين - في العام 1825 والعام 1827 - لهجمات من سفن يونانية. في المرة الأولى، ثارت ثائرة محمد علي، وأسرع إلى الميناء وقاد سفينة وأخذ يمشط البحر لمدة أسبوع بحثا عن المهاجمين من دون جدوى.

وعلى الرغم من الحرب العرقية والدينية في اليونان وتدمير الأسطول المصري في نوارين، كانت دوريات خاصة في الإسكندرية توفر الحماية للفرنجة واليونانيين من هجمات المسلمين الراغبين في الانتقام. وقد ضمنت سلطة محمد علي وكفالته الشخصية أن تبقى الإسكندرية في «حالة من السكينة القصوى»، على خلاف ما شهدته سميرنا في العامين 1770 و1821[2]. ونجت كوزموبوليتانية المدينة بحماية الحكومة.

وفي العام 1830، أخضع محمد علي ثورة أخرى في جزيرة كريت نيابة عن الباب العالي. ثم تحوّل إلى سورية التي كانت ولاية يانعة للقطف، تماما كما كانت مصر في العام 1805. منذ وقت مبكر، وتحديدا في العام 1812، كانت سورية من بين ما أسماه القنصل البريطاني أفكار محمد علي المتعلقة بـ «الفتوح والاستقلال». وفي العام 1825، خطط للاستيلاء على دمشق واليمن والخليج العربي[3]. كان الهجوم في هذا الزمان خير وسيلة للدفاع. ولذلك ففي العامين 1807 و1820، حاول الباب العالي المنزعج من طموحات محمد علي أن ينتزع من سلطته الإسكندرية وموانئ النيل التي كانت تشكل في السابق ولاية منفصلة، وكان مسؤولون مثل القاضي وقائد الميناء يعينون من القسطنطينية مباشرة وليس من القاهرة[4]. وعبثا حاول الباب العالي أيضا أن يقصيه عن حكم مصر نفسها مرتين، في العام 1806 ثم في العام 1822[5].

كان مصير حاكم ألباني مستقل آخر، هو علي باشا حاكم يانينة وعاشق بيرون(*)، لايزال مثالا مخيفا. فكما فعل محمد علي، استغل علي باشا أيضا ضعف الإمبراطورية العثمانية، وكوّن جيشا جرارا، وأصبح تاجرا دوليا يُصدّر القمح، وأقام علاقات وثيقة مع القناصل الأجانب واليونانيين، وربما سعى إلى تأسيس دولة وراثية له. لكنه قُتِل هو وأبناؤه بأمر السلطان في العام 1822[6].

ثمة مصدر آخر للنزاع بين الباب العالي والباشا، هو الاستشراف المختلف للعالم. فقد تمتع محمد علي بعقلية تحديثية، شاركه فيها باشا لاحق من البلقان، هو مؤسس الجمهورية التركية مصطفى كمال (الذي ولد في سالونيك في العام 1888). اتفق محمد علي في بعض المواقف من الإمبراطورية العثمانية مع الرحالة والديبلوماسيين الأوروبيين الذين يُنظَر إليهم حاليا على أنهم عنصريون متكبرون. من ذلك أنه في رسالة إلى ابن أخته أحمد باشا يكن في العام 1822(**)، وصف محمد علي الدولة العثمانية بأنها «ضعيفة وغارقة في المشكلات بسبب هوس وزرائها بالتشريفات والتقاليد». ووصف السلطان بأنه متعصب ودمية في أيدي العلماء، وأن تعصبه يمنعه من استعمال الفرنجة في مواقع السلطة، وليس كمستشارين فنيين فقط[7].

في أثناء الحرب على اليونانيين، رأى إبراهيم باشا الجيش والأسطول العثمانيين رأي العين. وكتب إلى أبيه في العام 1825: «إنهم عاجزون وغير أكفاء، حتى إنهم لا يقدرون على تركيب سواري فرقاطاتهم». كان البحارة اليونانيون الذين كانوا

(*) عُيّن علي باشا الملَقب بأصلان أو الأسد أو أسد يانينة (من 1740 إلى 24 يناير 1822) واليا لباشليك تريكالا Trikala (الباشليك أكبر تقسيم إداري عثماني يديره باشا يليه البايليك الذي يديره باي) ببلاد اليونان في العام 1787، مكافأة له على مساعدة السلطان في حرب النمسا، لكن طموحه كان أكبر من ذلك، فاستغل ضعف الإمبراطورية وضم يانينة Ynania أو يوانينا Ioannia ليحصل على منفذ على البحر، وواصل التوسع حتى سيطر على معظم جنوب الأناضول وغرب اليونان وشبه جزيرة بيلوبونيز، سواء سيطرة مباشرة أو من خلال أبنائه. تحالف أصلان في فترات مختلفة مع نابليون الأول وإنجلترا وإيرلندا، وحكم ممتلكاته حكما مستقلا لا ينتقص من استقلاليته إلا التبعية الاسمية للسلطان. وبعد أن أقدم علي باشا على اغتيال أحد مناوئيه في القسطنطينية، عزله السلطان محمود الثاني، ولما رفض الباشا العزل، قامت الحرب التي تحالف فيها أصلان مع السوليين (أبناء منطقة سولي Souli بشمال غرب اليونان) الذين سبق أن هزمهم وطردهم إلى الجنوب لحساب السلطان. ونجح في مقاومة جيش السلطان حتى بدأت الثورة اليونانية التي استفادت من حربه بسبب انشغال عشرين ألف جندي عثماني فيها، لكن هذه الثورة نفسها دفعت القوات الألبانية في جيشه إلى التخلي عنه، فواصل الباشا القتال حتى قُتِل في يناير 1822 وأرسلت رأسه إلى السلطان. [المترجم].

(**) هو أحمد باشا يكن Ahmed Pasha Yeghen، ابن أخت محمد علي الذي عيّنه حاكما على الأقطار الحجازية بعد أن انتهى إبراهيم باشا من قمع ثورتها. [المترجم].

يعملون في السابق في الأسطول العثماني، قد تركوه للانضمام إلى صفوف الثوار في الحرب من أجل استقلال اليونان، ولذلك كان البحارة الأتراك عديمي الخبرة.

كان العثمانيون ومحمد علي يعيشون في عالمين مختلفين. من ذلك أنه قبل أن يُدمَّر الأسطول العثماني - المصري المشترك في نوارين في العام 1827 مباشرة، كتب الصدر الأعظم إلى إبراهيم باشا مذكّرا إياه بأن «النصر لا يعتمد على عدد السفن، بل على قوة قلوب الرجال». أما محمد علي، فكان على النقيض من ذلك يؤمن بأن «النصر في الحروب لا يأتي من الاتكال على الله والثقة به فقط، بل أيضا من بذل كل جهد إنساني ممكن فيها... فالله لم يأمرنا في كتابه بأن نقف أمام العدو فقط، بل أمرنا أيضا بألا ندخر جهدا في مواجهته». وكان من رأيه أنه في فن الحرب، كان «الأوروبيون متقدمين عنا كثيرا»(8).

كان محمد علي أول من طبق الإصلاح الزراعي في الشرق الأوسط. فغيّر المنظر الطبيعي لمصر، وأدخل بساتين الأناناس والموز والمانغو والتين والكرم والبرتقال. ونال القطن اهتماما شخصيا منه، فكان يرسل الجنود إلى المزارع للمساعدة في حصاده(9). وفي السنوات الأربع التي تلت إدخاله قطن جوميل طويل التيلة في العام 1820(*)، ارتفع إنتاج القطن السنوي من تسعمائة وأربعة وأربعين قنطارا إلى مائتين وثمانية وعشرين ألفا وثمانية وسبعين قنطارا. ومن هذا الوقت فصاعدا، كان القطن الأساس للمستقبل الاقتصادي للإسكندرية، أكثر من أي سلعة أخرى(10).

زُرعت نباتات ومحاصيل جديدة في الإسكندرية وحولها، خصوصا حول السرايات التي بُنيت لأبناء الباشا وأحفاده وفيلات الأثرياء. فكان سراي محرم بك محاطا ببساتين النخيل والبرتقال والتين والرمان. وتعلم بوغوص يوسف بك توليد أنواع جديدة من شجرة البرتقال(11)(**). كان السلطان - في المقابل - يمتلك واحدا من

(*) يقال إن القطن المصري طويل التيلة اكتشفه مهندس فرنسي يدعى جوميل Jumel في حديقة محو بك الأورفلي في العام 1819، حيث كان يُستخدَم كنبات للزينة. [المترجم].

(**) قد يستنتج من هذه الجملة أن يوسف بك بوغوص الأرمني الذي ترقى لاحقا إلى رتبة باشا وكان أول ناظر خارجية لمصر هو الذي «ولّد» شجرة اليوسفي أو اليوسفندي. لكن القصة المتداولة تقول إن طالبا يدعى يوسف «أفندي» ممن درسوا في أوروبا «اشترى» وهو في طريق عودته إلى مصر، من سفينة راسية في مالطا محملة بأشجار من الشرق الأقصى، بعض أشجار الموالح، وبعد أن زرعها وأخرجت ثمرها وأعجبه، دخل ببعض منه على محمد علي الذي أعجبه طعمها، وسأل يوسف أفندي: ماذا نسميها؟ ولما كان يوسف يعرف حب الباشا لابنه طوسون الذي مات مؤخرا، فقد أجاب: نسميها «طوسون باشا»، فضحك محمد علي وقال له حسنا لنسميها «يوسف أفندي» التي حُوّرت في مصر إلى «يوسفي» و«يوسفندي» و«سفندي». في تواصل شخصي مع المؤلف، لم يحسم الأخير ما إذا كان يوسف أفندي هو يوسف بوغوص أم لا. [المترجم].

أغنى بلاد العالم، لكنه - في رأي محمد علي - لم يفعل به شيئا[12]. كان محمد علي وابنه إبراهيم يشكلان ما يشبه فرق المديرين الحديثة، إذ وجدا أنفسهما يتوليان إدارة شركة تابعة عفى عليها الزمن، فراعهما سوء الإدارة الذي أبداه أسلافهما، وسعيا جاهدين إلى استيراد أحدث التقنيات الأجنبية، وحاولا نيل الاستقلال عن المقر الرئيس أو الشركة الأم، أو انتزاع هذا الاستقلال انتزاعا.

وأخيرا في الرابع من نوفمبر من العام 1831، وبعد أن عملت المصانع في مصر بأقصى طاقتها على مدى أشهر، بدأ الهجوم على سورية. أبحر إبراهيم من الإسكندرية إلى يافا بأسطول يضم ثلاثين سفينة، بعضها شُيّد في ترسانة الإسكندرية، ومعه أركان حربه ومدافعه وذخيرته. وتقدم الجيش برا، واستسلمت الموانئ الساحلية، ومنها يافا وصيدا، في ذلك الشهر. وبعد حصار دام سبعة أشهر، اقتحم الجند بقيادة إبراهيم باشا شخصيا، في السابع والعشرين من مايو 1832، حصن عكا العظيم الذي قاوم جيش بونابرت في العام 1799، وسقطت دمشق بعد شهر. وواصل إبراهيم التقدم شمالا، فاستولى على أضنة في الحادي والثلاثين من يوليو[13]. وفي معركة قونية في الحادي والعشرين من ديسمبر 1832، هزم خمسة عشر ألف جندي مصري جيشا عثمانيا مكونا من خمسين ألف جندي، وأسروا الصدر الأعظم نفسه. وفي الأول من فبراير، وصل الجيش المصري كوتاهية على الطريق إلى البسفور[14]. نتجت انتصارات إبراهيم باشا عن مهاراته القيادية الخاصة ومهارات نائبه الممتاز في القيادة سليمان باشا والتفاني الذي بثه في نفوس ضباطه الذين كانت رواتبهم أعلى من رواتب نظرائهم العثمانيين(*)، وكذلك جيشه الحديث المنضبط. كما أسهم في صنع هذه الانتصارات أيضا التنافس داخل القيادة العليا العثمانية وعادتهم القاتلة في اتباع نصائح القادة الدينيين[15].

انقلبت قلوب الناس في أركان الإمبراطورية كافة مع المنتصرين. وكانت الأناضول أكثر تعاطفا مع محمد علي من سورية، وهو ما أرجعه بعض الدبلوماسيين إلى

(*) ظل سليمان باشا الفرنساوي في مصر حتى توفي بها في مارس 1960، ودفن في قبر محاط بسور حديدي في مصر القديمة، وكرمته مصر بإقامة تمثال له في ميدان حمل اسمه وتسمية شارع باسمه، لكن مع طمس آثار العائلة العلوية بعد يوليو 1952، نقل التمثال إلى المتحف الحربي المصري وغُيّر اسم الشارع والميدان. تزوجت ابنته من شريف باشا الذي تولى نظارة النظار عدة مرات وأنجبت له بنتا تزوجت عبدالرحيم باشا صبري ناظر الزراعة، فأنجبا نازلي صبري التي أصبحت ملكة مصر بزواجها من فؤاد الأول وأنجبت له فاروق وفوزية وفايزة وفايقة وفتحية. [المترجم].

التسامح المتجذر في الأولى. ففي الأناضول، كان الأتراك واليونانيون والأرمن (الذين وصفهم الأتراك بأنهم «شعب من الجِمال» لأنهم كانوا طيعين وأشداء في العمل) يعيشون معا في يسر، على خلاف التعصب الذي غلب على سورية. وأعلنت عائلة قرة عثمان أوغلو وسميرنا نفسها البيعة لإبراهيم باشا لفترة وجيزة، إلى أن نجح القناصل الأجانب الذين كانوا لايزالون أصحاب النفوذ الأساسيين فيها في إقناع سميرنا بالعودة إلى ولائها للسلطان. كان القناصل في هذا الموقف يعملون لمصلحة الإمبراطورية العثمانية تنفيذا لأوامر حكوماتهم، على رغم أنهم كانوا على يقين من أن الإمبراطورية كانت على وشك التفكك[16]. أقال السلطان محمد علي من منصبه، وأعلن شريف مكة، كبير العائلة الهاشمية التي تعتبر نفسها أقدم عائلة في العالم، أن السلطان عدو الإسلام[17].

حتى الأجزاء الأوروبية من الإمبراطورية العثمانية - على نحو ما تباهى محمد علي - كانت تنتظره، وكان له مؤيدون كثيرون في القسطنطينية نفسها. لم يتوقف تقدم إبراهيم إلا بأمر أبيه الذي أراد وقف إراقة الدماء واستثارة القوى الأوروبية. وكان وصول القوات الروسية إلى البسفور لحماية السلطان المترنح سببا كافيا للتردد[18]. وأصبح المشرق مجددا «بؤرة السجال العالمي»، ليس بين المسيحيين والمسلمين هذه المرة، بل بين عائلتين حاكمتين مسلمتين متنافستين والقوى الأوروبية المتنافسة التي تدعم كلا منهما.

وفي مايو 1833، وُقّعت هدنة في كوتاهية بوساطة ديبلوماسيين فرنسيين وروس، أعادت محمد علي إلى حكم مصر وكريت والحجاز، وعيّنت ابنه إبراهيم حاكما لدمشق وحلب وطرابلس وعكا، وأعطته موطئا في أضنة لتمكين الأسطول المصري من استخدام الخشب من جبال قيليقية[19](*). لم يسبق لعائلة واحدة أن سيطرت على كل هذه المساحة من أراضي الإمبراطورية العثمانية.

طبق إبراهيم باشا أول حكومة منظمة شهدتها سورية منذ القرن الثامن عشر. فقد كانت دافعيته أقوى من الباشوات الذين كانت مدة ولايتهم مقصورة على

(*) قيليقية Cilicia أو كاليكيا Kalikia هي المنطقة الساحلية الجنوبية لآسيا الصغرى، جنوب هضبة الأناضول، كانت كيانا سياسيا منذ زمن الحثيين حتى الإمبراطورية البيزنطية. تتطابق مع منطقة تشوكوروفا Cukurova الحالية في تركيا. [المترجم].

بضع سنوات. متبعا سياسة أبيه، شيّد إبراهيم ثكنات ومستشفيات، ورفع منزلة المسيحيين واليهود وجعلهم يشاركون المسلمين في المجالس الاستشارية[20].

كان حليفه المحلي الرئيس هو الأمير بشير الثاني الشهابي، حاكم المنطقة الواقعة شرق مينائي بيروت وطرابلس المعروفة باسم جبل لبنان. ظلت عائلة شهاب في الحكم منذ العام 1697، بصفة مزدوجة: كجباة ضرائب للعثمانيين وزعماء للدروز (وهم طائفة سرية من الإسلام، عاشت في جبل لبنان منذ القرن الحادي عشر)، ولاتزال هذه العائلة حتى اليوم تحظى بحضور بارز في السياسة اللبنانية. في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، اعتنقت عائلة الشهابي المسيحية، ربما بتأثير طبيب مسيحي، لكن الأمير واصل إعلان الإسلام لعدم إغضاب سادته العثمانيين. والأمير بشير، الذي كانت طباعه وخصاله تحبب فيه الزوار أكثر حتى من خصال محمد علي، أدار من العام 1804 إلى العام 1840 دولة صغيرة عدد سكانها مائتان وأحد عشر ألفا، ربما تمنى أن يقيم فيها - كما فعل محمد علي وعلي باشا - حكما عائليا على قاعدة إقليمية صلبة تتكون من مائة وثلاثين ألف ماروني (يمارسون شكلا محليا من المسيحية اعترف بسلطة البابا منذ الحملات الصليبية) وخمسة وستين ألف درزي وبضعة آلاف من المسلمين[21].

دار النزاع بين محمد علي والباب العالي على ثلاثة مستويات. تمثلت النقطة المحورية في رغبة الباشا في تأسيس عائلة حاكمة، وبذلك كان طموحه العائلي إحدى الدعامات لاستقلال مصر. بينما قدم الباشا نفسه في بعض الأحيان باعتباره أفضل خادم للإمبراطورية. وفيما يتعلق بالسلطان، أعلن محمد علي في فبراير 1832: «إنني لا أضمر شرا لعائلته التي أعتبرها العائلة الوحيدة الشرعية... ولا أرغب في عرش السلطان»، على رغم أنه زعم أن الجميع كانوا ينادون به لهذا الكرسي. لكنه، منتشيا بنصره ومُذكّرا بانتزاع منصبه في العام 1805، أعلن في أغسطس 1832: «لقد فتحت مصر بالسيف، والسيف وحده هو الذي سيبقيها لي. والعرب جميعا في صفي، وهم أفضل كثيرا من الأتراك. وأنا أنتظر أي شيء، ومستعد لكل شيء»[22]. كما كان الباشا وراء فتوى لخلع السلطان ليحل محله ابنه عبدالمجيد[23]. وفكر حتى في القيام بـ «انقلاب ديني»، بإحضار شريف مكة إلى القاهرة وإعلانه خليفة

للمسلمين وتقبيل حاشية عباءته. وقال إن العرب يحتاجون إلى ثورة دينية لبعثهم من جديد[24].

ذهب بعض المؤرخين إلى أن الاستقلال كان مجرد مناورة لتعزيز قدرة محمد علي على مساومة الباب العالي. لكن مراسلاته مع إبراهيم المحفوظة في الأرشيف الوطني المصري في قلعة القاهرة، التي نشرها خالد فهمي، وكذلك محادثاته التي لا تحصى التي أوردها القناصل الأجانب، تكشف أن محمد علي وإبراهيم كانا يفكران صراحة في الاستقلال. ففي العام 1832، حث إبراهيم أباه على أن يسكّ عملة معدنية خاصة به، وأن يُدعَى له في خطبة الجمعة بالمساجد، وأن يعلن «استقلال مصر»، كما فعل حاكم سابق لمصر، هو علي بك في العام 1772[25](*). وفي العام 1833، اعتبر إبراهيم الاستقلال «مسألة حيوية لها أولوية على كل ما عداها»، ومن دونها «ستضيع كل جهودنا هباء ونظل تحت نير هذه السلطة الغادرة التي لا تتوقف عن إرهاقنا بطلباتها السخيفة وابتزازها للمال»[26]. وصرح إبراهيم لجنوده ذات مرة: «ما الذي جنيته أنا أو أي واحد منكم من السلطان؟ ... ألا نأكل جميعا من خبز محمد علي؟ ... إن مصر ملك له، أخذها بسيفه، ونحن لا نعرف لنا سيدا غير محمد علي»[27].

كان الصدام أيضا في جزء منه صراع شخصيات داخل الطبقة الحاكمة العثمانية بين محمد علي باشا وخصمه الشخصي خسرو باشا. تنافس الرجلان على حكم مصر في الأعوام 1801 - 1805. وفي العشرين من أغسطس 1825، حين كان خسرو قبطانا باشا، وزار محمد علي في رأس التين، بينما كان الأسطول العثماني يتزود بالمؤن في ميناء الإسكندرية، رآهما هنري سولت يتنافسان بـ «عنف لطيف» على

(*) في أثناء حالة الفوضى في حكم مصر إبان الربع الأخير من القرن الثامن عشر، تطلع الأمير المملوكي علي بك الكبير (من 1728 إلى 8 مايو 1773) إلى الاستقلال بحكم مصر، فخلع الوالي العثماني في الحادي عشر من سبتمبر 1768 ونجح في ضبط الفوضى والقضاء على مناوئيه من أمراء المماليك وعلى نفوذ شيخ العرب همام في الصعيد، ثم ضم جدة والحجاز ونودي به هناك سلطان مصر وخاقان البحرين، وبعد أن نجح قائد جيشه محمد بك أبوالدهب في فتح حواضر الشام حتى دمشق، التي دخلها بعد هزيمة جيش عثماني، توقف البك عن التقدم، ربما لطمعه في الحكم أو لاتفاق حدث بينه وبين العثمانيين، ورجع أدراجه ساحبا في طريقه كل الحاميات التي تركها في المدن المفتوحة. تيقن علي بك من خيانته، فخرج للقائه، لكنه هُزم وفر إلى صديقه ظاهر العمر حاكم شمال فلسطين بعدة آلاف من جنوده، ثم عاد لحرب محمد بك لكنه هُزِم وأُصيب، فنقل أبوالدهب سيده إلى القاهرة وطببه، لكنه لقي ربه في إثرها. [المترجم].

تقديم أحدهما الآخر إلى أفضل مقعد، وعلى هش الذباب عن وجه أحدهما الآخر بمخفقة. لكن ذلك لم ينطلِ على سولت، وعلق قائلا إن التنافس بين هذين الرجلين «يسهم فعليا في خرابها (الإمبراطورية)». وفي أثناء حرب استقلال اليونان، كتب محمد علي في رسائله إلى الباب العالي أن خسرو باشا ضيّع انتصارات إبراهيم بـ «الإهمال والتكاسل». ووصف محمد علي خسرو في تعميم إلى الباشوات الآخرين بأنه «السبب الأول لكل الكوارث التي تتوالى على الإمبراطورية، فهو شخص يطفح بالسم والأحقاد»[28].

كما أسهمت التوترات العرقية، وهي العصب الخفي للتاريخ العثماني، هي الأخرى في التنافس بين الرجلين. كان خسرو أبخازيا من القوقاز، قيل إنه كان يحتقر الألبان من أمثال محمد علي[29]. لكن العرق ربما أسهم أيضا في الحفاظ على ولاء محمد علي للإمبراطورية العثمانية، لأنه كان يعتبر نفسه تركيا. ذلك أن تعريف التركي في ذلك الوقت - كما هو حاليا - كان سياسيا وثقافيا ودينيا(*)، فضلا عن العرق، ولذلك كان يمكن أن يتضمن الشركس والألبان والبوسنيين والأكراد إذا نظروا إلى أنفسهم على أنهم أتراك يتحدثون التركية ويدينون بالإسلام ويخدمون الإمبراطورية العثمانية وليسوا عربا[30](**). وعلى نحو ما أوضح خالد فهمي، فإن مراسلات محمد علي يغلب عليها إحساس بالتفوق العرقي، إذ كتب في العام 1822 موضحا أسباب اتخاذه من المصريين جندا دون الأتراك: «الأتراك من دمنا و... سيظلون قريبين منا دائما». وشـبّه المصريين بـ «الوحوش الضارية»[31].

إن كراهية الأتراك للعرب قديمة وباقية. ولدى العثمانيين مثل يقول إنهم يتخلون عن كل مباهج دمشق إن كان ذلك يجنّبهم رؤية وجه عربي. وقد أصبح كثير من العبيد السلاف(***) واليونانيين والألبان الذين اعتنقوا الإسلام وزراء وباشوات، وهو ما لم يحدث مع عربي واحد (إلا إذا حمل أيضا دما غير

(*) يقصد المؤلف بذلك أن تعريف «التركي» في تركيا الحالية لايزال بهذا الاتساع، بالتأكيد لدمج القوميات الأخرى، ومن أهمهم الأكراد ذوو التطلعات الانفصالية الذي تسميهم تركيا «أتراك الجبل». [المترجم].
(**) توجز هذه الجملة رؤية الأتراك ودولتهم للعرب على امتداد تاريخها، فالمرء مادام مسلما وعثمانيا وليس عربيا، يكون تركيا، كأن «العروبة» هي عامل الفرز الوحيد لما يعد تركيا. [المترجم].
(***) كانوا في زمن الدول العربية السابقة يسمون الصقالبة. [المترجم].

عربي)[32](*). وفي مصر، كان «أقل الأتراك مكانة يرى أن من حقه أن يصدر الأوامر للعرب ويعرف كيف يجعلهم يطيعونه. ثمة كراهية وعداوة عميقتان بين هذين العرقين»، كما كتب ديبلوماسي روسي في العام 1837[33]. والمصريون من جانبهم، كانوا يكرهون «الأتراك» الذين اعتبرهم الجبرتي جماعة أجنبية[34].

كان نظام محمد علي نظاما عرقيا. فضباطه كانوا أتراكا، لأن الأتراك «من حقهم أن يحكموا». ولم يكن مسموحا للمصريين بأن يتجاوزوا رتبة اليوزباشي في الجيش أو الأسطول(**). ومما يفصح عن نظرته الإمبريالية مجددا، شبّه محمد علي دور المصريين بدور فرق الهنود التي يقودها ضباط بريطانيون في الهند. وكان أسرى الحرب الأتراك يُجنّدون ضباطا في جيش محمد علي دون المصريين من أبناء الجيش. وكان محمد علي يدفع للضباط رواتب أعلى مما يدفع السلطان لنظرائهم. فالقائم مقام في الجيش العثماني كان يتقاضى ستين ضعف مرتب الجندي، بينما كان القائم مقام في الجيش المصري يتقاضى خمسمائة ضعف الجندي[35].

كان جيش محمد علي يسمى جهادية مصر، على رغم أن «جهاده» الوحيد كان ضد المسلمين. لم يستنهض محمد علي الوطنية المصرية التي لم تظهر بعد، وإن كانت قد بدأت في التشكل في الجيش الذي تعرض جنوده المصريون للتمييز والإذلال من جانب الضباط الناطقين بالتركية[36].

ربما نظر محمد علي - بهيكل سلطته وعقليته «التركيين» واعتباره القسطنطينية مركز العالم - إلى دوره كخادم للسلطان العثماني، ورأى أن

(*) من بين قائمة الصدور العظماء المتوافرة على موقع «ويكيبيديا»، التي تضم 292 اسما وفترة الصدارة العظمى لكل منهم وعرقه، نجد الصدور العظماء: الرقم 146 عبدالله محسن زاده باشا من حلب، والرقم 153 سيد عبدالله باشا من كركوك، والرقم 164 محمد باشا محسن زاده ابن عبدالله محسن زاده، والرقم 279 محمود شوكت باشا وهو شيشاني وشركسي وعربي من بغداد (http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_Ottoman_Grand_Viziers). غير أن الموطن العربي لهؤلاء في زمن الدولة العثمانية لا يعني أنهم عرب، بل مواطنون عثمانيون على أرض عثمانية. وكما جاء في كتاب «القسطنطينية - المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924» الصادر عن سلسلة «عالم المعرفة» عددي يوليو وأغسطس 2015، فإن السلطان عبدالحميد الثاني (حكم من العام 1876 إلى العام 1909) كان أول من استخدم العرب وزراء ومستشارين، وحتى حضور العرب في «عاصمتهم» القسطنطينية كان أضعف كثيرا جدا من العناصر الأخرى التي لم تشكل في الإمبراطورية المساحة التي شكلتها الولايات العربية ولا عدد السكان الذين شكله العرب، ولا الولاء الذي أظهره العرب للدولة بحكم الانتماء الديني. [المترجم].

(**) كانت ترقية ضباط الصف المصريين عن طريق الامتحانات وليس دوريا، مثل الضباط من خريجي المدارس الحربية، أحد أسباب قيام الثورة العرابية. [المترجم].

إمكانية تجنيد الجنود في جيشه من الأراضي العثمانية والحصول على ألقاب الشرف العثمانية أفيد لعائلته من الاستقلال. وعلى الرغم من هبات الاحتقار بحق الأتراك، ظل محمد علي يشعر أيضا، كما أعلن كثيرا، بدرجة من الولاء إلى الإمبراطورية التي جاء منها(*).

علاوة على ما سبق، فقد كانت الإمبراطورية العثمانية توفر شكلا من الحماية من طموحات الإمبراطوريات الأوروبية التي أخذت تتوغل في مصر. وكان محمد علي أيضا منزعجا مما أسماه «بؤس» المسلمين و«تدهور أحوالهم»[37]. فها هو باي تونس - في رأي محمد علي - قد أصبح «عبدا لفرنسا»[38]. وكان إبراهيم هو الآخر يخشى من «خراب عائلتنا» و«تقسيم الأراضي الإسلامية»[39]. وكان مصير الجزائر التي كانت تعرف بأسماء «المحروسة» و«السعيدة» و«معقل الجهاد»، ماثلا أمام أعين الرجلين(**). وعلى مدار العقد الرابع من القرن التاسع عشر، ظلت الحكومة الفرنسية توسع نطاق سيطرتها وتوطن مستعمرين أوروبيين على أراضي المسلمين، وتهدم المساجد والمدارس. وبُنيت مدينة أوروبية جديدة تضم ميدانا مفتوحا فسيحا يتدرب فيه الجنود الفرنسيون، بجانب المدينة العربية القديمة القصبة(***). وسرعان ما هيمنت كنيسة نوتردام أفريقيا على الأفق. وظهر النواح في الأغاني الشعبية الجزائرية:

(*) يفسر ذلك عدم إقدام محمد علي وخلفائه على إعلان الاستقلال الكامل لمصر حتى سقوط الدولة العثمانية، وحتى بعد وقوع الاحتلال البريطاني لمصر، كأن طموح الرجل لم يكن إلا تأمين حكم وراثي لأبنائه تحت المظلة العثمانية، وكأنه لم يرد بأعماله العسكرية الأولى ضد الدولة العثمانية في الشام وحتى كوتاهية إلا انتزاع الحكم الوراثي لمصر. [المترجم].

(**) لا ريب أن سقوط الجزائر كان أمرا مروعا للدولة العثمانية ورجالاتها، ومنهم محمد علي وأبناؤه بالطبع، لأن الجزائر كانت سوط العثمانيين الذي ألهب ظهور الأوروبيين، أو كما كتب دوغرامي أحد النبلاء الفرنسيين في العام 1619: «السوط المسلط على العالم المسيحي. إنها رعب أوروبا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر»، فقد كان من يسمون في شمال المتوسط وغربه «القراصنة» الجزائريين، ومن يسمون في جنوب المتوسط وشرقه «المجاهدين البحريين»، يشكلون رعبا لكل مدن الساحل الجنوبي والغربي لأوروبا فضلا عن أساطيلهم وسفنهم، منذ أن أسس الأخوان عروج وخيرالدين بربروس ورياس البحر إيالة الجزائر وألحقوها بالدولة العثمانية. راجع للمترجم كتاب «الدين والدم - إبادة شعب الأندلس»، مشروع كلمة - هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2013. ولا بد أن نزع هذا السوط وذلك اللجام، قد لجم طموحات أمثال محمد علي وجعلهم يؤثرون البقاء تحت الراية العثمانية. [المترجم].

(***) يشير الاسم «قصبة» في ذاته إلى الجهاد، إذ أُخذ من القصبات الأندلسية، وهي مبان حصينة كانت تتخذ مقرا للجند للدفاع عن منطقة معينة وتأمينها من الأخطار، وانتشر الاسم إلى المغرب العربي كما في أسماء قصبة الجزائر وقصبة الوادية وقصبة باجة والقصبة المغربية. [المترجم].

دموعي تنهمر على الجزائر وبيوتها
التي استوطنها المسيحيون وغيّروا وجهها!
أفسد الأنجاس كل شيء وأذلوا الجميع!
وبعثروا عظام آبائنا، وربطوا خيولهم في المساجد[40].

وعلى الجهة الأخرى من مصر، سبقت إنجلترا محمد علي وأحبطت طموحاته في المنطقة عندما قصفت بوارجها عدن في العام 1839 وانتزعتها من سلطان لحج[*]، وكانت بذلك أول الممتلكات العربية للإمبراطورية البريطانية، وظلت أحد أكثر الموانئ ازدحاما في المحيط الهندي حتى رحيل القوات البريطانية عنها في العام 1967.

كان الصراع بين الباشا والباب العالي صراعا دوليا أيضا، إذ طلب الجانبان كلاهما الدعم الأجنبي، واستخدما الديبلوماسيين الأجانب رسلا ومفاوضين. فحقبة الهيمنة الأجنبية التي لم يتعافَ الشرق الأوسط منها حتى الآن، نتجت عن توسع الإمبراطوريات الأجنبية، وقبل ذلك عن طلبات الحكام المحليين المتكررة للدعم الأجنبي وطلبات الأعيان والوجهاء المنتظمة للحماية الديبلوماسية الأجنبية[41]. ولولا هذه الحماية ما كانوا ليشعروا بالأمن على أرواحهم وممتلكاتهم، ولولا التعليم الأجنبي لما صمدوا أمام تحديات زمنهم[42].

انزعجت فرنسا من القوة المتزايدة لروسيا وبروسيا والنمسا في أوروبا، فدعمت محمد علي الذي اعتبره بعض الفرنسيين وريث بونابرت والآخذ بثأره[**]. كما أن تجارة فرنسا مع مصر كانت قد بدأت تفوق تجارتها مع بقية الإمبراطورية العثمانية. وكانت خدمة البواخر بين مارسيليا والإسكندرية قد بدأت في العام 1835. وفي المحادثات مع الديبلوماسيين الفرنسيين، قدم محمد علي نفسه بطلا عازما على ضمان مكان لنفسه في التاريخ، وبونابرت جديدا سينفذ ما تقرره الحكومة الفرنسية. وقد تجلى فخره بما أسماه «المحمد - علوية» Muhammad Ali-ness في

(*) كانت سلطنة لحج أو العبادل أو العبدلي، وعاصمتها الحوطة، بجنوب اليمن إحدى المشيخات المستقلة منذ العام 1728، فقدت استقلالها بتوقيع سلاطينها معاهدات تبعية لبريطانيا بعد هجوم الأخيرة عليها في العام 1839، وبعد افتتاح قناة السويس في العام 1869 أعلنت الحماية البريطانية عليها في العام نفسه، ضمن محمية عدن التي ضمت ثماني مشيخات أخرى. ألغيت السلطنة رسميا بعد قيام الدولة الشيوعية في اليمن الجنوبي وطرد آخر سلاطينها في العام 1967. [المترجم].

(**) الآخذ بثأره ممن هزموا حملة نابليون وطردوها في إثره، وهم تحديدا الأتراك والإنجليز، وربما المصريون الذين ثاروا كثيرا على الاحتلال الفرنسي. [المترجم].

أن أعلام جيوشه الحمراء لم يُطرّز عليها غير الكلمتين «محمد علي»[43]. وكذلك قال لهنري سولت إن «محمد علي ليس باشا، وليس له لقب، إنه محمد علي وحسب. فأنا لا أضع نقشا آخر على ختمي غير محمد علي»[44].

وبالنسبة إلى بريطانيا وبروسيا والنمسا، كان بقاء الإمبراطورية العثمانية ضرورة للنظام الأوروبي، وأفضل من بدائل الفوضى أو التقسيم. لذلك ظل القناصل الأوروبيون في الإسكندرية، والسفراء الأوروبيون في القسطنطينية، والمبعوثون الخاصون المرسلون مباشرة من لندن وفيينا وسانت بطرسبورغ إلى الإسكندرية، دوما يؤيدون السيادة العثمانية[45]. وفي العام 1829، حين كانت بريطانيا وفرنسا، في مرة لن تكون الأخيرة، على وشك إرسال أساطيلهما لحماية القسطنطينية من جيش روسي قادم، قال دوق ولينغتون إننا «نحافظ على بقاء الإمبراطورية العثمانية، ليس من أجل مصلحة الأتراك، بل من أجل مصلحة أوروبا المسيحية». وفي العام 1832، كتب وزير الخارجية الفرنسي الجنرال هوراس سباستياني، الذي شغل في السابق منصب سفير بلاده في القسطنطينية، أن تفكك الإمبراطورية سيكون خطرا على السلام في أوروبا[46][*].

كانت بريطانيا تخشى تحديدا من أن يدفع توسع محمد علي الإمبراطورية العثمانية إلى التحالف مع روسيا، كما حدث فعلا في العام 1833 لوقف تقدم إبراهيم باشا، حين عسكر خمسة آلاف جندي روسي في بيوكدير Buyukdere على البسفور. وكتب وزير الخارجية البريطاني لورد بالمرستون Lord Palmerston إلى الكولونيل كامبل في الإسكندرية عن «الأهمية التي تعوّلها حكومة صاحب الجلالة على الحفاظ على سلامة الإمبراطورية التركية من أجل المصلحة الأوروبية»[47]. علاوة على أن الاتجاهات الاقتصادية الليبرالية للإمبراطورية العثمانية التي أكدتها معاهدة بلطه ليمان للعام 1838، اعتبرها الإنجليز أفضل لمصالحهم التجارية من سياسات محمد علي التدخلية، على رغم أن التجار البريطانيين في الإسكندرية كانوا يثنون عليه دائما لدى حكومتهم[48].

وأخيرا، في الخامس والعشرين من مايو 1838، وفي طيات شكواه من أنه كان أوفى وأطوع تابع لسيده العثماني في التاريخ، قال محمد علي للقنصل العام الفرنسي مسيو

(*) ومن هنا شاع وصف الإمبراطورية العثمانية في الكتابات الغربية باسم «رجل أوروبا المريض» الذي لا يراد له أن يشفى من مرضه ولا حتى أن يموت وينتهي وجوده. [المترجم].

كوشليه Monsieur Cochelet، ولاحقا للقناصل الآخرين، إنه يريد الاستقلال: «لقد تقدم بي العمر، وأريد أن أطمئن قبل أن أموت على مستقبل عائلتي. وأريد أن تنتقل السلطة التي أسستها إلى أيديهم». وتحدث أيضا عن مستقبل مصانعه ومدارسه وأسطوله. وأبدى استعداده لدفع ثلاثة ملايين جنيه للباب العالي في مقابل الاستقلال[49]. وقال لميشيل توسيزا إنه لا يريد «بعد موته أن يترك مصير عائلته السياسية والبيولوجية العظيمة تحت رحمة السلطان الذي قد يرغب في إفنائهم قبل أن يوارى محمد علي الثرى»[50](*). كان محمد علي فخورا بإصلاحاته. لكن أولويته لم تكن مصر ولا العرب ولا الإمبراطورية العثمانية ولا الإسلام، بل ما أسماه هو وإبراهيم «عائلتنا العلية» أو «عائلتي»، وأن «أنحت مكانا لعائلتي ونسلها في التاريخ يبقى ذكره أربعة قرون أو خمسة»[51].

في هذه الأثناء، كان إدخال إبراهيم باشا للسخرة، على الطريقة المصرية، قد أشعل ثورات في سورية. وقد كرهه كثير من المسلمين، إذ كان في عاداته أقل حرصا على التقاليد من أبيه، فكان يجلس «على طريقة الفرنجة» على كرسي، بدلا من أن يجلس على ديوان «على طريقة الأتراك»، ويأكل بملعقة وشوكة، ويشرب كميات كبيرة من النبيذ علنا، في حين كان أبوه يشرب سرا في الحريم[52]. وفي بيروت، شجب الشيخ فضل الله تطبيق الحجر الصحي لكونه «مخالفا لتعاليم الإسلام... لأنه لا حول ولا قوة إلا لله العلي العظيم»[53].

اندلعت الحرب مع السلطان مجددا. ففي الرابع والعشرين من يونيو 1839، اشتبك الجيش العثماني مع قوات إبراهيم باشا في نزيب الواقعة إلى الشرق من حلب. كانت معركة نزيب حدثا تمهيديا مشرقيا للحرب الفرنسية - البروسية(**). إذ كان الضباط البروسيون ومنهم هيلموت فون مولتكه مهندس النصر في العام 1870 يقدمون النصح للجيش العثماني، فيما كان الضباط الفرنسيون يقدمون النصح للجيش المصري(***). بدأ القائد العثماني حافظ باشا القتال على خلاف أوامر السلطان ونصيحة مولتكه، فدُحِر جيشه وفقد مدفعه وأمتعته[54].

(*) عائلته البيولوجية هي أسرته وأبناؤه، وعائلته السياسية هي الدولة والنظام والنخبة الحاكمة التي كوّنها. [المترجم].

(**) الحدث التمهيدي prequel في الأدب والسينما، حدث أو حكاية تمهد للرواية أو الفيلم. [المترجم].

(***) كان الفيلد مارشال هلموت كارل بيرنهارد غراف فون مولتكه Helmuth Karl Bernhard Graf von Moltke (من 26 أكتوبر 1800 إلى 24 أبريل 1891) - رئيس أركان الجيش البروسي لثلاثين عاما - على رأس الجيش الذي هزم فرنسا في الحروب الفرنسية - البروسية 1870 - 1871. لكن على خلاف نتيجة الحرب الأخيرة، انتهت الحرب المصرية العثمانية في نزيب بهزيمة الطرف الذي أيده مولتكه وانتصار الطرف الذي أيده الفرنسيون. [المترجم].

تلت هذا الانتصار المصري كارثة عثمانية أخرى. ففي أثناء جنازة السلطان محمود الثاني في يونيو 1839، آل ختم الصدر الأعظم إلى خسرو باشا عدو محمد علي(*). ولما كان القبطان باشا عدوا آخر لخسرو[55]، فقد أبحر بالأسطول العثماني من القسطنطينية إلى الإسكندرية، بدلا من الاشتباك مع الأسطول المصري. وفي 14 يوليو 1839، أطلقت مدافع السفن المصرية النيران تحية للقبطان باشا الذي نزل إلى الإسكندرية وركب حصان محمد علي إلى رأس التين بين أرتال من الجند، وجثا ليقبل حاشية عباءة الباشا، فرفعه محمد علي برفق قائلا: «مرحبا بك يا أخي»، ثم ذهبا يدا بيد لشرب القهوة وتدخين البيبة، وجلسا على الديوان في غرفة الاستقبال، ومن مكانهما كانا يريان الأسطولين العثماني والمصري مجتمعين، بعد أن أصبحا رهن أوامر محمد علي في ميناء الإسكندرية[56]. ومع ذلك، فقد وضع محمد علي خططه للاستقلال على الرف مجددا. وفي 16 يوليو 1839، ألقى الباشا خطابا أمام ضباط الأسطولين، أعاد فيه التأكيد على ولائه للدولة العثمانية: «أبنائي إننا جميعا أبناء أمة واحدة. ومن الآن فصاعدا، لا يقولن أحدكم أنا مصري أو أنا من القسطنطينية، فكلنا أتباع دين واحد وسلطان واحد. وينبغي علينا أن نعتصم بالوحدة لإعادة قوة الإمبراطورية وعظمتها. ولا بد من أن نبذل كل طاقتنا من أجل هذه الغاية. وسلطاننا ماسة جميلة نقية».

بعد ذلك، طلب الضباط العثمانيون أن يلبسوا زي الجيش المصري، فرد محمد علي بأن لهم الحرية في أن يفعلوا ذلك، من دون إجبار لأحد، وأوضح أنه في حين تبنى الناس في القسطنطينية اللباس الإفرنجي مع احتفاظهم بالعقول التركية، حافظ هو على اللباس التركي لكنه عمل بعقل إفرنجي[57]. من الواضح أن الباشا كان يلعب بهوياته وولاءاته المختلفة - الإمبراطورية والدينية والقومية - بالطريقة التي ميّزت المشرق. وحتى حين كان يقاتل السلطان، أبقى على ارتباطه بالإمبراطورية العثمانية.

وعلى مدار السنة ونصف السنة التالية، تركزت سياسة أوروبا على المشرق.

(*) عندما مات السلطان محمود الثاني في الأول من يونيو 1839 كان خسرو باشا الذي رآه هنري سولت في حالة «العنف اللطيف» مع محمد علي في العشرين من أغسطس 1825، لم يعد قبطانا باشا، وعيّنه عبدالمجيد الأول صدرا أعظم في اليوم التالي لوفاة أبيه. [المترجم].

وإذا كان محمد علي قد أبدى ترددا في إعلان استقلاله، فإن بريطانيا - كما توقع الباشا منذ العام 1830 - كانت العائق الرئيس أمام نجاحه، وقال في ذلك «أينما وجهت وجهي أجدها واقفة لي بالمرصاد»[58]. وأصبح بالمرستون والسفير البريطاني في القسطنطينية لورد بونسونبي Lord Ponsonby عدوين شخصيين للباشا، إذ اعتبرا طموحاته البحرية وصداقته مع فرنسا تهديدا لبلدهما. وفي العام 1840، بدأت الثورة على الحكم المصري تندلع في لبنان، بتشجيع من عميل بريطاني يدعى ريتشارد وود Richard Wood أرسله بونسونبي من القسطنطينية. كانت الإسكندرية في عين العاصفة، فشرع محمد علي في تحصين المدينة، وشكّل حرسا وطنيا، بدأ يتدرب في ميدان القناصل.

زعم محمد علي أنه يحارب لورد بالمرستون، وليس البريطانيين. وتباهى أمام القنصل العام البريطاني الجديد المشاكس مستر هودجز Mr Hodges، الذي حل محل كامبل الذي ارتُئي أنه كان مؤيدا للباشا أكثر مما ينبغي، بأنه يستطيع أن يشعل ثورات في كل الولايات العثمانية(*). فرد عليه هودجز بأنه سيُسْحَق في هذه الحالة. وأخذت الأساطيل البحرية الفرنسية والبريطانية تطوف بين جزر بحر إيجة[59].

وفي 22 أغسطس 1840، أعلن القنصل الفرنسي على الملأ في رأس التين أنه ربما تندلع حرب في أوروبا قريبا[60]. ومن باريس، نصح رئيس مجلس الوزراء أدولف تيير Adolphe Thiers الباشا بألا يتنازل عن سورية، وكتب له أن «شرف فرنسا» يتوقف على ذلك. لكن تيير الشفاف والمعتدل عادة، مثل كثير من القادة الذين تعاملوا مع الشرق الأوسط، لم يكن على علم بمجريات الأمور على أرض الواقع. ونصح محمد علي بأن يعمل ليل نهار على تحصين الإسكندرية وأن ينتظر حتى الربيع الذي سيكون فيه لفرنسا جيش من ستمائة ألف جندي[61].

وفي أغسطس، وصل مبعوث عثماني يدعى رفعت بك إلى الإسكندرية بمركب بخاري من القسطنطينية. رفض محمد علي قبول شروط رفعت للانسحاب من سورية وإعادة الأسطول العثماني، التي شملت إقصاءه عن حكم مصر. وثارت

(*) كأن محمد علي يقول للإنجليز إنها ثورة مفتعلة ومدفوعة من الخارج، وليست ناتجة من رغبة محلية في التخلص من حكمه. [المترجم].

ثائرة محمد علي في 23 سبتمبر عندما غادر القناصل الأجانب الإسكندرية جميعا، ما عدا القنصل الفرنسي، ردا على عدم قبوله عرضا أفضل من العثمانيين بأن تكون مصر ولاية وراثية لأبنائه ويكون جنوب سورية له مدى الحياة. وانتقل أسطول بريطاني كان قد قضى الشتاء بالقرب من سميرنا، ليتمركز قبالة الإسكندرية، وأخذ يتحرش بالسفن الداخلة إلى الميناء والخارجة منه. وأثبت أسطول محمد علي أنه كذبة مكلفة. ونصحه كوشليه بألا يبحر الأسطول خارج ميناء الإسكندرية، خشية أن يدمره الأسطول البريطاني. وحين طلب محمد علي من فرنسا أن ترسل ثمانية آلاف جندي وبحار وأدميرالا لقيادة الأسطول، رفضت الحكومة الفرنسية[62]، ولم ترسل سوى مهندس يدعى القومندان غاليس Gallice (وأعطته لقب أدميرال لكي ترضي الباشا) للإشراف على تحصينات الإسكندرية وكل المهندسين العسكريين المصريين. وسرعان ما قرر غاليس بك الذي كان يعمل لحساب الباشا والحكومة الفرنسية في آن معا، أن الدفاع عن المدينة يتطلب نصب أربعمائة مدفع في الحصون الحالية[63]، فيما رأى مبعوث خاص من تيير يدعى كونت فالسكي Count Walewski أن الإسكندرية لن تتمكن من مقاومة أي هجوم بريطاني إلا إذا دافع عنها ثمانمائة جندي مدفعية فرنسيين بقيادة جنرال فرنسي. ولم يأتِ هؤلاء قط[64].

وفي سبتمبر 1840، أصبحت سورية هدفا لهجوم عثماني - بريطاني - نمساوي مشترك على قوات محمد علي، وهو النزاع الذي لفه النسيان حاليا، مع أنه كان في حينه حربا عالمية بكل معنى الكلمة. فبينما تقدمت القوات العثمانية من الشمال، أخذت السفن البريطانية والنمساوية تحوم على الشاطئ. وجاء في بيان للأدميرال البريطاني تشارلز نابير Charles Napier ترجمه ريتشارد وود إلى اللغة العربية: «قرر السوريون وبريطانيا العظمى والنمسا وروسيا وبروسيا متحالفين مع السلطان، إنهاء حكم محمد علي لسورية. توقيع تشارلز نابير». رد سليمان باشا قائد القوات المصرية (الكولونيل سيف بالجيش الفرنسي سابقا) بأن «بيروت لن تسقط في أيديكم إلا بعد أن تكون قد تحولت إلى رماد»[65]. كان الأمير بشير حاكم جبل لبنان يتحسس اتجاه الريح، فغيّر ولاءه من محمد علي إلى العثمانيين ثانية، بالسهولة نفسها التي بدل بها دينه قبل سنوات قليلة، من الإسلام إلى المسيحية[66].

في هذه الأثناء، كانت حمى الحرب تجتاح فرنسا وألمانيا، وانتشر الحديث عن «طلاق نهائي» بينهما. كتب هاينه أن تيير أيقظ ألمانيا من سباتها الطويل(*). وإلى هذه الأزمة يرجع النشيدان الوطنيان الشهيران Die Wacht am Rhein (أولئك الذين يحرسون على الراين) وDeutschland, Deutschland uber alles (ألمانيا، ألمانيا أنتِ فوق الجميع). وفي باريس، أخذت الحشود تصيح Guerre aux Anglais, ils ont pris notre Beyrout (الحرب على الإنجليز، إنهم يأخذون بيروت). ودعت الصحف إلى الحرب، ليس دعما لمحمد علي وحسب، بل أيضا لإعادة احتلال الضفة اليسرى لنهر الراين التي كانت فرنسا قد فقدتها بعد سقوط نابليون في العام 1814[67]. لكن في إشارة إلى أن فرنسا لن تحارب، انسحب الأسطول الفرنسي إلى أمان المياه الفرنسية في العاشر من أكتوبر[68]. كانت البحرية الملكية البريطانية قوية جدا، وكان الملك لويس فيليب أذكى من أن يربط مصير فرنسا - كما قال - بسلطة باشا مصر.

في هجوم البحرية الملكية البريطانية على حصن عكا العظيم في 3 نوفمبر، انتصرت التقنية على العامل البشري. أخذت مدافع البحرية الملكية «تلفظ حمما ضخمة من النيران» كانت مهلكة إلى درجة أن الكومودور سميث Smith أخبر بالمرستون بأنها «كانت تبيد كل المخلوقات الحية ضمن مساحة ستين ألف ياردة مربعة». وحين كانوا يضربون مستودع ذخيرة، كان ينفجر عاليا مثل جبل فيزوف(**). وفي الخامس من نوفمبر، استسلمت عكا[69].

كان السلام في أوروبا متوقفا على القرارات التي تُتخَذ في الإسكندرية. وفي 22 نوفمبر 1840، أرسى الأدميرال تشارلز نابير سفينته صاحب الجلالة باورفول HMS Powerful في الميناء. وفي 26 نوفمبر، أجرى مقابلة رسمية مع محمد علي. وحين طُلبت منه أوراق اعتماده، أجاب بأن «المدافع مزدوجة الطلقات بسفينة صاحب

(*) كرستيان يوهان هاينريش هاينه Christian Johann Heinrich Heine (من 13 ديسمبر 1797 إلى 17 فبراير 1856) شاعر وصحافي وناقد أدبي ألماني. أما إيقاظ تيير لألمانيا فكان بسبب أزمة الراين للعام 1840 التي نتجت من رغبة رئيس الوزراء الفرنسي تيير في مد حدود بلاده على حساب أقاليم الاتحاد الألماني إلى نهر الراين الأعلى والأوسط. [المترجم].

(**) يقع جبل فيزوف Mount Vesuvius إلى الشرق من مدينة نابولي، ويعد الجبل البركاني الثائر الوحيد في أوروبا وأحد أشهر البراكين عبر التاريخ. [المترجم].

الجلالة باورفول، وسرب السفن الذي تحت إمرته، وشرفه كإنجليزي، وعلمه برغبة القوى العظمى الأربع في السلام، هي كل أوراق الاعتماد التي يملكها». ونصح الباشا بقبول الشروط التي عرضها الباب العالي، وأنه إن لم يتخل عن سورية وعن الأسطول العثماني، فقد يخسر كل شيء، فـ «مصر ليست منيعة، ثق بكلامي، والإسكندرية نفسها قد تشارك عكا المصير عينه، وصاحب السمو الذي تتوافر له الآن فرصة لتأسيس عائلة حاكمة، يمكن أن يصبح مجرد باشا عادي»[70].

أجاب بوغوص يوسف بك بحلم نيابة عن سيده بأنه على الرغم من «قناعته بأن سورية في يديه ستظل توفر موارد كبيرة للإمبراطورية العثمانية»، فإن «صاحب السمو لم يرد مطلقا أن يضع نفسه في عداء مع إرادة القوى العظمى الأوروبية». وفي 27 نوفمبر انتهت اتفاقية إلى الإجلاء الفوري للقوات المصرية عن سورية، وإعادة الأسطول العثماني بعد أن يحصل محمد علي على ضمان بحكم مصر وراثيا لعائلته. تذمر رؤساء نابير، ومنهم بونسونبي، من أفعاله المستقلة، لكنهم في النهاية دعموه. وحين عاد إبراهيم باشا الذي كان صاحب سورية، إلى مصر، لم يكلف أحدهم نفسه عناء الخروج لتحيته[71].

وفي 29 أكتوبر، أقال الملك لويس فيليب رئيس الوزراء تيير. وفي مجلس النواب، اعتبر الشاعر والسياسي الفرنسي لامارتين Lamartine الإذلال الفرنسي في المشرق «وترلو الدبلوماسية الفرنسية»(*). وفي شهر واحد خسر لويس فيليب شعبيته، وخسر محمد علي سورية. ونتيجة لسياسته المسالمة في العام 1840 لم يجرؤ لويس فيليب حتى ثورة العام 1848 (التي أسهمت سياسته في إشعالها) على استعراض الحرس الوطني لباريس، خوفا من المظاهرات المعادية له[72].

في أثناء المفاوضات التالية، كانت الحكومتان العثمانية والمصرية والقوى الأوروبية في حالة تشاور مستمر. أكبَر الجميع في محمد علي سموه في الشدة وعدم تأليهه لذاته. نسي محمد علي هبّاته السابقة وأيمانه بأنه لن يتخلى عن سورية «أبدا»، وقال إنه كان «عازما دائما على التضحية بما أملك وحياتي نفسها لنيل النِّعم العليّة لمولانا السلطان»[73]. وفي فبراير 1841، عاد الأسطول العثماني إلى

(*) معركة وترلو التي سُحِق فيها جيش نابليون كما جاء في حاشية سابقة. [المترجم].

القسطنطينية، وكان ذلك مبعث بهجة لبحارته، وكذلك للسكندريين الذين نفروا من سلوكهم الفوضوي[74].

وأخيرا، وبعد مفاوضات كثيرة، وصل خط شريف، أي فرمان إمبراطوري، مؤرخ في 1 يونيو 1841 إلى الإسكندرية على سفينة روسية من القسطنطينية، جاء فيه أنه امتنانا «للولاء والخضوع اللذين أظهرتهما لي ولمصالح إمبراطوريتي» و«للحماس والحصافة اللتين تتميّز بهما، فضلا عن المعرفة والخبرة اللتين اكتسبتهما حول شؤون مصر»، أنعمنا عليك بحكم مصر وراثيا. وبمقتضى النظام المعمول به في العائلة العثمانية منذ العام 1617، تكون وراثة حكم مصر لأكبر الذكور سنا من نسل محمد علي، وليس لأكبر أبناء الحاكم نفسه(*). ولم يُمنَح محمد علي حكم السودان وراثيا. وبذلك تقلصت منزلة محمد علي واستقلاله. ونص الفرمان أيضا على أنه من ذلك الحين فصاعدا تشترك الإمبراطورية العثمانية ومصر في العَلم والعملة والبزات الرسمية، وتلتزمان بالقوانين الداخلية والاتفاقيات الدولية نفسها. ولا يجوز لباشا مصر أن يحظى بأي ألقاب أو مكانة تشريفية خاصة، وليس من حقه أن يعيّن الضباط إلا إلى رتبة القائم مقام، وألا يتجاوز جيشه ثمانية عشر ألف جندي، وألا يشيّد سفنا حربية من دون إذن عثماني. كل ذلك لضمان ألا تتوافر له الإمكانات لغزو الولايات العثمانية الأخرى. ونص الفرمان أيضا على أن يدفع باشا مصر ربع إجمالي الإيرادات الحكومية إلى الباب العالي[75].

وفي 7 يونيو، أطلقت مدافع الباشا مائة طلقة تحية للإعلان الرسمي للخط الشريف الذي أعلنه سكرتير الباشا إسماعيل بك في رأس التين. وعُلّقت الزينة. وأبحر سعيد بن محمد علي إلى القسطنطينية محملا بهدايا إلى العائلة الإمبراطورية ووزراء الباب العالي[76].

فشلت محاولة محمد علي لضم سورية، لكنه قال إن أسفه أشد على فقدان جزيرة كريت. حتى أسطوله الذي كان مصدر فخره وبهجته، تُرك في ميناء الإسكندرية حتى بلي[77]. لكنه - مع ذلك - وسع أرض مصر لتشمل السودان، وأسس عائلة

(*) أنفق الخديو إسماعيل كثيرا من الهدايا والرشاوى ليستصدر في العام 1866 فرمانا من السلطان يغير نظام نقل السلطة من أكبر ذكور عائلة محمد علي إلى أكبر أبناء الحاكم، وذلك لكي ينتقل الحكم إلى ابنه توفيق، وليس عمه حليم. [المترجم].

حاكمة جديدة، كان عمرها في السلطة أطول من العائلة الجديدة الأخرى بالقرن التاسع عشر - بونابرت(*) - ومعها أسس دولة جديدة.

***

في السنوات الأخيرة من حياة محمد علي، استمر توسع الإسكندرية. من ذلك أن صحافيا إنجليزيا يدعى بايل سانت جون Bayle St John، جاء إلى المدينة في العام 1846، وجد «ثورة تشييد بكل معنى الكلمة في الإسكندرية». فأضيفت أحياء كاملة «كأن ذلك قد حدث بفعل السحر... وفي كل مكان تقريبا يعمل بنّاؤو الآجر والبنّاؤون العاديون»[78]. وارتفع عدد سكان المدينة من ستين ألفا في العام 1840 (منهم زهاء اثني عشر ألف جندي وثمانية آلاف بحار) إلى مائة وأربعة آلاف ومائة وتسعة وثمانين في العام 1848، وهو العام الأول الذي أُجري فيه إحصاء دقيق للسكان. كان زهاء 22.5 في المائة منهم من الإسكندرية نفسها، والباقون مصريين من القاهرة والدلتا. وكان نحو 5 في المائة أوروبيين، والـ 7 في المائة الباقية من الولايات العثمانية الأخرى[79]. نمت الإسكندرية أسرع من أي مدينة أخرى في الإمبراطورية. وفي المقابل، هيمن الركود على عدد سكان منافسي الإسكندرية: القاهرة عند نحو مائتين وثلاثين ألفا، ودمياط ورشيد عند نحو خمسة وعشرين ألفا وخمسة عشر ألفا على التوالي[80].

ومثلما حدث في سانت بطرسبورغ وأوديسا، جذبت الإسكندرية الأجانب، وشجعت التجارة ونشرت التحديث والتعليم. فقد جعل محمد علي من المدينة ماكينة لتحديث مصر. وأصبحت تقارَن بباريس، وغدت مدينة ذات مستقبل[81]. وتمنى علي مبارك أن تصبح أكبر مركز تجاري على الكرة الأرضية. وساد اعتقاد بأن مَنْ يملك الإسكندرية يملك مصر[82].

(*) في العام 1804، انقلب نابليون بونابرت على الجمهورية الفرنسية الأولى وأعلن الإمبراطورية الفرنسية وغزا معظم أوروبا وعيّن أفرادا من عائلته ملوكا لها، وانتهت إمبراطوريته الأولى بنفيه إلى إلبا بعد هزيمته في حرب الائتلاف السادس واحتلال فرنسا في الحادي عشر من أبريل 1814 وتنازله عن العرش لابنه الطفل نابليون الثاني، الذي لم يحكم قط. ثم أعاد نابليون الإمبراطورية لمائة يوم في مارس 1815 قبل أن تنتهي بمعركة وترلو في يوليو من العام نفسه ومعها نابليون، الذي نفي هذه المرة إلى جزيرة سانت هيلانه ومات فيها في العام 1821 عن عمر واحد وخمسين عاما. بعدها عادت عائلة البوربون، إلى العرش عبر نظام ملكي دستوري حتى ثورة يوليو 1830، التي أقامت الجمهورية الثانية، وفي الثاني من ديسمبر 1851 انقلب على الجمهورية لويس نابليون بونابرت الذي انتخب رئيسا وأعلن عودة الإمبراطورية (الثانية) باسم نابليون الثالث حتى العام 1870، الذي أعلِنت فيه الجمهورية الثالثة بعد هزيمة نابليون الثالث أمام بروسيا في معركة سيدان. [المترجم].

لكن باب مصر قد يكون فيه هلاكها. فالنجاح والانفتاح أمام الجميع يمكن أن يكونا مهلكين لأي مدينة، تماما مثل تدهورها. وبفضل السلطة الشخصية لمحمد علي، آوت الإسكندرية حتى حينه أقواما وأديانا مختلطة بسلاسة رائعة. لكنها، على غرار ما حدث في سميرنا، حين جذبت هجرة يونانية ضخمة، استوردت أيضا الأيديولوجيا القومية اليونانية. وعلى ذلك، فإن الإسكندرية حين فتحت ذراعيها للهجرة الأوروبية، ربما كانت بذلك تستدعي أيضا جيوشا أجنبية مثل الجيشين اللذين احتلا الجزائر وعدن. كانت سميرنا والإسكندرية كلتاهما قنبلتين موقوتتين محتملتين. وحتى في العام 1785، حين كان المماليك يضايقون الأجانب في الإسكندرية، هدد الأجانب الحكومة العثمانية بأنها إن لم تسوِ هذا الموقف، فإن حكوماتهم ستفعل ذلك بنفسها. ووصلت حملة عثمانية لإعادة النظام في العام التالي[83].

كانت الإسكندرية فريسة سهلة. فقد استولت عليها فرنسا في العام 1798 وبريطانيا في العام 1807. وهدد بالمرستون محمد علي بقصف المدينة أو حصارها في أعوام 1833 و1838 و1840[84]. وفي أثناء زيارته للمدينة في العام 1850، كتب فلوبير أنه من المستحيل - في رأيه - مع وجود القوات البريطانية في عدن، ألا تصبح بريطانيا سيدة مصر بعد قليل: «تذكروا نبوءتي»[85](*).

كان محمد علي محبوبا بين الأوروبيين. فقد أعجب الجميع بقدرته على فرض القانون والنظام. وحتى في العام 1840 الذي كانت البحرية الملكية البريطانية فيه تهدد الإسكندرية وتقصف القوات المصرية في سورية، استمرت خدمة البريد البري البريطانية عبر مصر إلى الهند من دون انقطاع. وحين فر القنصل العام البريطاني إلى أمان سفينة حربية، قال محمد علي للمقيمين البريطانيين إنه سيكون قنصلهم وحاميهم، وأبر بوعده[86]. ومع ذلك، وعلى رغم صغر عدد الأوروبيين المقيمين في المدينة، بدأ القناصل الأوروبيون في تحدي سلطته.

شهدت الأعوام 1800 - 1830 تصلب المواقف الإمبراطورية البريطانية في الهند، نتيجة لنمو ثراء بريطانيا وقوتها والتوسع السريع للأقاليم البريطانية. فغدت العلاقات بين الرجال البريطانيين والنساء الهنديات غير مقبولة، مع أنها كانت

(*) غوستاف فلوبير Gustave Flaubert (من 12 ديسمبر 1821 إلى 8 مايو 1880)، روائي فرنسي، من رواياته «مدام بوفاري» و«تجربة القديس أنطونيوس». [المترجم].

شائعة في السابق. كانت هذه اللحظة لحظة انطلاق القرن الإمبريالي لبريطانيا. وبدأت عملية مماثلة تتكشف بعد بضع سنوات في المشرق. ففي العام 1843، هدد القناصل محمد علي بأنه إن لم يحفر قناة السويس (التي اقتُرِحت في أثناء الغزو الفرنسي في العام 1799)، فإنها ستُحفَر من دون موافقته[87].

وفي يناير 1847، أُبعِد ستة بحارة بريطانيون سكارى من الإسكندرية على سفينة بريطانية - على رغم احتجاجات محمد علي - كانوا مطلوبين من جانب السلطات المصرية في قضية قتل. إذ زعم القناصل والمقيمون الأوروبيون بالاحتكام إلى ورقة الامتيازات - من دون مبادرة من حكوماتهم - أنهم معفون تماما من القوانين المحلية ويتمتعون بالحرية من السلطة القضائية للمحاكم المحلية[88]. حتى الرحالة تذمروا أحيانا من «حب التفاخر» و«الصلف في الأحكام» اللذين غلبا على السكندريين الأوروبيين، واللذين ربما استفحلا بسبب فخرهم بماضي مدينتهم. وكان هذا التفاخر وذلك الصلف الأساس لسياستهم أيضا[89].

وإذا كانت الإسكندرية تراثا غامضا، تكمن فيه عوامل القوة والخطر معا، فإن محمد علي هو الآخر كان حاكما غامضا. فالرجل - من ناحية - حقق إنجازات لإدخال مصر في القرن التاسع عشر، وخفف حدة التعصب، وشجع التعليم، وأحدث تغييرا جذريا في الزراعة. لكنه - من الناحية الأخرى - ظلم المصريين كثيرا، وكان يفضل الأجانب عليهم. وتسبب اندفاعه وراء التصنيع، مثل سعيه إلى تكوين إمبراطورية، في معظمه إلى هدر الأموال، وأحدث نتائج عكسية وكان غير إنساني بالمرة. فارتفعت الضرائب والأسعار بشدة، وتدهورت «كل طبقات سكان مصر»، كما كتب القنصل الفرنسي، إلى حالة من «الفقر المدقع»، أسوأ من أي وقت مضى[90]. وفي ذلك كتب الجبرتي منتقدا أن «الباشا»، كما كان يسمي محمد علي، جعل من نفسه «سيدا مطلقا لمصر»، وكان يجمع المال «بشتى الطرق... فالباشا لا يقبل أن يعارَض في أي أمر، ويريد أن تنفذ كل رغباته من دون أدنى تعليق»[91]. وكانت معارضة أوامره «تجر الوبال على صاحبها»[92].

إن الجبرتي، مع أنه أثنى على عزيمة محمد علي في إعادة بناء الإسكندرية وتزيينها وتحصينها، كان حكمه النهائي هو أن محمد علي «لو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة

زمانه وفريد أوانه»[93]. من المحتمل أن يكون الجبرتي قد خبَر ظلم محمد علي بنفسه: تقول إحدى الروايات إنه بعد أن قضى أمسية مع الباشا وأزعجه بتعليقاته الحرة، خُنِق المؤرخ المصري الحديث الأعظم ورُبِط في أرجل حمار[94](*).

ومع ذلك، فحين سمع المصريون خبر وفاة الباشا في الإسكندرية في الثاني من أغسطس 1849، كان الحزن الذي أظهروه مفاجئا لكثير من المراقبين. فكتب القنصل العام البريطاني أن «ارتباط كل الطبقات في مصر باسم محمد علي وتبجيلهم له أنتج جنازة عظيمة لن ينعم بها أي من خلفائه». وسمع القنصل كثيرا من الأهالي يقولون: «ليت الله أخذ من عمري عشر سنوات وأعطاها لباشانا العظيم». و«تذكر جيل الكبار من الأهالي حالة الاضطراب والفوضى التي أنقذ محمد علي هذه البلاد منها، وقارن الجيل الأصغر حكمه القوي بالحكم المتذبذب المتقلب لوريثه، وشعرت كل الطبقات، سواء الأتراك أو العرب، بأن ازدهار مصر قد مات مع محمد علي، وإن ترددوا في قول ذلك صراحة. فالحقيقة يا سيدي اللورد أنه لا يمكن إنكار أن محمد علي، على رغم كل عيوبه، كان رجلا عظيما»[95](**).

(*) على رغم إعجاب الجبرتي بكثير من إصلاحات محمد علي وتشجيعه لأبناء مصر النبهاء، فقد انتقده أيضا بأن «من طبعه الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم» وانتقد حربه على الوهابيين التي جعلته ينهب كل ما في أيدي المصريين لجيشه المتجه إلى الحجاز. وردا على مواقفه قُتِل ابنه خليل على أيدي جنود محمد علي في شبرا بعد صلاة الفجر بأوامر من محمد بك الدفتردار صهر محمد علي، وخنقوا الجبرتي وربطوه في أرجل حماره، ولما أصبح الصباح عرفه الناس بما كان يحمله من دفاتر وآلات لرصد النجوم، وأخذوا يتناقلون الخبر. حزن الجبرتي على موت ابنه وفقد بصره واعتزل الكتابة والتأليف، وظل في داره منزويا حتى مات، كما أحرقت داره ومكتبته الحافلة بذخائر المخطوطات خشية أن يكون فيهما أوراق أو كتابات معادية لمحمد علي. [المترجم].

(**) هل هو توحد الضحايا مع جلادهم، أم العرفان بصنيع الرجل على رغم كل قسوته، أم هي سمة المصريين في التعاطف مع المتجبر حين يموت أو ينكسر أكثر من تعاطفهم مع ضحاياه من أمثالهم؟ إنها ببساطة «طيبة» المصريين عينها التي تجعلهم ينسون الجانب السيئ في الراحلين عموما ويبكونهم بحرقة، كما فعلوا حتى مع الأوروبيين السكندريين وهم يغادرون الإسكندرية، وكما أسفوا من داخلهم على نفي فاروق، وكما حزنوا كما لم يحزن شعب آخر على رحيل جمال عبدالناصر. [المترجم].

6

بيروت
جمهورية التجار

بيروت ميناء مشرقي، فهي لقيطة ومهجنة.

باتون، 24 فبراير 1841

كان محمد علي مؤسس بيروت الحديثة، تماما كما كان مؤسس الإسكندرية الحديثة. فعندما فتحها الجنود المصريون في العام 1831، كانت مجرد متاهة من الأزقة الضيقة والبيوت ذات الأسقف البارزة، «في حالة من القذارة الشديدة»، وقد حشرت داخل أسوار صليبية سميكة[1]. ولما غادرها المصريون بعد تسعة أعوام، تركوا مدينة على أعتاب العصر الحديث.

كانت بيروت مميّزة عن الموانئ المجاورة. غير أن هذا التميّز لا يكمن في بروز التجار الأجانب مثلما كانت الحال في سميرنا، ولا في وجود باشا تحديثي مثلما كانت الحال في

«باستخدام لغة عاطفية تخفي المصلحة الشخصية، حاولت كل طائفة دينية أن تغوي قوة أجنبية، وبحثت كل قوة أجنبية عن طلاب حماية محليين مناسبين. وقابلت التدخل الخارجي رغبة داخلية في مزيد من التدخل»

الإسكندرية، وإنما في قوة المسيحيين وعددهم وقرب جبل لبنان المسيحي منها. ومن هنا جاء تعليق فلوبير حين وصلها في العام 1850: «ثمة شيء في الهواء يجعلك تفكر على الفور في الحملات الصليبية»[2].

كانت بيروت إسلامية بالدرجة الأولى إبان القرن السادس عشر، لكنها فيما بعد أصبحت مدينة مختلطة[3]. فحين زارها في العام 1660 شفاليه دارفيو Chevalier d'Arvieux، وهو تاجر من سميرنا أصبح لاحقا القنصل الفرنسي في حلب، كتب: «مدينة بيروت متجهمة، شوارعها ضيقة وقذرة جدا في الشتاء. وسكانها كثيرون نوعا ما، والعدد الأكبر منهم من المسيحيين [الأرثوذكس] اليونانيين، وتجارة هذه المدينة كبيرة جدا». وفي المساء، كان سكانها يشربون النبيذ ويغنون في حدائقهم. وباستثناء اليهود، «يعيش سكان بيروت كلهم معا عيشة طيبة، أيا كان دينهم. وهم أناس مهذبون، يتزاورون ويقيمون حفلات مبهجة. وأهلها ليسوا فظيعين مثل أهل صيدا»[4]. وعلى خلاف المدن الداخلية مثل أورشليم ودمشق، لم يكن في بيروت مناطق وأحياء منعزلة لأصحاب الأديان المختلفة، وكانت المساجد والكنائس تبنى جنبا إلى جنب، كما كانت كنيسة سان جورج الأرثوذكسية ذات القبتين تقف بجوار الجامع العمري (كنيسة سان يوحنا الصليبية سابقا) في العام 1767[5].

وإلى جانب المسيحيين الأرثوذكس، ضمت بيروت أيضا عددا صغيرا من الموارنة، وهم طائفة مسيحية محلية اعترفت بسيادة البابا منذ الحملات الصليبية (التي دعموها)، كانت تعيش بالدرجة الأولى في جبل لبنان الذي يرتفع بضعة أميال عن البحر ويبين للناظر من كورنيش بيروت. وإلى يومنا، لاتزال وديان الجبل المشجرة وقراه وأديرته النائية تشكل عالما منفصلا عن مدن الساحل. وإحساس الموارنة بالتفوق على جيرانهم تعهده المؤرخون الذين كانوا في معظمهم رهبانا يمجدون كنيستهم[6].

وإضافة إلى الموارنة، وسعت جبال لبنان أيضا الدروز والسريان والإسماعيليين والشيعة المسلمين في الجنوب (الذي تصطف على جانبي الطرق فيه حاليا ملصقات للأئمة وآيات الله)، وعلى الساحل إلى الشمال عاش العلويون أو النصيريون، وهي الطائفة التي تنتمي إليها أسرة الأسد الحاكمة في سورية حاليا. كانت الجبال بالنسبة إلى العثمانيين «مأوى الأوغاد»، وبالنسبة إلى قاطنيها مأوى من العثمانيين[7]. فقد تمتع الموارنة في الجبال بأمن على أرواحهم وممتلكاتهم أكبر مما حظي به سكان

السهول الخاضعون للحكم العثماني المباشر، الذين وصفهم ريتشارد وود الترجمان البريطاني والقنصل اللاحق بأنهم «بائسون في حالة من المجاعة والعري»[8].

دفع القرب بين أديان متنافسة على تقاطع طرق إستراتيجي، لعبة تزاوج قائمة على الإغواء والاستغلال، لاتزال تُلعَب إلى اليوم. فباستخدام لغة عاطفية تخفي المصلحة الشخصية، حاولت كل طائفة دينية أن تغوي قوة أجنبية، وبحثت كل قوة أجنبية عن طلاب حماية محليين مناسبين. وقابلت التدخل الخارجي رغبة داخلية في مزيد من التدخل.

في العام 1639، في أوج الإصلاح المضاد(*)، وضع ملك فرنسا لويس الثالث عشر البطريرك الماروني و«كل المسيحيين الموارنة في جبل لبنان المذكور آنفا» تحت «حمايته الخاصة» رسميا، وعرض مساعدتهم في المجيء إلى بلدان مسيحية للدراسة أو «لأغراض أخرى». وأصدر أوامره للقناصل الفرنسيين ونوابهم بتوفير الحماية لهم، وهو ما عُدّ تدخلا غير مسبوق في الشؤون الداخلية لدولة حليفة. ومن جانبهم، اتفق كثير من الموارنة مع بطريرك لاحق كتب متوسلا: «إننا في الشرق لا نرجو حماية أو ملاذا أو أمانا إلا من عرش فرنسا وممثليه في المشرق». وعلى نحو ما فعل بعض اليونانيين في سميرنا، سعى الموارنة إلى التدخل الخارجي لتحريرهم من السيطرة العثمانية. واقترح البعض أنه بدلا من إهدار الوقت والمال على مكاسب إقليمية صغيرة في أوروبا، يجب أن يفكر ملك فرنسا في غزو سورية. هكذا بدأ ارتباط فرنسا بلبنان الذي استمر إلى يومنا. ولم تكن الحكومة العثمانية على علم بشيء من ذلك[9].

بعد العام 1799 انتقل التجار الأجانب الذين كانوا يتاجرون مع سورية من صيدا وطرابلس إلى بيروت، شجعهم على ذلك قرب الأمير بشير الثاني الذي كانت سلطته تبدأ خارج أبواب المدينة[10]. كانت بيروت تتمتع بكل مزايا المناخ الصحي وسهولة الوصول إلى الجبال بالنسبة إلى أولئك الفارين من الطاعون أو من الأتراك. وبحلول العام 1808، كانت بيروت، بسكانها البالغ عددهم نحو سبعة آلاف شخص، قد حلت محل صيدا بوصفها الميناء الرئيس لدمشق. وفي العام 1811، كتب القنصل الفرنسي أن «تجارة هذه البلدة تزيد يوما بعد يوم»[11].

(*) راجع حاشية سابقة (في الفصل الثاني) حول الإصلاح المضاد. [المترجم].

احتفظت بيروت بإرث الاستقلالية وحسن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، ربما بسبب تعادل أعداد الطرفين. ونظرا إلى كونها ميناء مختلطا يتنافس مع عاصمة ذات أغلبية مسلمة، كانت بيروت دائما في حالة تضاد مع دمشق، لاتزال قائمة إلى اليوم. وكانت سلطة المفتي المحلي فيها أقوى من المسؤولين المقبلين من العاصمة. قدم القنصل الفرنسي ملحوظة شهيرة في العام 1827 حين كتب أن بيروت «جمهورية من التجار لهم قوتهم الخاصة وقوانينهم الخاصة»[12].

أسهمت هذه العائلات التجارية الغنية، مثل عائلتي الخازن وشهاب الإقطاعيتين، في تشكيل بيروت الحديثة. كانت من هذه العائلات أيضا عائلتا بيهم وبربير المسلمتان، وعائلات سرسق وبسترس وتويني وطراد الأرثوذكسية، وعائلتا فرعون وزنانيري الكاثوليكيتان اليونانيتان اللتان أخذتا تتنقلان بين سورية ومصر إبان القرن الثامن عشر. استخدم الكثير من تجار بيروت الحماية القنصلية الأجنبية لمساعدتهم في المنافسة مع التجار الأجانب، كما حدث مثلا في تجارة الحرير. وساعدت الارتباطات الأجنبية لتجار بيروت ومهاراتهم اللغوية وموقعهم الجغرافي بين أوروبا وآسيا، في إعطائهم ميزة نسبية على من عداهم. فعلى خلاف سميرنا والإسكندرية، كانت رؤوس الأموال الكبيرة في بيروت محلية منذ البداية[13](*).

أدى غزو قوات محمد علي سوريةَ في العامين 1831-1832 إلى تعيين حكومة محابية للتجار والتحديث. من ذلك أن لامارتين الذي أقام في بيروت في العامين 1832-1833 وجدها جنة بمناظر الجبل والبحر فيها، وحظي بأمن كامل على ممتلكاته وتنقله، على رغم أن ابنته جوليا ماتت هناك بالطاعون[14]. كان حاكم المدينة حينئذ هو محمود نامي بك، وهو ضابط مصري من أصل شركسي درس في فرنسا، ومعه مجلس بلدي عُيِّن حديثا مناصفة بين المسلمين والمسيحيين. وكانت بعض الشوارع نظيفة ومعبدة[15].

وبين العامين 1830 و1840 تضاعفت إيرادات الجمارك أربعة أضعاف. وفي العام 1835 الذي بُني فيه حاجز الماء، دخلت ثلاثمائة سفينة وعشر إلى الميناء،

(*) تمثل سيطرة التجار البيروتيين على اقتصاد مدينتهم، بسبب مسيحية المدينة بالدرجة الأولى التي جعلت الحماية الأجنبية محابية للتجار المحليين على خلاف دورها في سميرنا والإسكندرية، فارقا بنيويا أساسيا ميّز بيروت عن المدينتين الأخريين، وأسهم - مع الطائفية بالطبع - في صنع التواريخ المختلفة للمدن الثلاث. [المترجم].

وفي العام 1838 دخلته ستمائة وثمانون سفينة. ووجد القنصل البريطاني بيروت «وقد تحوّلت من بلدة عربية من الدرجة الثالثة إلى مدينة تجارية مزدهرة ومأوى للأوروبيين من مختلف الأمم». وبحلول العام 1839، كانت المدينة قد تأسست فيها تسع وستون شركة، نصفها أجنبية. وكتب القنصل أن الأمن على الحياة والممتلكات الذي استجد شجع «الرأسماليين المحليين» على «وضع ثرواتهم في مضاربات تجارية ما كانوا ليقدموا عليها في السابق»[16].

وصل الأعضاء الأوائل بشركة هيلد Heald للشحن البحري والتأمين في العام 1837. وقد أفزعهم شغف البيروتيين بالقمار والنزهات التي تأخذ اليوم كله، ومع ذلك فلايزال أحفاد أولئك المؤسسين هناك حتى اليوم[17]. وبدأ التجار يتركون المربع الضيق للمدينة القديمة ويبنون فيلات في الريف المحيط[18].

في العام 1836 انضمت قنصلية أمريكية ثم قنصلية روسية في العام 1839 إلى القنصليات الفرنسية والبريطانية والنمساوية التي أُسست سابقا في المدينة. أدى وجود القناصل في ذاته إلى تفاقم الخصومات بين الطوائف، فضلا عن الدسائس الخارجية. من ذلك أن القنصل الروسي جاء بتوجيهات لمساعدة الحجاج الأرثوذكس والكنيسة الأرثوذكسية[19]. حتى إن عائلة جنبلاط التي اغتنت من تجارة الحرير، وكانت على مدى قرنين السادة الإقطاعيين لطائفة الدروز في الجبال، جاء بعض أفرادها إلى بيروت في العام 1839 ليطلبوا من المسؤولين البريطانيين أن تحكمهم بريطانيا العظمى لكي يحققوا ازدهارا مماثلا لما حققته الهند. واستمرت الرغبة الدرزية في الارتباط ببريطانيا عدة عقود[20].

كان الموارنة منذ وقت أطول كثيرا يلعبون لعبة تزاوج مماثلة مع القناصل الفرنسيين. حتى إن عائلة الخازن، وهم ملاك الأراضي الموارنة الذين أسسوا الكثير من الأديرة والكنيسة المارونية الأولى في بيروت، كانوا في الفترة 1655-1758 قناصل لفرنسا في المدينة[21]. وثمة طائفة أخرى، هم الكاثوليك اليونانيون - وهم أرثوذكس في طقوسهم، لكنهم يعترفون بسلطة البابا - نالت بعد العام 1841 اعترافا رسميا كطائفة منفصلة، وتضخمت أعدادها بسبب المهاجرين من حلب المعادين للهيمنة اليونانية على الكنيسة الأرثوذكسية هناك، وكانت هذه الطائفة تحظى بحماية النمسا[22].

كان سلوك القناصل في بيروت متغطرسا مثل زملائهم في الإسكندرية. فكانت أعلام ضخمة ترفرف على سَوارٍ فوق مساكنهم. وكانوا يستعملون الكثير من الترجمانات والكتبة والحراس وطلاب الحماية المسيحيين واليهود، حتى إن محمد علي تذمر من أنهم انتزعوا «نصف مدينة بيروت من سلطة الحكومة المحلية». ولكي يُظهِر هؤلاء القناصل نديتهم في المكانة لإبراهيم باشا، كانوا يرفضون خلع قبعاتهم في حضرته[23].

على أن القناصل كانوا مفيدين أيضا في بعض المهمات. فبداية من العام 1834، طُبِّقت إجراءات صارمة للحجر الصحي بإدارة لجنة كان من بين أعضائها القناصل الأوروبيون والقائد المصري سليمان باشا، الذي كان - مثل محمد علي- تاجرا وحاكما في الوقت عينه، وضمت أيضا ضابطه المرافق كومت دارمانياك Comte d'Armagnac. ومع ذلك، ظلت الكوليرا تضرب المدينة حتى بعد العام 1900[24].

وعلى غرار ما حدث في مصر في عهد محمد علي، شهدت بيروت إبان العقد الرابع من القرن التاسع عشر ثورة خضراء. وقد أغرى جمال الريف حول بيروت الزوار الأجانب، حتى إن بعضهم لم يشأ أن يغادرها مطلقا. من ذلك ما كتبه صديق فلوبير المدعو مكسيم دو كامب Maxime du Camp في العام 1849: «يبدو لي أن المرء يمكن أن يعيش في هناءة بالنظر إلى الجبال والبحر ويستغني بذلك عن أي شيء آخر»[25]. وتحت الجبال المغطاة بالثلوج وتشكيلات شجر الأرز، يمتد «سهل تتخلله تلال صغيرة تغطيها الأكواخ ويزدان بأشجار الزيتون والنخيل والبرتقال والليمون والتوت والكرم»[26]. كانت المدينة المحاطة بالحدائق والصنوبر المظلي، تبدو كأنها «انبثقت من محيط من الخضرة»، إذ «تطوّقها تعريشة هي الأكثر خضرة وطيبا من نوعها». وداخل أسوار المدينة أيضا، كانت هناك «وفرة فريدة» في الأشجار والخضرة[27]. كما ساعد القنصل البريطاني في حلب إبان العقد الخامس من القرن التاسع عشر، جون باركر John Barker، ابن تلك العائلة المشرقية الشهيرة، في إدخال البطاطس والطماطم والبرقوق والخوخ إلى سورية، وتحسين سلالات التوت والبرتقال[28].

نالت إدارة محمد علي إعجاب الأجانب والتجار، بينما كرهها المحكومون. فإلى جانب الكفاءة والعدالة في النظام الضريبي بين المسيحيين والمسلمين، جلب الحكم المصري معه العمل القسري، أي السخرة، والضرائب الأعلى والاحتكارات الحكومية ومصادرة محاصيل القمح والحرير[29]. فوقعت انتفاضات متكررة.

وكما يحدث عادة في كل الأماكن، زاد الاحتلال الأجنبي العلاقات بين الطوائف سوءا. ففي العامين 1838-1839، استخدمت الحكومة المصرية الموارنة للمرة الأولى لقمع ثورة درزية. فأخذت النزعة الطائفية، التي كبحها في السابق النظام الأسري أو الأبوي، تظهر إلى السطح باعتبارها الأساس للنظام السياسي للبلاد، وهي الحالة التي لاتزال قائمة اليوم في لبنان. وبدأ الحلف الدرزي - الماروني القديم ينهار، وأخذت كل طائفة تنظر إلى جيرانها على أنهم خونة. كأن التحديث في لبنان أدى إلى تآكل التسامح، وليس تعظيمه[30]. فكتب ممثلو ما سُمي «أمم» الدروز والمسيحيين والشيعة إلى السلطان الشاب الجديد عبدالمجيد وإلى السفراء الأجانب في القسطنطينية يطلبون المساعدة ضد استبداد محمد علي[31].

وفي مثال متطرف للتدخل القنصلي في السياسة المحلية، شهد العام 1840 إقدام ريتشارد وود، الذي درس اللغة العربية في دير ماروني، على تنظيم الثورة اللبنانية التي أدى فيها دورا أهم من الدور الذي أداه تي إي لورنس T E Lawrence في الثورة العربية بعد ثمانين عاما. كتب مبشر أمريكي عن وود أن «كلمته كانت قانونا في أنحاء الأرض كافة». وبالنيابة عن الحكومتين العثمانية والبريطانية، أقنع وود الموارنة والدروز بضرورة الثورة ضد المحتلين المصريين[32].

كجزء من استراتيجيتها لإجبار محمد علي على الانسحاب من سورية، رست في سبتمبر 1840 تسع عشرة سفينة من بريطانيا وسبع سفن تابعة للدولة العثمانية وأربع سفن للنمسا - كانت السفن البريطانية حينذاك تعمل بالبخار- قبالة بيروت وقطعت اتصال المصريين بالإسكندرية. وفي العاشر من سبتمبر أنزلت هذه السفن جنودا ومدفعية وبنادق للموارنة على «شاطئ رملي مستوٍ» على خليج سان جورج، على مرأى من قمم جبل لبنان المغطاة بالثلوج، في مشاهد كانت استباقا لما حدث إبان الحرب الأهلية اللبنانية في الأعوام 1975-1990[33]. كتب شاهد العيان الكولونيل إدوارد نابير ما يلي:

> ليس ثمة مثال أوضح لبلبلة بابل من المشاهد التي رأيتها في ميناء بيروت حينذاك(*)، حيث ضباط البحرية الإنجليز بقبعاتهم المردودة، والملاحون

(*) مجاز عن تعدد اللغات والمشارب، راجع حاشية سابقة (في الفصل الرابع) حول برج بابل. [المترجم].

> الإنجليز وجنود البحرية النمساويون، والجنود الأتراك الأقذار بمشيتهم المتراخية وطرابيشهم الكبيرة السمجة تتدلى على محياهم المخبول والخالي من التعبير، والدروز والموارنة بملابسهم المترفة والمبهرجة - العمامة الكبيرة والعباءة المتهدلة والسراويل الحريرية الفضفاضة، ومع ذلك كانت أحزمتهم تحوي مستودعا كاملا من الأسلحة - كان هؤلاء جميعا يسرعون ذهابا وإيابا، فضلا عن سلاسل من الجِمال الخرقاء، ناخ بعضها من ثقل أحماله[34].

قاد الكومودور تشارلز نابير- أخو إدوارد نابير- سبعة آلاف رجل من جبل لبنان، وساعدهم ألف وخمسمائة جندي بحرية وبحار بريطاني بقيادة ريتشارد وود والقبطان بالدوين ويك ووكر Baldwin Wake Walker. مثل الكثير من المدن المشرقية، كانت التحصينات الوحيدة لبيروت تتمثل في «سور به بضعة أبراج ضعيفة بالية وبضعة مدافع» وقلعتين ترجعان إلى زمن الحملات الصليبية بُنيتا جزئيا بأعمدة من الأطلال الرومانية، كأن شيئا لم يُبنَ منذ ذلك الحين[35]. بعد قصف مكثف على مدى ثلاثة أيام من الحادي عشر إلى الثالث عشر من سبتمبر من جانب السفن البريطانية والنمساوية، أدى إلى تدمير جزء من الأسوار والقلعة الصليبية وقتل الكثير من الجنود، نزل أحد عشر ألف جندي عثماني على البر في التاسع عشر من سبتمبر. وحيث إن بريطانيا والنمسا كانتا حليفتين للسلطان، فلم يؤدِ القصف إلى مذبحة للمسيحيين المحليين على أيدي المسلمين، أو حتى خوف من حدوث مذبحة، على غرار ما حدث في سميرنا. وفي التاسع من أكتوبر، وبعد قصف آخر لم يسلم منه المستشفى ولا القنصلية الفرنسيتان، استسلم سليمان باشا وألفا جندي مصري وألباني في بيروت للأمير بشير الذي قاد جنودا من العثمانيين ولبنانيي الجبل «الطوال والأشداء وأقوياء البنية... ذوي الطلعة الجريئة التي زادتها شواربهم الضخمة بهاء»[36]. فمحمد علي لم يخسر سورية بسبب التدخل البريطاني والنمساوي وحسب، بل أيضا بسبب النفور من حكم إبراهيم باشا ومشاركة الأمير بشير وقواته في الحرب ضده.

في تقريره النهائي حول هذا النزاع المنسي، استبق الكومودور تشارلز نابير إلى خلق لبنان الحديثة قبل ثمانين عاما، حين كتب إلى بالمرستون أن منطقة جبل لبنان

لو وُسّعت لتشمل موانئ صيدا وبيروت وطرابلس سيكون ذلك «أكثر نفعا لهم وأكثر نفعا لمصالح إنجلترا أيضا»[37].

***

بعد العام 1840 تغيرت بيروت بسرعة تقترب من سرعة تغير الإسكندرية. ففي العام 1842، أصبحت المقر الرسمي لولاية صيدا. واستمر المجلس البلدي الذي أنشأه إبراهيم باشا. وفي العام 1846، ذكر القنصل الفرنسي أن بيروت بها تسعة آلاف مسيحي وتسعة آلاف مسلم وثمانمائة وخمسون درزيا ومائتان وخمسون يهوديا[38]. وفي العام 1847 تأسست فيها جمعية للفنون والعلوم. وفي العام 1851، شهد مبشر يدعى تشارلز فان دي فيلد Charles van de Velde سفنا تأتي من صور وصيدا «كل يوم ... بمواد بناء مأخوذة من الأطلال»، بعد أن استُنفدت أطلال بيروت[39]. ووصفها إيرل كارلايل Earl of Carlisle بأنها «المكان الوحيد الذي رأيته حتى الآن في الأقاليم العثمانية الذي تظهر فيه علامات حقيقية لتقدم ثابت»[40].

وفي ساحة المدافع Place des Canons خارج أسوار المدينة، بدأت العربات الأوروبية بالظهور. كان التعليم الأساس لصعود بيروت. من ذلك أن رهبانيات كاثوليكية مثل الفرنسيسكان والكابوشيين واللازاريست والجزويت وفرير ديكول كريتيان(*) للرجال وسيل من رهبانيات النساء (نوتردام دي سيون ونوتردام دي نازاريت وسير دي بيزانسون وسير دي سان جوزيف وفيللي دي لا شاريتي(**) أنشأت مدارس، وعيا منها بأن المستقبل سيكون لمن تزود بأفضل تعليم. كان التعليم في هذه المدارس باللغة الفرنسية. وعلى خلاف سياسة الحكومة الفرنسية نحو الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا(***)، ظلت هذه الحكومة تحمي الرهبانيات الكاثوليكية الفرنسية في الخارج وتدعم

(*) فرير ديكول كريتيان Freres des Ecoles Chretiennes [رهبانية إخوة المدارس المسيحية]. [المترجم].

(**) على التوالي: نوتردام دي سيون Notre Dame de Sion [سيدتنا العذراء صيدا]، نوتردام دي نازاريت Notre Dame de Nazareth [سيدتنا العذراء الناصرة]، سير دي بيزانسون soeurs de besançon [راهبات بيزانسون]، سير دي سان جوزيف Soeurs de Saint Joseph [راهبات القديس يوسف]، فيللي دي لا شاريتي Filles de la Charite [راهبات المحبة]. [المترجم].

(***) مثل نبذ الدولة الفرنسية للكنيسة واضطهاد كهنتها بعد الثورة الفرنسية. [المترجم].

أعمالها، على اعتبار أن ذلك أفضل وسيلة لنشر الثقافة والهيبة الفرنسيتين. إذ ظل عداء فرنسا لرجال الدين مادة ليست للتصدير[41]. وإضافة إلى ذلك، أنشأ البروتستانت المدرسة الأمريكية للفتيات والمدرسة السورية البريطانية للمكفوفين (التي كانت الأولى من نوعها في المشرق)، وأنشأ الأرثوذكس الكلية الوطنية، وأنشأ الكاثوليك اليونانيون الكلية البطريركية[42].

كان إف أي نيل F. A. Neale الذي عاش في بيروت من العام 1842 إلى العام 1850، مراقبا أريبا، وإن كان معاديا. فخارج الأسوار الصليبية، كما كتب:

> كانت تُبنى يوميا قصور جديدة ضخمة ملكا للتجار الأثرياء، وكذلك مقاهٍ وفيلات ريفية ومصانع حرير تعمل بالبخار. ومع النمو في ثراء السكان، بدأوا يعيرون انتباها أكبر للملبس والموضة... وقليلون منهم مَنْ كانوا لا يستطيعون التحدث بطلاقة باللغة الإيطالية التي كانت اللغة المشتركة للشرق... وكان بعض النبلاء يقيمون من حين إلى آخر حفلة راقصة مع عشاء فاخر، كان يدعى إليها أعضاء النخبة من كل الأديان. وفي هذه المناسبات كانت الفرقة الموسيقية التابعة للباشا تحضر عادة وتقوم بعملها.

بدأ الأثاث والسكاكين والشوك تتسلل إلى البيوت. وكذلك بدأ المسرح والصحف في الظهور[43]. وحين زار حاكم مصر سعيد باشا ابن محمد علي، بيروت في العام 1859، أقام في السراي الفخم لعائلة بسترس، مفضلا إياه على بيت الحاكم العثماني[44].

كان البيروتيون يتنزهون في المساء على الطريق الغربي المتجه إلى رأس بيروت، وهو اللسان الذي تقع عليه الجامعة الأمريكية حاليا. وكان الأولاد يسبحون في البحر، والرجال يدخنون النرجيلة، و«يتسامرون في حالة من المرح» وهم جلوس على الكراسي. وكانت النساء يجلسن القرفصاء على الأرض في مجموعات، بينما يمشي «الشبان الطامحون... في لباس بلدهم الرائع» ذهابا وإيابا أو يتمرنون على ركوب الخيول العربية. وفي الليل، كان يكسر الصمت «عواء الكلاب ونباحها وهريرهم ونهش بعضها في بعض»، و«العواء الموحش لقطعان ابن آوى»، و«الضجيج الدائم» للفرق العسكرية وهي تعزف إنزال العلم والمناداة على الأسماء في الثكنات العثمانية[45]. وصف نيل المدينة بأنها «باريس سورية بكل معنى الكلمة»، وهو التشبيه الذي انتشر سريعا[46]. كان التنوع والمرونة جوهر بيروت، كما كانا في

سميرنا والإسكندرية. وبالنسبة إلى الآتين من أقصى الشرق كانت بيروت تبدو مدينة أوروبية، وبالنسبة إلى الآتين من أوروبا كانت تبدو «عالما جديدا»[47].

غدا الميناء أكثر ازدحاما. وكان المسافرون يحملهم إلى الشاطئ «أهالٍ شبه عراة». وعلى الشاطئ، «يجد [المسافرون] في كل خطوة، مشهدا حافلا بالعجلة والعدو والانطلاق، إذ تصل بواخر، وتغادر أخرى، ويسرع التجار من أجل البريد، ويعدو الكُتاب بسندات الشحن والحوالات، وتُفرّغ سلع وتُحمّل أخرى، ويسرع السماسرة إلى البضائع، وغيرها آلاف من الأحداث الأخرى المرتبطة ببلدة تجارية، فهواء الأعمال التجارية الأوروبية يهب هنا في الأنحاء كافة». وكانت الدكاكين تمتلئ بالسلع الأجنبية. كان الفرق بين العام 1835 والعام 1855، كما كتب أحد المسافرين، كالفرق بين الليل والنهار. فقد تضاعفت مساحة بيروت وأصبحت مدينة. كان من الوارد أن تجد التجار متكاسلين على الديوان وأمامهم القهوة والنرجيلة، لكن أمامهم على الطاولات أيضا كتب أوروبية. كان من الأسباب الأخرى لصعود بيروت أن المسيحيين وثقوا بمجلسها التجاري الذي تشكل من أعضاء من «كل القوميات والملل» لحل المنازعات[48]. وارتفعت القيمة المجمعة للواردات والصادرات من عشرة ملايين فرنك في العام 1825 إلى ثمانية وثلاثين مليونا في العام 1845، ثم إلى سبعة وسبعين مليونا ونصف المليون في العام 1862[49].

***

على أن النمو الاقتصادي لم يولد وحيدا، بل صاحبته مذابح، تسبب هو نفسه في إطلاق العنان لها. فمع التراجع في قوة العائلات الإقطاعية، أصبح رجال الدين الموارنة أكثر ثقة وتعليما وموالاة لفرنسا. وفي العام 1841، كتب ريتشارد وود أن الطوائف المختلفة «تتميّز قبل كل شيء بكراهية شديدة بعضها لبعض»[50]. وفي العام 1842 ألغت الحكومة العثمانية «إمارة» الشهابي، وصُرِف الشهابيون من الخدمة كما يُصرَف الخدم، على نحو ما أراد العثمانيون منذ زمن بعيد[51].

وفي الأعوام 1842-1845 أدخلت الإصلاحات الإدارية - لأول مرة - «التمثيل الطائفي بوصفه مبدأ تأسيسيا في الحياة العامة اللبنانية»، وذلك جزئيا بناء على نصيحة من الحكومات الأوروبية، ولايزال هذا المبدأ مطبقا حتى اليوم. فعُيّن للجبل نائبان للحاكم أحدهما ماروني والآخر درزي، يتبعان الحاكم العثماني في بيروت[52].

وأخذ ينهار إرث التعايش الذي كان يدفع المسلمين إلى الصلاة في الكنائس

والمسيحيين إلى التضرع بالله والنبي محمد. وقد اعتمد وصول المبشرين الكاثوليك والبروتستانت، فضلا عن القناصل الأجانب، على عمق الهوة بين الأديان[53].

وفي أثناء الاحتجاجات الاقتصادية من جانب الفلاحين الموارنة ضد أصحاب الأراضي الدروز في مايو 1860، بدأ الدروز يهاجمون الموارنة في الجبال، كما فعلوا في العام 1840. وبذلك كانت كارثة مشرقية أخرى على الأبواب. وتحوّل القتل العشوائي إلى مذابح لا تميّز بين كبير أو صغير، ولا رجل أو امرأة. عوّضت وحشية الدروز عن قلة أعدادهم، إذ أخذوا يقطّعون المسيحيين كالحطب. قُتل سبعة عشر من أفراد عائلة شهاب وحدها. وأخيرا، كما كتب مؤرخ درزي، «أشعلوا النار في كل القرى والمزارع في المنطقة، وتركوها حمما ينبعث منها الدخان بعد أن خمدت نيرانها، وتحمل الريح رمادها عاليا، وبذلك تحولت المنطقة الشاسعة إلى قفر خرب، لا حياة فيه إلا للغربان الناعقة والبوم الناعبة»[54]. قُتل في هذه الأحداث نحو خمسة عشر ألفا في جبل لبنان، ودُمرت مائتا قرية، وتحول مائة ألف شخص إلى لاجئين. وهرب الكثير من المسيحيين إلى الإسكندرية، ما عزز قوة الجالية السورية فيها[55].

يمكن النظر إلى تلك الأحداث من خلال عيني زوجة التاجر الفرنسي كومت دي بيرتيو Comte de Perthuis، وقد عاشا في بيروت في ذلك الوقت. كانت هذه السيدة تعرف بيروت جيدا وسبق أن زارتها في العام 1853، وكانت تدوّن يومياتها. كان بيرتيو وزوجته يقيمان في بيت نصف عربي نصف أوروبي أمام الأسوار القديمة. في التاسع والعشرين من مايو 1860، اندلع شجار مفاجئ بين دروز وموارنة كانوا يعملون في الطريق الذي يشيّده زوجها إلى دمشق، وتعالت «ضجة رهيبة من العويل وصرخات الخوف وإطلاق النار». ومثلما حدث في العام 1958 والعام 1975، خلت شوارع بيروت من الناس.

من نوافذ بيتها المطلة على الجبال والبحر، رأت مدام دي بيرتيو على البعد قرى مسيحية تحترق. واستبد الخوف بخدمها على عائلاتهم في الجبل. «طوال الليل يمكنك أن تسمع صوت إطلاق النار على البعد». ظن الدروز أن هناك لجنة تدير ثورة مسيحية في بيروت بدعم من القنصل الفرنسي. ووصلت أخبار بأن الدروز يدمرون قرى مسيحية وينتقلون من بيت إلى بيت بالمصابيح. وتوافد اللاجئون المسيحيون طوفانا على المدينة وأقاموا في مخيمات في القنصليات الأجنبية. عوّضت نساء الدروز عن عدم قدرتهن على القتال بأيديهن بتشجيع الرجال على اقتراف المزيد من الأعمال الوحشية[56].

عمّ الخوف بيروت. وفي الخامس والعشرين من يونيو، ذكرت مدام دي بيرتيو أن «مسلمي المدينة أصبحوا في حالة من الهياج الشديد منذ الصباح، وأن المسيحيين قد خبلهم الرعب». وُجِد شخص مسلم مقتولا، فهدد أبوه القنصل الفرنسي بسكين. كانت «شدة النساء المسلمات بشعة». وأعلن مسلمو بيروت أنهم ذاهبون لقتل المسيحيين. فقام تاجر مسلم يدعى عمر بيهم ووجهاء آخرون بتهدئة الحشود، وتعزز الهدوء بوصول قوات عثمانية على سفينة حربية وإعدام القاتل المسيحي المزعوم، بموافقة القناصل الأوروبيين. لم تستطع بيروت أن توفر طعاما لكل اللاجئين، ولذلك أخذت القنصليات والأديرة توزع الطعام على الناس. وعلى نحو ما كان السميرنيون يفعلون في أثناء أزماتهم، لجأ الكثير من البيروتيين إلى السفن. وأدار كومت دي بيرتيو لجنة إغاثة، وكانت زوجته تخيط الملابس. وكتبت أن الناس «في السراي [مقر الحاكم] فقدوا عقولهم. ولا يوجد مجلس بلدي في بيروت. وارتُجل مجلس في شكل لجنة عيّنوا ابني رئيسا لها»[57].

انتقلت إراقة الدماء إلى دمشق. ففي أثناء ثورة اليونانيين في العام 1821، وفر مسلمو دمشق الحماية للمسيحيين المحليين على رغم أوامر السلطان بقتلهم أو «إذلالهم». لكن بحلول شهر يوليو 1860، كان الكثير من المسلمين ساخطين على الازدهار المتنامي للمسيحيين واستفادتهم من التجارة الخارجية واستخدامهم القنصليات لتشجيع تجارتهم. فعلى خلاف الحكومة العثمانية في العاصمة، لم يكن للمسلمين في الولايات أصدقاء أجانب. وبدأ الناس ينظرون إلى المسيحيين على أنهم خونة وخطر على الإمبراطورية. وحتى إن مؤرخا كاثوليكيا يونانيا يدعى ميخائيل مشاقة(*) Mikhail Mishaqa ذمّ المسيحيين «الجهلة» و«الوضعاء» الذين «تجرأوا» على أن يعتبروا أنفسهم أندادا للمسلمين «المجيدين». فأخذ المسلمون يذبحون المسيحيين المحليين وينهبون بيوتهم. وغدا الحي المسيحي في دمشق كتلة منثورة من الأنقاض تتناثر فوقها الجثث، إذ قُتل نحو خمسة آلاف مسيحي[58].

ومع وصول اللاجئين من دمشق إلى بيروت - أحيانا وصل حتى ثلاثة آلاف في اليوم الواحد - أخذت كل طائفة من طوائف بيروت تتقدم لترحب بأبناء عقيدتها[59]. وبفضل اللاجئين، ضمت بيروت منذ ذلك الوقت حتى العقد الثالث

(*) هو مؤرخ وموسيقي وطبيب وفيلسوف ولد في قرية رشميا اللبنانية (في العام 1800) لأسرة من أصول يونانية، ونشأ في بلدة دير القمر. من أهم مؤلفاته «مشهد العيان في تاريخ سورية ولبنان»، «الرسالة الشهابية في الصناعة الموسيقية» [المحرر].

من القرن العشرين أغلبية مسيحية، ما بين ثمانية وخمسين وستة وستين في المائة. وبينما كان المسلمون جميعهم تقريبا من أهل السُنة، كان أغلب المسيحيين من الأرثوذكس، مع وجود أقليتين كبيرتين واحدة مارونية والأخرى كاثوليكية يونانية[60].

دفعت الكارثة تدخلا أوروبيا. ففي الثامن عشر والثاني والعشرين من يوليو، وصلت سفن حربية فرنسية وبريطانية قبالة بيروت. وبالاتفاق مع القوى الأوروبية الأخرى، وصل في السادس عشر من أغسطس سبعة آلاف جندي فرنسي بقيادة الجنرال دوتبول d'Hautpoul الذي خدم تحت قيادة إبراهيم باشا في العام 1840، لحماية المسيحيين. وغدا لبنان بذلك تحت الحماية العسكرية الأوروبية، بعد أن كانت تحت حماية سياسية أوروبية فقط منذ العام 1842. وقُسّمت المدينة. وقدم البطريرك والمسيحيون الموارنة التماسا للقوات الفرنسية بأن تبقى، في حين طالب مسلمو بيروت برحيلها فورا[61]. ووصل صدر أعظم سابق يدعى فؤاد باشا في الوقت نفسه في مهمة خاصة من جانب السلطان، وعاقب مرتكبي المذابح من الدروز والمسلمين، ومنهم مسؤولون وجنود عثمانيون وزعماء دروز من عائلة جنبلاط[62].

كان فؤاد باشا مفاوضا ماهرا وتصالحيا، أفضل حتى من المفوضين والقناصل الأوروبيين. فنجح في إيقاف الجيش الفرنسي الزاحف إلى دمشق. وغادر في يونيو 1861، تتبعه سخريات المسلمين، بينما حزن لرحيله الموارنة وأرامل القتلى المسيحيين. على السطح، استأنفت بيروت دورها كمدينة عثمانية. وبين الخامس والتاسع من يوليو 1861، وفي ساحة المدافع، استقبل آلاف البيروتيين تتويج السلطان الجديد عبدالعزيز بسلسلة من المهرجانات والألعاب النارية والعروض العسكرية، وأخذت كل طائفة حرفية بزيها المميز ترقص أمام القناصل وفؤاد باشا. وزُيّنت الدكاكين بالزهور والشموع. ورددت النساء الأغاني من فوق أسطح المنازل[63].

وفي الثامن عشر من يوليو 1861 أعلن فؤاد باشا، في مراسم عثمانية ضخمة في غابة الصنوبر الواقعة خارج بيروت، نظاما جديدا برعاية دولية في جبل لبنان، كان في حقيقته دولة جنينية. ومنذ ذلك الحين، كان لزاما أن يكون الحاكم العام لجبل لبنان مسيحيا عثمانيا من خارج المنطقة، تختاره الحكومة العثمانية بعد التشاور مع القوى الأوروبية. واليوم تعد قوة الدرك المستقلة التي تأسست حينذاك لجبل لبنان بمساعدة مدربين فرنسيين، القوة المسلحة الأقدم في لبنان[64].

7

الإسكندرية الخديوية والقناصل

هناك يتحدث الناس كل اللغات، وهناك ترى كل أنواع الأزياء، وهناك ترى كل أقوام الشرق والغرب. وهذا التنوع وذلك المزيج هو الذي يشكل الطابع الحقيقي للإسكندرية.

يوجين بواتو، «شتاء في مصر»، 1860

Eugene Poitou, Un hiver en Egypte, 1860

«مارس الحكم الثنائي من جانب الخديو والقناصل الاستغلال بحق جموع المصريين، ومهد الطريق للاحتلال البريطاني. لكنه في الوقت عينه جعل الإسكندرية أكثر تحررا من القاهرة من السيطرة الحكومية»

في الثلاثين من يناير 1863، شبّب جندي مصري حصانه وهو يتجول به على طول رصيف ميناء الإسكندرية، فرفس الحصان شخصا

فرنسيا كان يمر في المكان وأوقعه على الأرض. ضرب الفرنسي الجندي المصري، فأخذه الجنود المصريون إلى أقرب مركز شرطة. كانت فرنسا في عهد نابليون الثالث في أوج غطرستها، بعد أن خرجت أخيرا مظفرة من حروبها مع روسيا والنمسا. فثارت ثائرة القنصل العام الفرنسي مسيو دي بوفال Monsieur de Beauval؛ لأن المصريين تجرأوا على رفع أيديهم على مواطن فرنسي، وهدد بأنه إن لم يحصل على «ترضية»، فإن الأسطول الفرنسي سيدكّ الإسكندرية. وبعد ثلاثة أيام عُرض الجنود المصريون المتورطون مكبلين في مُشهّرة عامة أمام القنصلية الفرنسية بميدان القناصل ليتفرج عليهم ضباط وبحارة من الأسطول الفرنسي بكامل أبهتهم(*). مكبلا في أغلاله، اقتيد الضابط قائد المجموعة المصرية وهو يبكي من حسرة الذل والمهانة، ليقضي عشرين عاما في السجن. وتأكدت رسالة الإذلال المصري والسيادة الفرنسية برفض فرنسا طلبا مصريا رسميا بنقل هذا القنصل من مصر[1].

توضح هذه المواجهة، وهي مثال واحد لحوادث كثيرة وقعت بين القناصل والمصريين، أن الإسكندرية - مثل سميرنا وبيروت - كانت تقع على خط الفصل بين الإمبراطوريات. فكان القناصل في الإسكندرية، والمدن المشرقية الأخرى، يتصرفون كأن الواحد منهم إمبراطور روسيا، إذ كانوا «فوق كل شيء»، وكانت ساعاتهم - كما كان يقال- تضبط الشمس[2](**).

تحولت الإسكندرية إلى حكومة ثنائية، يمارس السلطة فيها كل من الحكومة المصرية والقناصل الأوروبيين. فإذا ارتكب أوروبي جريمة، يصل قنصله فورا إلى موقع الحادث يصحبه قواسته المسلحون (كانوا في معظمهم من المونتنغريين أو الألبان الذين تميّزوا بلباسهم الوطني فضلا عن أحجامهم الضخمة وولائهم لسادتهم)، ويأخذ المجرم وشرطة المباحث إلى قنصليته. وهناك يجري القنصل تحقيقه الخاص ويضع نسخته الخاصة للأحداث[3].

وفي العام 1858 حاز القناصل الأجانب امتيازا إضافيا، هو الاحتفاظ بسفن تعرف باسم السفن الخافرة stationnaires في ميناء الإسكندرية (مثلما كان للسفراء

(*) المُشهّرة، آلة خشبية للتعذيب تُدخَل فيها يدا المعذب ورأسه ابتغاء التشهير به. [المترجم].

(**) كناية عن السيطرة والاستبداد المطلقين. من هذا الميراث بالتأكيد تجد المصريين اليوم يسخرون ممن يتجبر أو يتغطرس بنعته بـ«جناب القنصل» أو «ابن القنصل». وعلى رغم أن أحدا منهم لا يعرف ما كان القناصل يفعلونه فيما قبل يوليو 1952، يبدو أن تجبر القناصل وظلمهم بقي كميراث في الوعي المصري: ميراث الأسى. [المترجم].

الأوروبيين في البسفور) «لحالات الطوارئ»[4]. ونظرا إلى أن البريد المحلي لم يكن موثوقا، فقد أنشأت فرنسا وإيطاليا والنمسا وروسيا واليونان مكاتب بريد خاصة بها في الإسكندرية، تماما كما فعلت في سميرنا وبيروت، كُتب على طوابعها عبارات من نوع Poste Francaise Levant [بريد المشرق الفرنسي] أو Oesterreichische Post [مكتب البريد النمساوي][5].

وفي إساءة أخرى لاستخدام السلطة من جانب الأوروبيين في مصر، كانوا – على خلاف المصريين - يحملون أسلحة وسكاكين، أحيانا بتصريح من قناصلهم أنفسهم، على رغم الوعود المتكررة من جانب القناصل بتطبيق القانون على من يحملون أسلحة نارية[6]. وفي العام 1871 شكّل أمر رسمي من القنصل الفرنسي بتشجيع الفرنسيين على مقاومة الشرطة المصرية بالقوة، صدمة حتى لزملائه القناصل[7].

وإلى جانب إدارة دولهم المصغرة، أسهم القناصل الأوروبيون أيضا في إدارة الإسكندرية نفسها. وكما كانت الحال إبان القرن السادس عشر، ظلت بيرا - ذلك الحي الديبلوماسي والتجاري ذو الأغلبية المسيحية بالقسطنطينية - نموذجا لمدن المشرق. وبعد انتصار الإمبراطورية العثمانية وفرنسا وبريطانيا وبيدمونت على روسيا في حرب القرم دخلت بيرا عصرا ذهبيا ثانيا. فصدر مرسوم إصلاحي يوسع مرسوما سابقا صدر في العام 1839، وعد بالمساواة بين المسلمين والمسيحيين أمام القانون، بدلا من النظم القانونية المنفصلة، وكذلك المساواة في الخدمة العسكرية والوصول إلى المناصب الحكومية، والحرية من مصادرة الممتلكات. كانت المحاكم المختلطة التي تحكم في القضايا التي يتورط فيها أشخاص من الديانتين، قد ظهرت إلى الوجود في العام 1847. وفي العام 1867 سمح قانون جديد لتنظيم الملكية، للأجانب - نظريا وعمليا - بالتملك في الإمبراطورية العثمانية. فانتقل مائة ألف أوروبي إلى بيرا في السنوات 1839-1879، ولفترة من الزمن أصبحت العاصمة العثمانية ذات أغلبية مسيحية.

ساعد تدفق الأوروبيين في تحويل بيرا إلى مدينة حديثة. ففي العام 1857 أسست الحكومة العثمانية في بيرا المنطقة البلدية السادسة بالقسطنطينية ومنحتها حق جمع الضرائب المحلية. كانت السجلات تُحفَظ باللغتين الفرنسية والعثمانية، لكن الفرنسية كانت لغة المداولات. وكان ابن وكيل الدعاية لمحمود الثاني، وهو شخص من سميرنا يدعى بليك بيه Blacque Bey، من أوائل رؤساء المجلس البلدي. وفي

السنوات الخمس التالية، نُظّفت بيرا، بالمعنيين المجازي والحرفي للكلمة. فهُدِمت الدكاكين والبيوت، ووُسّعت الشوارع وعُبّدت، ورُكّبت فيها بالوعات. وفي الأعوام 1863-1865 أزيلت أغلب الأسوار الجنوية القديمة لغَلَطَة، ومع ذلك لايزال من الممكن رؤية أجزاء منها اليوم من برج غَلَطَة، مطمورة بين البنايات الحديثة[8].

وفي يونيو 1869 اقترحت الحكومة المصرية تأسيس مجلس بلدي مماثل لمجلس بيرا في الإسكندرية، له سلطة جمع الضرائب، ويضم دوائر منفصلة للشرطة والصحة والطرق والمالية. كان نحو ربع سكان الإسكندرية في ذلك الوقت من الأوروبيين. وإذعانا لثراء الأوروبيين وقوتهم، تقرر أن يكون ثمانية من أعضاء اللجنة البلدية الجديدة الثلاثة عشر من غير المصريين الذين عاشوا في الإسكندرية لأكثر من خمس سنوات. واعترافا بواقع الحكم الثنائي أرسلت الحكومة المصرية الاقتراح إلى القناصل (الذين كان من بينهم سكندريان: القنصل البلجيكي ميناندر دي زيزينيا Menandre de Zizinia، والقنصل البرتغالي ماكس دي زغيب Max de Zogheb) لاعتماده. وعلى الرغم من الأغلبية الأوروبية المقترحة، شجب القناصل في الثاني والعشرين من يوليو 1869 ما اعتبروه في الخطة «تجاوزات شديدة على السيادة القنصلية والأعراف المستقرة»، إذ رفضوا أن يدفع الأوروبيون 8 في المائة من ضرائب المدينة، وخافوا من سلطة رئيس اللجنة الذي تعيّنه الحكومة. وزعموا أيضا - بلا دليل - أن محمد علي أعطى الأجانب إعفاء من ضرائب المِلكية، وهو إعفاء قيل إنه كلف الحكومة المصرية خمسمائة ألف جنيه إسترليني في السنة[9]. وأُجهِض هذا الإصلاح في مهده.

بيد أن القناصل كانوا يقبلون الإصلاحات إذا اقترحها أوروبيون. وقد استاء التجار البريطانيون من حالة ميناء الإسكندرية. وبقيت إلى يومنا عريضة من العام 1864 قُدّمت إلى القنصل العام البريطاني، تشتكي من أن «كلا من السكك الحديد والجمرك في حالة غياب مطلق للتنظيم الصحيح، بينما يسود الفساد السافر كل مكان»، الأمر الذي يؤدي إلى «خسائر جسيمة وإزعاج شديد»[10]. وفي العام نفسه الذي رفض فيه القناصل اللجنة البلدية، قبلوا «لجنة بلدية وتجارية مختلطة» اقترحها مصدّرو الإسكندرية ومستوردوها، أنشئت بمساعدة من الحكومية المصرية لإعادة رصف الطرق حول الميناء حتى لا تغرز المنقولات في الوحل[11].

***

كانت العائلة الحاكمة، وكذلك القناصل، يدعمون تحديث الإسكندرية. وكان الأوروبيون يعملون في السراي، وكان الأمراء كذلك يتلقون تعليما أوروبيا جزئيا منذ العقد الرابع من القرن التاسع عشر. ولذلك، فحين أُجْبِرت العائلة الحاكمة على الاختيار في أثناء الاحتلال البريطاني في العام 1882، انحاز أغلبهم إلى القوى الأوروبية ضد الحكومة والشعب المصريين(*).

تولى حكم مصر بعد محمد علي الحاكم المصري الوحيد - قبل جمال عبدالناصر في خمسينيات القرن العشرين - الذي واجه القوى الأوروبية، وهو عباس حفيد محمد علي والذكر الأكبر في العائلة، الذي عُيّن واليا لمصر في الثاني عشر من نوفمبر 1849، في عمر السابعة والثلاثين، في مراسم أقيمت في القسطنطينية التي توقف فيها في طريق عودته من الحج. وعباس، الذي تولى مناصب رسمية في القاهرة ولبنان والسودان في عهد جده، تمتع بخبرة سياسية كبيرة. وكان من رأيه أن إصلاحات محمد علي كانت وحشية جدا وأوروبية جدا. فاستبعد مسؤولين كثيرين، منهم كبير المسؤولين الطبيين كلوت بك نفسه، وقطع رواتب آخرين، وأغلق مصانع حكومية. وساد «النظام والاقتصاد الصارم»، كما كتب الأرمني المصري نوبار باشا (من الشهود الأساسيين لهذه الفترة، وشغل منصب ناظر النظار ثلاث مرات في العام 1878 والعامين 1884-1885 والأعوام 1894-1898) في مذكراته بعد سنوات طويلة. أهمل عباس الإسكندرية، إما لأنها تحوي كثيرا من الأجانب، وإما بسبب نبوءة قالت إنه سيموت هناك، وبنى قصره ومدينته في العباسية شمال شرق القاهرة وقصورا أخرى في الريف المصري. وكان في بعض الأحيان يترك هذا القنصل أو ذاك ينتظر أياما قبل أن يمنحه مقابلة. وقال إنه يفضل أن يكون عبدا للسلطان على أن يكون عبدا للقناصل(12).

(*) كان انحياز العائلة الحاكمة إلى الجانب الأوروبي في لحظة الاختيار في العام 1882 أكبر من مجرد انحياز ناتج من التعليم الأوروبي أو التشبع بالثقافة الأوروبية. فالفصول السابقة عن الإسكندرية وصعود محمد علي وأسرته تكشف أن العائلة من بداية حكمها ارتضت بالحكم الثنائي لمصر أو حكم مصر مناصفة مع الأوروبيين، أو ما يمكن اعتباره تحالفا طبقيا من أعراق وجنسيات وأديان مختلفة توافق منذ البداية على استغلال أبناء البلاد ومعاملتهم معاملة العبيد. يتضح هذا النمط في القسطنطينية وسميرنا والإسكندرية، وإن حدث في أبشع صوره في الإسكندرية للأسباب التي ذكرناها في تقديم الكتاب. لذلك كان محمد علي وأبناؤه يقبلون تلقي الأوامر، أو حتى الإهانات من الأوروبيين، لكنهم لم يكونوا ليقبلوا بحال من الأحوال إلا أن يكون «الفلاحون» عبيدا عندهم، على نحو ما قال إبراهيم ابن محمد علي: «إن مصر ملكنا، وأهلها ليسوا أكثر من عبيد لنا»، أو كما قيل عمن انحاز إلى الأوروبيين نفسه - الخديو توفيق - «أنا ورثت هذه البلاد عن آبائي وأجدادي. وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا»، وإن لم تكن العبارة الأخيرة موثوقة تاريخيا، فإنها تتفق مع رؤية العائلة العلوية لمصر والمصريين. [المترجم].

وفيما كان عباس يقوي ارتباطه بالدولة العثمانية، ظل سيد مصر، واحتفظ بجيش أكبر مما سمح به الخط الشريف للعام 1841، وشجع الهوية المصرية بين ضباطه ومسؤوليه. وخفّض العبء الضريبي عن الفقراء، وازدهرت الزراعة[13]. وفي العام 1854 بُدئ في إنشاء أول خط حديدي في الشرق الأوسط، بين القاهرة والإسكندرية، تحت إشراف مهندسين بريطانيين. افتتح الخط في الأول من يناير 1857، وكان أول من استخدمه قوات بريطانية كانت في طريقها لقمع ثورة وطنية في الهند، وكأن افتتاحه جاء في الوقت المناسب بالنسبة إلى البريطانيين. كان عباس فخورا بالسجل التحديثي لعائلته، وتباهى ذات مرة بأنها لو حكمت وديان الفرات ودجلة لعمّها الازدهار مثل وادي النيل، ولولّدت دخلا أعلى للباب العالي[14].

وفي السادس عشر من يوليو 1854 قُتِل عباس على أيدي اثنين من مماليكه في قصره المعزول ببنها في دلتا النيل. فإما أنه كان «منغمسا في ملذاته» (التي لم يكن يرافقه فيها حراسه وخدمه)، وإما أن الغلمان أرادوا الانتقام لأن عباس طردهم من السراي للعمل في الإسطبلات بعد أن سخروا من كبير خصيانه. أراد بعض أفراد أسرته المباشرة، كما انتوى هو نفسه، أن يخلفه ابنه إلهامي باشا، وليس أكبر ذكور العائلة العلوية سنا - سعيد باشا عم عباس - بموجب الخط الشريف. فأخفوا خبر موت عباس وأمروا محافظ الإسكندرية بأن يستدعي إلهامي الذي كان قد أبحر من فوره إلى أوروبا. لكن بدلا من ذلك أخبر المحافظ سعيد باشا الذي أُعلِن واليا لمصر في الإسكندرية بدعم من القناصل[15].

تغيرت الإسكندرية جذريا في عهد سعيد الذي دام تسع سنوات من العام 1854 إلى العام 1863. كان سعيد يزور أوروبا كثيرا، واشتهر فيها بالسخاء والسذاجة. وكانت لغته الفرنسية والإنجليزية ممتازة. كتب القنصل الفرنسي أنه «مع انتشار الأخبار الأولى عن موت عباس باشا، توافد الناس بأعداد كبيرة من كل أنحاء أوروبا ليقيموا في مصر، كأنها كانت كاليفورنيا جديدة ... كان عقله الفضولي [سعيد] مستعدا دائما لأن يستسلم لغواية عبارات التمجيد التي تتكرر على مسامعه باستمرار». وقيل إن ثلاثين ألف أوروبي كانوا يأتون إلى الإسكندرية في السنة[16]. كانت تجمع نوبار باشا روابط حميمة مع المهاجرين الأوروبيين، لأنه كان في ذلك الوقت مدير سكك حديد مصر، فضلا على اشتغاله بالتجارة. وصف نوبار المهاجرين بأنهم «أناس مفعمون

بالحيوية وأذكياء وذوو عزيمة، لا يستطيعون أن يعيشوا بلا إبداع، يبحثون دوما عن الصفقات، وطبيعي أن يبحثوا عنها حيث توجد، أي في سراي نائب السلطان، وهو مركز التحضير لكل الصفقات التجارية مع الحكومة»[17].

في عهد سعيد، تحولت الحكومة المصرية - بتعبير نوبار- إلى «نظام منفلت وحالة مؤسفة من عدم احترام النفس»[18]. كان سعيد ضحية شخصيته، فضلا على المهارات المالية والفنية للأوروبيين. فنتيجة لأنه كان يستسلم دائما للإلحاح في الطلب، فقد شهد عهده عقودا حكومية أنتجت أرباحا «مذهلة»، وبالقدر نفسه جمع رجال الأعمال بالإسكندرية ثروات ورفعوا دعاوى قضائية طلبا لمستحقات مالية من الحكومة[19]. كان القناصل عادة يدعمون الدعاوى المالية التي يرفعها مواطنوهم على الحكومة المصرية، ويتقاسمون الأرباح معهم. من ذلك أنه في أثناء مقابلة في رأس التين ارتعش أحد القناصل العامين بسبب الهواء المندفع من نافذة مفتوحة، فقال له سعيد باشا: «غطٍّ نفسك، غطِّ نفسك، فلو أصبتَ بالبرد لطالبتني حكومتك بتعويض». ولذلك اعتبر السفير البريطاني في القسطنطينية هنري بولوار Henry Bulwer الموقف العدواني من جانب القناصل المصدر الرئيس للفساد في مصر[20].

تمثل أهم عقد أبرمه سعيد في عقد إنشاء قناة السويس، الذي وقّعه في الإسكندرية مع صديقه القديم فردناند ديليسبس. تحدّر ديليسبس من عائلة ذات ارتباطات مشرقية واسعة، فقد كان أبوه قنصلا فرنسيا في الإسكندرية، وعمل أخوه جول Jules وكيلا لباي تونس في باريس. كان ديليسبس قد التقى بسعيد لأول مرة في العام 1831، حين كان نائب القنصل الفرنسي في الإسكندرية التي وجد فيها ديليسبس أيضا ضمن أرشيف القنصلية خريطة لقناة السويس رُسِمت في أثناء الاحتلال الفرنسي في العامين 1798-1799. توطدت الصداقة بين سعيد وديليسبس بسبب الطعام الذي كان الأخير يهرّبه إلى سعيد عندما كان محمد علي يحاول أن يجبر سعيد على إنقاص وزنه.

وفي اليوم الذي عاد فيه ديليسبس إلى الإسكندرية في السابع من نوفمبر 1854 استقبله سعيد. وفي الثلاثين من نوفمبر وُقّع الاتفاق[21]. وفي الوقت الذي افتتحت فيه ابنة خالة ديليسبس الإمبراطورة أوجيني القناة في نوفمبر 1869، كانت الشركة العالمية لقناة السويس الواقعة تحت هيمنة الفرنسيين قد تكلفت أموالا طائلة

وحفرت القناة أعداد كبيرة من المصريين بنظام السخرة، حتى إنها أسهمت في تخريب الخزانة المصرية وإزهاق أرواح كثير من المصريين (على رغم أن الذين ماتوا فيها كانوا أقل ممن ماتوا في حفر ترعة المحمودية أو تشييد سكك حديد مصر). سرعان ما أصبحت قناة السويس ممرا مائيا دوليا أهم وأكثر حيوية من البسفور والدردنيل. كانت معظم أرباح القناة تذهب إلى شركة القناة، وليس إلى الحكومة المصرية[22]. وعلى رغم ذلك كله، فإن أحدا من أسلاف سعيد ممن حكموا مصر ولا حتى من السلاطين العثمانيين ما كان ليوافق على حفر قناة كانوا يعرفون أنها بمجرد أن تثبت أنها طريق بريطانيا الرئيس إلى الهند، ستشكل حافزا أكبر للحكومة البريطانية لاحتلال مصر.

في السنوات التسع لعهد سعيد تضاعف عدد الأوروبيين في الإسكندرية أربعة أضعاف. وبحلول العام 1864 شكّل الأوروبيون ما بين خمسين وستين ألفا، أي ما بين ربع سكان المدينة وثلثهم، منهم خمسة عشر ألف يوناني، وخمسة عشر ألف إيطالي، وعشرة آلاف فرنسي، وأغلبية الباقين من المالطيين والسوريين من الإمبراطورية العثمانية (الذين كانت الإسكندرية في ذلك الوقت تبدأ في معاملتهم معاملة الأوروبيين)[23]. وفي العام 1865 كتب زائران فرنسيان أن «المستعمرة الأوروبية هي سيدة الإسكندرية حقا. فقد قدمت كل أمم الأرض ممثلين لها في هذا الجمع الغريب من المستعمرين المختلفين في المظهر والعادات، الذين لا يجمع بينهم غير الرغبة الجارفة في إثراء أنفسهم في الحال والاحتقار الشديد لمؤسسات البلاد»[24].

كان الإنجليز، بدافع الثقة بقوتهم وثرائهم، معروفين بأنهم يحتقرون كل شيء لا يرتبط بهم أنفسهم وبعرقهم[25]. والنقش المحفور على قبر سير هنري إدوارد باركر Henry Edward Barker، حفيد جون باركر القنصل العام إبان العقد الثالث من القرن التاسع عشر، الذي وُلد في الإسكندرية في العام 1872، ومات فيها في العام 1942، يقدم خلاصة مكثفة لهذه الغطرسة: «فخورا ببلاده، ومؤمنا من كل قلبه بقدرها في خدمة العالم، لم يدخر [سير هنري إدوارد باركر] جهدا في أن يجلب إلى مصر، وخصوصا إلى مسقط رأسه الإسكندرية، شيئا من النعم التي كانت بريطانيا العظمى ترفل فيها»[26].

كان الإيطاليون في إسكندرية مصر Alessandria d'Egitto (كما أطلقوا عليها تمييزا لها عن إسكندرية بيدمونت) في أغلبيتهم مهاجرين من صقلية

والجنوب الإيطالي، جاءوا إليها بعد أن دُمّر اقتصاد بلادهم بعد غزو بيدمونت لها في العام 1860. كان نبيذهم القوي ونساؤهم عاريات السيقان وسكاكينهم الحادة - التي استخدمت كثيرا في جرائم القتل - تصدم السكندريين من الحاكم حتى أقل إنسان[27]. وكان بنّاؤو الحجارة في الإسكندرية ومصر في معظمهم من باري أو بارليتا الواقعتين في إقليم بوليا(*). إذ أفسح البنّاؤون التقليديون من جبال ألبانيا ومقدونيا المجال للمهندسين الإيطاليين، من أمثال بييترو أفوسكاني وفرانشيسكو مانشيني، ولذلك تبدو بعض أعظم البنايات في المدينة كأنها في جنوى أو نابولي[28].

كان اليونانيون يعيشون منعزلين نوعا ما عن الآخرين، بمؤسساتهم ومقاهيهم الخاصة وكاتدرائية بيضاء ضخمة بُنيت في الأعوام 1848-1856 (رممتها أخيرا مؤسسة أوناسيس Onassis foundation). وكانوا يشعرون بأن الإسكندرية وطنهم - كما كتب نائب القنصل البريطاني - كأن اسمها نفسه أعطاهم الحق في الإقامة فيها، لكن ولاءهم الأول كان دائما لليونان[29]. وبعد العام 1860 كان القنصل العام اليوناني يشغل منصب رئيس الجالية آليا. وكانوا يذهبون إلى مدارسهم اليونانية، وفي هذه المرحلة كانوا نادرا ما يتزوجون من خارج الجالية اليونانية، ولا حتى من الأرثوذكس الذين ينتمون إلى مذهبهم.

وإضافة إلى ما سبق، ضمت الإسكندرية كذلك جالية مهمة من السوريين، فبحلول العام 1870 أو قبله، ومن خلال التجارة وصفقات المِلكية، كانت عائلات سرسق ودبانة وزنانيري وزغيب التي ترجع أصولها جميعا إلى لبنان أو سورية، قد أصبحت من أغنى العائلات في الإسكندرية[30]. بيد أن تحدثهم اللغة العربية - وارتداءهم الملابس العربية غالبا حتى العقد السابع من القرن التاسع عشر- لم يمنعهم من مشاركة الأوروبيين احتقار المصريين. حتى إن بعضهم أظهر رغبة في فصل أنفسهم عن العرب بتبني اللغة الفرنسية لغة أساسية خارج البيوت، وإن ظلوا يستخدمون العربية في البيوت. وكانوا لا يخفون ثراءهم. ومن هنا جاءت المحادثة الافتراضية التالية بين سوريي الإسكندرية. ردا على السؤال:

(*) تقع مدينتا باري Bari وبارليتا Barletta في إقليم بوليا Apoulia الواقع في جنوب شرق إيطاليا. [المترجم].

[أظن أن أباك مات عن Votre pére, je crois, est mort centenaire? مائة سنة، أليس كذلك؟]، جاءت الإجابة: «لا ليس مليونيرا!» وردا على سؤال حول تمثال: C'est Andromaque? [هل هذه أندروميدا؟][(*)]، جاءت الإجابة Ma ché, !en dromaque? C'est en marbre et elle rri'a coute fort cher [وماذا في دروميدا؟ إنها من المرمر، والمرمر يتكلف الكثير][(31)(**)].

أصبحت عائلة زغيب واحدة من أطول العائلات التجارية بالإسكندرية بقاء في المدينة وأكثرها عالمية. جاء ماكس زغيب إلى الإسكندرية من سورية إبان العقد الخامس من القرن التاسع عشر لبيع الفستق، وكان يلبس لباسا عربيا ولا يتحدث غير اللغة العربية وبضع كلمات من اللغة المشتركة. ومع الوقت، أصبح القنصل البرتغالي ومليونيرا وكونتا بابويا يمتلك بيتا فخما في شارع شريف باشا (زيّنه بالتويج الذي ناله حديثا[(***)] يسمى سراي زغيب (مدرسة توشكى حاليا). أما زوجته الكونتيسة كاترين دي زغيب، التي لم تكن تستطيع حتى أن تكتب اسمها، فلم تقرر أن تغيّر لباسها العربي إلى لباس الفرنجة إلا في العام 1876، من أجل زفاف ابنتها روزين. وقد تعجب بعض أفراد عائلتها من أن أطفالها يشبهون البواب حسن أكثر مما يشبهون زوجها. وأصبحت ابنتها الأخرى إيزابيل مدام مخلع باشا وصيفة لزوجة الخديو، وبذلك انقطعت عائلة زغيب عن جذورها كليا[(32)].

ارتفع إجمالي عدد سكان الإسكندرية من مائة وواحد وثمانين ألفا في العام 1865 إلى مائتين وثلاثة عشر ألفا في العام 1872، ثم مائتين واثنين وثلاثين ألفا في العام 1882، وهو أقرب حجم لها من القاهرة منذ العام 1400[(33)]. تمثل أحد أسباب هذا الصعود المثير في «الذهب الأبيض»، وهو القطن. فمع تراجع إنتاج القطن الأمريكي في أثناء الحرب الأهلية في الأعوام 1861-1865، نمت صادرات القطن المصرية. وفي سنة واحدة تضاعف سعر القطن، وتمكن بعض التجار من مضاعفة رأسمالهم مرتين أو ثلاثا. وفي الثلاثين من يونيو 1862 كتب مراسل صحيفة تايمز من

(*) أندروميدا Andromeda (بالفرنسية Andromaque) - في الميثولوجيا اليونانية - أميرة حبشية شُدت إلى جرف عال لكي يلتهمها غول، لكن بيرسيوس أنقذها وتزوجها. [المترجم].

(**) الهدف من هذه المحادثة الافتراضية هو البرهنة الساخرة على سيطرة حب المال والتفاخر به على عقول السوريين في الإسكندرية. [المترجم].

(***) ربما التويج أو الإكليل الذي ناله مع درجة الكونت البابوية. [المترجم].

الإسكندرية (التي كان لها مراسل فيها منذ العام 1849، قبل أي مدينة أخرى خارج أوروبا) أنه لا يوجد شيء يمكن ذكره إلا «مظهر الازدهار الذي لا يوجد سبب واحد للتشكيك في واقعه»[34]. جلب ازدهار القطن مزيدا من السفن إلى الإسكندرية: نحو ألف سفينة قبل سنة من العام 1850، ثم ألف وخمسمائة سفينة في العام 1855، ثم ألفي سفينة في العام 1860، ثم ألفين وخمسمائة سفينة بحلول العام 1865. وكانت أرصفة الميناء تمتلئ ببالات القطن وأجولة الحبوب وصناديق الشاي وأجولة التوابل[35]. وبين العامين 1862 و1872 تضاعف عدد السفن البريطانية التي تزور الإسكندرية، وكانت حمولتها تساوي أكثر من ضعف قيمة كل الحمولات الأخرى بالإسكندرية مجتمعة[36].

أصبحت الإسكندرية ميناء عالميا، لكنها لم تصبح بعد مدينة أنيقة. كانت لندن وباريس قد أدخلتا أخيرا نظما لتصريف مياه المجاري، وتخلصتا بذلك من احتمال حدوث «نتانة كبرى» أخرى كتلك التي أزعجت سكان لندن في العام 1858[37]. فيما كانت الإسكندرية - كما تذمر المسافرون كثيرا - واحدة من أقذر المدن في العالم. فشوارعها غير المعبدة كانت بمنزلة أنهار من الوحل، خصوصا في الشتاء. وفي بيرا، كان الرجال والنساء يلبسون كلوشات(*) حتى لا تتسخ أقدامهم. لكنهم في الإسكندرية كانوا مضطرين إلى استئجار الحمير، حتى أصبحت حرفة المكاري واحدة من أهم الطوائف الحرفية بالمدينة. وكانت تخيم على المدينة دائما رائحة القمامة والغائط، «متشبثة مثل الندم»، بتعبير الصحافيين الباريسيين مسيو ساكري Sacre ومسيو أوتريبون Outrebon. ولذلك كان معدل الوفيات بالمدينة الأعلى على مستوى مصر[38].

كانت الإسكندرية تقع في مهب الثورات الاقتصادية والسكانية والثقافية. فكانت تطوقها بلدات من الأكواخ يعيش فيها فلاحون هجروا قراهم. وكان الشحاذون منتشرين. ومع ذلك، كان العنف يتركز داخل الجاليات المهاجرة وفيما بينها، كأن يكون مثلا بين اليونانيين واليهود. وكان المالطيون مشهورين «في أنحاء المشرق جميعها بارتباطهم بكل ما فيه فتنة وتعصب وانعدام للشرف والأخلاق»[39]. لكنهم

(*) الكلوش حذاء مطاطي ذو رقبة يلبس فوق الحذاء العادي. [المترجم].

كانوا أميل إلى العداء للإيطاليين منهم إلى المصريين الذين كانوا في هذه المرحلة مسالمين أو مكرهين على المسالمة[40]. وفي العام 1857 اشتكى القنصل البريطاني من عجز الشرطة، ذلك أن المدينة كانت تضم «شوارع كاملة تقوم على أردأ أنواع دكاكين النبيذ والحانات والبيوت سيئة السمعة التي يديرها مالطيون ويونانيون وإيطاليون وفرنسيون... ويوميا... يُعثَر على جثث طافية في الميناء لا أحد يملك تفسيرا لها ولا أحد يعبأ بها»[41]. لكن بحلول العام 1868 أصبح هناك «مفوض أوروبي» في كل حي «لتسوية الدعاوى الصغيرة»، وبُدِئ في تجنيد الإيطاليين في الشرطة المصرية لمساعدتها في التعامل مع جرائم الأوروبيين[42].

بيد أن الاضطرابات التي شهدتها الإسكندرية لا تقارن بما شهدته مدن أخرى كثيرة. ففي أوروبا، مات الآلاف في أثناء ثورات العام 1848 في باريس وفيينا وبرلين وميلانو والبندقية وروما. وفي العام 1857 ثارت دلهي على البريطانيين. وفي العام 1858 قتلت الاضطرابات في ميناء جدة العالمي على البحر الأحمر نائب القنصل البريطاني والقنصل الفرنسي وزوجته، بين آخرين(*). وقُتِلت آلاف كثيرة وأحرِقت أنصاب كثيرة في باريس «عاصمة الحضارة» في الأسبوع الأخير لكومونة باريس في مايو 1871(**). وكان الشجار في مارسيليا بين السكان الفرنسيين والمهاجرين الإيطاليين يحدث يوميا تقريبا، وفي العام 1881 أجبروا كثيرا من الإيطاليين على العودة إلى بلادهم[43].

ربما أسهم الازدهار الذي طال الجميع، فضلا على الروح الكوزموبوليتانية للعائلة الحاكمة، في تقليل التوترات في الإسكندرية. وكما ذهب الصحافيان الفرنسيان ساكري وأوتريبون في العام 1865، فإن المكونات المختلفة في المدينة كانت تتحول تدريجيا، إن لم يكن إلى أمة، فعلى الأقل إلى مجتمع كانت مكوناته تعمل ببطء

(*) كان ميناء جدة المكان الوحيد في غرب شبه الجزيرة العربية الذي سُمِح فيه بوجود التجار الأوروبيين، وقد أدى وجودهم الكثيف إلى إشعال الاضطرابات في المدينة ومنها انتفاضة الخامس عشر من يونيو 1858 التي قام فيها حشد غاضب بمهاجمة الأوروبيين ومن يحملون جوازات سفر أوروبية في المدينة، وقتلوا واحدا وعشرين من الأوروبيين، فعاقب قائد الأسطول البريطاني المدينة بقصفها في الخامس والعشرين من يونيو، وانتهت الأزمة بإعدام عدد من الرجال الذين زعم الحاكم العثماني أنهم مسؤولون عن أعمال القتل. [المترجم].

(**) كومونة باريس Paris Commune، حكومة اشتراكية ثورية حكمت باريس من 18 مارس إلى 28 مايو 1871 إثر قيام الثورة الرابعة بعد هزيمة نابليون الثالث من بروسيا في سبتمبر 1870 وانهيار الإمبراطورية الفرنسية الثانية. [المترجم].

على تعديل بعضها البعض في اتجاه تذويب الاختلافات. علاوة على أن الإسكندرية - على خلاف سميرنا أو الجزائر- لم تكن مدينة مقسمة عرقيا أو دينيا. فكانت الإسكندرية تضم مناطق مختلطة، مثل حي الجمرك وحي العطارين(*)، عاش فيها فقراء الأوروبيين والمصريين جنبا إلى جنب. وأحيانا كانوا يعملون بالحرف عينها. من ذلك أنه في العام 1872 كان من بين صيادي السمك الستمائة وواحد وأربعين المسجلين في الإسكندرية أربعون مالطيا، وثلاثون يونانيا، ومائتان وخمسون إيطاليا، وثلاثمائة وواحد وعشرون مصريا[44].

***

في يناير 1863 مات سعيد باشا الذي أحب المدينة كثيرا إلى درجة أنه دفن فيها بجانب والدته في جامع النبي دانيال، وكان بذلك الحاكم الوحيد من عائلة محمد علي الذي يدفن في الإسكندرية بدلا من القاهرة. وخلفه ابن أخيه إسماعيل.

تحلى إسماعيل باشا بشيء من «الطباع الساحرة جدا» والذكاء الذي ميّز جده محمد علي[45]. اعتلى إسماعيل العرش مؤمنا بضرورة خفض التكاليف والتحديث. لكنه تحول إلى التبذير بدرجة أكبر كثيرا من سعيد، وكذلك الضعف أمام الأوروبيين. فأعطى القناصل عِزبا وأطيانا، حتى قناصل قوى صغيرة مثل البرتغال والسويد، وصادر أراضي من عائلة إبراهيم الشيخ لتقديمها إلى الكنيسة الكاثوليكية سانت كاترين بالقرب من الجانب الغربي لميدان القناصل[46](**). وكما كانت الحال في عهد محمد علي، أخذت غرف الانتظار بسراي رأس التين تغص ليل نهار بأوروبيين يقترحون مشروعات مكلفة، لكن إسماعيل كان يفتقر إلى حس الواقعية الذي ميّز محمد علي[47].

(*) لايزال حي العطارين Attarine موجودا إلى اليوم بالاسم نفسه. أما حي الجمرك في النص العربي فهي ترجمة للاسم Dogana الذي لم يعثر له المترجم على وجود في الإسكندرية في الماضي أو في الحاضر، لكن المؤلف أخبره بأن الكلمة تعني «جمرك»، وبالبحث اتضح أنها كلمة إيطالية، وبالفعل كانت الإيطالية لغة موانئ البحر الأبيض المتوسط قبل أن تزيحها الفرنسية، ولذلك ترجمها المترجم إلى حي الجمرك، وهو المعنى الذي يتأكد من كون هذه المنطقة - كما سيأتي لاحقا - كانت من أكثر مناطق الإسكندرية تضررا بالقصف الإنجليزي في العام 1882. [المترجم].

(**) ربما تكون عائلة الشيخ ذات الأصول الجزائرية التي ينتمي إليها إبراهيم باشا الشيخ الذي سبق أن نفاه محمد علي بسبب خطبه التحريضية. كان من هذه العائلة أيضا نواب في مجلس شورى النواب المصري الذي افتتح في العام 1866. [المترجم].

وفي العام 1865 سبّب الانهيار في أسعار القطن وتفشي الكوليرا نشر الهلع بين آلاف السكندريين. حتى إن الناس كانوا يستميتون في الصعود إلى السفن قبل أن تفرغ حمولتها لمغادرة المدينة[48]. وحتى إسماعيل باشا نفسه قال لحشد من رجال الأعمال الأوروبيين القلقين في رأس التين «بونسوار يا سادة!»، قبل أن يستقل يخته في رحلة طويلة[49].

وبحلول العام 1866 كانت مصر قد تعافت من الكوليرا. وفي مقابل تقديم مبالغ مالية ضخمة للقسطنطينية، ضمِن إسماعيل انتقال حكم مصر إلى ابنه الأكبر توفيق، بدلا من أكبر أفراد العائلة كما كان متبعا حتى حينه (وفي العام التالي، حصل أيضا في مقابل مبالغ ضخمة على امتياز آخر لنفسه وورثته، وهو لقب الخديو الذي يعني «صاحب أو سيد كذا»(*). وعاد مظفرا على متن أحدث مقتنياته التي بذّر فيها الأموال، وهو يخت المحروسة الذي شُيّد في إنجلترا في العام 1865 على غرار اليخت الملكي فيكتوريا وألبرت، ولايزال راسيا في الإسكندرية حتى اليوم، بعد أن مارس دورا مهما في ثورة 1952، حين أُبعِد الملك فاروق إلى أوروبا على متنه.

يكشف الاقتباس التالي من خطاب خاص كُتِب في عهد إسماعيل مدى قوة القناصل في الإسكندرية، وكذلك مدى استغلال المصريين على أيدي رجال الأعمال بالإسكندرية. وصل أندريه ديرفو Andre Dervieu إلى الإسكندرية من باريس في العام 1860 وأصبح ممولا لسعيد وإسماعيل الذي كان يقابله كثيرا في جلسات خاصة. ومثل كثير من المسؤولين الحكوميين ورجال الأعمال إلى يومنا هذا، قضى ديرفو ساعات في القطار بين القاهرة التي يذهب إليها لمقابلة المسؤولين الحكوميين والإسكندرية التي شكّل فيها أحد أعمدة الجالية الفرنسية وعضو المحكمة القنصلية الفرنسية[50]. وفي التاسع من مايو 1866 كتب إلى زميل في باريس: «إننا جميعا ننتظر عودة نائب السلطان بفارغ الصبر، فقناصلنا عازمون على دفعه إلى تسوية ديونه للتجار الأوروبيين. مع العلم بأننا لن نقبل ورقا هذه المرة، بل نريد أموالا، ولن يغلب [سموه] في انتزاعها من الفلاحين الذين يدفنونها تحت الأرض منذ سنوات طويلة»[51].

(*) أي صاحب مصر أو سيد مصر. [المترجم].

ولاحقا تشاجر ديرفو مع إسماعيل. وبعد أن كوّن خمسة ملايين فرنك في مصر، بنى في باريس بيتا فخما بالقرب من بارك مونسو Parc Monceau، والذي مات فيه وهو كونت بابوي، بفضل تبرعاته السخية للكنيسة الكاثوليكية[52]. لكن ثمة مهاجرين آخرين بقوا في الإسكندرية، وبنوا فيلات في حي الرملة إلى الشرق من المدينة وفي شارع روزيت الذي يتجه إلى الجنوب الشرقي من ميدان القناصل(*). تعد هذه الفيلات حاليا أحد مصادر الجذب المعمارية للمدينة. وقد وصفها إدوين دي ليون Edwin de Leon، الذي كان القنصل الأمريكي في الإسكندرية لعدة سنوات، بأنها فيلات «من كل التنويعات الممكنة للمزاج المعماري... من السرايات الخديوية التي بُنيت بازدراء كامل لكل قواعد الهندسة المعمارية، إلى الشاليهات السويسرية، والأكشاك والبيوت المربعة التي بنيت بتصميمات لا تقل تشوشا عن الأحلام الناتجة عن عشاء غير مهضوم»[53]. وبداية من العام 1863 «بدأت الإسكندرية وشركة سكك حديد الرملة» في بناء خط ترام يربط الرملة بوسط المدينة. تحمل أسماء محطات الترام عادة أسماء الملاك الأثرياء للممتلكات القريبة من الخط، مثل بولكلي Bulkely ومصطفى باشا وباكوس Bacos وزيزينيا. وفي العام 1863 شيّدت عائلة زيزينيا كنيسة سان إستيفانو التي أطلق اسمها على فندق وكازينو سان إستيفانو الشهير الذي فتح بالقرب منها في العام 1887. كان القناصل والوزراء يأتون من القاهرة لقضاء الصيف في هذا الفندق، وإلى أن بُنيت بناية خاصة تسمى الوزارة في شارع أبي قير، ظل مجلس الوزراء يجتمع في هذا الفندق. وفي العام 1870 بنى الخديو إسماعيل أيضا قصرا في الرملة[54].

كانت الإسكندرية تجتاز عملية تحديث. فكانت المدينة الأولى في مصر التي تستخدم أرقام الشوارع. وفي العام 1866، وبعد عشر سنوات من بيرا، وصلت الإضاءة بالغاز إلى الإسكندرية، وفي العام 1871 افتتحت بورصة القطن التي صممها أفوسكاني بجانب الميناء. أطلق على البورصة اسم مينا البصل، وكانت أشبه بخان واسع يضم عدة أفنية، فاتت ملاحظة أحدها على معظم الزوار المسيحيين، وهو

(*) الرملة Ramleh، كانت قرية صغيرة تحولت لاحقا إلى ضاحية الرمل أو منطقة الرمل، أو محطة الرمل حاليا.وشارع روزيت Rosette أو شارع ميناء رشيد سمي لاحقا شارع فؤاد ثم شارع الحرية بعد يوليو 1952. [المترجم].

الفناء الذي يضم ضريحاً صغيرا لأحد الأولياء، لايزال المسلمون يزورون مقامه إلى اليوم[55](*). وحتى العام 1961 ظلت مينا البصل أحد مركزي الإسكندرية التجاريين، إلى جانب البورصة الكائنة في ميدان محمد علي. وفي مينا البصل وفي المخازن المحيطة بها، كان القطن الأبيض الخام القادم من الدلتا والصعيد يوزن ويفصل وفقا لدرجته ويكبس ويحزم في بالات بمصاحبة الأغاني التي يرددها العمال وهم يكبسونه بأقدامهم. لم يتغير هذا الروتين إلا قليلا على مدار مائة سنة، إذ يتذكر واحد من أواخر من بقوا على قيد الحياة من مصدّري القطن، يدعى جون ناخمان John Nahman، أن:

> «الأكياس كانت توضع على طبلية كبيرة ثمانية الأضلاع، ويقف الرجال خلف كل كيس من درجة معينة (من «ممتاز» إلى «جيد جدا موجب» إلى «جيد جدا سالب» حتى «من جيد جدا إلى جيد سالب») يقذفون القطن على إيقاع دف على الطبلية المركزية، وعليها كان القطن يمزج وفقا للطول واللون والنعومة وعدد العقد بما يتفق مع طلبات الشراء القادمة من المشترين الأجانب. وكان بعض الناس يستطيعون أن يميزوا حتى ست عشرة درجة من شكل القطن فقط. وبعد ذلك، كان القطن الممزوج على الطبلية يقذف في الهواء ويمزج ويرش بالماء. يقف الريس في الوسط ويحدد الرجل الذي عليه الدور في قذف محتوى بالته على الطبلية في التوقيت المضبوط بغرض الحصول على المزيج المثالي وفقا لرغبات المشترين في مانشستر أو ليل أو غينت(**). وبمجرد أن «يمزج» الخليط بالكامل، كانت الطبلية تفرغ، ويؤخذ القطن إلى مكان قريب، حيث يكبس في بالات تكون بعدئذ جاهزة للتصدير.

وكما كانت الحال في كل المدن في ذلك الوقت، كانت الإسكندرية تعامل العمال معاملة مكونات الإنتاج القابلة للاستهلاك. وكانت معدلات الوفيات من جزيئات القطن المتطايرة في الهواء عالية جدا[56].

(*) ضريح القباري وهو أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى السكندري المالكي (1191 - 1263) الشيخ الزاهد، الذي بنى حوله سعيد باشا جامعا. [المترجم].

(**) مانشيستر Manchester مدينة إنجليزية، وليل Lille مدينة فرنسية، وغينت Ghent مدينة تقع حاليا في بلجيكا، اشتهرت جميعها بمصانع الغزل والنسيج، وإن لم يكن بمستوى المدينة الإنجليزية. [المترجم].

تواصلت عملية التحديث. وفي العام 1871 بُدئ في بناء أرصفة جديدة للميناء، وانتقلت البورصة إلى قصر توسيزا في ميدان محمد علي. وكان السماسرة الذين يشترون القطن ويبيعونه عند أحد طرفي القصر، والذين يشترون الأسهم ويبيعونها عند طرفه الآخر، يصنعون ضوضاء شديدة بالصراخ والصياح والتلويح والمزايدة باللغة الفرنسية، وكانت أصواتهم تترامى إلى الشارع كأنها أصوات شياطين تنازع الموت[57].

***

في العام 1873 كشف محافظ الإسكندرية النقاب، في وسط ميدان القناصل، عن تمثال لمحمد علي مظفرا على ظهر حصان وعمامته على رأسه، نحته في فرنسا النحات هنري ألفريد جاكمار Henri Alfred Jacquemart. كان تمثال محمد علي أول تمثال يُنصَب في مكان عام في بلد إسلامي. واضطر الخديو إلى استصدار فتوى من عالم الدين الإصلاحي محمد عبده لإسكات معارضة بعض المسلمين[58]. وكان تمثال محمد علي، بصفته رمزا لدور الإسكندرية كنافذة على الغرب، المكافئ للتمثال الشاهق لبيتر الأكبر على، حصانه الذي نُصِب قبل تسعين عاما في سانت بطرسبورغ.

أصبح ميدان محمد علي - كما أعيدت تسمية ميدان القناصل - «ملتقى المدينة برمتها، مثل بولفار ديستليان أو كانيبيير(*)، وغدا مقصدا لكل الصفقات التجارية وخروجات التنزه»[59]. فكانت كل الأقوام والطبقات - اليونانيون والأفارقة والعرب والأوروبيون، والأغنياء والفقراء - يمرون من خلاله، وكانوا «جميعا يهدرون ويهيجون ويصيحون في اضطراب غريب للأصوات والألوان. وفيه أيضا يتعلم المرء الإعجاب بالتنويعات الكثيرة للأسمال البالية»، كما كتب الصحافي الباريسي غابريال شارم Gabriel Charmes في العام 1880[60].

وفي العام 1876 طُبق نظام قانوني جديد، سُمي المحاكم المختلطة tribunaux mixtes، بدافع من نوبار باشا. أخذت المحاكم المختلطة السلطة القضائية في القضايا التي تتضمن أجانب ومصريين من المحاكم القنصلية التي كانت تمارس عملها بموجب الامتيازات منذ القرن السادس عشر. كانت المحاكم المختلطة تتبع القانون الأوروبي، والفرنسي تحديدا. وكانت محكمة الاستئناف تضم سبعة قضاة

(*) بولفار ديستليان boulevard des italiens، أحد الشوارع الأربعة الكبرى - البولفار - بباريس. وكانيبيير Canebiere، هو الشارع الرئيس التاريخي بالحي القديم بمدينة مارسيليا. [المترجم].

أجانب وأربعة قضاة مصريين فقط. وكانت اللغات الرسمية للمحاكم هي العربية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية[61]. وفي شأنها كتب الإنجليزي المعادي للإمبريالية ولفريد سكاون بلنت أن المحاكم المختلطة كانت موضع كراهية المصريين «أكثر من أي هيئة أخرى»، لأنها وضعت أعناق المصريين في أيدي الدائنين الأوروبيين والمشرقيين[62](*). جاء مقر المحاكم المختلطة الذي شُيِّد في ميدان محمد علي في العامين 1886-1887، وافتتح في العام 1887، وكان بناية كلاسيكية ضخمة، أقرب إلى نسخة مقيتة من قصر بكنغهام. وغدا مقر المحاكم المختلطة رمزا لدور الإسكندرية كرأس جسر لأوروبا أو حصان طروادة لها في مصر، ولدور ميدان محمد علي كمركز للإسكندرية[63].

وفي غضون سنتين فقط، هددت المحاكم المختلطة الخديو نفسه. فقد ذُهِل السكندريون، حين علموا أن بعض المسؤولين من المحاكم الجديدة حاولوا، من أجل تحصيل الديون، الاستيلاء على أثاث في سراي الخديو في الرملة[64]. جاء النظام القانوني الأجنبي إلى الإسكندرية في وقت كانت المدينة فيه تفقد بعضا من طابعها الإسلامي. ذلك أن المدينة في العام 1878 ضمت ثلاثمائة واثني عشر طالبا دينيا فقط، مقارنة بأربعة آلاف وثمانمائة وثمانية وثلاثين طالبا في مدينة طنطا الواقعة بوسط الدلتا، وسبعة آلاف وستمائة وخمسة وتسعين طالبا في القاهرة[65]. وإلى جانب المحاكم المختلطة، شملت الإسكندرية أيضا محاكم شرعية وحكومية مصرية، ومحاكم قنصلية للفصل في القضايا التي تتضمن أجانب فقط، ومحاكم أرثوذكسية وقبطية وأرمنية ويهودية للقضايا التي تتضمن أفرادا من تلك الأديان فقط[66].

(*) ولفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt (من 17 أغسطس 1840 إلى 1 سبتمبر 1922)، مؤلف «التاريخ السري لاحتلال إنجلترا لمصر» الذي يسرد فيه رحلاته بين مصر والشام والعراق وتركيا، ويغطي الكثير من الأحداث المهمة التي شهدتها مصر قبل الاحتلال وبعده. كان بلنت صديقا شخصيا لأحمد عرابي والإمام محمد عبده الذي حثه على نشر هذا المؤلف بعد أن راجعه له، بل ونوى عبده أن يترجمه إلى العربية لكن عاجلته المنية، فترجمه قسم الترجمة بجريدة البلاغ. كان بلنت معاديا للاستعمار عموما ومؤيدا لحقوق مصر، حتى إنه كتب إلى مؤتمر الحزب الوطني المصري الذي عقد في بروكسل في نهاية العام 1910 برئاسة محمد بك فريد: «احذروا منا فإننا لا نريد لكم شيئا من الخير، لن تنالوا منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية، ومادمنا في مصر فالغرض الذي نسعى إليه من البقاء فيها هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية في مانشستر وأن نستخدم أموالكم لتنمية ممتلكاتنا الأفريقية في السودان. لم يبق لكم عذر إذا انخدعتم في نياتنا بعد أن وضح الأمر فيها وضوحا تاما، فاحذروا أن تنساقوا إلى الرضى باستعباد بلادكم وتدميرها». [المترجم].

مارس الحكم الثنائي من جانب الخديو والقناصل الاستغلال بحق جموع المصريين، ومهد الطريق للاحتلال البريطاني. لكنه في الوقت عينه جعل الإسكندرية أكثر تحررا من القاهرة من السيطرة الحكومية. فأصبحت مختبرا سياسيا وثقافيا، فضلا عن كونها ميناء دوليا. فكان بمقدور ديرفو في الإسكندرية أن ينشر كتيبات تنتقد الخديو إسماعيل. وفي الإسكندرية، أسس مارونيان من بلدة قريبة من بيروت، هما سليـــم وجبرائـــيل تقلا، في أغسطس 1875، صحيفة «الأهرام» الأوسع شهرة في العالم العربي والتي لاتزال مزدهـــرة إلى اليوم(*). وكذلك بدأت سبع عشرة جريدة عربية أخرى في الإسكندرية في الأعوام 1873 - 1882[67].

بنى القنصل البلجيكي كومت ميناندر دي زيزينيا لنفسه قصرا في ميدان محمد علي ومسرح زيزينيا الكلاسيكي الرائع الذي صممه أفوسكاني في شارع روزيت في العام 1862[68]. وفي العام 1876 عرض المسرح واحدة من أولى المسرحيات باللغة العربية في مصر، كانت مسرحية وطنية لجمع التبرعات للجنود المصريين الذين أصيبوا في أثناء القتال من أجل الإمبراطورية العثمانية في الحرب الروسية - العثمانية في الأعوام 1876 - 1878[69].

***

كانت رقبة مصر في ذلك الوقت تحت سيف الرقابة المالية الأجنبية أو الاحتلال. وكان الإفلاس أحد أسباب الأزمة. فبين العامين 1863 و1876، ارتفع دين مصر الخارجي من ثلاثة ملايين جنيه إسترليني إلى واحد وتسعين مليونا. ومما يكشف عن تطلعات العائلة الحاكمة، قال الخديو إسماعيل للجنة الإفلاس الدولية في الثالث والعشرين من أغسطس 1878: Mon pays n'est plus en Afrique: nous faisons partie de l'Europe actuellement (لم يعد بلدي جزءا من أفريقيا. فنحن الآن جزء من أوروبا)[70](**).

(*) معروف أن من أسس جريدة «الأهرام» المصرية هما الأخوان اللبنانيان سليم وبشارة تقلا، الأول عمل رئيسا لتحريرها، وأنشأ الأخير جريدة بالاسم نفسه Pyramides باللغة الفرنسية، وهناك أيضا بشارة تقلا الصغير الذي أدار الأهرام بين العامين 1955 و1960. أما جبرائيل تقلا فهو من آلت إليه الجريدة بين العامين 1913 و1943، وقد انتخب نقيبا للصحافيين المصريين في العام 1919. [المترجم].

(**) كأن الخديو يقول إنني اقترضت هذه الأموال لأجعل من مصر جزءا من أوروبا. وكأن ذلك مدعاة لرأفة الدائنين به. [المترجم].

وبعد فرض الرقابة المالية الفرنسية - البريطانية ووزارة برئاسة نوبار باشا في العام 1878، ازداد الموقف تدهورا. فقد وجد الخديو إسماعيل نفسه محاصرا بين السلطان العثماني والحكومتين الفرنسية والبريطانية وتبذيره الشخصي وحكمه المطلق والجيش المصري الذي أخذ يتصرف - كما في البلدان الأخرى التي لا تمتلك مؤسسات تمثيلية - بصفته المعبر عن الوجدان الشعبي. وتفاقم سخط الجيش بسبب سداد أموال دائني الخديو الأوروبيين كاملة وفي موعدها، بينما تأخرت رواتب الموظفين والجنود المصريين أو طردوا حتى من الخدمة كجزء من عملية خفض النفقات التي فرضها الأوروبيون من أجل مصالحهم. وفي الثامن عشر من فبراير 1879 شجعت مظاهرة عسكرية في القاهرة إسماعيل على إقصاء نوبار والممثلين البريطاني والفرنسي من الحكومة المصرية. وردا على ذلك، وصلت القاهرة، في 26 يونيو 1879، برقية من الباب العالي في القسطنطينية كُتِبت بناء على طلب من السفيرين الفرنسي والبريطاني، كانت موجهة «إلى خديو مصر السابق إسماعيل». وبناء على نصيحة من القنصلين العامين الفرنسي والبريطاني، تنازل إسماعيل عن السلطة في اليوم نفسه(*).

كان معظم الصحافيين الأوروبيين في مصر خاضعين في أغلب الأحيان لتأثير المسؤولين الحكوميين في مكان الأحداث[71]. لكن كان من بين الاستثناءات لهذه القاعدة، صحافي سويسري راديكالي يدعى جون نينت John Ninet ساعد في إدارة مزارع القطن التابعة لمحمد علي. وصف نينت مغادرة الخديو السابق بحريمه الإسكندرية بعد أربعة أيام على يخت المحروسة. فبعد أن سلم البلاد إلى الممولين الأجانب، غدا إسماعيل «بغيضا» في أعين المصريين، وحتى التجار المزدهرون كانوا يُسمَعون وهم ينعتونه بـ «الكلب». وبدلا من عبور المدينة، ذهب إسماعيل رأسا من محطة القطار إلى الميناء. ولم يأتِ لوداعه إلا الذين استفادوا من حكمه، وهم رجال الأعمال والقضاة والقناصل، إلى جانب بضعة مصريين من غير الجنود الذين يؤدون التحية. وقيل إن «الجميع» فرحوا بسقوطه. كان الكثيرون يفضلون أن يكون

(*) اعتزل إسماعيل بقية حياته بعد خلعه إلى إسطنبول، وفيها رجع عن الموسيقى الغربية «إلى أذواق طفولته. ففي الليالي المقمرة، كانت جوقته المكوّنة من مائة جارية تغني له على أنغام الموسيقى الشرقية في ياليه في إمرغان. وكانت مراكب الكياك التي تجتمع للاستماع في الخارج تشكل جسرا من المراكب يمتد من إمرغان إلى الشاطئ الآسيوي للبسفور»؛ من كتاب «القسطنطينية – المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924»، الصادر عن سلسلة عالم المعرفة، عددي يوليو وأغسطس 2015. [المترجم].

وريثه، بموجب التقاليد، أكبر ذكر في العائلة، وهو حليم عم إسماعيل وأصغر أبناء محمد علي. كان حليم قد عُيّن قبل العام 1866 وليا للعهد وقائدا عاما للجيش، لكنه منذ ذلك الحين انتقل إلى القسطنطينية. وبدلا من حليم، وعلى نحو ما خطط الباشا، خلف إسماعيل ابنه الأكبر توفيق. كان توفيق متزوجا من ابنة عمه أمينة إلهامي، وكان في استشرافه أوروبيا بدرجة أكبر من أبيه. فلم يكن له حريم، واستعمل الإيطالي دي مارتينو بك De Martino Bey سكرتيرا خاصا، وربطته علاقات وثيقة منذ فترة طويلة بالقنصلين الفرنسي والبريطاني[72].

إن حالة المصريين العاديين، التي تحسنت في عهد عباس وسعيد، أصبحت «لا تحتمل» بعد أن رفع إسماعيل الضرائب لسداد ديونه. فكان فقراء المصريين يعاملون معاملة حيوانات الحمل، وتفرض عليهم الضرائب وفقا لنزوة الحاكم. وفي العام 1849، وهو وقت مبكر، لاحظ فلوبير أنه في الإسكندرية، كان أي شخص يرتدي سترة نظيفة يضرب أي شخص يرتدي سترة متسخة أو لا يرتدي سترة بالمرة[73]. وبعد ثلاثين عاما، ظل الضباط والمسؤولون يضربون المصريين في الشوارع بالسياط أو بالخيزرانات إذا كانوا في طريقهم، وهو نفسه ما كان الجنود المصريون يفعلونه في الأفلام الإخبارية القصيرة حول المظاهرات السياسية إبان العقد الثالث من القرن العشرين. وفي ذلك كتب الراديكالي اللبناني المبكر فارس الشدياق في هجائية نُشرت في العام 1855، أن الأتراك في الإسكندرية قرروا في مجلس أن وسيلة النقل المريحة هي ظهر العربي[74].

كانت الوطنية المصرية قد قويت بفعل الحكومة نفسها، حين سعت الأخيرة إلى مزيد من الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية(*). ففي العامين 1858 و1869، شجعت توجيهات رسمية استخدام اللغة العربية لغة حكومية، بدلا من التركية. وكان سعيد باشا قد شرع في ترقية الضباط من ذوي الأصول المصرية الذين كان من بينهم القائد المستقبلي لثورة 1882 أحمد عرابي، ابن أحد شيوخ القرى، ذلك الرجل متين البنية ذو «الطلعة المهيبة» الذي رافق سعيد باشا كضابط مرافق في حجته إلى مكة في العام 1861[75].

(*) على طول الكتاب، تترجم كلمة nationalism ومشتقاتها إلى «القومية» ومشتقاتها مع اليونانيين أو الأرمن أو غيرهم من الأمم التي يرد ذكرها في الكتاب وبالطبع مع العرب كأمة، لكن في حالة مصر تترجم إلى «الوطنية» ومشتقاتها لأن المصريين استخدموا هذه الكلمة نفسها من ناحية، ولأنهم من ناحية أخرى لم يكونوا أمة تطالب بالانفصال عن دولة أخرى، بل دولة كانت لها سيادتها - ولو اسمية - تطالب في فترات بالتحرر من احتلال أجنبي، وليس الانفصال كما في الحالات الأخرى. [المترجم].

تفاقم سخط الضباط من ذوي الأصول المصرية على كبار الضباط الناطقين باللغة التركية، بعد أن خبَر المصريون عجز الأتراك وعدم كفاءتهم في أثناء الحرب الإثيوبية في العام 1875 (حين فشل الخديو إسماعيل في تأسيس إمبراطورية مصرية في شرق أفريقيا). واتسعت الهوة - كما كتب عرابي لاحقا - بين المصريين الذين تهددهم الطرد من الخدمة والضباط الأتراك والشركس المفضلين لدى الخديو الذين أُتخِموا بالعطايا «التي امتصت من دماء المصريين الفقراء ومن عرق جبينهم»[76].

وكما كانت الحال في سميرنا في العام 1821 وبيروت في العام 1860، أصبحت الإسكندرية بركانا جاهزا للانفجار. وفي العام 1879 هدد حشد غاضب حياة المفوض المالي البريطاني سير تشارلز ريفرز ويلسون Charles Rivers Wilson وزوجته بينما كانا يغادران البلاد[77]. وتظاهر الجنود خارج سراي رأس التين ضد الامتيازات التي تمتع بها ضباطهم الشراكسة. وحين كانت مدفعية حصون الشاطئ التي جددها الخديو إسماعيل أخيرا تطلق النار تحية للسفن الداخلة إلى الميناء، كانت مفاصل السكندريين ذوي الأصول الأجنبية ترتعد خوفا[78].

وفي العام 1881 وقع أول الاضطرابات في مدينة الإسكندرية «المسالمة جدا في العادة» التي كانت حاميتها تتكون من ثمانمائة جندي فقط، وهو عدد صغير جدا على مدينة بحجم الإسكندرية، يكشف في ذاته - أي عدد الحامية - عن مدى جنوح أهلها إلى السلم. كانت معاداة السامية بين اليونانيين شديدة في المشرق، خصوصا في عيد الفصح، ومن شواهد ذلك أن حشدا في أثينا نهب بيت مواطن بريطاني يدعى دون باثيفيكو Don Pacifico في العام 1847، جزئيا لأنه يهودي، ما دفع البحرية الملكية البريطانية إلى حصار المدينة[79]. وفي الإسكندرية في الثالث والعشرين من مارس 1881، وقبل عيد الفصح مباشرة، وُجِد صبي يوناني ميتا في الميناء(*). ربما سقط في البحر وغرق. وعلى الرغم من عدم وجود أي علامات للعنف في جثة الصبي، فقد اعتبره اليونانيون «شهيدا». واندفعت

(*) كان المسيحيون يتهمون اليهود عادة بممارسة القتل الطقوسي للأطفال كجزء من شعيرة دينية. حدث ذلك في إسبانيا قبل طرد اليهود منها، وحدث في القسطنطينية التي استصدر فيها اليهودي الإسباني موسى بن هامون الطبيب المفضل لسليمان القانوني فرمانا يقضي بأن تحال كل اتهامات جرائم القتل الطقوسي للأطفال المسيحيين التي تنسب لليهود إلى الديوان الإمبراطوري نفسه، ووقعت بسبب هذه الاتهامات أعمال شغب من جانب اليونانيين بحق اليهود حتى القرن العشرين. [المترجم].

حشود من اليونانيين إلى الشوارع، وهاجموا اليهود وأهانوهم. كان الغاضبون من المؤمنين بـ «فرية الدم» القديمة التي تقول إن اليهود في عيد الفصح يقتلون أطفال المسيحيين ليستخدموا دمهم في الطبخ(*). حتى البطريرك المسكوني نفسه كتب رسالة من القسطنطينية شجب فيها «افتقار» اليونانيين السكندريين «إلى كل أشكال الثقافة الفكرية». وأُرسِل ألف وخمسمائة جندي إضافي من القاهرة بقيادة وزير الحربية. وواصلت الصحف اليونانية بالإسكندرية نشر مقالات مهيّجة معادية لليهود. وحين اعتقلت الشرطة أحد مثيري الشغب اليونانيين، اندفع التجار اليونانيون من البورصة الكائنة بميدان محمد علي لإطلاق سراحه. وفر بعض اليهود إلى الأمان الذي وفرته لهم القنصليتان الفرنسية والبريطانية. وباتت المدينة تحت الحصار. وأخيرا، خمد الهياج الذي كشف عن عدوانية اليونانيين[80].

وإلى جانب القومية اليونانية، نمت النزعة الوطنية المصرية كرد فعل على السيطرة الأوروبية على مصر. كانت الإسكندرية لاتزال مدينة إسلامية في المقام الأول، وظلت حتى العام 1872 تضم مائة مسجد واثنتي عشرة كنيسة وثلاثة معابد يهودية فقط[81]. كان عبدالله النديم من الخطباء المسلمين المشهورين في الإسكندرية التي ولد فيها في العام 1843، وأسس الجمعية الوطنية مصر الفتاة في العام 1878(**)، وفي العام 1881 شجعته حرية المدينة على البدء في نشر كتيبات تدعو إلى التجديد الإسلامي[82]. وحذر مسلم آخر، يدعى الشيخ حمزة فتح الله(***)، المصريين من المصير الذي آلت إليه مدينته الأم تونس، التي احتلها الفرنسيون وأعلنوها محمية فرنسية في العام 1881. كما هاجم فتح الله أوروبا باعتبارها مصدر الاشتراكية والفوضوية[83]. واتجهت أنظار الرأي العام إلى عرابي الذي عُيِّن وزيرا للحربية بسبب

(*) إلى جانب فرية الدم، كان المسيحيون أيضا يتهمون اليهود بتسميم آبار الشرب وتدنيس خبز القربان المقدس. [المترجم].

(**) مصر الفتاة، جمعية سرية كانت تعارض استبداد الخديو وتدعو إلى دستور، أسسها إسحاق أديب وعبدالله النديم وضمت الكثير من العرب المسيحيين واليهود المصريين والإيطاليين المتمصرين، وبالاسم نفسه أنشأ أديب جريدة كانت منبرا له وللأفكار التنويرية. بعد انشقاقه عن مصر الفتاة، ربما لشكه في النوايا التآمرية لأعضائها غير المسلمين، أسس النديم جمعية المقاصد الخيرية. [المترجم].

(***) الشيخ حمزة أحمد فتح الله (1849 - 1918)، أحد مشايخ الأزهر، عمل بالصحافة كاتبا ومحررا ومؤسسا، وكان في مجمل آرائه مؤيدا للخديو ومعارضا للتغيير بالقوة. [المترجم].

ضغط الجيش على الخديو الممانع في فبراير 1882، ونادى به الشعب بصفته «وحيد زمانه» ومنقذ بلاده. وبدأ الجيش يهيمن على مصر[84].

ولى الخديو توفيق، الذي أهانه جنوده وأذلوه، وجهه شطر القنصلين الفرنسي والبريطاني اللذين كانت له معهما من وراء ظهور وزرائه اتصالات منذ فترة طويلة، طلبا للنصيحة[85]. وبحلول شهر مارس 1882، كان توفيق عازما على الانتقال إلى الإسكندرية، وأن ينتظر هناك التحرر على يدي فرنسا وبريطانيا مما أسماه «هذا الكابوس». ولكي يشجع التدخل الخارجي، أخبر القناصل - كذبا - بأن رئيس الوزراء هدد بتنفيذ مذبحة بحق الأوروبيين[86].

بدأت الحكومة البريطانية تخطط للتدخل. إذ لم يحدث احتلال مصر «في نوبة من غياب العقل»(*)، كما يحب بعض السياسيين البريطانيين أن يتبجحوا، ولا بسبب التنافس مع القوى الأخرى، بل حدث بتخطيط متأنٍ، وبتشجيع من أوروبا. إذ استخدمت بريطانيا القوة العسكرية دفاعا عن المصالح الاقتصادية واستجداء لأصوات الناخبين في الداخل. ففي العام 1879 كانت الحكومة البريطانية قد فكرت فعلا في احتلال مصر، لكنها كانت مشغولة في قتال قبائل الزولو على الطرف الآخر لأفريقيا. ووصلت حكومة من حزب الأحرار إلى السلطة في العام 1880، واحتج سير تشارلز ديلك Charles Dilke وكيل الوزارة الجديد بوزارة الخارجية على احترام حكومته لـ «حريات الشعب المصري»، لكي يظهر للناخبين البريطانيين أن حزب الأحرار يمكن أن يكون استعماريا مثل المحافظين تماما. وهدد لورد هارتينغتون Lord Hartington بالاستقالة من الوزارة إن لم تتبع الأخيرة سياسة «راديكالية» استباقية[87].

(*) ترجع مقولة إن الإمبراطورية البريطانية تكوّنت في «نوبة من غياب العقل» إلى المؤرخ الإمبريالي الفيكتوري سير جون روبرت سيلي John Robert Seeley (1834 - 1895)، حيث ذكرها كمزحة في سياق اعتراضه على ميل التأريخ الإنجليزي إلى التركيز على توسيع الحرية في الداخل، وليس على التوسع الاستعماري فيما وراء البحار، الذي اعتبره سيلي القوة الدافعة الحقيقية للتطور القومي منذ العصر الإليزابيثي. وردت هذه العبارة في كتابه الصغير «توسع إنجلترا» Expansion of England الذي حظي باستحسان واسع حين نُشر لأول مرة في العام 1883 ولايزال يمثل بيانا حيا وقويا حول هذا الموضوع. وكمالة قول سيلي هي: «يبدو أننا - إذا جاز التعبير - غزونا نصف العالم وزرعناه برجالنا في نوبة من غياب العقل»، بمعنى أن ذلك هو الانطباع الذي قد يستنتجه المرء من التواريخ التقليدية لبريطانيا إبان القرن الثامن عشر التي «تركز على الجدل البرلماني المجرد والتطلعات إلى الحرية»، في حين كان التاريخ الحقيقي لهذه الأمة هو البناء الواعي والواضح لإمبراطورية مترامية الأطراف فيما وراء البحار، ولذلك فإبان القرن الثامن عشر «لم يكن تاريخ إنجلترا يكمن في إنجلترا بل في أمريكا وآسيا». من كتاب «القوة والوفرة - التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (جزءان)، تأليف رونالد فيندلاي وكيفين أورورك، ترجمة مصطفى قاسم، دار جامعة الملك سعود للنشر، الرياض، 2015. [المترجم].

بل إن رئيس الوزراء غلادستون Gladstone كان لديه حافز شخصي للتدخل، كما تبيّن له حين أحصى ثروته في ديسمبر 1881 ووجد أن جزءا كبيرا جدا منها يتمثل في السندات الحكومية المصرية، وهو أربعون ألفا وخمسمائة وسبعة وستون جنيها إسترلينيا، أي سبعة وثلاثين في المائة من إجمالي حقيبة أوراقه المالية. وكذلك كانت لخمسة وستين عضوا آخر بالبرلمان استثمارات في مصر. وبفضل الاحتلال البريطاني لمصر جزئيا، أثبتت هذه الاستثمارات أنها أكثر ربحية من الكثير من الأسهم البريطانية[88]. وكانت الحاجة إلى «حماية قناة السويس» عاملا آخر، أثر في السياسة البريطانية[89]. خلاصة القول أن الاستراتيجية و«السوق» وكسب أصوات الناخبين أسهمت بدرجات يستحيل قياس حجم تأثير كل منها في دفع بريطانيا إلى احتلال مصر. وعلى رغم كل ذلك، كان مصير الخديو والأوروبيين في الإسكندرية هو الذريعة التي رفعتها إنجلترا.

وقعت أحداث العام 1882 على نحو ما «يقول كتاب الاحتلال»(*). نقل مسؤول بريطاني في القاهرة للندن ما كانت تريد أن تسمعه: «ثمة شعور قوي ومتنامٍ بين كل من الأجانب والكثير من الأهالي بأن المخرج الأفضل والوحيد من الصعوبات التي أحدقت بمصر يكمن في احتلال إنجلترا لها». وفي ذلك الشتاء، قام ألكسندر بروس تولوش Alexander Bruce Tulloch من إدارة المخابرات الحربية التي تشكلت أخيرا، بزيارة إلى مصر لفحص الحصون والثكنات ومواقع الإنزال الممكنة حول الإسكندرية. وإذا صدقنا مذكراته، فإن المصريين كانوا مدركين لنواياه، وضحكوا حين أخبرهم بأنه جاء في عطلة لصيد طائر الشنقب[90]. ومع أن محمد علي وإسماعيل كليهما قاما بتقوية دفاعات الإسكندرية، فإن هذه الدفاعات كانت قد ضعفت بسبب توسع المدينة واستخدام الأراضي العسكرية للبنايات التجارية[91].

وفي 20 مايو 1882 رست سفن مدفعية بريطانية وفرنسية قبالة الإسكندرية، بينما تحرك سرب بحري مشترك إلى جزيرة كريت. وكانت الأوامر المعطاة لهم هي أن يتواصلوا مع القناصل العامين، ويدعموا الخديو، وينزلوا قوة على البر إذا تطلبت «سلامة الأوروبيين» ذلك[92]. وفيما كان الخديو يعتبر أوروبا صديقا، كان

(*) أي كما تقول الوصفة، على نحو ما ينفذ الناس طبخة بناء على تعليمات «كتاب الطبخ». [المترجم].

معظم المصريين يعتبرونها عدوا. وكان عرابي مدعوما من أغلبية المصريين، ومنهم العلماء والموظفون الشباب، مثل سعد زغلول، البطل المستقبلي لثورة 1919، وحتى بعض أفراد عائلة الخديو. وكان مطلب الجميع دستورا مكتوبا يحل محل الحكم الخديوي المطلق[93](*).

وفي 25 مايو طالب القنصلان العامان البريطاني والفرنسي بتغيير الوزارة وإبعاد عرابي عن البلاد[94]. واستقال عرابي من وزارة الحربية احتجاجا على تدخلهما. وفي 27 مايو، وبعد اجتماع للضباط الوطنيين في الإسكندرية، قاطع اللواء طلبة باشا الخديو توفيق وأخبره بأن الجيش لا يعترف إلا بالباب العالي ولا يقبل استقالة عرابي باشا[95].

وفي 29 مايو أخبر توفيق القنصل العام البريطاني في القاهرة إدوارد ماليت Edward Malet بأنه لم يعد يشعر بالأمان فيها. ومن أجل سلامة عائلة توفيق، طلب منه القنصل ألا يفعل شيئا «من دون استشارتي أنا وزميلي الفرنسي»[96]. ولكن في 3 يونيو أعاد توفيق تعيين عرابي وزيرا للحربية بسلطات مطلقة تقريبا(**).

بث المزاج العام في الإسكندرية حالة من الذعر بين الأوروبيين. وفي 30 مايو طلبت الجالية البريطانية من الحكومة البريطانية أن «توفر وسائل فعالة لحماية أرواحهم. فالتأخير يوما بعد آخر يزيد المزاج الخطر بين العسكر وتحديهم المتنامي للانضباط». وناقش القنصل البريطاني تشارلز كوكسون Charles Cookson مع القناصل الآخرين خطة للدفاع عن ميدان محمد علي، أعدها ضباط بحرية بريطانيون ويونانيون[97]. وبين 2 و5 من يونيو، وصلت ست بوارج فرنسية وبريطانية أخرى إلى ميناء الإسكندرية.

أما عرابي، الذي تسلم النيشان المجيدي من الدولة العثمانية في يونيو، فكان على تواصل مع اثنين من الضباط المرافقين للسلطان حذراه قبل كل شيء من

(*) فوّت الاحتلال البريطاني على مصر أكثر من قرن وثلاثة عقود من التطور السياسي، فمع أنه لم يدم غير سبعين عاما لكنه حرف مسار هذا التطور حتى بعد رحيله في شكل نظام الحكم الذي تلا الاستقلال، وهو ما يتأكد من حقيقة أن مطالب ثورة عرابي في جوهرها، المتمثلة في الدستور والبرلمان والعدالة الاجتماعية، كانت هي نفسها مطالب ثورة 25 يناير 2011 التي لم تتحقق بعد. [المترجم].

(**) كان من بينها حفظ الأمن، وهي ليست من مهمات الجيش، ربما كجزء من مؤامرة لإظهار عرابي بمظهر الفاشل أمام المصريين والقوى الأوروبية، بما يمهد الطريق للاحتلال، خصوصا إذا تبنينا منطق المؤامرة أيضا مع أحداث الشغب التي شهدتها الإسكندرية بعد أيام. [المترجم].

وقوع مصر في أيدي الأجانب[98]. وفي 8 يونيو وصل درويش باشا المبعوث الخاص للسلطان على صيحات «أعز الله السلطان!»، قال عرابي لمبعوث السلطان إنه يعتبر الخديو مرتدا عن الإسلام ويتمنى من السلطان أن يعزله. لكن في النهاية، وضع السلطان حكمه قبل الإسلام، مفضلا أن يكون في الجانب المنتصر، فأيد الخديو وأعلن عصيان عرابي[99](*).

كان شارع دي سير Rue des Soeurs الذي يسير غربا من ميدان محمد علي إلى الميناء، يبدأ بدير، ومن هنا جاء اسمه(**)، وكان ينتهي بما أسماه جندي بريطاني «أوكار مشينة للرذيلة والفجور»[100]. وفي الحادي عشر من يونيو، خارج مقهى كريستال Cafe Crystal، عند نهاية الشارع من ناحية الميناء، تشاجر رجل مالطي مع مكاري مصري رفض أن يدفع له الأجر الذي طلبه. سبّ كلاهما دين الآخر، وهو أمر «يحدث يوميا»، كما كتب نينت. وبعد أن سحب المالطي سكينه (أو مسدسه في رواية أخرى) وقتل المكاري، حدث الانفجار[101]. بدأ حشد من المصريين، منهم رجال شرطة وحرفيون، كالجزارين والخياطين وباعة الشربات والنجارين، في مهاجمة الأوروبيين الذين تعرفوا عليهم من قبعاتهم وملابسهم. كانت كراهية الأجانب الأثرياء إحدى القوى الدافعة لغضب الأهالي. كان من بين صيحاتهم: «يا الله أغث حامي الإسلام ودمر الكفار الفاسدين!» و«يعيش السلطان!»[102]. وفي اليوم نفسه، خطب عبدالله النديم في حشد كبير من الناس في المدينة، وأعلن أن الخديو غير صالح للحكم[103]. وشرع اليونانيون السكندريون في تسليح أنفسهم بأموال قدمها لهم مموّل ثري يدعى أمبرويز سينادينو Ambroise Sinadino[104].

غير أن البعض، ومنهم ولفريد سكاون بلنت المعجب بعرابي، رأى أن الخديو ومحافظ الإسكندرية عمر لطفي سمحا للاضطرابات بأن تتصاعد عن قصد، لكي

(*) وهكذا فبعد أن جمد الحكم العثماني مصر قرونا وأدى إلى تخلفها وركودها وفتحها للأجانب بموجب الامتيازات، أسلمها السلطان لاحتلال أجنبي. فالسلطان الذي قبل طلب السفيرين الإنجليزي والفرنسي بعزل إسماعيل قبل ثلاثة أعوام، رفض طلبا مماثلا من عرابي الذي كان يدين له بالولاء كأغلبية المصريين، وانحاز للأجانب، وليس للخديو الذي لم يكن له وزن لا عند السلطان ولا عند الأوروبيين. [المترجم].

(**) شارع السبع بنات أو الراهبات حاليا، والأرجح أن اسم الشارع مستمد من حكاية السبع راهبات التي تسمى بهن دير في وادي فيران بجنوب سيناء اللاتي حاول قطاع الطرق اغتصابهن فألقوا بأنفسهن من فوق جبل. [المترجم].

يُظهِرا أن عرابي غير قادر على حفظ النظام، ما يوفر ذريعة للتدخل الفرنسي - البريطاني[105](*). بينما الأمر في حقيقته لا يحتاج إلى تفسير تآمري، إذ لا تكمن المفاجأة في وقوع تلك الاضطرابات، بل في عدم وقوعها قبل ذلك بالنظر إلى القرب المُهيِّج بين الأوروبيين المسلحين والمصريين الهائجين.

سلح المصريون أنفسهم بعصي خشبية طويلة تسمى نبابيت. واندفعوا خلال الشارع الفرنجي وشارع سترادا نوفا Strada Nuova (الطريق الجديد) وأرصفة الميناء يضربون الأوروبيين بأشد ما فيهم من عزم. وأطلق الأوروبيون النار على الجنود ورجال الشرطة المصريين، أحيانا من النوافذ. ووقعت أعمال نهب. وبحلول العصر كانت الاضطرابات قد وصلت إلى ميدان محمد علي[106]. وزعت القنصليتان البريطانية واليونانية مزيدا من الأسلحة على مواطنيهما. وتلقى القنصل اليوناني مسيو رانغابي Monsieur Rhangabe ضربا، ربما بسبب لحيته الحمراء التي جعلته «يبدو إنجليزيا». وتلقى القنصل البريطاني كوكسون جروحا في الرأس وكدمات وكُسر إصبعه. ووصفت القنصلية البريطانية بأنها «في حالة لا توصف من الفوضى، حيث تحتشد النساء والأطفال في كل مكان ويبكون في حالة من الفزع».

أبرق نائب القنصل البريطاني هنري كالفيرت Henry Calvert إلى بلاده أن الشرطة لم تتدخل لحماية الأوروبيين، و«المحافظ والقناصل يقررون الإجراءات». وطلب القناصل من الأدميرال سير بوشامب سيمور Beauchamp Seymour، قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط، ألا ينزل البحارة إلى البر حتى لا يثيروا مزيدا من العنف، فقد أثبت وجود السفن الأجنبية أنه مثير للاستفزاز ويضر بأمن الأوروبيين في الإسكندرية. حل جنود الجيش المصري محل الشرطة، وأخذوا يقومون بدوريات في الشوارع لإعادة النظام، وساعدوا الأوروبيين في اللجوء إلى السفن الراسية في

(*) يقال إن الاضطرابات التي بدأت بحادثة المالطي والمكاري المصري كانت مؤامرة مدبرة تعاون فيها الإنجليز مع الخديو توفيق ومحافظ الإسكندرية عمر لطفي لإثبات عجز عرابي عن حفظ الأمن. من أدلة ذلك أن المالطي لم يفعل شيئا بالمكاري وحماره طوال النهار غير التنقل بين المقاهي، وأن شرطة المحافظ الموالي للخديو والكاره للوطنيين شاركت في أعمال الشغب والقتل، وأن العربان ظهروا فجأة في أماكن متفرقة من المدينة يحملون نبابيت ويهاجمون الأجانب، وأن توفيق أبرق إلى عمر لطفي ما نصه «إن عرابي قد ضمن الأمن العام ونُشر هذا في الجرائد، فإذا نجح في ضمانه وثق به الناس ووثقت به الدول، والآن فاختر لنفسك هل تخدم عرابي أم تخدمنا»، والأهم من ذلك أن المعتقلين في الأحداث دافعوا عن أنفسهم لاحقا بأن المحافظ هو الذي أمرهم بمهاجمة الأجانب دفاعا عن بلدهم. لكن كما في أشياء كثيرة وأحداث جسام في مصر، مثل حريق القاهرة والأحداث التي وقعت بعد 25 يناير 2011، فلا سبيل للتحقق من أي شيء. [المترجم].

الميناء. إذ لم يرد عرابي أن يعطي بريطانيا ذريعة للهجوم، وكان من أمارات كرمه - أو ضعفه - أنه لم يجبر الأوروبيين على البقاء في المدينة ويتخذهم دروعا بشرية ضد الأساطيل الأجنبية، مثلما فعل الأتراك في سميرنا في العامين 1695 و1770[107].

وفي الثاني عشر من يونيو تواصلت أعمال الشغب في جنوب المدينة. وبدأ كوكسون يتعافى، إذ إن إصابته «لم تكن خطرة». وإجمالا، قُتل نحو خمسين أوروبيا، ونحو مائتين وخمسين مصريا - ما يكشف القوة النارية المتفوقة لدى الأوروبيين: فمذبحة الأوروبيين كانت في الوقت عينه مذبحة للمصريين. وكان من الأسهل على الصحافيين أن يتجاهلوا قتلى المصريين بسبب تعاليم الإسلام التي تأمر بدفن الموتى في الحال، وهو ما لم يحدث مع الأوروبيين. وطلب القناصل الأوروبيون من رعاياهم الباقين في المدينة ألا يحملوا أسلحة نارية، وهو برهان آخر من ممثلي الأوروبيين أنفسهم على سلوكهم العدواني[108].

وفي 13 من يونيو، وصل الخديو كعادته لقضاء الصيف في الإسكندرية، وبصحبته درويش باشا والقناصل العامون الأجانب. كان الميناء في ذلك الوقت يغص بالسفن التجارية والبوارج الحربية الأجنبية، الهولندية والنمساوية والأمريكية والروسية والتركية واليونانية، فضلا عن البوارج الفرنسية والبريطانية[109]. وبحلول 17 يونيو كان عشرون ألفا من السكندريين قد فروا إلى هذه السفن طلبا للأمان، منهم سوريون مثل عائلة تقلا ويونانيون مثل عائلتي بيناكي Benaki وكفافيس. وشرع أعيان المصريين أيضا في مغادرة المدينة. وتحت حالة الفرار العام خوفا على الحياة، سيطر جنود الشرطة والجيش المصريون بعد الثالث عشر من يونيو على الاضطرابات وجعلوها في أضيق نطاق[110].

وفي 20 يونيو وصل عرابي إلى الإسكندرية واستُقبل استقبال الأبطال. وفي اليوم التالي جاب الشوارع في عربة واحدة إلى جانب الخديو، على الرغم من أنه ألقى في القاهرة خطابات شجب فيها الخديو والعائلة الحاكمة[111].

وبحلول 9 يوليو كان كل من أراد اللجوء إلى السفن قد نال مأربه، حتى اللاجئون القادمون من القاهرة. وأغلِقت البنوك والفنادق في أنحاء المدينة كافة. ولم يبق مفتوحا غير دكانين أو ثلاثة. ولم يبق في المدينة من الأوروبيين غير بضعة مسؤولين وأطباء وممرضات[112]. وبذلك توافر أحد شروط تنفيذ الاحتلال الأجنبي

لميناء مشرقي - إبعاد المسيحيين المحليين حتى لا يتعرضوا لمذبحة. وكان «أسطول القنال الإنجليزي البريطاني» قد انتقل إلى مالطا ووضع تحت إمرة سيمور، وتقدمت بعض سفنه إلى الإسكندرية[113].

لدى وصوله زعم الأدميرال سيمور الذي أُرسِل لحماية الإسكندرية أنه يحتاج إلى من يحميه من المدينة. وثارت ثائرته لمقتل «خادمه الشخصي» ستراكت Strackett في الاضطرابات[114]، وهدد بأنه سيقصف المدينة إذا لم تُفكّك الحصون المحيطة بها ويُسمَح لقوات بريطانية باحتلالها. وقررت الوزارة المصرية التي اجتمعت بالخديو ودرويش باشا في رأس التين أن تقاوم. معنى ذلك أنها كانت مقاومة وطنية بأوامر الحكومة الشرعية للبلاد[115]. وأقر غلادستون، الذي أزبد كثيرا في شجبه لـ «الأعمال الوحشية بحق البلغاريين» التي ارتكبتها قوات تركية غير نظامية في العام 1876، «أعماله الوحشية بحق المصريين» التي أوقعت خسائر أفدح في الأرواح.

وفي 10 يوليو غادرت كل السفن الأجنبية الباقية ميناء الإسكندرية، «تحسبا لقصف المدينة واحتلالها الذي شرع فيه الإنجليز في اليوم التالي»، كما كتب بحار فرنسي شاب يدعى ديديه جيرار Didier Girard في سجل سفينته. إذ بمقتضى اتفاق سري مع الأسطول البريطاني، أبحر الأسطول الفرنسي بعيدا عن الإسكندرية إلى بورسعيد ومعه موظفو القنصلية الفرنسية، ربما لأن مجلس النواب الفرنسي لم يصوّت لمصلحة التدخل الفرنسي، أو لأن الحكومة والبرلمان الفرنسيين أرادا أن تتحمل بريطانيا تكلفة حماية الأرواح والمصالح المالية الأوروبية في مصر وتولي المسؤولية عنها[116].

وفي السابعة من صباح 11 يوليو أرسل الأدميرال سيمور إلى البارجة المدرعة الضخمة ألكسندرا Alexandra الإشارة: «هاجموا مدافع العدو»[117]. شاركت كل السفن في القوة البحرية المكونة من خمس عشرة سفينة، واحدة بعد الأخرى، في قصف الإسكندرية. وسرعان ما غطت السفن نفسها سحابة من الدخان الأبيض. «كان المنظر رائعا... ورهيبا ومرعبا، وكنت رغما عني أهتز من الإثارة»، هكذا كتب دي كوزيل بك de Kusel Bey، الموظف الإنجليزي في الجمارك المصرية. قوبل الدوي الشديد للمدافع البريطانية بخشخشة المدفعية المصرية التي نفذت من الحصون ما وصفه تولوش بأنه «قصف جيد لم يخطر على البال». كان القصف

البريطاني عشوائيا، لكنه مؤثر. وظلت هناك بضعة مدافع وقوات مدفعية مصرية، لكنها أُسكِتت بحلول الحادية عشرة والنصف صباحا. وفي هوجة إمبريالية جماعية، أخذت كل الفرق الموسيقية على متن البوارج الأجنبية على البعد تعزف السلام الوطني البريطاني[118].

حوّل القصف جناح الحريم بسراي رأس التين إلى أنقاض، وكذلك معظم المنطقة المحيطة ومنطقتي الجمرك والعطارين وميدان محمد علي وشارع شريف باشا. واحمرت السماء بلون الحرائق التي اندلع بعضها بسبب القصف البريطاني وبعضها بسبب أعمال النهب من جانب المصريين. وارتفعت أعمدة الدخان فوق المدينة. وفي كل مرة حاول فيها الجنود المصريون إطفاء الحرائق، أشعلتها «الوحوش العائمة» من جديد، كما ذكر جون نينت الذي كان أحد شهود العيان[119]. وساعد تغير في اتجاه الرياح في نشر الحرائق عبر المدينة. وبدأت القوات المصرية وأعداد كبيرة من السكندريين المصريين في مغادرة المدينة في «سيل عرم من اللاجئين». فبعد أن غادر الأوروبيون المدينة بالقوارب، فر المصريون بالقطار، إذ اعتلى كثيرون منهم أسقف عربات القطار وتشبثوا بمفاصلها[120]. وإجمالا، فر زهاء ستين ألف مصري من الإسكندرية، بالدرجة الأولى إلى القاهرة، التي كانت لاتزال في قبضة الحكومة الوطنية [121].

بعد القصف، كانت هناك فجوة شريرة مدتها ثلاثة أيام قبل أن تنزل القوات البريطانية إلى البر، ربما لعدم توافر قوات كافية. وفي أثناء هذه الفجوة، واصل السكندريون الساخطون على القصف أو المستغلون له، وكذلك الجنود المصريون، أعمال النهب وبدأوا في القتل. فأحرقت القنصليات، ومكاتب البريد الفرنسية والنمساوية، والبنايات التابعة للعائلة الحاكمة، وبنايات عائلة سرسق البالغة مساحتها أربعة وعشرين ألف قدم مربعة، وبيت كومت دي زغيب وبيت نوبار باشا، وبيوت الكثير من التجار المصريين، فضلا عن الدكاكين والمدارس والمستشفيات[122].

وعلى مدار يومي 11 و12 يوليو لم يُسمَع في الإسكندرية غير طقطقات ألسنة اللهب وهديرها، وضجيج البنايات المنهارة، وعواء الكلاب. غادر عرابي المدينة في الحادي عشر من يوليو، وتبعته آخر القوات المصرية في الواحدة من ظهر اليوم التالي[123]. تحولت الإسكندرية، بتعبير موظف في القنصلية البريطانية،

إلى «جحيم دانتي(*)، تأكلها النيران من أولها إلى آخرها، وتنتقل ألسنة اللهب فيها من شارع إلى آخر من دون أن تُبذل أي محاولة لكبحها، وينتشر فيها أناس همجيون هنا وهناك يسلبون وينهبون، وتتناثر على طرقها جثث منتفخة إلى حد لا يصدق وقد تُرِكت متفحمة وعارية»[124]. وصف حال المدينة شاهد عيان آخر قال إنها «عاصمة الجحيم التي أُطلِقت فيها جهنم وشياطينها... لم أرَ شيئا أبشع من ذلك في حياتي»[125]. كان من بين الخرائب مكتبات ذات كتب رفيعة التجليد، وقد مُزقت ودُهِست بالأقدام[126]، وأهرام من القمامة والزجاج والأثاث المدمر، وقطط وكلاب «سعرهم العطش والجوع»[127]. كان الشيء الوحيد الذي لم يمسسه سوء هو تمثال محمد علي، الذي بدا من فوق حصانه كأنه يُعاين الخراب من حوله باشمئزاز[128].

إن الصور التي التقطها السكندري الإيطالي لويجي فيوريلو Luigi Fiorillo، والتي بيعت ضمن ألبوم أسماه «تذكار من خرائب الإسكندرية» تجعل الإمبريالي العتيد يحمر خجلا، حيث المساجد والكنائس والمدارس والقنصليات المدمرة (دمرت المدافع البريطانية القنصليتين البريطانية والفرنسية)، والحصون المهدمة، وأكوام الأنقاض، والشوارع الخالية من كل أشكال الحياة، حتى من الكلاب الضالة، إلا من بضعة أوروبيين اتخذوا أماكن آمنة ليكونوا شهودا على الخراب[129].

وأخيرا، في 14 من يوليو، نزل أربعمائة بحار وجندي بريطاني إلى البر ببنادق غاتلينغ Gatling، ودخلوا المدينة تحت قيادة الآمر هامل Hammill من البارجة موناركMonarch. ومع وصول مزيد من السفن، نزل مزيد من البحارة والجنود إلى المدينة، منهم ألمان وأمريكيون ويونانيون، لحراسة قنصلياتهم ومساعدة البريطانيين. وانضم إليهم بعد السابع عشر من يوليو جنود من الحامية البريطانية في قبرص[130].

وبحلول العشرين من يوليو، كان هناك زهاء ثلاثة آلاف وثمانمائة من جنود المشاة والبحرية البريطانية داخل المدينة[131]. وعُيِّن لورد تشارلز بيرسفورد Lord Charles Beresford قائد البارجة كوندور Condor قائدا للشرطة العسكرية

(*) نسبة إلى الشاعر الإيطالي دانتي أليغييري Dante Alighieri (من 1 يونيو 1265 إلى 14 سبتمبر 1321) وثلاثيته «الملهاة الإلهية» التي يصف الجزء الأول منها، المعنون باسم «الجحيم»، دركات الجحيم وصنوف العذاب الذي يتعرض له المذنبون. [المترجم].

يتمتع بـ «سلطة مطلقة للقتل والجلد ونسف البيوت وفعل أي شيء يراه مناسبا». استخدم اللورد تاجرا بريطانيا من المدينة يتحدث اللغة العربية يدعى إف سي هاسلدين F. C. Haselden مترجما له، وشرع سريعا في تأسيس مراكز شرطة في أنحاء الإسكندرية كافة.

تحول ميدان محمد علي إلى ميدان رماية على أهداف بشرية. فخارج قصر توسيزا، أقام بيرسفورد «عدالة سريعة»، وفيها أدين المصريون بالنهب والحرق والعصيان. رُبِط بعضهم في أشجار في الميدان، وأطلقت عليهم النار، ودُفِنوا تحتها مباشرة في مقابر جماعية[132]. ودُفِن جنود المدفعية المصريون في قبور جماعية خارج سراي رأس التين. تتحدث الأرقام الإجمالية عن نفسها، إذ لم يمت غير خمسة جنود بريطانيين، في مقابل ما بين ثلاثمائة وخمسين وألفي مصري، وربما أكثر. وبحلول 19 يوليو زعم بيرسفورد أنه فرض «النظام بالكامل»[133]. وبدأ الأوروبيون يعودون إلى الإسكندرية في حماية البنادق البريطانية.

في هذه الأثناء، وقع عرابي في الخطأ القاتل بالعودة إلى القاهرة دون تأمين الملك على رقعة الشطرنج السياسية باعتقال الخديو توفيق(*)، الذي انسحب في الحادي عشر من يوليو من سراي رأس التين إلى سراي مصطفى باشا في الرملة، التي كانت في السابق ملكا لعمه الراديكالي مصطفى باشا فاضل، هربا من القصف البريطاني وانتظارا للانضمام إلى الجانب المنتصر[134]. كان مع الخديو وزراؤه وجنرال أمريكي بالجيش المصري يدعى تشارلز ستون Charles Stone. ويقال إن السيدات في حريم توفيق قدمن جواهرهن رشوة لجنود عرابي ليتركوا توفيق يغادر الرملة. وعاد الخديو ووزراؤه إلى الإسكندرية المحتلة من البريطانيين في الثالث عشر من يوليو، يرافقه سلاح الفرسان البريطاني. ويذكر نينت أنه استُقبِل بصيحات متحدية «يعيش عرابي! يسقط توفيق!» وفي 16 من يوليو أقال الخديو عرابي أخيرا من وزارة الحربية[135].

خُصِّصت مجموعة من جنود البحرية البريطانية لحراسة توفيق في رأس التين، فضلا عن قواته الخاصة. وفي العشرين من يوليو كتب آمر الفرقة البحرية، وهو

(*) كان عرابي بعدم اعتقال توفيق أو قتله وعدم اتخاذ الأوروبيين دروعا بشرية، مثل أي قائد على يقين من هزيمته ويرى اعتقاله المستقبلي بعين عقله، فلا يريد أن يثقل سجله خوفا من ساعة الحساب الوشيكة، تاركا لنفسه مهربا أو طريقا للتراجع. [المترجم].

قبطان شاب طموح يدعى جاك فيشر Jack Fisher (لاحقا أمير البحر الأعلى ومخترع «المدرعة البحرية») إلى بلاده: «إنني أسيطر حاليا سيطرة تامة على مدينة الإسكندرية وحصونها البحرية، وفي رعايتي أيضا الخديو («وهو رجل لطيف جدا، وجنتلمان بكل معنى الكلمة»)، وأنا مسؤول عن سلامته، ولهذا أقيم في سراي رأس التين ومعي مقر القيادة»[136]. كان من بين القادة العسكريين المستقبليين الآخرين الذين شاركوا في احتلال الإسكندرية الضابط إتش كتشنر H. H. Kitchener الذي تطوع حين كان في مهمة استطلاعية في قبرص بالانضمام إلى الهجوم على الإسكندرية، بعد أن أفادت طلاقته في اللغتين التركية والعربية في عمليات الاستطلاع.

وفيما أحكمت بريطانيا سيطرتها على الإسكندرية، أعلنت القاهرة الجهاد. نعتت الجريدة الرسمية المصرية الخديو بالخائن الخسيس، وشجبت البريطانيين الذين نهبوا ممتلكات المصريين و«اغتصبوا» نساءهم، وحثت المصريين قائلة: «هلموا يا أصحاب النخوة الإسلامية!»، وأوردت من القرآن قول الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين»(*). وأرجعت الصحف مشكلات مصر إلى فسق حكامها. وفي 29 يوليو اجتمع أعيان القاهرة، ومنهم مشايخ الأزهر وبطريرك الأقباط، وأعلنوا عزل توفيق، ولم يعيّنوا أحدا مكانه. وسُيّرت أمور البلاد بطريقة جيدة نسبيا، وظلت القناة مفتوحة للملاحة، إلى أن هاجمتها القوات البريطانية. فقد كانت حكومة عرابي حركة وطنية أيدها حتى بعض الأفراد من العائلة الخديوية وبعض من النخبة التركية - الشركسية، فضلا عن جموع المصريين. حتى إنه جاء في مذكرة سرية أنه لو انسحبت القوات البريطانية، لانضم وزراء الخديو أنفسهم إلى عرابي. وتحت القيادة البريطانية، استعدت الإسكندرية لمقاومة القوات المصرية التي أخذت تحوم خارج المدينة[137].

لكن الحظ انحاز بالطبع إلى الكتيبة الأقوى. فقد كانت بريطانيا في العام 1882 القوة العالمية الأولى، ولا تكبلها حتى القيود التي تكبل الولايات المتحدة اليوم. وبعد أن نهبت دلهي (1857) وبكين (1860) أخيرا، فإنها لم تكن لتنسحب من الإسكندرية

(*) سورة التوبة، الآية 123. [المترجم].

بالسهولة التي انسحبت بها في العام 1807(*). وفي 20 من يوليو زعمت الحكومة البريطانية أن أي احتلال لمصر سيكون مؤقتا، وقررت إرسال جيش إليها «لاستعادة سلطة الخديو»[138]. اعتبر غلادستون ذلك «واجبا أوروبيا»، كما ذكر كاتب سيرته ريتشارد شانون Richard Shannon، إذ «تحولت أوروبا إلى ورقة توت لكي تغطي عورة الإمبراطورية العثمانية»[139]. أثبتت الحملة العسكرية التي جاءت بقيادة سير غارنت ولسلي Garnet Wolseley أنها أفضل تنظيما من الجيش الذي أرسل قبل ثلاثين عاما إلى القرم. وفي 12 أغسطس نزلت فرقة الحرس إلى المدينة بقيادة الابن المفضل للملكة فيكتوريا، دوق كونوت Duke of Connaught، وزحفت خلال المدينة، وعسكرت في الرملة[140]. حين رأى علي مبارك «أبو التعليم المصري»، الذي وصل من القاهرة في مهمة وساطة، حجم الجيش البريطاني في الإسكندرية، انضم إلى الخديو. وفي وصفه اللاحق للعام 1882، ألقى باللائمة على عرابي، وليس القصف البريطاني، في إحراق الإسكندرية وفرار أهلها ومعاناتهم[141]. وفي 12 سبتمبر هزمت القوات البريطانية والهندية الجيش المصري في التل الكبير بين القاهرة وقناة السويس. وجاءت المقاومة التالية أضعف من مقاومة المصريين للاحتلال الفرنسي في الأعوام 1798 - 1801، أو مقاومة التونسيين للاحتلال الفرنسي في العام 1881. وفي 12 سبتمبر 1882 سقطت القاهرة[142].

***

كان دور الإسكندرية باعتبارها عاصمة صيفية وميناء كوزموبوليتانيا أحد العوامل الحاسمة وراء الاحتلال. فالإسكندرية بجمعها بين جاليات مختلفة، عاشت إحداها بالقرب من الأخرى، ساعدت في إثارة هبّات عرقية ودينية. والإسكندرية بموقعها الذي مكّن الخديو من الوصول إلى الأساطيل الأجنبية، سهّلت التدخل الأجنبي نيابة عنه وباسمه. وحين وصلت أخبار سقوط القاهرة إلى الإسكندرية، أخذ الأوروبيون يصيحون «تحيا إنجلترا!» ويعانقون الجنود البريطانيين «في حالة من السعار». وأنشدت الفرق الموسيقية نشيد «حفظ الله الملكة» والنشيد الخديوي تباعا[143]. وفي الخامس والعشرين من سبتمبر، وبعد هذا الصيف المثير في الإسكندرية، عاد

(*) حين هُزِمت حملة فريز وولى جنودها الأدبار بعد معركة رشيد بقيادة حاكمها علي بك السلانيكي. [المترجم].

توفيق إلى القاهرة في عربة مفتوحة إلى جانب دوق كونوت وسير غارنت ولسلي وسير إدوارد ماليت، ومروا خلال شوارع يصطف جنود بريطانيون على جانبيها[144]. وفي رسالة تهنئة إلى وزير الخارجية لورد غرانفيل Lord Granville، أكد ماليت أهمية الاعتبارات الانتخابية وراء احتلال مصر: «لقد خضتَ معركة المسيحية كلها، لكن يمكنني مع ذلك أن أقول إنك أعطيت لحزب الأحرار نفحة جديدة من الشعبية والسلطة»(*). وبذلك تخلصت حكومة غلادستون من عار الانسحاب من أفغانستان في العام 1881[145].

في هذه الأثناء، انزعج المصريون بشدة من أن قوة مكونة من ألف مرتزق سويسري وبوسني أخذت تحرس الإسكندرية لفترة، بعد أن كانت مدينة مشرقية لها جيشها؛ لكن كولز باشا من الشرطة المصرية اعتبرهم «مجموعة لا رجاء فيها البتة»، وأعاد السويسريين إلى بلادهم[146]. جاء وصف للظروف في المدينة بقلم جون كفافيس، أحد أبناء تاجر القطن اليوناني بيتر كفافيس، في رسائله إلى أخيه قسطنطين، الشاعر المستقبلي الذي انتقل مع أمه إلى القسطنطينية طلبا للأمان. ففي الثاني عشر من أغسطس، كتب جون كفافيس: «واحسرتاه على الإسكندرية، لقد تغيرت كثيرا، لكن الشوارع تُنظّم وتُسلّك». وكتب في 17 سبتمبر أن «النتانة في شوارعنا، التي أشرت إليها فيما مضى، كانت ناتجة عن فتح البالوعات وإصلاحها، لكن كل شيء انتهى الآن، ونجحت السلطات في تكويم الأنقاض وجمع كل الأحجار والقمامة معا، وصار الدمار الذي وقع بالمدينة أقل وضوحا الآن مما كان حين وصلتُ»[147].

وكالمعتاد، كان ميدان محمد علي مقياسا للأحداث في الإسكندرية. وقد غطته أكواخ خشبية استُخدِمت دكاكين مؤقتة. كانت خمّارة رويال أوك Royal Oak تضم فرقة غنائية نسائية، كانت فتياتها - بتعبير جندي بريطاني - يدفعن «الجنود الخليعين... إلى أن يعبّوا من البيرة ذات الرغوة عبا». ولم يكن يُرى من المصريين في هذه المنطقة إلا قليلون، وكلهم ممن يرتدون الملابس الأوروبية. وسرعان ما عاد المكاريون بصيحاتهم: «حماري ممتاز، استأجره يا جوني». وحين بدأت عملية

(*) «معركة المسيحية» كأن الاحتلال استئناف للحروب الصليبية وليس من أجل الخديو ولا حتى المصالح الاستعمارية. [المترجم].

إعادة البناء، انضمت إلى العمال الرجال نساءٌ كن «يتسلقن السلالم بأحمالهن» وهن مرتديات «عباءات طويلة مائلة إلى الزرقة»(148).

تحت السطح المتحضر، كانت الإسكندرية مدينة وحشية. فبين تعليقات على الكتاب المقدس وعلى صعوبة الحصول على المجلات الأدبية، كتب جون كفافيس لأخيه قسطنطين أن كتيبة من جنود البحرية البريطانية أخذت «تطلق النار على كل عربي في طريقها». وحتى شريك عائلة كفافيس في التجارة المدعو واطسون المتلهف إلى العودة إلى مكتبه «كان يمتلك مسدسا واقترف هو الآخر أفعالا من هذا النوع»(149). وأطلقت جريدة «لوفار دلوكسندري» Le Phare d'Alexandrie (فنار الإسكندرية) على عرابي اسم «عُطيل الصغير»(*) وفي الثاني من أكتوبر 1882 عبّر جون كفافيس عن أمله في أن ينال عرابي عقاب الشنق:

أن ترى إنسانا معلقا
في نهاية حبل،
ورقبته داخل أنشوطة، إنه شيء نادر جدا.

(هذا الاقتباس من الذاكرة ولست متأكدا من البيت الأخير). قرأتُ في صحيفة «تايمز» قبل أيام أنه لم يبق أمام إنجلترا غير إجراء وحيد تتخذه مع عرابي، هو الشنق. وأتمنى أن يفعلوا ذلك هنا. ويا خوفي أن يتركوه بلا عقاب. أليس من الوارد أن يفعلوا ذلك؟ إن الإنجليز تبلغ بهم الحماقة أحيانا إلى هذا الحد(150).

وكان مما أثار غضب الكثير من السكندريين، منهم الخديو نفسه، أن الإنجليز نفوا عرابي إلى سيلان، وسمحوا له لاحقا بالعودة إلى مصر ليموت في سلام.

بدأت الإسكندرية الأوروبية تستعيد ثقتها بنفسها. وأخذ اليونانيون يستضيفون «منقذيهم البريطانيين» إلى مآدب وحفلات راقصة مسائية. وفي الرابع والعشرين من أكتوبر، أقام مليونير يوناني من خيوس يدعى جون أنطونيادس John Antoniadis، منحته بريطانيا لاحقا لقب فارس تقديرا لخدماته لها، مأدبة لسير غارنت ولسلي. وفي الثلاثين من أكتوبر كتب جون كفافيس أن «الإسكندرية تعود إلى عنفوانها من جديد».

(*) فهو كعطيل بطل شكسبير، أودى بنفسه إلى التهلكة بالوقوع فريسة لخداع الآخرين له. [المترجم].

ربما تكون هناك حجج مؤيدة للإمبراطورية البريطانية، لكن قصف الإسكندرية واحتلال مصر لم يكونا من بينها على أي حال. توضح هذه الحجج أن الإمبراطورية البريطانية أحبطت تقدم مصر، وكانت أبعد ما يمكن عن «صوغ العالم الحديث»، كما زعم نيل فيرغسون Niall Fergusson في كتابه «الإمبراطورية» (2003). فقد انحرف تطور مصر وتشوه لسبعين عاما من الاحتلال البريطاني(*).

على أن هذا الحكم ليس من نوع الإدراك المتأخر للأحداث الذي يصدر عن المؤرخين، بل وجهة نظر عبّر عنها مسؤولون بريطانيون كثيرون في ذلك الوقت، منهم الراديكالي جون برايت John Bright الذي استقال من الوزارة. ومنهم أيضا والتر ميفيل Walter Mieville رئيس المجلس البحري والحجر الصحي بالإسكندرية لاحقا، الذي كتب: «كان المولون الأوروبيون المحرضين الحقيقيين على القصف... وتمثل الخطأ القاتل الذي وقعت فيه حكومتنا في قصف الحصون قبل وصول قوات الإبرار لحماية المدينة»[151]. وكتب سي إف موبرلي بل C. F. Moberly Bell، الإنجليزي الذي ولد في الإسكندرية في العام 1847 وعمل مراسلا لصحيفة تايمز في المدينة، أن القصف كان «حماقة شنيعة» أدت إلى «أعمال وحشية لا تقل عما حدث في كومونة باريس»[152]. حتى الجنرال سير غارنت نفسه شجب في رسالة خاصة إلى زوجته في العاشر من سبتمبر 1882 «ذلك القصف الأحمق والإجرامي للإسكندرية الذي دبره لورد نورثبروك Lord Northbrook (الأمير الأعلى لإمارة البحر) وإمارة البحر»[153]. «أحمق» و«إجرامي»، وصفان انطبقا لاحقا أيضا على الكثير من الأحداث إبان الاحتلال البريطاني لمصر حتى الهجوم على قناة السويس في العام 1956. كانت حكومة عرابي في العام 1882 محقة - إذن - حين وصفت القصف بأنه «وحشي وعديم الجدوى» ويتنافى مع القانون الدولي، كما يتنافى الاحتلال البريطاني مع الكرامة الوطنية[154].

(*) لو كُتب النجاح للثورة العرابية بمطالبتها بدستور وحياة نيابية وتقليص سلطات الخديو والحد من التدخل الأجنبي في شؤون البلاد لتغير وجه مصر والمنطقة العربية تغيرا جذريا، ولربما ما شهدت المنطقة الانقلابات العسكرية والحركات الإسلامية التي لاتزال تكبل دولها إلى اليوم، إذ ظهرت بفعل القهر الطويل واليأس من التغيير. لذلك كتب المترجم منتشيا بعد 25 يناير 2011 أن هذه الثورة جاءت لتوصل ما انقطع من الثورة العرابية، وهو ما لم يحدث بعد. [المترجم].

وبعد القصف، جاءت تسوية الحسابات. فتشكلت لجنة تعويضات برئاسة يعقوب أرتين باشا، ابن أخت نوبار، ففرضت تعويضات لتسعة آلاف شخص، معظمهم من الأوروبيين والمشرقيين الذين هربوا من المدينة، ومنهم عائلة كفافيس، تحملها دافعو الضرائب المصريون. واعترف كولز باشا بوجود «عمليات احتيال كثيرة»، إذ زعم بعضهم أنهم فقدوا متعلقات كثيرة جدا حتى إن أحد المفوضين احتج قائلا: «هل هربت نساؤكم عاريات؟»[155].

8

الإسكندرية
السنوات البريطانية

إن مصر الآن في تلك القبضة
الأنجلوسكسونية العملاقة، التي
بمجرد أن تستولي على أرض أجنبية،
سواء كانت صخرة مثل جبل طارق،
أو نقطة رملية مثل عدن، أو جزيرة
مثل مالطا، أو عالما كاملا مثل
الهند، فلا تستطيع قوة بشرية على
الإطلاق أن تطردها أو تزيحها منها.

إيسا دي كيروز

«كان ثراء الإسكندرية وطابعها الكوزموبوليتاني دافعين للإبداع والتجديد. فلم تكن مدينة للمال والأعمال فقط، بل استُثمِر فيها المال أيضا في الثقافة»

بعد العام 1882 بلغت قوة القناصل في مصر أوجها. وعلى نحو ما تأكد في قرار إعفاء عرابي باشا من القتل، فإن الحاكم الحقيقي لمصر لم يكن الخديو توفيق، بل القنصل العام البريطاني في القاهرة إفلين بيرنغ Evelyn Baring الذي

أصبح لاحقا لورد كرومر. استندت سلطة كرومر إلى جيش الاحتلال البريطاني المكون من نحو خمسة آلاف جندي، وأكثر من أربعمائة موظف بريطاني، كانوا الإدارة الحقيقية للبلاد من وراء ستار من الوزراء المصريين لإضفاء الشرعية على حكمهم.

في بادئ الأمر، اقترح بيرنغ احتلالا لاثني عشر شهرا، ووعد غلادستون بالجلاء خمس مرات في العامين الأولين للاحتلال. لكن الشهية نمت مع الأكل. وكانت القيمة الاستراتيجية للإسكندرية إحدى حجج الاحتفاظ بمصر. وفي العام 1887 رأى بيرنغ أن بريطانيا يجب أن تغادر القاهرة في خلال ثلاثة أعوام، والإسكندرية في خلال خمسة أعوام. وفي النهاية أفسح هذا التمديد الدائم لتاريخ الرحيل المجال للزعم بأن بريطانيا ليس من حقها التخلي عن «واجباتها» في مصر، بمعنى أنها قررت صراحة أن تبقى إلى ما تشاء[1].

لم ينخدع إيسا دي كيروز Eça de Queirós الروائي البرتغالي العظيم - القادم من واحدة من أقدم الإمبراطوريات الأوروبية - بهم. فكيروز الذي أحب الإسكندرية لكونها «المدينة المشرقية بامتياز» وملكة المشرق، رأى أن غلادستون ألحق بها من الأضرار أكثر مما اقترفه أي إمبراطور روماني أو الغوغاء المسيحيون(*). إن «العالم يتجلنز، والإنجليز في كل مكان، ولهذا السبب تجدهم مكروهين، فهم لا يندمجون مع الآخرين أو يتخلون عن إنجليزيتهم أبدا»[2]. وبالفعل، كانت الشكاوى من التعصب والاحتقار الإنجليزيين متواترة في مصر، كما في الهند أو الصين. فـ«بسبب طباعهم يكرههم الناس»، كما قال الأمير محمد علي الابن الأصغر للخديو توفيق[3].

دخلت الإسكندرية حقبتها البريطانية. وحتى العام 1947 ظلت البوارج البريطانية راسية في الميناء، والقوات البريطانية معسكرة في المدينة، حيث أقامت في ثكنات في أحياء رأس التين ومصطفى باشا ومحرم بك وسيدي بشر. واحتل الموظفون البريطانيون كثيرا من المواقع القيادية في المدينة. فمدير الميناء كان سير جورج موريس باشا، الذي ظل في منصبه منذ العام 1879. وفي العام 1914 كان مائة وثمانية من شرطة مدينة الإسكندرية بريطانيين، من بين قوة قوامها أربعمائة وواحد وخمسون شرطيا[4].

لكن مصر - مع ذلك - تمتعت بهوية قوية بما يكفي - وبريطانيا بيد خفيفة بما يكفي - لتفادي وضعية المحمية أو الضم والإلحاق. أفاد في ذلك أيضا السيادة

(*) لا بد أن ذلك حدث في زمن اضطهاد الإمبراطورية الرومانية «الوثنية» للمسيحيين في مصر وعاصمتها الإسكندرية. [المترجم].

العثمانية ولين الخديو. فبقيت الحكومة والجيش المصريان منفصلين عن الاحتلال البريطاني طيلة سنواته. فعلى خلاف الفرنسيين في الجزائر بعد العام 1830، أو الإيطاليين في طرابلس الغرب المجاور بعد العام 1911، لم يكن البريطانيون في مصر مستعمرين استوطنوا في البلاد وانتزعوها من شعبها. فالبريطانيون الذين جاءوا إلى مصر كانوا إما رأسماليين جاءوا لإدارة أعمال تجارية وإما موظفين حكوميين. وكان الضباط والموظفون البريطانيون الذين عملوا في الإدارة أو القوات المسلحة المصرية، ومنهم غوردن وكتشنر «حاكما الخرطوم»، يرتدون الطربوش العثماني، كعلامة على أنهم خدم للسلطان وتابعه الخديو، حتى إن احتقروا هذه الممارسة من داخلهم.

ظل الخديو وبلاطه ووزراؤه ومعهم القناصل العامون، يقضون الصيف في الإسكندرية، الخديو وبلاطه في سراي رأس التين وحولها، والوزراء والقناصل في فندق سان ستيفانو. فتوفيق، مثل معظم الحكام من عائلته، كان «مولعا جدا» بعاصمته الثانية. من شواهد ذلك أنه أشار بفخر إلى السفن والبيوت والمآذن المنعكسة في ماء البحر تحت ضوء القمر خارج سراي رأس التين «مثل مدينة في أرض الأحلام»، وقالِ لمدرس أبنائه ألفريد بتلر Alfred Butler: «من أين لنا بشيء من ذلك في القاهرة؟» لكن «كل الباشوات والناس من حوله لا يرتاحون إلا في القاهرة». ولذلك كان يعود، مثل كثير من الملوك الآخرين، في كل خريف إلى عاصمته مكرها[5].

خلف ابن توفيق، عباس حلمي، أباه في العام 1892، وهو في عمر الثامنة عشرة. وفي شهر يونيو من كل عام كان عباس حلمي يدخل الإسكندرية بمراسم خديوية برفقة الفرسان. ولدى وصوله كان تجار المدينة يقيمون حفلة راقصة على شرفه، بعد أن يكون الأغنياء منهم قد غادروا لقضاء الصيف في أوروبا بعيدا عن حرارة مصر. يوجد لرحلاتهم الأوروبية تأكيد في صحيفتهم «لوفار دلوكسندري» التي كانت تباع طوال العام في فيينا وباريس وروما وفلورنسا، وفي الصيف في كارلسباد وماريناباد وفيشي وأثينا ونابولي(*). بالنسبة إلى هؤلاء، كان زهو الخديو إسماعيل بأن مصر

(*) كارلسباد Carlsbad، مدينة ومنتجع سياحي في كاليفورنيا بالولايات المتحدة. مارينباد Marienbad (حاليا ماريانسكي لاسني Mariánské Lázně)، مدينة ومنتجع بأقصى غرب منطقة بوهيميا التاريخية ببلجيكا. فيشي Vichy، مدينة ومنتجع بوسط فرنسا، كانت عاصمة الحكومة الفرنسية الموالية للألمان إبان الحرب العالمية الثانية وإليها تنسب هذه الحكومة. [المترجم].

جزء من أوروبا، أمرا واقعا. وكانت إسكندريتهم جزءا من أوروبا يعرفونه أكثر بكثير مما يعرفون مصر[6].

شيّد الخديو لنفسه قصرا آخر، أسماه المنتزه على لسان مغطى بأشجار الصنوبر إلى الشرق من المدينة. جاء الحرملك الواسع المُعَمّد (للنساء والأطفال)، الذي وُسّع إبان العقد الثالث من القرن العشرين، مسخا يذكّر الرائي بقلاع الملك لودفيك الـثاني Ludwig II في بافاريا، تعلوه أبراج «فلورنسية» تطل على مناظر رائعة للإسكندرية. وكانت الحديقة المحيطة بالقصر التي يستخدمها الآن أحد الفنادق، مملوءة بالأكشاك وأبراج الحمام وخلايا النحل وأشجار التوت والصنوبر. ومن الداخل كانت الزينة والأثاث من طراز «لويس - فاروق» المُذَهّب الذي كانت عائلة محمد علي تفضله[7](*).

كان الخديو الشاب يشعر، حتى داخل قصره، بأنه محاط بالجواسيس والعملاء البريطانيين، وكتب لاحقا أن الخيانة سممت الجو[8]. كانت الطبقة البرجوازية نائمة، والصحافة مترهلة، والفلاحون مشغولين بمشكلاتهم، فأخذ الخديو يكرس طاقته لإمبراطوريته التجارية الخاصة. وارتد الخديو إلى الجذور العثمانية لعائلته، فأخذ يقضي الصيف في سراي على البسفور، بعيدا عن الإسكندرية وعدوه لورد كرومر[9].

***

بعد إراقة الدماء في العام 1882 دخلت الإسكندرية ما اعتبر العصر الذهبي للكوزموبوليتانية. فيما يلي نتقصى بعض المؤسسات والأفراد لنرى ما إذا كانت كوزموبوليتانية الإسكندرية حقيقة أم خيالا. فهل كانت الإسكندرية مدينة المرح التي يعبر سكانها الحدود بين الأقوام والأديان واللغات، و- كما ذهب إي برشيا E. Breccia مدير متحف الآثار بها - يُظهِر بعضهم لبعض الاحترام المتبادل في الحياة اليومية و«التضامن الحقيقي» في أوقات المحن؟ أم كانت مدينة مقسمة إلى أجزاء منعزلة، لا يربط بين جالياتها المتعادية وغير المكترثة إلا المال، كما جاء في كتاب موراي؟[10](**).

(*) هكذا صار اسم هذا الأسلوب في الزينة والأثاث لويس- فاروق Louis-Farouk بعد عهد الملك فاروق، لكن الوصف هنا - قبل أن يولد فاروق - دعابة كما في القول Louis khamustash or Fouad XV [لويس الخامس عشر أو فؤاد الخامس عشر مع إبدال اللغة للملكين]. تواصل شخصي مع المؤلف. [المترجم].

(**) كتاب موراي للسياح والمسافرين Murray's Handbook for Travelers سلسلة من الأدلة السياحية نشرها في لندن بداية من العام 1836 الرحالة تشارلز موراي Charles Murray الذي عمل قنصلا عاما لبريطانيا في مصر من العام 1846 إلى العام 1853، يغطي عددا من الوجهات السياحية في أوروبا وأجزاء من آسيا وشمال أفريقيا، منها كتب عن مصر والجزائر وسورية وتركيا وعدد من دول أوروبا وآسيا. [المترجم].

كانت المؤسسة الكوزموبوليتانية الأبرز التي أثرت في كثير من مستويات المجتمع المصري هي الحكم الملكي نفسه. وقد كان عباس حلمي متعدد اللغات، فكان - مثل بعض أفراد عائلته إلى ذلك الحين - يعرف التركية والعربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية. وضم بيت الخديو مكاتب أوروبية وعربية وتركية، وسكرتارية إنجليزية. وكان رئيس مكتبه العربي أحمد شوقي شاعرا وطنيا محبوبا، كانت أشعاره تنال شهرة بمجرد نشرها[11]. في أول زيارة له إلى بلدية الإسكندرية الكائنة في مدرسة في شارع روزيت سبق أن أهدتها الجالية الأجنبية بالإسكندرية للخديو إسماعيل، عبّر عباس حلمي (ربما باللغة الفرنسية) عن إيمانه بالكوزموبوليتانية بالقول: «في مدينتي العامرة الإسكندرية لا أريد أجانب ووطنيين، بل سكندريين فقط، يتنافسون معا من أجل ازدهار مدينتهم»[12].

تبيّن حياة ابن عم الخديو الأمير عمر طوسون، حفيد سعيد باشا، أن الكوزموبوليتانية ظلت جزءا من روح العائلة. اتخذ عمر طوسون، الشهير باسم «أمير الإسكندرية»، من سراي على ترعة المحمودية - أصبحت مدرسة حاليا - سكنا دائما له. وكان عمر طوسون بصفته أول رئيس لنادي الإسكندرية الرياضي والعضو المسلم بمجلس إدارته لفترة طويلة - من العام 1890 حتى وفاته في العام 1944 - جسرا بين عوالم كثيرة(*). فكان مسلما اشتغل بالتاريخ غير الإسلامي، وجغرافيا وعالم آثار محترفا، ورئيسا لجمعية الآثار بالإسكندرية وجمعية الآثار القبطية، وكتب مقالات عن ماضي المدينة الإغريقي - الروماني وكذلك ماضيها الإسلامي(**). وكان مستعدا دوما لحضور حفلات التكريم في مدارس المدينة - المصرية واليهودية والمسيحية على السواء - وكان أيضا رئيسا لأكثر من ثمانين جمعية خيرية، منها جمعية الشبان المسلمين، وجمعية إنقاذ النوبة، وجمعية المواساة بالإسكندرية. وبسبب أعماله الخيرية الكثيرة، عُرِف الأمير باسم «أبو الفلاح». وكانت

(*) حاليا يعرف نادي الإسكندرية الرياضي Alexandria Sporting Club أكثر باسم نادي سبورتنغ. [المترجم].

(**) إلى جانب رعايته العديد من الجمعيات العلمية وقربه من فئات الشعب المصري المختلفة فضلا على الطبقة الحاكمة والأجانب، ألف الأمير عمر طوسون كتبا كثيرة منها «صفحات من تاريخ مصر والجيش البري والبحري» و«الأورطة السودانية المصرية» و«الجيش المصري في الحرب المعروفة بحرب القرم» و«الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا» و«مذكرة عن تاريخ النيل»، فضلا على الاكتشافات الأثرية وبحوث ومقالات صحافية في مجال الآثار. [المترجم].

فرقته الموسيقية بزيها المخملي حين تذهب لإحياء أفراح أحد مستخدميه، وكذلك وجوده في شوارع الإسكندرية، مشهدا مألوفا. وكان الأمير أيضا مديرا مقتدرا لأطيانه وراميا ممتازا. فالأمير عمر طوسون، ممثل الجوانب التحديثية والخيرية في العائلة الحاكمة المصرية، الذي حجبت شخصيته وحياته العظيمة النهايةُ الحزينة للملك فاروق، كان كوزموبوليتانيا ووطنيا في آن معا، ودافع عن لبس الطربوش باعتباره رمزا للفخر الوطني[13]. وكان من رأي كولز باشا أن الأمير عمر طوسون لو كان الخديو «لما كانت هناك مسألة مصرية من الأساس»[14](*).

وإلى جانب كوزموبوليتانية العائلة الحاكمة، كانت هناك عائلات كثيرة أخرى في الإسكندرية تجلت كوزموبوليتانيتها في الخدم المنزليين الذين كانوا في ذلك الوقت أحد أكبر قطاعات التوظيف في المدينة. إذ غالبا ما كان تجار الإسكندرية الأثرياء يستخدمون خادمات يونانيات أو إيطاليات (عموما من الجزر اليونانية أو إيستريا(**)، وطباخين إيطاليين، ومربيات إنجليزيات أو فرنسيات، وبستانيين وخدما مصريين، وسائقين وسكرتارية من أي قومية[15]. بيد أن الزيجات بين أعضاء الأقوام أو الأديان المختلفة لم تكن شائعة، وربما كان 10 في المائة من أي جالية في هذه المرحلة يتزوجون «من خارجها»[16]. وحين تزوج والد غاستون زنانيري Gaston Zananiri، الكاثوليكي اليوناني من أصل سوري، من ماري إنيس بوير Marie Ines Bauer ابنة ملحد يهودي مجري وأم إيطالية تعيش في الإسكندرية، استمر شجاره مع عائلته ثلاثين عاما[17]. لكن ثمة شكلا آخر من أشكال الألفة انتشر في الإسكندرية، وهو العيش تحت سقف واحد، واتباع روتين واحد، وأكل طعام واحد.

يعد لويس هنري بيرتش Lewis Henry Birch مثالا لهذه الألفة، إذ كان تاجرا إنجليزيا يقيم في «بيت كثيب» في الرملة بُني في العام 1884، وله مكتب في ميدان

(*) مثل مصطلح المسألة الشرقية، يشير مصطلح المسألة المصرية إلى الجدل الدولي حول الطريقة المثلى للتعامل مع الحالة المصرية، بين الاحتلال أو الاختراق السياسي والاقتصادي، والجدل حول القوة الأوروبية التي تحتلها في حال اتفاقهم على احتلالها. وحتى بعد وقوع الاحتلال البريطاني، ظلت المسألة المصرية مطروحة حول وضعية مصر، حيث كان ضمها أو إلحاقها ببريطانيا يسبب مشكلات لبريطانيا مع فرنسا وروسيا وقبل ذلك مع الدولة العثمانية، ولم تحسم بريطانيا «المسألة» إلا بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى بإعلان الحماية على مصر في الثامن عشر من ديسمبر 1914. [المترجم].

(**) إيستريا Istria، أكبر أشباه الجزر بشمال شرق البحر الأدرياتيكي تتقاسمها حاليا كرواتيا وسلوفينيا وإيطاليا. [المترجم].

محمد علي. وبيرتش، الذي كان رئيس نادي المراكب الشراعية بالإسكندرية ورئيس شركة استثمارية إنجليزية - مصرية وشركة مصرفية إنجليزية - مصرية وشركة نقل القطن بالإسكندرية وعضو المجلس البلدي، استخدم سكرتيرا مصريا وسكرتيرا أوروبيا، وكان «يحمل الخاتم الخديوي»، لإدارة الخاصة الخديوية. وكانت زوجته إنجليزية وطباخه هنديا وخادمه مصريا، وكان خدمه السودانيون يلبسون عمائم بيضاء، وخدمه المصريون يلبسون طرابيش حمراء.

تكشف أغطية الرأس التي استخدمها بيرتش عن التنوع في الحياة التي عاشها. فكانت خزانة ملابسه تضم قبعات البولر المستديرة السوداء، والقبعات اللبادية، والقبعات الرسمية العالية السوداء، والقبعة العالية الرمادية للسباقات، وطاقية صغيرة لزيارات المجاملة إلى الحبر (وهو أمر لم يكن واردا في أوروبا)، وطربوشا للزيارات إلى السراي واجتماعات المجلس البلدي ومجلس الشؤون الريفية والحفلات التي يقيمها محافظ الإسكندرية. وعلى ذلك فإن بيرتش في المناسبات الرسمية، على نحو ما كان غوردون وكتشنر يفعلان، كان يبدي احتراما للمظهر الخارجي للهوية المصرية الذي كان مهما جدا[18]. وفي العام 1907 أقام له الخديو جنازة رسمية في الإسكندرية.

كانت بلدية الإسكندرية مؤسسة كوزموبوليتانية أخرى. فبعد أن أجهضها القناصل في العام 1869، أنشئت أخيرا في العام 1890، بعد أن شعرت الإدارة المدعومة بريطانيا بعد ثمانية أعوام من الاحتلال بأنها قوية بما يكفي لفرض الضرائب على الأجانب. كانت البلدية واحدة من الأشياء الكثيرة التي كان للإسكندرية السبق فيها، إذ كانت البلدية الأولى - والوحيدة لمدة طويلة - ذات الحكم الذاتي في مصر. كانت البلدية تضم ثمانية وعشرين عضوا: ثمانية تعيّنهم الحكومة المصرية، وستة ينتخبهم دافعو الضريبة البلدية الجديدة، وثلاثة ينتخبهم المصدّرون، وثلاثة ينتخبهم المستوردون، وثمانية ينتخبهم أصحاب الأملاك. وبين الأعضاء المنتخبين، لم يكن مسموحا بأن يكون أكثر من ثلاثة من قومية واحدة، وكان الأعضاء المعيّنون مصريين عادة[19]. كانت الوثائق الداخلية للبلدية باللغة الفرنسية دائما، والوثائق العامة باللغتين الفرنسية والعربية. فكانت هذه البلدية منذ البداية كوزموبوليتانية متعددة القوميات. وفي العام 1892 كان أول مدير عام للبلدية موظفا حكوميا يدعى يوسف شاكور Joseph Chakour، وهو ماروني لبناني ولد في الإسكندرية وتعلم في فرنسا وتزوج من ألمانية.

قال له نوبار باشا إن منصبه جعله أدنى من وكيل وزارة خارجية لكن أعلى كثيرا من رئيس وزراء. كان من بين أعضاء المجلس سيدني كارفر Sydney Carver وسير جون أنطونيادس وأريستيد سينادينو Aristide Sinadino وأمبرويز رالي Ambroise Ralli وبارون جاك دي مِنَشّا Baron Jacques de Menasce ومحمد بك العدل وعلي بك حسين. كان ثمانية منهم مصريين، وستة يونانيين، وأربعة إنجليزيين، ومنذ البداية تعالت شكاوى من أن بعض الأعضاء لم يكونوا يعرفون اللغة العربية[20].

ارتعد الأجانب من فكرة دفع الضرائب. وبدعم من القنصل الفرنسي، رفضت مدرسة الجزويت سان فرانسوا كسفاريوس Saint Francois Xavier أن تخطر البلدية بعدد تلاميذها، فضلا على أن تدفع ضرائب. واحتج كيلر باشا Keller Pasha أمام البلدية قائلا: «المدينة وطنكم. وازدهار الإسكندرية ازدهار لكم»[21].

جعلت البلدية غير المصريين يديرون المدينة. وفي العام 1912 كانت هناك احتجاجات لأن المصريين كانوا ثلاثمائة وسبعة وخمسين فقط ممن لهم حق التصويت وعددهم ألفان وسبعمائة وثلاثة عشر. فالكوزموبوليتانية كما جلبت الكفاءة، جلبت الاستغلال أيضا. وبدأت القاهرة تطلب أن يكون لها بلديتها على غرار الإسكندرية، وهو الامتياز الذي لم تنله إلا في العام 1949. وبداية من رئاسة جمال عبدالناصر، أصبحت الحكومة المصرية تدير المدينتين بطريقة مباشرة، من دون مؤسسات تتمتع بالإدارة الذاتية[22].

كانت الإسكندرية أيضا مدينة للأندية الكوزموبوليتانية، وكان بارون جاك دي مِنَشّا رئيس الكلوب الخديوي [النادي الخديوي أو الحلقة الخديوية] الذي تأسس في ميدان محمد علي في العام 1886، وكان بيناكي رئيس كلوب محمد علي [نادي محمد علي] الكائن بشارع شريف باشا. تمتع الأعضاء في هذين الناديين بالكراسي العميقة ذات المساند وطاولات البلياردو والقمار والصحف بكل لغات المدينة. ومنح الكلوب الخديوي الأمراء والوزراء المصريين والديبلوماسيين الأجانب والضباط البريطانيين (دون الضباط المصريين) «عضوية دائمة من دون اقتراع أو رسومٍ دخول»[23].

أُغلِق الناديان بعد العام 1961، لكن النادي الرياضي ظل واحة لساحات اللعب وساحات التنس بالإسكندرية إلى اليوم. أسس كولز باشا مدير شرطة مدينة

الإسكندرية النادي الرياضي في العام 1890، وكان يضم بعض الأعضاء المصريين دائما، على خلاف نادي الجزيرة بالقاهرة الذي ظل يقصي المصريين حتى بعد العام 1918[24]. وضمت الإسكندرية أيضا جمعية آثار وجمعية لاستكشاف الصحراء وأندية للمراكب الشراعية والسباحة والتنس.

كان أغلب هذه الأندية دوليا. تأسس نادي الاتحاد في العام 1904 بمبادرة من لورد كرومر؛ لكي يوفر للضباط البريطانيين بديلا عن كلوب محمد علي والكلوب الخديوي اللذين كان القمار فيهما يثير «حوادث مؤسفة». وكان هذا النادي مقصورا على المواطنين البريطانيين ويقوم بترتيبات تبادلية مع أندية بريطانية في لندن وأثينا والخرطوم، وكان يضم ثلاثمائة وخمسين عضوا، ويحتوي غرفا للطعام والبلياردو والقراءة والتدخين. أُغلِق النادي في العام 1956، فيما بقي الناديان اليوناني والسوري ولايزالان من أهم أماكن التجمع بالمدينة لأنهما يقدمان الكحول[25].

وإلى جانب ذلك، كانت هناك أيضا منظمات تكافل منفصلة لكل قومية تعيش في المدينة (وحتى للجاليات الفرعية مثل الكريتيين والقبارصة)، وكذلك «دار فيكتوريا ودار المربيات» التي أنشأتها الجالية البريطانية في العام 1887 إحياء لذكرى «جلالة الملكة»، وجاءت بنايتها استثناء تيودوريا مُحْدَثا بين بنايات المدينة الكثيرة الكلاسيكية المُحْدَثة والبندقية المُحْدَثة والمملوكية المُحْدَثة. كانت هذه المنظمة دارا للمربيات الإنجليزيات والإسكتلنديات بالإسكندرية، ومكانا تستطيع المربيات الراغبات في العمل من خلاله أن يجدن أرباب أعمال[26].

وإلى جانب العائلة الحاكمة وبلدية المدينة والأندية والعائلات، أنتجت الأعمال التجارية شكلا آخر من أشكال الكوزموبوليتانية. وبحلول العام 1900 كانت الإسكندرية الميناء الثالث في البحر الأبيض المتوسط من حيث حجم مرور التجارة، بعد جنوى ومارسيليا. ولم تكن الإسكندرية العاصمة التجارية لمصر فقط، بل ضمت أيضا المقرات الإدارية للجمارك المصرية والبريد والموانئ ونظام الحجر الصحي، فضلا على المحاكم المختلطة الممقوتة[27]. ومع استمرار معدل نموها المدهش، ارتفع عدد سكان الإسكندرية من مائتين واثنين وثلاثين ألفا وستمائة وستة وثلاثين شخصا في العام 1882 إلى أربعمائة وأربعة وأربعين ألفا وستمائة وسبعة عشر في العام 1917، شكّل الأجانب منهم ما بين 20 و25 في المائة، وكان كثير من المصريين تجري فيهم دماء أجنبية[28].

تكشف أسماء بعض المشاهير الذين ولدوا في الإسكندرية تنوع القوميات التي عاشت في المدينة. من هؤلاء الشاعر الإيطالي لاحقا جوزيبي مارينتي Giuseppe Marinetti (1876)، ورودولف هس (1894) Rudolf Hess، وجين روس Jean Ross (1912)، التي استوحى منها كرستوفر إيشروود شخصية سالي بولز(*) وإيريك هوبزباوم (1917) Eric Hobsbawm، وجمال عبدالناصر (1918) ومحمد الفايد (1929)(**)، وعمر الشريف (1932)، والمطرب جورج موستاكي Georges Moustaki (1934). وكان من بين الشركات التي تأسست في هذه الفترة بنك الإسكندرية وشركة الإسكندرية العامة للغلال وبنك مصر. وفي العام 1905 كتب الزائر الفرنسي أى بي دي غورفيل A. B. de Guerville أن «مصر دخلت حقبة من الثراء المذهل، إنه العصر الذهبي... توفر الإسكندرية للدماغ خزينة بنكية وللقلب محفظة، فهي متخمة بالأوراق النقدية». تمثل «قلب المدينة النابض» في البورصة الكائنة بميدان محمد علي، التي نُقش اسمها فوق مدخلها باللغتين الفرنسية والعربية[29].

انجذب الناس إلى الإسكندرية بسبب المال الذي ضمِن أيضا سرعة إعادة بناء المدينة. ففي الأعوام 1883-1887 أنشأ المهندس الإيطالي أنطونيو لاشياك Antonio Lasciac وكالة منَشّا الرائعة التي كانت تتخذ هيئة صليب في ميدان محمد علي. ووُسّعت الشوارع في وسط المدينة ورُصِفت وزُوّدت ببالوعات[30]. وفي شرق المدينة شُيّدت حدائق النزهة على غرار الحدائق البلدية الأوروبية، في الأعوام 1902-1906.

بُدئ في بناء الكورنيش في العام 1907. ومُدّ خط الترام مع انتشار الفيلات في المناطق النائية التي بنيت في أغلبيتها على أراض صادرتها من المصريين الفقراء شركات ترأستها عائلات تجارية بارزة، مثل باكوس وكوريمي Choremi وسلفاغو. كانت أبنية هذه الفيلات أشبه ببواخر المحيط الكلاسيكية المُحْدَثة البيضاء الرائعة. وكانت فيلات عائلات سرسق وسلفاغو والطويل في الحي اليوناني رائعة حقا. وضمت

(*) سالي بولز Sally Bowles، هو اسم رواية كرستوفر إيشروود Christopher Isherwood، فضلا على كونه اسم بطلتها. [المترجم].

(**) محمد الفايد هو الملياردير البريطاني من أصل مصري الذي لقي ابنه عماد الفايد، الشهير باسم «دودي»، حتفه مع الأميرة ديانا في حادث سيارة في نفق ألما بباريس في الثلاثين من أغسطس 1997. [المترجم].

فيلا قرداحي الفخمة في شارع رشدي بشرق الإسكندرية، التي بناها في العام 1907 مهندس إيطالي يدعى ألدو ماريلي Aldo Marelli، رواقا تحمله أعمدة على هيئة نساء وعذارى بأردية مثل الأعمدة المستخدمة في معبد أرختيون بأثينا، وتفتح الغرف الداخلية فيها على ردهة كلاسيكية مُحْدَثة[31].

لكن يظل الأثر الأهم للقرن الكوزموبوليتاني الذي شهدته الإسكندرية هو مقابر الوجهاء في جبّانات اليونانيين والكاثوليك اليونانيين والأقباط واللاتينيين واليهود التي اصطفت جنبا إلى جنب في مستطيل شاسع في منطقة الشاطبي. وتمثل أضرحة عائلات سيتيفاندي Sitivandi وأغيون Aghion وزِرفوداكي Zervudachi وقرداحي تأكيدا دامغا على كل من الثراء والحزن. تنتصب تماثيل للملائكة والإلهات وتماثيل نصفية للموتى بين مسلات أو أهرام أو أعمدة كلاسيكية أو قباب مملوكية[32]. وكما هي الحال في الجبّانات المماثلة في إسطنبول، تمثل جبّانات الإسكندرية تحديا في هيئة حجارة للمدينة الإسلامية القائمة اليوم، وتذكيرا بأنه في السابق كان جزء كبير من سكان المدينة من المسيحيين واليهود. كُتِبت نقوش المقابر باللغات اللاتينية أو الإيطالية أو الفرنسية أو العبرية، وتندر بينها النقوش العربية.

كان أجمل شوارع الإسكندرية هو شارع شريف باشا (شارع صلاح سالم حاليا) الذي يمتد إلى الجنوب الشرقي من ميدان محمد علي. وهذا الشارع الذي كانت تصطف على جانبيه بنايات إيطالية فخمة من ثلاثة أو أربعة طوابق، كان يكتظ في الأغلب بالعربات (ولاحقا بأغلى وأحدث موديلات السيارات). تمتع الشارع بما أسماه رونالد ستورس Ronald Storrs «شيئا من الضيق الرائع الذي ميّز شارع بوند»(*). كان ستورس موظفا إنجليزيا في مصر، وكان يعتبر نفسه «مشرقيا بالطبيعة»، وكان يزيد دخله بكتابة مقالات نقدية لعروض الأوبرا في إحدى جرائد الإسكندرية[33].

كانت الشرفة المرفوعة لكلوب محمد علي من أحد أطرافها، والمحجوبة عن أنظار المارة في الشارع والمزودة بصف أعمدة ودرابزين كلاسيكيين، مركز الشائعات الذي روّع الكثيرين والمعروف باسم «بيت النفاجين»[34]. وضم شارع شريف باشا أيضا صروحا فخمة لبنك روما والبنك الأهلي المصري ولاميزو بوردو La Maison

(*) شارع بوند Bond Street، شارع يمتد بين شارع أوكسفورد وبيكاديللي بغرب لندن. [المترجم].

Baudrot، وهو مقهى شهير مقابل كلوب محمد علي. وهذا المقهى الذي أطلق على نفسه اسم «ملتقى النخبة» دشنه في العام 1884 جاكومو غروبي Giacorno Groppi - الرجل الذي أدخل الكريم شانتيه إلى مصر - وباعه في العام 1906 لرجل فرنسي يدعى أوغست بوردو Auguste Baudrot، وانتقل إلى القاهرة التي أنشأ فيها مقهى غروبي الأسطوري. كان بوردو يقيم حفلات موسيقية ولديه غرف خاصة للعبة البريدج[35]. وبجوار المقهى، كانت توجد مكتبة تسمى سيتي دو ليفر Cite du Livre [مدينة الكتب]، كان يملكها يهودي يوناني من سالونيك يدعى نسيم موستاكي Nessim Moustaki، والد المطرب جورج موستاكي. كانت المكتبة تكتظ بالكتب وصور موقعة لكُتاب مشهورين، حتى إنه كان يصعب التحرك بداخلها بسبب الزحام الشديد. وفي البدروم، كانت توجد غرفة نوم صغيرة، يخرج منها موستاكي بين الحين والآخر بعينين لامعتين مع واحدة من زبائنه[36].

وعلى امتداد شارع شريف باشا، كانت توجد أفضل محلات الصاغة بالمدينة، هورويتز Horowitz، وأروع المحلات مثل أولد إنغلند Old England [إنجلترا القديمة] وميزو فرانسيس Maison Française [البيت الفرنسي]، وهانو Hannaux «الذي يجد المرء فيه أي شيء يرغب فيه قلبه»، ووايتهيد وموريس Whitehead & Morris وهي شركة القرطاسية والطباعة التي نشرت في العام 1922 الطبعة الأولى من كتاب إي إم فوريستر E. M. Forster «الإسكندرية - تاريخ ودليل سياحي» Alexandria: A History and a Guide[37].

كان ثراء الإسكندرية وطابعها الكوزموبوليتاني دافعين للإبداع والتجديد. فلم تكن مدينة للمال والأعمال فقط، بل استُثمِر فيها المال أيضا في الثقافة. من ذلك أن بارون دي مِنَشّا أنشأ معبدا ومدرسة يهودية وناديا خديويا، كما تبرع ببناية عظيمة لاستضافة مكتبة الإسكندرية العامة[38]. وفي العام 1892 أنشئ متحف بدعم من عائلتي رالي ومِنَشّا، جاءت مقتنياته من الآثار القديمة وفقا لرؤية الإسكندرية لنفسها، رومانية - إغريقية، وليست إسلامية أو فرعونية[39]. وفي السنة نفسها بدأت أول صحيفة مصرية نسوية تحمل اسم «الفتاة»(*). وفي شهر يناير 1897 افتتح الأخوان

(*) أسستها اللبنانية هند نافع، وكانت مجلة شهرية علمية تاريخية أدبية فكاهية، تمثل هدفها في «الدفاع عن حق المرأة المسلوب، والالتفات إلى الواجب المطلوب»، نالت هند بفضلها لقب «أم الصحافيات». [المترجم].

لوميير Frere Lumiere أول دار للسينما في مصر(*)، وهو العام نفسه الذي أنشئ فيه أول مصنع خمور في الإسكندرية يحمل اسم كراون Crown. وكانت أول لقطة سينمائية في مصر فيلما وثائقيا قصيرا بعنوان «ميدان القناصل في الإسكندرية»[40].

تميّزت الإسكندرية أيضا بتفوق مدارسها، كما كانت الحال في سميرنا وبيروت. وفي العام 1897، أي بعد اثنين وعشرين عاما من تأسيس جامعة في بيروت، أسس الجزويت مدرسة في الإسكندرية(**). وعلى رغم أن مدرسيها كانوا من الكاثوليك، فقد جذبت هذه المدرسة طلابا من اليهود والمسلمين والأرثوذكس، منهم أبناء عائلات زغيب وسرسق ومِنَشّا ورولو Rolo، بينما لم يزد عدد الطلاب الكاثوليك على نصف عدد طلاب المدرسة. يتجلى تسامح الإسكندرية في أن الجزويت فيها لم يكن في مقدورهم أن يجبروا الطلاب غير المسيحيين على حضور صلوات الكنيسة، كما كانوا يفعلون في كل الأماكن الأخرى، فـ«الإسكندرية ليست بيروت»، كما كتب أحد المسؤولين[41].

وفي العام 1901، أُنشئت جامعة الإسكندرية العامة Uriiversita Populare di Alessandria بدعم من البلدية، ومعها مجلة جديدة باسم اللوتس Le Lotus. جاءت مبادرة إنشاء الجامعة من ألكسندرا دي أفيرينو Alexandra de Avierino التي كانت عائلتها تدير محلات الملابس الضخمة المعروفة باسم أليكس جي أفيرينو فرير Alex. C. Avierino Freres [الإخوة أفيرينو بالإسكندرية]. أرادت ألكسندرا أن «توقظ المصريين على متطلبات العصر الحديث». كانت فرص التعليم بالجامعة متاحة للجميع، من دون تمييز على أساس الجنس أو العرق أو الدين، وبكل اللغات، بما في ذلك اللغة العربية. قدمت الجامعة - على سبيل المثال - محاضرات مسائية بعنوان «دراسات في تاريخ الإسكندرية» ألقاها ألكسندر ماكس دي زغيب Alexandre Max de Zogheb في الثالث من ديسمبر 1902[42]. وكان من بين المدارس الشهيرة الأخرى في الإسكندرية نوتردام دي سيون التي أنشأتها رهبانية

(*) حدث ذلك بعد سنتين فقط من تقديم الأخوين لوميير Freres Lumière وهما أوغست ماري لوي نيقولا Auguste Marie Louis Nicolas (من 19 أكتوبر 1862 إلى 10 أبريل 1954) ولوي جان Louis Jean (من 5 أكتوبر 1864 إلى 6 يونيو 1948)، أول عرض سينمائي متحرك في باريس في العام 1895. [المترجم].

(**) هي جامعة القديس يوسف التي أنشأها هي الأخرى الجزويت في العام 1875. [المترجم].

الراهبات الكاثوليكيات في العام 1880. وضمت الإسكندرية أيضا مدارس للألمان واليونانيين والإيطاليين واليهود والأسكتلنديين والبروتستانت الأمريكيين. ولاتزال البنايات المهيبة لهذه المدارس الباقية في مختلف أنحاء المدينة تقف دليلا على القوة الثقافية لهذه الجاليات.

تعد فيكتوريا كوليدج Victoria College إحدى أشهر مدارس الإسكندرية والمؤسسة البريطانية الوحيدة التي يتذكرها المصريون بنوع من الحنين. جاءت فكرة المدرسة من سير تشارلز كوكسون، القنصل العام البريطاني الذي تعرض لإصابات في أحداث العام 1882. اتفاقا مع الروح التجارية للمدينة أنشأ كوكسون المدرسة كشركة ربحية ذات مسؤولية محدودة بهدف جذب رجال المال. ووضع لورد كرومر نفسه حجر الأساس للمدرسة في الرابع والعشرين من مايو 1906 في واحة السيوف الواقعة شرق الرملة والمحاطة بالصحراء والنخيل، في حضور القناصل الأجانب وأعضاء الجاليات الأوروبية والسكندرية، ووجهاء المسيحيين واليهود، من دون وجهاء المسلمين. وافتتح المدرسة دوق كونوت في العام 1909[43].

كانت فيكتوريا كوليدج تقدم تعليما بريطانيا تقليديا: الكلاسيكيات وشكسبير والألعاب الرياضية وأيام الخطابة. وسرعان ما بدأت هذه المدرسة التي كانت تسمى «إيتون الشرق الأوسط»(*)، تجذب المصريين والعرب غير المصريين. فكما كانت الحال في كثير من المؤسسات السكندرية، كانت هذه المدرسة طائفية وكوزموبوليتانية في الوقت عينه(**). وفي هذه المدرسة البريطانية، كانت اللغة الفرنسية شائعة الاستخدام، واستُمِد شعار المدرسة من الشاعر اللاتيني السكندري كلوديان: «حين نتحد نكون شعبا واحدا». وفي العام 1930 أكدت مجلة المدرسة على طابعها الكوزموبوليتاني؛ ذلك أنها على الرغم من تعدد القوميات والأديان بين طلاب المدرسة، فإنها «تخلو من جراثيم العداء القومي والديني»[44].

(*) إيتون كوليدج Eton College، مدرسة داخلية للبنين بين عمر الثالثة عشرة والثامنة عشرة تقع في إيتون في بيركشاير، أنشأها الملك هنري السادس في العام 1440، كانت تعد إحدى مدارس النخبة والطبقة الأرستقراطية، حتى عرفت باسم «حضانة رجال الدولة لإنجلترا». [المترجم].

(**) طائفية بمعنى تخص طائفة أو جالية بعينها. [المترجم].

كانت فيكتوريا كوليدج - نظريا - مدرسة علمانية. ولم يكن التعليم الديني - للإسلام أو اليهودية أو المسيحية - يقدم للطلاب إلا إذا طلب ذووهم ذلك. وكما كانت الحال مع المدارس المشرقية الأخرى، لم تكن فيكتوريا كوليدج وسيلة للإمبريالية الثقافية فقط، بل كانت في الوقت عينه نافذة على العالم الخارجي تساعد الأفراد على تفتيح عقولهم وإيجاد الوسائل الممكنة لتحدي الإمبريالية. من ذلك أن الطلاب الأوائل بالمدرسة كان من بينهم مؤيدون ومعارضون للوجود البريطاني في مصر والشرق الأوسط، من أمثال أبناء عائلات رالي ورولو وباركر على جانب التأييد، وعلى جانب المعارضة أبناء محمود سامي البارودي رئيس وزراء عرابي باشا في العام 1882، وجورج أنطونيوس المؤلف السوري لكتاب «اليقظة العربية» (1938)، وهي أول معالجة باللغة الإنجليزية لفكرة القومية العربية من منظور عربي ودفاع بليغ عن حق الفلسطينيين في بلدهم، ويوسف شاهين المخرج الشهير لفيلم «إسكندرية ليه» (1978) و«إسكندرية كمان وكمان» (1989) فضلا على أفلام أخرى كثيرة، ومحمد فرغلي ابن العائلة التجارية السكندرية الكبيرة[45]. لاحقا أصبح فرغلي الذي اشتهر باسم «ملك القطن»، أصغر وأول مصري يترأس بورصة القطن وعضو المجلس البلدي. كان فرغلي، الذي اشتهر بسيارته الرولز رويس والقرنفلة التي كان يضعها دائما في عروة بدلته البيضاء، يعيش في فيلا فرغلي باشا الحديثة جدا التي استضافت حفلاته الحاشدة التي جمعت «كل الطبقة الرسمية، وكل طبقة المال الراقية، وكل عالم الإسكندرية»[46].

لم يكن التعليم بفيكتوريا كوليدج متاحا إلا لأبناء النخبة القادرين على تحمل مصروفاتها. ولم يفعل المسؤولون البريطانيون شيئا لدعم التعليم العام المصري، وكانت أيدي الوزراء المصريين مغلولة بسبب مفتش التعليم مستر دنلوب، المدير السابق للمدرسة الأسكتلندية السكندرية، هذا الشخص المتنمر الذي اتهم بإعاقة التعليم المصري جيلا كاملا[47].

***

ظلت الإسكندرية على رغم مؤسساتها وعاداتها الكوزموبوليتانية مجتمعا متمركزا حول الجاليات. فعلى الدوام تكشفت النزعتان الطائفية والكوزموبوليتانية لدى الأفراد والجماعات المختلفة وفقا لتوليفة من العوامل السياسية والاقتصادية

والشخصية: كانت كل التفاعلات ممكنة، حتى إنه يمكن تفنيد أي تعميم بشأن الحياة في المدينة. وكانت هناك أنواع مختلفة من الكوزموبوليتانية والقومية - المؤسسية والمهنية والطبقية - اختلفت من جيل إلى آخر ومن فرد إلى آخر.

أكدت بعض الطقوس في الإسكندرية على الحدود بين الجاليات. فيوميا كان أذان الصلاة يرد على أجراس الكنائس. وكان عدد رجال الشرطة يضاعَف في الأحياء اليهودية قبل عيد الفصح من كل عام لمنع أعمال الشغب المعادية لليهود، كتلك التي وقعت في العام 1881. وفي أثناء الأعياد الإسلامية، كانت تضاف إلى الترام عربات مغطاة خاصة للنساء[48].

كان المقيمون الأجانب في باريس، المدينة الأكثر كوزموبوليتانيـــة في ذلك العصـــر - من أمثال أجداد الرئيس السابق ساركوزي Sarkozy أو رئيس الوزراء السابق بالادور Balladur - يصبحون فرنسيين بعد جيل واحد أو اثنين. لكن في الإسكندرية، كانت القومية في أوقات الأزمات تقسم الجاليات وتفصلها عن إحداها الأخرى، كما حدث في العام 1882(*). وفي ذلك قال مدير المتحف برشيا إن الإسكندرية بمقدورها أن تضعف التعصب والحقد الديني من دون أن تزيلهما كليا[49]. وفي العام 1906 نظر مصرفي إنجليزي يدعى مستر رولات Rowlatt إلى نزاع حول منصب محافظ البنك الأهلي المصري على أنه نزاع عرقي، إذ كتب في رسالة خاصة: «لم يُظهِر اليهود شيئا أمامه، لكنهم من وراء ظهره كانوا أكثر عنفا من اليونانيين... فاليهود واليونانيون كلاهما كانوا يتحينون الفرص للتعبير عن مكنون صدورهم»[50].

(*) يكمن الفرق بين الاندماج السريع للمهاجرين إلى فرنسا حينذاك- أو أي مجتمع غربي قوي سياسيا وثقافيا حتى في عصرنا- وبين وضعية الجاليات المنفصلة في الإسكندرية، في قوة الدولة المستضيفة سياسيا وثقافيا. فالمهاجر إلى باريس مفتونا بثقافتها الأرقى وخاضعا لقوانين دولتها القوية لن يتشرنق ويخلق «دولة داخل الدولة» على غرار ما فعلت الجاليات الأجنبية في الإسكندرية، فضلا على أن «التفرنس» - أو «التجلنز» أو «التأمرك» أو ما شابه ذلك حاليا- كان في حد ذاته - ولايزال- حلما يراود القادمين إلى باريس وأمثالها. لكن من غير المتوقع- في المقابل- أن يسعى القادمون إلى الإسكندرية إلى الاندماج في ثقافة يرونها دونية ومع شعب نظروا إليه نظرة المستعمِر وعاملوه معاملة العبيد، علاوة على أنهم لم ينظروا يوما إلى الإسكندرية أو مصر كوطن بديل أو دائم، بل مجرد مرحلة أو رحلة، وإن طالت. لذلك كانت الانقسامات دائمة بين الأوروبيين جميعا من جانب والمصريين من جانب آخر، وكذلك داخل الجاليات الأوروبية، وإن لم تكن بحدة الانفصال عن المصريين. ولا تخلو المسألة من بعد طبقي تجلى في الاتصال بين النخبة السياسية والاقتصادية المصرية والأجنبية وانفصالها عن عموم الشعب المصري. وتتجلى القطيعة العرقية والطبقية في المثال الذي يستشهد به المؤلف وهو قصف المدينة في العام 1882، إذ لجأ الأوروبيون جميعا وحتى ذوو الأصول العربية كالسوريين إلى السفن الأجنبية الراسية في الميناء، والتحق بهم بعض من النخبة المصرية أو فروا إلى القاهرة حتى يكمل الإنجليز ما بدأوه. [المترجم].

تكشف الجالية اليونانية بوجه خاص عن التوليفة السكندرية بين القومية والكوزموبوليتانية. أدت هزيمة الوطنية المصرية في العام 1882 إلى تدفق اليونانيين. ومع أنهم لم يكونوا مستعمرين، فإنهم كانوا إمبرياليين من خلال صلاتهم بالإمبراطورية البريطانية. وكان اليونانيون القليلون نسبيا من حيث العدد - إذ شكلوا زهاء ثلاثين ألفا في مدينة كانت أكثر من عشرة أضعاف ذلك العدد - يعتبرون أنفسهم الجالية الأكثر ثراء ونجاحا في المدينة، وكانت لهم تسع مدارس ابتدائية ومدرستان ثانويتان ومستشفيان وملجآن للأيتام ونادٍ رياضي، وبعد العام 1902 غرفة تجارية خاصة بهم. وضمت الإسكندرية ما لا يقل عن أربع وعشرين منظمة يونانية مختلفة، مثل اتحاد البقالين اليونانيين في الإسكندرية وضواحيها، والنادي الملاحي الهيليني والجمعية العلمية الهيلينية البطلمية[51].

اشتهرت بيوت اليونانيين في الإسكندرية بالفضة والخزف والسجاد الفارسي واللوحات الفرنسية و«حدائق زهور من الفتيات الجميلات». وفي بعض الأحيان، كانت نظافة البيت اليوناني تدفع الزوج المخبول بها إلى سكب صلصة الطماطم على الأرضية المرمرية[52]. كانت عائلة بيناكي من أغنى العائلات السكندرية اليونانية. جاء إيمانويل بيناكي **Emmanuel Benaki**، المولود على جزيرة سيروس لعائلة هربت من مذبحة خيوس في العام 1822، إلى الإسكندرية في العام 1863 بعد عدة سنوات من العمل في ليفربول. وسرعان ما أصبحت شركة كوريمي وبيناكي وشركاهما **Choremi, Benakis & Company** أكبر مصدّر للقطن في مصر، ولها مكاتب في أنحاء البلاد كافة ومقرها الرئيس في الإسكندرية، ومعظم موظفيها من اليونانيين[53].

كان إيمانويل بيناكي «ملك البورصة» وكذلك المدير العام لبنك الإسكندرية الذي أسسه في العام 1872 مع يونانيين آخرين (عائلات كوريمي وسلفاغو وزِرفوداكي)[54]. وفي العام 1884 كانت عائلة بيناكي قادرة على الانتقال من شقة في شارع شريف باشا إلى فيلا فاخرة في شارع روزيت. وقد مكّنهم ثراؤهم - في رأيهم - من العيش عيشة «كبار السادة»، والإحسان على الجمعيات الخيرية اليونانية، وضمان أن تكون المدارس والمستشفيات اليونانية الأفضل في المدينة. وكانوا يعتبرون أنفسهم من الطبقة الأرستقراطية[55].

كشفت عائلات مثل زغيب وبيناكي - فضلا عن عائلة محمد علي نفسها - أن الثروة والامتيازات والطموح كانت كافية لتكوين طبقة أرستقراطية. إذ لم تكن العراقة شرطا أساسيا. وفي ذلك تقول أغنية سكندرية:

تشتهر خيو بالراكي(*)،
خاصة بين رجالها العظماء.
مَنْ ذا الذي أرسل لنا بيناكي؟
تشتهر خيو بالراكي[56].

كانت عائلة بيناكي تقيم حفلات راقصة، احتفظت بذكراها ألبومات صور مفصلة. وكان بيتهم يكتظ بالورود وزهور النرجس، وفي إحدى الحفلات التي أُقيمت في العام 1886 والتي حضرها «كل المجتمع الراقي بالإسكندرية»، ارتدى الضيوف لباس حاشية لويس الرابع عشر، ونسي بانتيلي سلفاغو Panteli Salvago قبعته المخملية السوداء المرصعة بالألماس تحت السرير، فقد كان «إهمال اليونانيين السكندريين لثرواتهم وإسرافهم واضحين جدا»(**) (أرسلتها مضيفته له في اليوم التالي)[57]. وفي الكرنفالات(***)، كان السكندريون يصطفون في الشرفات لإلقاء الزهور والنثار لتزيين العربات والفرق الموسيقية التي كانت تجوب الشوارع في الاحتفال السنوي حول ميدان محمد علي وإلى شارع شريف باشا ثم شارع روزيت[58].

كان الخدم في بيت بيناكي يونانيين ومصريين وإيطاليين. وكانت مديرة المنزل والأمور المنزلية كالأثاث والأواني الفضية والزجاجية والبياضات وصابون بيرز والإبر من إنجلترا(****). لقد «تربينا على احترام أي منتج إنجليزي»، هكذا تذكرت بينيلوب ابنة إيمانويل التي ولدت في العام 1874 وعُرفت لاحقا باسم بينيلوب دلتا Penelope Delta كاتبة الأطفال اليونانية الشهيرة. وفي غير ساعات العمل، كان الرجال يركبون الخيل ويصطادون ويلعبون البولو، وكانت النساء يلعبن الورق

(*) خيو هي جزيرة خيوس. والراكي أو الراقي raki مشروب كحولي غير مُحلى ومنكّه بالينسون، ينتشر في تركيا وبين الجماعات التركية. [المترجم].

(**) إشارة ساخرة إلى العلاقات الغرامية غير المشروعة. [المترجم].

(***) راجع حاشية سابقة حول الكرنفال. [المترجم].

(****) صابون بيرز Pears soap أو صابون بيرز الشفاف، ماركة صابون كان ينتجها ويبيعها أندرو بيرز منذ العام 1807 في مصنع قريب من شارع أكسفورد بلندن، كان المنتج الفاخر من نوعه على مستوى العالم. [المترجم].

ويتبادلن الزيارات، خصوصا في أيام الآحاد، فضلا عن الأعمال الخيرية. ومع أنهم كانوا يعيشون في الإسكندرية، فإنهم كانوا يعرفون الفرنسية والإنجليزية إلى جانب اليونانية، وكانوا يعتبرون أنفسهم أكثر حداثة من أبناء جلدتهم في بلاد اليونان.

لجأت عائلة بيناكي في أثناء الثورة العرابية في العام 1882 إلى سفينة يونانية وزارت اليونان. تذكرت بينيلوب دلتا تلك الأيام معتبرة إياها الأسعد في حياتها، ربما بسبب التحرر من قيود السيطرة العائلية، فضلا عن الحماسة القومية. فقد أصبحت عائلتها من القوميين اليونانيين، فضلا عن كونهم من السكندريين الكوزموبوليتانيين. وإضافة إلى فيلتهم في الإسكندرية، اشتروا فيلا أخرى خارج أثينا[59].

من مدريد إلى موسكو، أصبحت القومية دينا له أتباع أشد إخلاصا وحماسا من أتباع من المسيحية أو الأديان الأخرى. كانت بينيلوب دلتا تعكس روح العصر والتقاليد الهيلينية حين كتبت أن عائلتها كانت تعتبر «أي شيء يوناني شيئا مقدسا... فكانت الصفة «يوناني» بالنسبة إلينا سامية وفذة ومنيرة وساحرة». ووصفت أعمالهم التجارية باللغة القومية وليس المالية بأنها «قوة الهيلينية ومجدها».

كانت مصر- نظريا- لاتزال جزءا من الإمبراطورية العثمانية، ومع ذلك فقد تطوع الذكور من عائلة بيناكي للقتال من أجل اليونان في حربي العام 1897 والعام 1912 ضد الإمبراطورية (كما فعل الكثير من اليونانيين السكندريين الآخرين الذين نُقشت أسماؤهم على ألواح تذكارية في فناء البطريركية الأرثوذكسية بالمدينة(*). كانت عائلة بيناكي تحتقر أغلبية السكندريين الآخرين. فالسوريون «مشرقيون»، أما اليهود - كما كتبت بينيلوب دلتا في مذكراتها- فكان الشيطان يتلبسهم. أما بالنسبة إلى المصريين الفقراء «فإننا نكن أكبر قدر من الاحتقار للفلاحين ونرى أنهم في منزلة الماشية. ولم يكن مسموحا أن تضرب العربي وحسب، بل كان ضروريا أيضا. ومازلت أذكر والدي وهو يضرب بستانيا يدعى جمعة على وقاحته، ولم يكن من هذا الفلاح بعد أن يضربه أبي إلا أن يقبل يد أبي وسترته. لقد كانوا حيوانات».

(*) بمعنى أنهم كانوا يحاربون الدولة التي تتبع لها مصر اسميا، مع العلم أن اليونانيين في إسطنبول كانوا يتطوعون علنا في شوارعها للحرب في صفوف جيش اليونان ضد تركيا، وكانوا في حال انتصار الجيش اليوناني يخرجون إلى الشوارع للاحتفال بالنصر ومكايدة الأتراك؛ من كتاب «القسطنطينية - المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924» الصادر عن سلسلة عالم المعرفة، عددي يوليو وأغسطس 2015. [المترجم].

كان الجميع يفعلون ذلك، حتى المصريون أنفسهم. فقد رأى أحد أبناء عمومتها، هوبكنسون باشا Hopkinson Pasha، ذلك الرجل الوسيم الدمث وقومندان شرطة المدينة في الأعوام 1902-1917 ومدير بلدية الإسكندرية في الأعوام 1917-1923، يضرب فلاحا على وجهه بسوط الحصان في محطة الترام، و«المشاهد من هذا النوع كانت تحدث يوميا»[60]. وعلى نحو ما فعل اليونانيون في الإسكندرية البطلمية حين لم يسمحوا على مدى المائة سنة الأولى إلا لمصريين مختارين بدخول مدينتهم، لم تكن عائلة بيناكي تعرف عن مصر إلا ما يمكّنها من استغلالها اقتصادها، أو تطويرها بناء على وجهة النظر المتبناة. فكان إيمانويل بيناكي كثيرا ما يجوب قرى الدلتا لمعاينة محصول القطن[61]. ولا يظهر المصريون في مذكرات بينيلوب دلتا أو رواياتها إلا نادرا، ويكونون في الأغلب محلا للشفقة أو الاحتقار[62].

وعلى رغم كونه رئيس كلوب محمد علي ورئيس الجالية اليونانية في الأعوام 1901-1911، غادر إيمانويل بيناكي مدينته في العام 1911، وأصبح وزير مالية اليونان، ثم رئيس بلدية أثينا التي شيّد فيها فيلا أخرى فخمة قبالة القصر الملكي. وبدافع من سخائه ووطنيته، أسهم في تمويل ملجأ للأيتام ومستشفى ومدارس، فضلا عن مؤسسات يونانية أخرى كثيرة. فقد أقنعه صديقه السياسي اليوناني الكاريزمي إيمانويل فينيزيلوس بأن يقدم يد العون لتحديث اليونان[63]. نظرت بينيلوب دلتا إلى السكندريين نظرتها إلى «الدمى» وأصبحت تمقت المدينة التي منعتها عائلتها فيها من الطلاق خوفا من الفضيحة. وكذلك الرجل الذي أحبته، وهو نائب القنصل اليوناني جون دراغوميس Jon Dragoumis، كان يكره الإسكندرية، وكتب في ذلك: «لم أعانِ في مكان قط كما عانيت هنا، حتى المسيح لم يتكبد في أورشليم ما عانيته أنا هنا». وفي أثينا التي انتقلت إليها في العام 1916، وجدت بينيلوب دلتا الشهرة والاستقلال كأول كاتبة أطفال يونانية. وجاءت أسماء رواياتها قريبة من أسماء روايات معاصرها تقريبا جي أي هينتي G. A. Henty، ومنها «من أجل أرض الأجداد» (1909) و«في زمن قاتل البلغار» (1911)[64].

أظهرت المقتنيات الرائعة من أطباق إزنيق(*) والسجاد والمنسوجات العثمانية

(*) كان خزف بلدة إزنيق Inik التركية القريبة من إسطنبول من أفضل المقتنيات من نوعه في العالم، تميّز بصلابته وكثرة ألوانه. [المترجم].

واللوحات القبطية واليونانية والقطع الفنية من الإمبراطورية العثمانية التي زيّن بها أخوها أنطوني بيناكي Anthony Benaki بعض غرف بيته الكائن في شارع روزيت، تذوقا للفن الإسلامي غير معتاد في ذلك الوقت، خصوصا بين اليونانيين الذين تربوا على حكايات مذبحة خيوس وحرب استقلال اليونان. لكن هذه المقتنيات غادرت الإسكندرية مع أنطوني بيناكي في العام 1927. وكذلك فإن المتحف الذي أسسه في العام 1930 لم يقم في الإسكندرية التي كونوا فيها الثروة التي أنفقت في بنائه، بل في قصر بيناكي في أثينا[65].

***

جمع أعظم شعراء الإسكندرية الحديثة، قسطنطين كفافيس، كما فعل أصدقاؤه من عائلة بيناكي، بين القومية والكوزموبوليتانية. فعائلة قسطنطين نصف الفنارية تعود إلى القسطنطينية التي عمل والد جده فيها سكرتيرا للبطريركية، واسم العائلة كفافيس، كما هي الحال مع الكثير من أسماء العائلات اليونانية والعربية من أصل تركي، من كلمة أياكابيشي ayakkabici التركية التي تعني بائع الأحذية. ومع أن العائلة كان لها أقارب في فيينا والبندقية وتريسته، فإن ثروتها تركزت في بريطانيا وفي القطن. وكانت لشركة والد كفافيس المسماة بي آي كفافيس وشركاه P. I. Cavafy & Co. مكاتب في الإسكندرية والقسطنطينية ولندن وليفربول. ولد قسطنطين في التاسع والعشرين من أبريل 1863 في بيت العائلة في حي زيزينيا القريب من شارع شريف باشا. ازدهرت عائلة كفافيس ماليا واجتماعيا، لكن موت بيتر جون Peter-John، والد الشاعر، في العام 1870 أجبر أفراد العائلة الباقين على الانتقال إلى إنجلترا في العام 1872. وفي العام 1876، ونتيجة لعدم كفاءة إخوة الشاعر الأكبر سنا، تبددت مشاريع العائلة، وفي العام 1877 عادت مدام كفافيس وأطفالها الأصغر سنا إلى الإسكندرية. ومع ذلك، ظلت اللغة الإنجليزية إحدى اللغات التي تتحدثها العائلة. وكانوا يكتبون الخطابات إلى بعضهم البعض بالإنجليزية، فضلا عن اليونانية. ويقال إن قسطنطين كان يتحدث اليونانية بلكنة إنجليزية، على رغم شكوى إخوته من «الغباء والجهل المستحكمين في بعض البريطانيين في مصر»[66].

وبعد العام 1885 أخذ قسطنطين ينشر قصائد ومقالات باللغة اليونانية، وفي العام 1892 وجد وظيفة كاتب في الدائرة الثالثة للري بوزارة الأشغال العامة

المصرية. لكنه أخفق في تأمين قبول البريطانيين له، إذ استبعدته جنسيته اليونانية من أي وظيفة دائمة. غير أنه نجح في الحفاظ على هذه الوظيفة المؤقتة (كانت تجدد سنويا) لثلاثين عاما. وإلى جانبها عمل في بورصات الإسكندرية من العام 1894 إلى العام 1902. ومارس المضاربة أيضا. وقد مكّنته هذه المصادر، إلى جانب بعض الاستثمارات الذكية، من تأمين دخل وفر له حياة مريحة بقية حياته.

كانت الإسكندرية وطنا لكفافيس. فبعد العام 1885 سافر إلى الخارج ست مرات فقط: واحدة إلى باريس ولندن في العام 1897، وخمسا إلى أثينا. وبعد موت أمه ومغادرة إخوته بدأ في العام 1908 يعيش وحيدا في بيت بشارع ليبسيوس Lepsius القريب من شارع شريف باشا، وذلك في عمر الخامسة والأربعين. ثم ابتعد عن الحياة الاجتماعية وكرس حياته للشعر.

بقي كفافيس في الإسكندرية، على رغم كآبتها وتخلفها في رأيه. فقد اعترف في تدوينة ترجع إلى الثامن والعشرين من أبريل 1907: «لقد اعتدت الآن على الإسكندرية، ومن المرجح أن أبقى هنا حتى لو اغتنيت ... (مازلت غير متأكد تماما من أنني سأبقى هنا) لأنها بالنسبة إليّ أقرب إلى الوطن، فهي تربطني بذكريات حياتي. وكيف لشخص مختلف مثلي أن يحتاج إلى مدينة كبيرة، مثل لندن...»[67]. ربما أدرك كفافيس أن حياته في مدن أخرى لن تختلف عنها في الإسكندرية. فالمدن في رأيه يصنعها الناس وكذلك العوامل الاقتصادية والعسكرية والسياسية. كتب في «المدينة»:

أنت قلت: «سأذهب إلى أرض أخرى،
سأذهب إلى شاطئ آخر،
لأجد مدينة أفضل من هذه.
مُقدّر أن تكون الخيبة مآلي،
وأن يرقد قلبي مدفونا - كميّت.
فإلى متى سأترك روحي هنا؟
أينما توجهت، أينما نظرت،
لا أرى غير خرائب محترقة من عمري هنا،
حيث ضيّعت زمنا طويلا لا أفعل شيئا

بددت كل هذه السنين، دمرتها».
لن تجد بلدا جديدا، لن تجد شاطئا آخر.
ستلاحقك هذه المدينة أينما ذهبت.
ستمشي في نفس الشوارع،
وتمضي سنون حياتك في نفس الأحياء.
ستنتهي بك الحال دائما إلى ها هنا.
انسَ أي مكان آخر، لا تطمح إليه،
فلا سفينة معك ولا طريق.
فأنت حين ضيّعت عمرك هنا، في هذا الركن الصغير،
ضيعته في كل مكان آخر في العالم.

تدور قصائد كفافيس حول الملوك والأبطال اليونانيين والمدن والموانئ اليونانية وما أسماه «عظمة تراثنا البيزنطي»: يوليسيس والبطلميين المتأخرين والإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس وغيرهم. بينما لم يكن معنيا بالفراعنة ولا بالإسلام ولا بعائلة محمد علي(*). وكتب عن الفراعنة: «لا أفهم تلك الجمادات الضخمة». وظل كفافيس يرتدي القبعة القشية اليونانية من دون الطربوش المصري[68].

ومع ذلك، فإن قصائد كفافيس لم تكن يونانية وحسب، بل كانت مدنا على حافة آسيا أو أفريقيا، سكانها يونانيون في الطباع واللغة، لكنهم مصريون أو آسيويون في قلوبهم: بيروت وسميرنا وأنطاكية «بحياتها المستهترة» والإسكندرية «بشهوانيتها المنفلتة»[69]. وفيما يتعلق باليونان نفسها، تلك «المملكة الصغيرة الكتومة على الجانب الآخر من البحر» بتعبير صديقه فوريستر، فقد «كان لاذعا وساخرا جدا»[70]. وعلى خلاف الشعراء في أثينا، طور كفافيس في الإسكندرية لغة يونانية خاصة به، خليطا من العامية والمعيارية، لها هجاء وترقيم خاصان[71]. إن كفافيس مشرقي، وقصائده يتخللها الإحساس بالانكسار. فالجيوش المعادية على

(*) كان اليونانيون يعيشون في الإسكندرية بأجسادهم، بينما بسبب الأيديولوجيا القومية كانت أرواحهم تعيش في اليونان، أو بالأحرى في اليونان التاريخية وليس اليونان المعاصرة التي صدمت أغلبية المشرقيين بتخلفها حين عادوا إليها، ما دفع الكثيرين منهم إلى العودة إلى إسطنبول أو سميرنا أو الإسكندرية، ومن بقي فيها احتقر اليونان وشعبها. [المترجم].

وشك الاقتحام، ومارك أنطونيو يتأمل هزيمته قبل أن ينتحر. والجواهر في تاج الإمبراطور البيزنطي حل محلها زجاج ملون. «هل بإمكاننا فعلا أن نشعر بالأمان في أميسوس Amisos؟»(*) وأجاب: «البلدة ليست جيدة التحصين، والرومان أعداء مرعبون». تزداد مدن كفافيس تألقا بقربها من شعوب يعتبرهم سكانها برابرة. يكتب في قصيدته «في انتظار البرابرة»:

والآن، ومن دون البرابرة، ماذا سيحدث لنا؟

كان هؤلاء البرابرة حلا من الحلول[72].

ترجع كتابات كفافيس إلى سنوات أوج القوة البريطانية في مصر بين العقد الأخير من القرن التاسع عشر والعقد الثالث من القرن العشرين. ومع ذلك، فقد ظلت مدنه مهددة. وقعت اضطرابات بين اليونانيين والإيطاليين وبين اليونانيين والمصريين في العامين 1899 و1904. وفي بعض الشوارع ترددت في بعض المناسبات صيحات «الموت للمسيحيين!» أو «الموت لليهود!»[73]. وفي العام 1907 أسس رجل الخديو والسلطان مصطفى كامل باشا الحزب الوطني المصري في الإسكندرية، وعلا صوته مدويا في لقاءات جماهيرية حاشدة مطالبا بإنهاء الاحتلال البريطاني وأن تكون «مصر للمصريين!»[74]. وفي العام 1908 أدت ثورة تركيا الفتاة إلى إلهاب مشاعر المسلمين في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كافة.

كان كفافيس وهو يكتب قصيدته «تخلى الرب عن أنطونيو» مدركا لأنه قد يضطر إلى «وداع الإسكندرية الراحلة». وكما حدث مع مقتنيات بيناكي، «ودّع» أرشيف كفافيس بمخطوطاته وأوراقه وصوره الإسكندرية فعلا بعد موته في العام 1933 حين نقلها ورثته إلى أثينا(**).

كتب كفافيس أيضا عن شكل آخر من أشكال الحياة على الحافة. ففي سبق آخر للإسكندرية، كان كفافيس أجرأ شاعر مثلي في أوائل القرن العشرين، فكان أول من وصف الخلسة في حياة المثليين في ذلك الزمان. وهنا أيضا، كما في تركيزه على التاريخ

(*) أميسوس Amisos مدينة يونانية قديمة على البحر الأسود، اسمها حاليا سامسون Samsun في محافظة بالاسم نفسه في تركيا، أطلق منها مصطفى كمال حرب استقلال تركيا. [المترجم].

(**) دفن قسطنطين كفافيس في قبر أسرته في جبّانة اليونانيين، وتحول بيته في 10 شارع ليبسيوس (شارع شرم الشيخ حاليا) إلى متحف، بجهود من المؤسسة الهيلينية ومؤسسات يونانية أخرى. [المترجم].

والأدب اليونانيين، يعكس الهوة بين الأوروبيين والمصريين في الإسكندرية. ففي ذلك الوقت لم تكن المثلية الجنسية تثير في المشرق السخط الذي كانت تثيره في أوروبا المعاصرة. من ذلك أنه في تقرير القنصل الفرنسي في سميرنا حول ملاحقة رجل تركي لشاب فرنسي حتى القنصلية الفرنسية في العام 1806، تذمر القنصل من «السفالات المشينة الشائعة جدا بين الشرقيين»[75]. ومنه أيضا أن تشارلز نابير كان شاهدا على «الخزي والوقاحة الفجة» في انقياد إبراهيم باشا «وراء شهواته»[76]. وحين اشتكى القنصل الهولندي مستر رويزنيرز Ruyssenaers لسعيد باشا من انتشار المثلية الجنسية في مصر، يقال إن الباشا رد بأن القنصل قبل أن يشتكي يجب أن يجربها بنفسه، في كل الأوضاع[77]. ففي الإمبراطورية العثمانية بوجه عام، جزئيا بسبب صعوبة إقامة علاقات غرامية مع النساء المسلمات، احتفى الشعراء، وحتى المؤرخ المصري عبدالرحمن الجبرتي، بجمال الغلمان ذوي «وجه القمر والنظرات التي تطعن كالخناجر»[78].

لكن معرفة كفافيس باللغة العربية أو التركية كانت ضعيفة، وربما لذلك كان رفاقه أوروبيين، كما كانت قصائده. ربما لم يكن يعرف بموقف المصريين المتساهل مما أسماه باستنكار مفتعل «أوقح الرغبات الشهوانية والغرائز الداعرة في دمي» و«ولعه الشديد بالشيء المحرم»[79]. لكن كفافيس لم يكن له محبوب مصري، مثل الكمسري الوسيم محمد العدل الذي ارتبط به صديق كفافيس وقارئه فوريستر الذي عمل في الإسكندرية بالصليب الأحمر في الأعوام 1916-1920، حين قابله في الترام إلى الرملة. ألهم محمد العدل فوريستر إلى كتابة «الإسكندرية: تاريخ ودليل سياحي»، على رغم أن فوريستر كتب أيضا، مثلما فعل كفافيس، أنه ملّ «إلى درجة لا توصف» من تلك المدينة «الباهتة والمبتذلة تماما». فالأجنبي فوريستر فعل ما لم يفعله السكندري كفافيس حين عبر الحدود العرقية[80].

تترك الغرف المستأجرة والعربات المقفلة والأحضان المسروقة في الدكاكين انطباعا دامغا على قصائد كفافيس. وأسلوبه آسر كالهواجس:

كانت الغرفة رخيصة وقذرة،
مختفية فوق الخمّارة المشبوهة.
... ومن الأسفل

جاءت أصوات العمال
يلعبون الورق ...
وهناك على ذلك السرير العام المتواضع
كان لدي جسم الحب،
كانت لدي تلك الشفاه المُسْكِرة،
الحمراء والشهوانية،
شفاه حمراء فيها من السُّكْر
ما يجعلني الآن وأنا أكتب بعد كل هذه السنين
- وحيدا في بيتي - أسكر بالهيام ثانية[81].

نشر موظف حكومي قصائد كفافيس حول «جمال الشهوات الشاذة» و«الفسق الرخيص» (بعد العام 1919، وتحديدا بعد وفاة آخر إخوته في العام 1921) في الإسكندرية في مجلات أدبية مثل نيا زو Nea Zoe أو غراماتا Grammata، أو طبعها كفافيس بنفسه في أوراق منفصلة وأرسلها إلى الأصدقاء والنقاد. ونُشِرت أول طبعة كاملة منها في كتاب بالإسكندرية في العام 1935، بعد عامين من وفاة الشاعر في المستشفى اليوناني[82].

كانت الإسكندرية قاسية ومادية في بعض جوانبها، لكنها كانت متسامحة وتقدمية في الوقت نفسه. ففي كل المدن الأخرى- ما عدا باريس- كانت قصائد كفافيس تثير الرعب أو حتى قد تقود صاحبها إلى السجن. فلا يوجد كفافيس إنجليزي أو ألماني. وتوقف فوريستر عن نشر الروايات حين عجز في لندن- أكبر مدينة في العالم التي حلم كفافيس بالعيش فيها- عن الكتابة عن الحب المثلي. فلم تكن الإسكندرية مدينة الخديوية والقناصل وحسب، بل كانت أيضا مدينة سابقة لزمانها.

***

كتب كفافيس عن الرجال، مع أن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت تشتهر بالنساء. من ذلك على سبيل المثال أن كولز باشا، رئيس شرطة المدينة، كتب في مذكراته أن الإسكندرية ضمت «بعض أجمل النساء في العالم وأكثرهن أناقة... فالمرأة اليونانية التي ترتدي أحدث أزياء باريس لا تضاهيها أي امرأة في جمالها»[83]. وكانت بعض النساء جميلات حتى إن الرجال كانوا يستأجرون كراسي خارج الكنائس

لمشاهدتهن وهن يخرجن من قداس الأحد[84]. بل إن مشاهدة الناس، كما تؤكد قصائد كفافيس، كانت أحد الاهتمامات المفضلة لدى السكندريين. وفي ذلك كتب جندي أسترالي يدعى هيكتور ديننغ Hector Dinning أنه في الإسكندرية التي تفتقر إلى الأهرامات ومقابر الخلفاء، لم يكن هناك ما يلهي عن «الشغل الشاغل للجميع، وهو مشاهدة البشر الأحياء»[85].

تشتهر السكندريات بالاستهتار. ولذلك، تردد بعض اليونانيين المقيمين في اليونان في الزواج من اليونانيات السكندريات أو السميرنيات. وقد زعم ألفريد بتلر، المدرس الإنجليزي لأبناء الخديو، أن النساء «لا يتحلين بالوقار أمام الصغار، فيتحدثن ويمزحن حول هذه الأمور أمام الأولاد والفتيات الصغار، على نحو غير معهود بين النساء في إنجلترا»[86].

ومع ذلك، فلم يكن من السهل إقامة علاقات غرامية مع النساء. اتجه بعض الرجال إلى المواخير المحلية. وكانت إحدى السيدات تجعل بناتها العذارى ينمن تحت سريرها، باعتباره المكان الوحيد الآمن من علاقاتها الخاصة. وكان للإسكندرية «مكتب لترخيص الدعارة»، كانت مهمته منع انتشار الأمراض الجنسية. وكانت النساء المصريات أكثر عرضة للعدوى، لأنهن كن يبدأن «العمل» في سن أصغر. أما النساء الأوروبيات اللاتي كن خبيرات في «كل أنواع العدوى»، على نحو ما ذكر المكتب، فـ «يُظهِرن درجة من المقاومة»[87]. وعلى رغم الأوامر الحكومية الكثيرة بمنع تجارة الرقيق منذ العام 1854 ظل بضعة تجار رقيق يعملون من بيوت خاصة في الإسكندرية، وكان الواحد منهم يحتفظ بخمس عشرة أو عشرين جارية معا، كان بعضهن يُبَعن للمواخير[88]. وقد حاولت جمعية منع تجارة الرقيق الأبيض التي أسست في الإسكندرية في العام 1905 منع التجارة في النساء الأوروبيات، وأعادت الكثيرات منهن إلى أوطانهن، وأنقذت ألفين ومائتين وثلاثا وخمسين طفلة من المواخير[89].

كانت تتفرع من شارع دي سير شوارع جانبية، احتوت فنادق كانت تؤجر غرفها بالساعة. وكانت «نساء من كل الأعمار ينتظرن الزبائن»، كما تذكر غاستون زنانيري، و«أمام بعض هذه الغرف، كان يقف رجال - شباب وكبار- بعضهم وسيم وأغلبيتهم قبيحون، إذ دائما ما يقف الرجال هناك». وفي مقاهي المغنى والخمّارات وأوكار القمار القريبة، كانت «كل الأقوام تختلط»، كما في البيوت الغنية بالمدينة[90].

***

كان بمقدور الأقوام أن تختلط لأنها امتلكت الشرط الأساس للكوزموبوليتانية، وهو اللغة المشتركة. فالسكندريون أيا كانت أصولهم، كانوا يعرفون بعض الكلمات العربية على أقل تقدير. علاوة على أن المدينة امتلكت لغة دولية كانت الجاليات المختلفة تتحدثها إحداها مع الأخرى، تمثلت حتى العقد السابـــع من القرن التاســـع عشر في اللغة الإيطالية أو اللغة المشتركة. وكما يذكر كتاب موراي، فـ «إلى جانب اللغة المحلية، كانت اللغة الإيطالية مفيدة جدا في أنحاء المشرق كافة»[(91)]. وحتى منتصف القرن العشرين، كانت اللغة العربية السكندرية تحوي كلمات إيطالية كثيرة، مثل بوسطة (البريد) وجمبري (الروبيان) وتورتة (كعك) وروبابيكيا (ملابس قديمة)، إذ استساغت الآذان السكندرية الأصوات الإيطالية أكثر من الأصوات اليونانية أو الفرنسية[(92)]. ولذلك قالت مضيفة سكندرية وهي تقدم بعض الكعك لزائر إنجليزي Lordy! Lordy! Do have some torta! [سيدي سيدي تفضل بعض الكعك[(*)]].

وبعد العقد السابع من القرن التاسع عشر، حلت اللغة الفرنسية محل الإيطالية. إذ تمتعت الفرنسية من المكسيك إلى بلاد فارس بجاذبية كونها لغة الدبلوماسية والثقافة والعلم والحداثة، فضلا عن كونها لغة إحدى القوى العظمى. وكانت الفرنسية بداية من العقد الرابع من القرن التاسع عشر إحدى لغات وزارة الخارجية العثمانية. وانتشرت الفرنسية خلال أنحاء المشرق كافة من خلال المدارس والمبشرين الفرنسيين، وكذلك نتيجة لعدم وجود لغة دولية بديلة. فقد كانت المنطقة تواجه ما أسماه أحد المعاصرين «الولع المتنامي بالفرنسيين والفرنسية»[(93)].

وفي العام 1912 كان مائة وثمانية آلاف ومائة واثنا عشر طالبا يتلقون تعليمهم في مؤسسات فرنسية في الإمبراطورية العثمانية، وهو عدد ضخم فعلا[(94)]. ومن بين ثمانية وعشرين ألف طفل يتلقون تعليمهم في الإسكندرية، كان زهاء اثني عشر ألفا في مدارس حكومية، وتسعة آلاف في مدارس أجنبية أخرى، وسبعة آلاف في مدارس

(*) يعمل الحرف y في آخر كلمة lordy عمل ياء المتكلم في اللغة العربية. [المترجم].

فرنسية، وكانت اللغة الفرنسية تُدرِّس أيضا في المدارس الحكومية والأجنبية كلها تقريبا. وبحلول العام 1912 كذلك كانت كل المدارس الأجنبية تدرس اللغة المحلية السائدة، كالتركية أو الأرمنية أو العربية[95].

وفي لبنان انتشرت اللغة الفرنسية حتى صار بعض اللبنانيين يتحدثونها أفضل من اللغة العربية. وفي العام 1907 تباهى القنصل العام الفرنسي في بيروت بأن «غزو لغتنا لسورية سيكتمل قريبا وسيكون غير قابل للنقض»[96]. وفي القسطنطينية وُصِفت اللغة الفرنسية في العام 1913 بأنها لغة «عالمية». و«كانت اللغة الفرنسية موجودة في كل مكان، ويتحدثها الجميع!» كما تذكر مقيم إنجليزي بالمدينة كان حينذاك في سنته المائة من العمر. وكانت اللغة الفرنسية منتشرة جدا حتى إن اللغة التركية امتلأت بالكلمات الفرنسية، مثل randevu (موعد) وkriz (أزمة) وmetres (عشيقة) وغيرها الكثير، بعد أن تشبعت بالكلمات العربية والفارسية. وبحلول العام 1970 كانت خمسة آلاف وستمائة كلمة فرنسية قد دخلت اللغة التركية[97]. وأصبحت اللغة الفرنسية خاصية مميزة للمشرق مثل المدارس الأجنبية والبحر.

كان مما قوى ارتباط الإسكندرية بالعالم الخارجي أن اللغة الفرنسية أصبحت بعد العام 1860 لغة التواصل الرسمية لدى الجاليات الأجنبية المختلفة بالمدينة، سواء داخل هذه الجاليات أو بينها وبين الحكومة المصرية. حتى إن إسماعيل باشا كان يكتب باللغة الفرنسية إلى ممثله في القسطنطينية، وهو شخص أرمني يدعى إبراهيم. وفي المحادثات، كان الباشا بـ«فرنسيته غير الدقيقة» ينهي كل جملة بالعبارة comme ci, comme ca, etcetera [وهكذا وهكذا إلى آخره]. وكانت علامات الطريق والوثائق الرسمية في الإسكندرية تُكتب باللغتين العربية والفرنسية، بينما كانت العلامات في المحلات تكتب غالبا باللغة الفرنسية وحدها. وكان معظم الزبائن وعمال المحلات يفهمونها[98]. وكانت البائعات في سلسلة المتاجر الكبرى أوروزدي باك Orosdi Back، التي أسسها لاجئون بلغاريون بعد الثورة البلغارية الفاشلة في العامين 1848-1949، والتي كانت لها فروع في الإسكندرية وبيروت وسميرنا، يتحدثن دائما اللغة العربية أو الإيطالية أو الإنجليزية أو اليونانية، و«قبلها جميعا اللغة

الفرنسية»[99](*).

كانت الجمهورية الثالثة الفرنسية تحظى بين التقدميين اليونانيين والأتراك والعرب واليهود في المشرق باحترام أكثر مما منحه لها مواطنوها في فرنسا التي كان للنظام فيها الكثير من الأعداء. فـ«فرنسا المُعَلِّم، وفرنسا المتمدنة، وفرنسا صديق الشرق، وفرنسا التي كسرت أغلال استعباد الشعوب المضطهدة» كانوا ينظرون إليها في المشرق كمرادف للحرية والتقدم. غضّ هؤلاء الطرف عن معاناة الجزائر وتونس تحت الحكم الاستعماري الفرنسي. واعتبر البعض التعليم الفرنسي علامة على الحداثة، ورأى البعض ضرورة القطيعة مع اللغة العربية والالتحاق بما اعتبروه ثقافة متفوقة[100].

أصبحت باريس العاصمة الثانية للمشرق- بعد القسطنطينية- والوجهة المفضلة للاجئيه السياسيين. لقد «عشقنا باريس، كما يعشق الإنسان إنسانا، بجسمه وروحه»، كما كتب الروائي التركي عبدالحق شيناسي حصار Abdulhak Sinasi Hisar. وكذلك تذكر يحيى كمال Yahya Kemal، الشخصية المؤثرة في ثورة تركيا الفتاة، الذي عاش في باريس بين العامين 1903-1912: «تشرق باريس في أحلامي كنجم ساطع يحجب ما عداه». حتى إن البعض شبّه باريس المتلألئة والسامية بمكة ذاتها[101]. فبينما كانت بريطانيا تسيطر على الأمواج، كانت فرنسا تسيطر على القلوب والعقول.

كان اليونانيون والإيطاليون، كما اشتكى قناصلهم، يستخدمون اللغة الفرنسية، حتى في الكتابة إلى مواطنيهم. وكرد فعل على ذلك، أسست الحكومة الإيطالية في العام 1898 جمعية دانتي أليغييري Dante Alighieri Society «لطَلينة مستعمراتنا التي انحطت بفعل الوجدان الفرنسي واللغة الفرنسية». وإبان القرن العشرين، ظل الكثير من المصريين واللبنانيين يفضلون الكتابة باللغة الفرنسية على اللغة العربية، أو إلى جانبها، من أمثال هؤلاء ألبرت كوسري وأندريه شديد وأمين

(*) تأسست سلسلة أوروزدي باك Orosdi Back في العام 1856 في مقرها الرئيس المبني على طراز الروكوكو الذي لايزال قائما في شارع عبدالعزيز بالقاهرة، وكان لها مع مطلع القرن العشرين ستون فرعا في مصر، وشهدت الشركة أزهى عصورها تحت اسم «عمر أفندي» بعد أن اشتراها أحد أفراد عائلة عدس اليهودية المصرية في العام 1921، حيث انتشرت في جميع مدن الجمهورية ومراكزها، حتى أممها جمال عبدالناصر في العام 1957، ثم تحولت في العام 1967 إلى شركة مساهمة تتبع الشركة القابضة للتجارة، ثم بيعت لمستثمر سعودي في العام 2005، وفي العام 2011 قضت محكمة القضاء الإداري ببطلان عقد بيع الشركة، لكن الشركة لا تعمل حاليا بسبب ديونها للبنوك وتراكم خسائرها على مدى سنوات. [المترجم].

معلوف[102](*).

في العام 1911 وصل لورد كتشنر ببارجة إلى الإسكندرية التي ساعد في احتلالها في العام 1882، ليتولى منصبه الجديد قنصلا عاما بريطانيا في مصر. كتجسيد للإمبراطورية البريطانية في أوج قوتها، وعلى خلاف التعليمات، كان كتشنر يرتدي زي الفيلد مارشال الأحمر بدلا من الزي الديبلوماسي الأزرق والذهبي. لكنه حين قدم أوراق اعتماده إلى الخديو عباس حلمي في رأس التين، تحدث باللغة الفرنسية[103]. فلو استخدم اللغة الإنجليزية، لما فهمه أحد.

(*) ألبرت كوسري Albert Cossery وأندريه شديد Andree Chedid مصريان، وأمين معلوف Amin Maalouf لبناني. [المترجم].

9

بيروت
الجوهرة في تاج الباديشاه

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب
فقد طمى الخطب حتى
غاصت الركب

إبراهيم اليازجي، بيروت، 1878

في الإسكندرية، كانت بريطانيا النهّاب/المنقذ الذي جاء محتلا. وفي بيروت، أرادت فرنسا أن تؤدي ذلك الدور، لكن مع تأييد واسع من معظم السكان المسيحيين. فقد كشفت المدينتان كلتاهما عن الصراع بين القوى المحلية والإمبراطوريات الأجنبية على مستقبل المشرق.

«كان البيروتيون على يقين من أن القدر يدّخر لمدينتهم مستقبلا واعدا. إذ كانوا واعين، كما جاء في إحدى المقالات الصحافية، «بالعسل الذي يقطر من خلية النحل البيروتية»

إبان الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، تصاعد الدعم السياسي والمالي الفرنسي «للأمة» المارونية. ودخل لبنان في دائرة النفوذ الفرنسية،

على الرغم من أنه ظلت تابعا للإمبراطورية العثمانية. كتب حاكم عثماني يدعى حمدي باشا عن رغبة الفرنسيين في ضم «كل سورية بوصفه مبدأ أساسيا في سياستهم في المنطقة. وإنجاز ذلك الهدف يتوقف على قوة ونفوذ رجال الدين الموارنة الذين يغذّون التطلعات إلى الاستقلال ويشعرون بارتباط قوي بالفرنسيين». وبالفعل أسرعت باريس إلى إعداد خطة لغزو ما أسماه قنصل فرنسي «بلدا فرنسيا في الأساس». وكتب مسؤول فرنسي آخر أن الأمر لن يتطلب إلا «قليلا من الدماء، وينتهي كل شيء»[1].

أصبحت بيروت بفعل جاذبيتها العاصمة غير الرسمية للدولة الصغيرة الجديدة المعروفة باسم جبل لبنان. فكان اللبنانيون يشتّون في بيروت، والبيروتيون يصيّفون في الجبل. وانتقلت عاصمة جبل لبنان من بيت الدين Beiteddine في الجبل إلى بعبدا الواقعة على بعد ستة أميال من بيروت، والتي يوجد فيها مقر الرئيس اللبناني حاليا. وكذلك بنى الحاكم العثماني أيضا سكنا له في المدينة نفسها. فلإدراكه أن بيروت تمثل «المفتاح إلى لبنان»، أراد الحاكم أن يلحقها بجبل لبنان. وبدأ جبل لبنان يبني مؤسسات مثل المجلس الإداري المكون من أربعة موارنة وثلاثة دروز وأرثوذكسيين اثنين وكاثوليكي يوناني واحد وشيعي واحد وسُني واحد، وكذلك نظاما انتخابيا لايزال قائما في لبنان إلى اليوم، ومنه على سبيل المثال أن الناخبين لايزالون مضطرين إلى العودة إلى قراهم الأصلية[2]. كانت الضرائب منخفضة، وكانت الإمبراطورية العثمانية على رغم حالتها المالية المتعسرة تدعم الجبل ماليا بدلا من أن يدعمها هو. وظل القناصل يتصرفون مثل الملوك وينتحلون «مظاهر أبهة وخيلاء لم تُتَح مطلقا للسفراء في القسطنطينية». ومع ذلك ظل الوضع سلميا وآمنا نسبيا[3].

وعلى رغم سنوات السلام، لم ينس اللبنانيون مذابح العام 1860 التي عمّقت مخاوف المسيحيين عبر أنحاء المشرق جميعها، وسببت هجرة جماعية من جانب المسيحيين السوريين واللبنانيين إلى مصر. من أدلة ذلك أن الشرطة حين حاولت أن تقبض على قاتل في بيرا، توهم المسيحيون أن مذبحة قد بدأت وأخذوا في الفرار نتيجة للهلع. وحدث هلع مماثل في سميرنا[4].

بعد العام 1860 دفع السلام تطورا اقتصاديا وثقافيا في بيروت. وفي العام 1863 انتهت شركة كومت دي بيرتيو من إنشاء طريق جيد عبر السبعين ميلا التي تفصل

بيروت عن دمشق. وأخذت مركبات السفر التي تجرها الخيول تقطع الطريق يوميا بين المدينتين.

أصبحت بيروت عاصمة كبرى للنشر. أُنشئت أول مطبعة في بيروت في العام 1751 على أيدي الكهنة الأرثوذكس[5]. وفي العام 1834 أُنشئت المطبعة العربية الثانية في بيروت، جلبها المبشرون الأمريكيون من مالطا، وهو العام نفسه الذي نقلوا فيه مطبعتين يونانية وأرمنية من مالطا إلى سميرنا. في بادئ الأمر، اقتصرت المطابع تقريبا على طباعة الكتاب المقدس والنصوص المسيحية، لكن سرعان ما استخدمت في نشر المواد للمكاتب الحكومية والتجار المحليين[6]. وفي العام 1857 أنشأ بيروتيان مسيحيان مطبعة خاصة، بدأت في طباعة أول صحيفة عربية غير رسمية في بيروت، هي «الحقيقة». في هذه المرحلة كان عدد الصحف والنشرات الدورية الصادرة في بيروت أكبر مما يصدر في أي مدينة عربية أخرى[7]. وبذلك بدأت المدينة تخصصها باعتبارها العاصمة الثقافية للعالم العربي. وبحلول نهاية القرن كان لبنان يضم أكثر من عشرين مطبعة، ثلاثة أرباعها في بيروت، كانت قد نشرت عدة آلاف من الكتب باللغة العربية[8].

وإلى جانب الطباعة، أصبحت بيروت أيضا عاصمة التعليم للعالم العربي. ففي العام 1823 افتتحت أول مدرسة تبشيرية أمريكية، لم يعارض المسلمون إنشاءها كما هو متوقع، بل الكاثوليك المحليون[9]. وفي العام 1835 أنشأ الأمريكيون واحدة من أولى مدارس الفتيات في الإمبراطورية العثمانية في بيروت[10]. وفي العام 1866 أنشأ المبشرون الأمريكيون الكلية البروتستانتية السورية بقيادة القس دانيال بلس Daniel Bliss في الحرم الجامعي الذي يعد اليوم إحدى الواحات الخضراء القليلة المتبقية في بيروت. وكما هي الحال مع كثير من المدارس التي أُنشئت في المنطقة، لم تكن الكلية مجرد وسيلة للإمبريالية الثقافية، إذ كان المنهج أمريكيا في الأساس وكان الطلاب المسلمون ملزمين في البداية بحضور الصلوات المسيحية وتناول الأطعمة غير الحلال، بل عملت في الوقت عينه على تزويد الطلاب بالأسلحة اللازمة لتحدي تلك الإمبريالية. وأصبحت مهد الوطنية السورية[11]. وفي العام 1882 احتج الطلاب حين فُصِل أستاذ ناقش نظرية داروين بشأن أصل الأنواع[12].

وعلى غرار البلدية التي أُنشئت في بيرا في العام 1857 أُنشئ في بيروت في العام 1868 مجلس بلدي جديد، يضم عددا مساويا من الأعضاء المسلمين والمسيحيين، وذلك قبل اثنين وعشرين عاما من تأسيس المجلس البلدي في الإسكندرية. وكان أول رئيس للمجلس هو نامي بك، ابن الضابط الذي حكم المدينة في عهد إبراهيم باشا إبان العقد الرابع من القرن التاسع عشر وبقي في بيروت[13].

ظلت بيروت تجذب مزيدا من المدارس والكليات. ففي العام 1875 وجزئيا بسبب التنافس مع المبشرين البروتستانت، أنشأ الجزويت مدرسة في بيروت، كانت الأصل لجامعة القديس يوسف الموجودة حاليا. وبفضل احتوائها على كليات طبية ولاهوتية ومطبعة وكلية للدراسات الشرقية وصحيفة، كانت هذه الجامعة «المكان الأكثر حيوية ونشاطا في المدينة»، وبالتالي المكان الأنسب للكاتب الفرنسي لويس بيرتران Louis Bertrand. كانت الجامعة تنشر كتبا باللغتين الفرنسية والعربية ومجلة المشرق[14]. وأُنشئت مدارس أجنبية أخرى للفتيات والبنين، منها المدرسة الألمانية للشماسات (1862)، والمدرسة الأمريكية للفتيات (1866)، ومدرسة نوتردام دي نازاريت (1869)، وكذلك مدرسة أرثوذكسية تموّلها روسيا. وأُنشئت كلية عثمانية بدعم من المسلمين من جميع أرجاء الإمبراطورية في العام 1895، وكلية فرنسية للحقوق في العام 1913[15]. مؤدى ذلك أن بيروت استفادت من كونها ميدانا للتنافس بين الأديان، إذ ساعدها ذلك في أن تصبح مدينة الجامعات في المشرق ومركز «النهضة العربية»[16]. وأخذ كثير من المسلمين يرتادون المدارس المسيحية، لأنها كانت الأفضل بين مثيلاتها. وأخذ بعض المسيحيين يرتادون المدارس الإسلامية.

تبنى البيروتيون المظهر الخارجي لطريقة الحياة الأوروبية بين العامين 1860 و1890، وهو وقت متأخر عن نظيره في الإسكندرية. افتتح أول محل ترزي أوروبي في المدينة في العام 1878، وسرعان ما حلت السترات الغربية محل القفاطين[17]. وبدأت الصحف المحلية تعلن عن الطاولات والكراسي والمرايا والسكاكين والشوكات والأطعمة والنبيذ الأوروبي. وأخذت البيوت تخصص غرفا منفصلة للنوم والطعام، كانت في الأغلب تفتح على قاعة وسطى كبيرة. وعلى خلاف البيوت التقليدية ذات الساحة أو الفناء والأسوار الخارجية غير المزخرفة،

شرع الحرفيون المحليون بعد العام 1840 في بناء بيوت مربعة عموما. تمثلت السمة الزخرفية الأساسية فيها في الأقواس الثلاثية المدببة في وسط الجدار المدعومة بأعمدة ضيقة والمشتملة على نوافذ بيضاوية تطل في الأغلب على البحر. وكان الأثرياء يتحملون شراء نوافذ زجاجية وأرضيات من المرمر وأسقف من الآجر الأحمر، كانت تستورد في البداية من مارسيليا، وبعد ذلك كانت تصنع محليا[18].

كان البيروتيون على يقين من أن القدر يدخر لمدينتهم مستقبلا واعدا. إذ كانوا واعين، كما جاء في إحدى المقالات الصحافية، «بالعسل الذي يقطر من خلية النحل» البيروتية. وفي العام 1862 غضبوا من تنزيل مكانة بيروت من عاصمة لولاية وإلحاقها بدمشق، في وقت كان التنافس فيه بين المدن لا يقل حدة عن التنافس بين الدول والأديان. وحينها، كما هي الحال الآن، كانت لكل مدينة منهما مصالح مختلفة، إذ كانت دمشق تعيش على الزراعة والحج إلى مكة، فيما كانت بيروت تعيش على التجارة والتعليم[19].

ونتيجة للاحتجاجات والالتماسات المتكررة من البيروتيين، أصبحت بيروت مجددا في العام 1888 عاصمة لولاية تتبع القسطنطينية مباشرة، وأصبحت عكا ونابلس وطرابلس واللاذقية تابعة لبيروت. وازداد عدد السكان، بفضل الهجرة من المنطقة الداخلية في المقام الأول، من ستة وأربعين ألفا في العام 1860 إلى مائة وثلاثين ألفا في العام 1914، وهو معدل زيادة أقل كثيرا مما شهدته الإسكندرية، لكنها تعد زيادة فلكية بالنظر إلى عدد سكان بيروت في العام 1800 البالغ ستة آلاف[20]. وبفضل مكانة بيروت الجديدة بوصفها عاصمة إقليمية، أصبحت بتعبير الرئيس المستقبلي بشارة الخوري «بحرا زاخرا بالبيروقراطيين... في زمن كانت البيروقراطية أو المناصب فيه هي كل شيء»[21].

كثيرا ما كان السلطان العثماني عبدالحميد الثاني، الذي حكم من العام 1876 إلى العام 1909، يتخذ من الإسلام سلاحا سياسيا. وسرعان ما تحول قصره في يلدز الكائن على تل مطل على البسفور إلى مركز للطرق الصوفية والوعاظ الذين كانوا يحصلون منه على مرتبات للحث على الولاء للسلطنة العثمانية في أنحاء العالم الإسلامي جميعها. لكنه مع ذلك، خص بيروت ذات الأغلبية المسيحية برعايته. ربما أراد بذلك

«كسر» طوق النفوذ الأجنبي في هذا الميناء المشرقي المكتظ بالمدارس والشركات الفرنسية، من خلال إعادة عثمنة الميناء، وكذلك للحفاظ على الوطنية السورية التي تفصل بيروت عن دمشق[22]. وعلاوة على ذلك، كانت عائلة ملحمة Melhame المارونية المعروفة لكثير من أعدائها باسم «المشينين»، توفر حلقة ربط بين مدينتهم المحلية بيروت وقصر السلطان في يلدز. كانت هذه العائلة تمتلك بيوتا في المدينتين، وكانت دائمة التنقل بينهما. شغل سليم باشا ملحمة منصب وزير الغابات والزراعة، وشغل أخوه نجيب باشا ملحمة منصب وزير الأشغال العامة والتجارة وكذلك قيادة أحد الأجهزة الشرطية التابعة للسلطان، وكان فيليب عضوا في البرلمان، وحبيب عضوا في مجلس الدولة[23].

كانت بيروت كلما ازدادت حداثة، ارتدت أكثر إلى الطابع العثماني، كأن الإمبراطورية كانت تُبعَث من جديد في بيروت. من ذلك أنه في العام 1851 بُنيت ثكنات إمبراطورية ضخمة على تل في أعلى المدينة، تسمى حاليا السراي الكبير وتشكل المقر الرسمي لرئيس لبنان(*). وفي العام 1884 بُنيت البناية الحكومية الرئيسة، أو السراي الصغير، لتكون مقرا للحكومة المحلية، وافتُتِحت على الجانب الغربي من الساحة الرئيسة بالمدينة التي كانت تُعرَف حينئذ باسم الساحة الحميدية على اسم السلطان. وكانت الحديقة العامة الحميدية الممتدة في منتصف الساحة تضم أكشاكا وفرقة موسيقية عسكرية[24]. وشُيِّد فنار في العام 1889، كان إحدى «منارات الإمبراطورية» العثمانية المائة والخمسين التي انتشرت في شرق البحر الأبيض المتوسط. وكذلك بنى عبدالحميد في بيروت، كما في العواصم الإقليمية الأخرى، مستشفيات ومدارس وكلية للفنون والحرف وأسبلة لماء الشرب ومراكز شرطة ومكتب بريد عثمانيا لمنافسة مثيلاتها الأجنبية. وعلى التل بجوار الثكنات، صمم المهندس المحلي يوسف أفتيموس Yussef Aftimos، تلميذ الكلية البروتستانتية السورية، الذي عمل في الولايات المتحدة الأمريكية، برج ساعة عثمانيا مُحْدَثا مزخرفا[25].

(*) بعد محطات كثيرة للسراي من «القشلة»، بمعنى الثكنة العسكرية، إلى «سراي الولاية» حين سكنه الحاكم العثماني، إلى «المفوضية العليا» إبان الانتداب الفرنسي، عاد «السراي الكبير» ثانية مقرا لرئيس لبنان بشارة الخوري لفترة قصيرة، صار بعدها مقرا لرئاسة مجلس الوزراء حتى الآن. [المترجم].

تنفيذا لاقتراح الحاكم المحلي، كان وجهان لبرج الساعة بالأرقام العربية ووجهان بالأرقام اللاتينية. بالنسبة إلى «السكان المسلمين» كان الوجهان الأولان يشيران إلى «المواقيت الإسلامية» التي يبدأ اليوم فيها من الغروب، وتقاس الساعات بداية من الغروب (كانت الساعة تضبط مرة كل أسبوع وفقا لتغير أوقات الغروب). وكان الوجهان الآخران يظهران التوقيت الإفرنجي الذي يبدأ اليوم فيه من منتصف الليل[26]. هكذا تعايش نظامان للزمن وموقفان من تنظيم الوقت جنبا إلى جنب في المدينة نفسها. افتتح هذا البرج الذي كان يُرى من بعيد وبُني بالحجارة والمرمر المحليين في الحادي والثلاثين من أغسطس 1899 بمراسم فخمة، ألقيت فيها كلمات باللغتين التركية والعربية امتنانا «لطبيعة السلطان المتألقة والخالدة». بيد أن تشييد هذا البرج لم يأتِ لحث الدقة في المواعيد بين رعايا السلطان فقط، بل أيضا لمنافسة برج الساعة الذي شُيّد في حدائق الكلية البروتستانتية السورية، والذي كان يظهر التوقيت الأوروبي فقط. ففي بيروت كان الدين يفصل التوقيت كما يفصل كل شيء آخر[27].

وفي الأعوام 1889 - 1894، ونتيجة لإلحاح تجار محليين من أمثال عائلة سرسق، شيّدت الشركة العثمانية الإمبراطورية للموانئ والمحطات التجارية البيروتية بقيادة كومت دي بيرتيو وسليم ملحمة ميناء حديثا ورصيفا وحاجز أمواج ومخازن. ومثلما كانت الحال في سميرنا وسالونيك، أصبح في مقدور السفن أن ترسو مباشرة على رصيف الميناء. وهُدِم معظم الحصن الصليبي القديم وأسوار المدينة في أثناء ذلك. وفي العام 1889 أدخِلت الإضاءة بالغاز ثم الترام الكهربائي في العام 1907. وفي العام 1895 رُبِطت بيروت بدمشق بقطار، وفي العام 1903 افتُتِح خط سكة حديد على أرصفة الميناء مباشرة. وازدهرت التجارة[28].

كان البشر أحد الصادرات الأساسية من بيروت. فعبر موانئ بيروت وطرابلس غادر البلاد آلاف اللبنانيين والسوريين، ربما عشرة آلاف سنويا بإجمالي نحو ثلاثمائة ألف بين العامين 1880 و1914، بحثا عن الثراء والأمن في الخارج، كان من بينهم في العام 1902 - في طريقهما إلى المكسيك - والدا كارلوس سليم الذي يعد حاليا (2010) «أغنى رجل في العالم». نظم عمليات الهجرة «سماسرة» كانوا ينتقلون من قرية إلى أخرى ينشرون حكايات عن الثروات التي يمكن تكوينها في الخارج (بعضهم نظّم رحلات فاجأت ركابها بانتهائها إلى أفريقيا بدلا من أمريكا، كان من أبناء هؤلاء

رئيس البرلمان اللبناني الحالي نبيه بري الذي ولد في سيراليون). ونظرا إلى أن 95 في المائة من المهاجرين كانوا مسيحيين، لأنهم كانوا أوفر حظا من المسلمين في التعليم والعلاقات التي تيسر لهم النجاح في البلاد المسيحية الأخرى، بدأت نسبة المسيحيين من السكان تتراجع[29].

جاءت ذروة بيروت الحميدية مع زيارة القيصر فيلهلم الثاني في نوفمبر 1898 مصحوبا بحاشية ضخمة. كان القيصر في طريقه من القسطنطينية إلى دمشق التي ألقى فيها خطابا أعلن فيه صداقته للثلاثمائة مليون مسلم في أرجاء العالم جميعها. غير أن التحالف الألماني الذي بدا في ذلك الوقت أنه يحمي الإمبراطورية من المفترسين الأوروبيين، كان فيه في النهاية هلاكها(*). في وسط حشود هادرة، زار القيصر وزوجته المدارس والمستشفيات الألمانية والمتنزه الواقع خارج المدينة واستعرضا القوات. وأعلن القيصر بيروت «الجوهرة في تاج الباديشاه»[30](**).

بحلول العام 1907 كان ميناء بيروت في مستوى سالونيك، يتعامل في 11 في المائة من تجارة الإمبراطورية. ومثل سالونيك أيضا شهدت بيروت إضرابات واضطرابات عمالية. كان السلطان في بعض الأحيان يحابي العمال على حساب شركة الميناء ورؤسائها. لذلك كان العمال يصيحون في رؤسائهم «أنت هنا لست في فرنسا، أنت في تركيا»، وأحيانا كانوا يخرجون من نزاعاتهم منتصرين. واعتبرهم القنصل العام البريطاني «حثالة المشرق»[31]. أظهرت بنايتان جديدتان بجانب الميناءK افتتحتا في العامين 1900 و1906 على التوالي، صلات المدينة المتزايدة مع أوروبا: متاجر أوروزدي باك والفرع المحلي الجديد للبنك العثماني. كانت هاتان البنايتان بسقفيهما السَّنَديين وزخرفتهما الكلاسيكيتين تشبهان بنايات فرنسا[32](***).

بالتزامن مع صعود بيروت كعاصمة تجارية وثقافية، أخذت المدينة تشتهر مثل الإسكندرية وسميرنا بما أسماه أحد قاطنيها «الحانات السحرية والنبيذ والأسرة

(*) بسبب دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور في الحرب العالمية الأولى، وما تلا ذلك من هزيمة واحتلال إسطنبول وتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية، ثم إعلان زوالها رسميا بإعلان الجمهورية التركية في ليلتي التاسع والعشرين والثلاثين من أكتوبر 1924. [المترجم].

(**) جمع الإمبراطور العثماني ألقابا من لغات متعددة، منها لقب «السلطان» من اللغة العربية، ولقب «الخان» من اللغة التركية، ومن اللغة الفارسية أخذ لقب «الباديشاه» Padishah بمعنى الملك العظيم، ولقب «الشاهنشاه» Shahinshah بمعنى ملك الملوك. [المترجم].

(***) السقف السَّنَدي، سقف له في جميع الجوانب منحدران أسفلهما أشد انحدارا من أعلاهما. [المترجم].

المعطرة». ومنذ العام 1860، وهو وقت مبكر، كانت مدام دي بيرتيو قد لاحظت أن «جنودنا ينشرون عادة الملاهي الليلية غير المعتادة هنا». وبدأ المجتمع الصغير الذي لم يعد من الممكن استيعابه كاملا في صالون مدام دي بيرتيو في ارتياد المسرح الذي نظمه الجنود الفرنسيون. وفي الشتاء كانت مدام دي بيرتيو تتناول عشاءها كثيرا في الخارج وتحضر حفلات راقصة، وذكرت أن «عائلة الشهابي كانت قد فقدت نفوذها وثروتها منذ وقت طويل»[33]. وفي بيوتها الفخمة، كانت عائلة الشهابي تستقبل عائلات سرسق وبسترس ودي فريج وتقيم الحفلات[34].

وفي غابة على حافة المدينة، كان رستم باشا، الإيطالي الذي اعتنق الإسلام وكان الحاكم العام لجبل لبنان من العام 1873 إلى العام 1883، قد أنشأ «حديقة إنجليزية». وفي المساء كان الباشا يقيم في الحديقة حفلة موسيقية، ويتبادل المجاملات مع السيدات في الكشك، وأصبحت الحديقة «ملتقى» للمتأنقين من الجنسين[35]. وفي العام 1893 أُنشئ مضمار لسباق الخيل على أطراف المدينة[36]. وبحلول العام 1900 كانت بيروت تضم ثمانية عشر فندقا وأربعين ماخورا، وكانت فتيات المواخير يُفحصن - نظريا - ثلاث مرات في الأسبوع[37].

***

ظلت بيروت مدينة مختلطة، يعيش فيها المسلمون والمسيحيون والدروز في الأحياء نفسها، وإن تركز المسلمون في الغرب والمسيحيون في الشرق. وكانت المدينة في الأغلب الأعم آمنة ومزدهرة جدا. لكن تحت السطح كانت بيروت - ككل الموانئ المشرقية الأخرى - قنبلة موقوتة. وحتى في ظل الحكم الصارم للسلطان عبدالحميد، الذي كان جنوده يجوبون المدينة في عروض عسكرية، والذي كانت عيونه موجودة في كل مكان، أدت التوترات بين المسيحيين والمسلمين إلى اضطرابات وأعمال قتل أثارتها ألعاب رياضية أو شجارات في الأعوام 1872 و1881 و1888 و1896. وفي بعض الأحيان كانت تقع أعمال قتل انتقامية من جانب المسلمين أو المسيحيين في ليال متعاقبة[38]. وكانت كل طائفة، كما جاء في شكوى حاكم عثماني لجبل لبنان، تفتخر بإخفاء مجرميها من الشرطة أو إرسالهم إلى أمريكا. فقد كانت هناك «خميرة للنزاع الديني». وفي الاضطرابات بين المسلمين والأرثوذكس في مارس وسبتمبر 1903، قُتل سبعة مسيحيين وخمسة عشر مسلما، وفر عشرون ألف مسيحي مؤقتا إلى

الأمان في جبل لبنان. وكان الوالي مشتبها في تورطه في هذه الأحداث[39]. ومثلما حدث في العام 1860 توقف حمام الدم بفضل وساطة الأعيان ووصول بارجتين أمريكيتين بناء على معلومات كاذبة عن مقتل نائب القنصل الأمريكي[40].

مع انتشار المدارس الحديثة فتحت التراجم والروايات والسير الذاتية - للمرة الأولى - نوافذ إلى القلوب والعقول التي كانت حتى ذلك الحين تحتجب وراء الامتثال الديني والاجتماعي. ينتمي إدوارد عطية إلى البرجوازية المسيحية المتمدنة، تحوّل أبوه إلى البروتستانتية ليُظهِر تمدنه وييسر له الحصول على أفضل تعليم في بيروت. يرسم عطية ما يمكن اعتباره صورة درامية سوداوية لبيروت بوصفها مدينة للنزاع. فحتى حين لم يكن هناك «تعصب ولا كراهية، ظل هناك دائما نزوع إلى أن يصنف الأفراد أنفسهم طائفيا وليس قوميا». وبفعل الخوف من المسلمين والإعجاب بالقوة والثقافة الأوروبيتين، «اكتسى كل شيء أوروبي ثوب التبجيل الديني»، خصوصا بعد أن أثبتت مذابح الأرمن في القسطنطينية في العامين 1895 و1896، التي نتجت من رغبة الأرمن في نيل مزيد من الحقوق أو الاستقلال، أن الحكومة العثمانية تتحول سريعا من التسامح إلى الشراسة. وسرعان ما غصت بيروت باللاجئين الأرمن[41].

كانت الشجارات بين العصابات المسلمة والمسيحية في شوارع بيروت تثير «إحساسا دائما بالخوف وعدم الأمان»، كان يتصاعد لدى بعض المسيحيين لدى الظهور العلني للمسلمات موشحات بالسواد. وفي العام 1896 قُتِل زعيم مسيحي يدعى الأسطى باولي (باول) اشتهر بحراسه من الرجال ذوي القفاطين والزنانير التي تعلق بها خناجر، بينما كان يمشي على الكورنيش مع صديق. أقيمت لباول جنازة شبه رسمية في بيروت، كانت الحشود المسعورة فيها تنشد أناشيد معادية للمسلمين وللعثمانيين، وتصاعدت حالة السعار بفعل صراخ النساء من الشرفات. وقبل أن توارى الجثة الثرى مباشرة، اقترب شاب أنيق يضع وردة في عروته ومنديلا معطرا في جيبه «من التابوت وانحنى على وجه الميت وقبّله». وبعد أسبوعين، دخل هذا الشاب دكان تبغ وأطلق النار على ثلاثة مسلمين (كانوا يُعرَفون بلباسهم) انتقاما لحبيبه، وليس لأنهم تحديدا هم الذين قتلوه، ثم اختفى بعد ذلك، ربما إلى خارج البلاد هربا من الثأر[42].

كان الأسطى باولي أحد «قبضايات» بيروت، وهي كلمة من أصل تركي تعني «القوي والزعيم». كان القبضايات شخصيات أساسية في عالم الجريمة بالمدينة.

وكانوا في الوقت عينه أفراد عصابات متورطين في التهريب والقمار، وزعماء وحكاما غير رسميين لمناطقهم أو طوائفهم، وفي أغلب الأحيان حراسا للقناصل أو الأعيان. واشتهروا بلباسهم المبهرج وشواربهم الطويلة وميلهم إلى العنف. قتل أحد القبضايات ثلاثة موظفين بالجمرك، لكن «الرشوة والرعب حالا دون مقاضاته»[43].

فضّل إدوارد عطية الإسكندرية على ما اعتبره «بيروت القرحة الإنسانية القذرة»، بشوارعها الضيقة القذرة وبالوعاتها الطافحة. وكانت الإسكندرية بالنسبة إليه المكان الحقيقي الذي يلتقي فيه الشرق والغرب، ومدينة حديثة على الطراز الغربي. وعلى رغم أن كثيرا من السوريين كانوا يفكرون ويتحدثون باللغة الفرنسية، فإن عطية بوصفه بروتستانتيا تمنى أن تخضع سورية «للحكم البريطاني»، إلى أن عمل في السودان وخبَرَ بنفسه «عجرفة السيطرة» لدى «أبناء الإله» البريطانيين[44].

10

سميرنا
اليونانيون والأتراك

تغزو الحضارة الغربية كل
مستويات المجتمع وكل طبقاته
بخطوات عملاقة، ولذلك تبعث
سميرنا بنورها إلى كل الولايات
الأخرى بالإمبراطورية العثمانية،
مثل منارة تضيء ما حولها.

شارلز دي شيرزر، ولاية سميرنا: من وجهة نظر اقتصادية وثقافية وفكرية، فيينا، 1873

في الإسكندرية، كانت بريطانيا النهّاب/المنقذ. وفي بيروت كانت فرنسا تستعد للقيام بذلك الدور. بيد أن توق كثير من سكان مدينة إلى أن تحتلها دولة أجنبية لم يكن أشد منه في سميرنا التي تطلع اليونانيون فيها إلى اليوم الذي تحتل اليونان فيه مدينتهم.

«قبل فترة طويلة من إصلاحات مصطفى كمال، في الأعوام من 1923 إلى 1938، كان أتراك سميرنا يتخلون عن التقاليد من تلقاء أنفسهم»

كان من الواضح في البداية أن سميرنا مُقدَّر لها أن تواصل قدرها التجاري الكوزموبوليتاني. وقد أنشئت بنية جديدة رمزا لذلك الدور، هي رصيف الميناء الحجري الضخم المسمى «الكردون» الذي يعد أكبر مشروع حضري في تاريخ الإمبراطورية العثمانية. جاءت فكرة الكردون من شركة أرصفة سميرنا Societe des Quais de Smyrne التي كونتها مجموعة من رجال الأعمال بسميرنا: بارون أليوتي Baron Aliotti وأي إسبارتالي A. Spartali وهير كريمر Herr Kraemer ومسيو كوزينري Monsieur Cousinery. حل الكردون محل رصيف الميناء الخشبي القديم وحواجز المياه الناتئة، وشيّدته على مسافة خمسين ياردة في البحر في الأعوام من 1867 إلى 1876 شركة الإخوة دوسو Dussaud Frères، وهي شركة خاصة من مارسيليا تخصصت في تطوير موانئ البحر الأبيض المتوسط، شيّدت أيضا أرصفة موانئ في مارسيليا وتولون والجزائر وتريسته وبورسعيد.

وكما كانت الحال مع انتشار اللغة والمدارس الفرنسية، كان كردون سميرنا هو الآخر إحدى علامات الهيمنة الفرنسية في المشرق. على أن المعارضة البريطانية في سميرنا لم تكن أضعف منها في قناة السويس، لكن في سميرنا، كما في الإسكندرية، كانت الغلبة للنفوذ الفرنسي بدعم من الحكومة العثمانية[1]. كان كبير المهندسين في مشروع الكردون شخصا يونانيا يدعى بوليكاربوس فيتاليس Polycarpos Vitalis، عمل أيضا في رصيف ميناء سالونيك[2]. وعلى الرغم من المحاولات البريطانية لانتزاع السيطرة، ظل الرصيف والميناء تحت الإدارة الفرنسية حتى العام 1934.

باستخدام كتل من حجر الصوان منقولة من نابولي أو من الداخل الأناضولي، وبعد هدم قلعة شاطئية بناها محمد الفاتح قبل أربعة قرون، دفعت الشركة البحر إلى الخلف بعيدا عن بيوت الفرنجة القديمة الواقعة على حوض السفن؛ ما جعل الرصيف بطول ميلين وعرض ثلاثين ياردة. وشُيِّد مكتب جمارك وتلغراف ومكتب جوازات وحجر صحي على حاجز المياه الناتئ عن رصيف الميناء. وبُني بجانب الميناء مرفآن مزودان بحواجز أمواج للحماية. كما رصفت شركة الإخوة دوسو المنطقة كاملة وشيّدت طريقا موازيا لرصيف الميناء[3]. وسرعان ما امتدت من سراي الحاكم المعروفة باسم الكوناك konak إلى الرعن المعروف باسم ألسانجاك Alsancak أو لابونتا La Punta، «بيوت لا أجمل ولا أفخم منها، ذات واجهات مرمرية بيضاء»

مكونة من ثلاثة أو أربعة طوابق بأسلوب كلاسيكي مُحْدَث رائع، على حد وصف التاجر السميرني ريتشارد فان لينيب Richard van Lennep. بقي مثال واحد لهذه البيوت بُني في الأعوام من 1875 إلى 1890، هو بيت عائلة إسبارتالي الأرمنية الذي يشغله حاليا متحف المدينة الذي يحمل اسم أتاتورك[4].

سرعان ما أصبح الكردون «المشهد» الرئيس في سميرنا وفتنة زوارها[5]. وظهرت بطاقات بريدية تحمل عناوين Mouvement du port [الحركـة فـي الميـناء] و Smyrne le port et les quais [ميناء وحوض سميرنا] وVue du Cordon [منظر الكردون] وTypes turques [نقوش تركية] تصوّر الكردون يكتظ بسفن تناطح صواريها المآذن وأبراج الكنائس المجاورة، وتغطي أرضه بالات القطن وصناديق التين. وفي البطاقات البريدية جميعها، يزيد عدد الرجال ذوي القبعات الغربية كثيرا على عدد الرجال ذوي الطربوش العثماني[6].

تتجلى في رسائل بعض الأفراد تصوراتهم المتضاربة لمدينة سميرنا ومزجها بين الشرق والغرب. فمن ناحية، كتب أحدهم: «سميرنا مدينة ساحرة سنغادرها ونأسف عليها. تشعر فيها بأنك في الشرق بكل معنى الكلمة». ومن ناحية أخرى، تساءل أحد الكُتاب: «ألا تظن أنك أمام منظر لمدينة أوروبية كبرى؟»[7].

قبل الغروب، كان المئات من الممثلين المتجولين يقطعون الجزء الشمالي من المدينة المعروف باسم بيلا فيزتا Bella Vista جيئة وذهابا، وكانت السيدات يتباهين بأحدث موضات باريس، ويتباهى الشباب بالأحذية القصيرة و«الجوارب الحريرية الغالية». كانت المدينة أكثر حيوية من شارع بيرا الكبير[8]. وحين يحل المساء، كما كتب أحد القناصل الفرنسيين، كان «حشد متزاحم من كل الأعمار والجنسيات» يتمشى جيئة وذهابا تحت مصابيح الغاز[9]. ووفقا لدليل صدر في العام 1881، كان «رصيف الميناء... هو مكان التنزه المفضل من المساء حتى وقت متأخر من الليل. وكانت المقاهي الكثيرة على طول الرصيف رائعة الإضاءة وملتقى لحشود متنوعة الأزياء، وتترامى الموسيقى الشرقية والأوروبية من كل جانب»[10].

ومثلما أبدعت لشبونة موسيقى الفادو fado، وأبدعت نيو أورليانز موسيقى الجاز، أبدعت سميرنا أكثر من أي ميناء مشرقي آخر صوتها المميز، وهو مزيج من الموسيقى اليونانية والتركية الحديثة يسمى السميرنايكا Smyrnaika، أو الريبيتيكو

rebetiko. تركت كل الجاليات التي عاشت في المدينة بصمتها على موسيقى الريبيتيكو: الزيبق واليونانيون والأتراك والأرمن واليهود والإيطاليون والأندلسيون والبلغاريون والكنائس والمعابد وتكايا الدراويش والحانات[11]. كانت الريبيتيكو موسيقى الثوار، حيث كانت محل تقدير من القبضايات أو الدايات (dais باللغة اليونانية)، وهم أولئك القساة الذين كانوا - مثل نظرائهم في بيروت - يعملون في الميناء نهارا، وفي المساء يقامرون ويتشاجرون بعضهم مع بعض.

مع نهاية القرن التاسع عشر، كانت المدينة قد اكتسحتها حالة من الهوس بآلات المندولين والكمان والجيتار والقانون. وفي ذلك كتب زائر فرنسي: «لم أرَ كل هذا العدد الكبير من الأرغنات اليدوية في أي مدينة أخرى»[12]. اشتهر شخص والاشي يدعى جيوفانكيس Giovanakis بـ «عزفه العذب على الكمان». وتذكر شخص يدعى بابازوغلو Papazoglu عمل عازفا في أحد المقاهي على الكردون: «كان يتحتم علينا أن نعزف أغنية أو اثنتين من أغاني كل قومية لإسعاد الزبائن. فكنا نعزف الموسيقى اليهودية والأرمنية والعربية. فقد كنا مواطنين عالميين كما ترى»[13].

كانت بعض المقاهي تسمى أمانية amanedes، وذلك لأن المغنين كانوا يتوقفون في أثناء الارتجال ويصيحون «أمان! أمان! (التي تعني بالتركية «العون!»، في إشارة إلى أن المغني لم يعد قادرا على تكبد الألم الذي تعبر عنه كلمات الأغنية). كانت أغاني الريبيتيكو، التي تختلف عن كل من موسيقى المسارح والصالونات الإيطالية الخفيفة وعن الموسيقى القروية التقليدية، تمزج بين تعدد الأصوات في الموسيقى الغربية وأحادية الصوت في الموسيقى الشرقية. كانت تلك الأغاني المتمردة في طبيعتها تصف معاناة الفقراء والسجناء وعذاب الحب أو ملذات الحشيش، ولهذا السبب حظرتها الحكومة اليونانية الاستبدادية في العام 1936[14]:

ألن تخبرني، ألن تخبرني
أين يباع الحشيش؟
يبيعه الدراويش
في الأحياء العليا[15].

وفي سميرنا، كانت النساء يظهرن في الأغاني جميلات ومستبدات:

حبيبتي، ابعدي عني عينيكِ السوداوين

اللتين تحدقان فيّ، لأنهما تقتلاني.

وكانت بعض الأغاني تلمح إلى الحب العابر للحدود الدينية:

أوشك أن أغيّر ديني
حتى أتمكن من الإسراع إلى الحريم والإتيان بكِ
أيتها التركية الصغيرة الجميلة.

وفي أغلب الأحيان، كانت الأغاني تنوح من غدر الحبيب:

لا تقسمي يا كاذبة ولا تستمري في البكاء.
آه، آه، آه!
فقد سمعتكِ قبل أيام تمنحين الوعود نفسها لحبيب آخر.
وعيناكِ اللتان تحدقان فيّ،
آه، آه، آه!
أستطيع أن أعرف من لونهما أنهما غادرتان.
أنتِ تسهرين الليل كله في مقاهي الغناء، تشربين البيرة، آه!
وتتعاملين معنا جميعا كما لو كنا كافيارا أخضر[16](*).

إجمالا، انتشر ثمانية وعشرون فندقا ومقهى وخمّارة على طول كردون سميرنا. كانت في بادئ الأمر «حقيرة وقذرة ... ولا تليق بالشعب الإنجليزي»، كما جاء في كتاب موراي[17]. لكنها سرعان ما تحسنت، وكان من أفضلها سبورتنغ كلَب Sporting Club [النادي الرياضي] الذي بناه بوليكاربوس فيتاليس في العام 1894. ضم النادي غرفا فسيحة وحديقة وغرفة للفرقة الموسيقية وشرفة شهيرة كان الأعضاء يراقبون منها مشهد الغروب مع زجاجات الراكي[18]. كان من بين الفنادق أوتيل دي دو أوغست Hotel des Deux Auguste الذي سمي لاحقا فندق غراند هوتيل هوك Grand Hotel Huck، وفيه كانت الحلقة الأوروبية، وهو الاسم الذي أطلق لاحقا على الكازينو القديم، تقيم حفلاتها الراقصة في فصل الشتاء. كان مقهى باريس Cafe de Paris فرنسيا، ومقهى الحمراء Alhambra وبوسيدون Poseidon يونانيين، وكان شرب البيرة في مقهى هوفمان Café Hoffmann يُشعِر المرء بأنه في فيينا.

(*) الكافيار الأخضر green caviare، نبات بحري شبيه بالعنب ولذلك يسمى أيضا العنب البحري، منشأه شرق آسيا، ويستخدم كنوع من المقبلات. ربما كان يستخدم كنوع من المَزة في خمارات سميرنا. [المترجم].

كان أكبر الفنادق على الإطلاق هو فندق غراند هوتيل كريمر بالاس Grand Hotel Kraemer Palace، الذي تولى إدارته رجل نمساوي من تريسته، كان ارتفاعه أربعة طوابق وعرضه إحدى عشرة نافذة، وكان يوجد بجواره مقهى مغطى بالزجاج[19]. كان الرجال جميعا - اليونانيون والأتراك، الأهالي والأوروبيون- يرتادون المقاهي، لو كانوا قادرين على تحمل نفقاتها. وفي حال وقوع شجارات، فإنها كانت في العادة تضم غرباء، كالجنود الأتراك العائدين من الخدمة في طرابلس أو البحارة البريطانيين السكارى في إجازاتهم من الأسطول[20].

زار الكاتب نورمان دوغلاس Norman Douglas المدينة في العام 1895، وأغوته:

> كانت سميرنا - أيا كانت الحال التي صارت إليها حاليا - حين زرتها أجمل مكان على وجه الأرض: ذلك البازار الشرقي الساحر، والحشود المتنوعة حول الميناء، والحركة والصخب الشرقيين، أو إن كنت في حالة مزاجية أكثر صفاء، فهناك الجبّانة بأشجار السرو الرائعة التي تزينها أو الحي اليوناني المملوء بالحسناوات الأجمل كثيرا من فـتيات اليونـان نفسها... لقد أثبت الأسبوعان اللذان قضيتهما في سميرنا... أنهما أسعد أيام حياتي، فقد عشت فيها حالة من السعادة القصوى.

وجد دوغلاس متعة خاصة في مقهى قريب من الكردون كان يقدم برنامجا ترفيهيا «رخيصا وجذابا»، كان بمقدور الزبون فيه أن «يأخذ فتاة أو أي شيء آخر يريده»، وأعلى المقهى كان يوجد مطعم تجد فيه أي شيء ترغب فيه على العشاء، وغرف نوم في الطوابق العليا يمكنك أن تختلي بنفسك فيها في «ساعة الراحة». «تدفع المال، فتأخذ المفتاح. لماذا لا تنتشر أمثال هذه الأماكن الممتعة؟»[21].

كانت سميرنا، مثلما كانت الحال في الإسكندرية وبيروت، مثالا للتحرر من الدولة القومية. وفي عيني ديميتري أرغيربولو Dimitri Argyropoulo، كان الكردون نسخة أحلى وأمتع للنفس من الشارع الرئيس بمارسيليا المعروف باسم كانيبيير. فسميرنا كانت «أوروبا المشرق ومشرق أوروبا في آن معا»[22]. وكان الأتراك ينجذبون إليها تماما مثل اليونانيين، وربما بدرجة أكبر منهم، وذلك لأن الأتراك كانوا يحتاجون إلى جوازات سفر خاصة من الحكومة العثمانية للسفر داخل الإمبراطورية

العثمانية وخارجها ما جعلهم أقل احتكاكا بالمدن المشابهة. وقد دوّن الكاتب التركي ناجي غونديم Naci Gundem في مذكراته أن الكردون هو الذي جعل من سميرنا سميرنا. فمن الغروب حتى منتصف الليل، كان الكردون أشبه «ببلاد العجائب»، وتميز بـ«جو سحري يدخل البهجة على الأرواح المتجهمة والمكتئبة»[23]. وقيل إن «سميرنا إن كانت هي عين آسيا، فإن رصيف الميناء كان إنسان تلك العين»[24].

في الليل، كان رصيف الميناء يكرس للمتع، وفي النهار للتجارة. فطوال النهار، كان الكردون يزدحم بالسفن التي تفرّغ حمولاتها وعربات أو عير البضائع التي تجلب التين والقطن من المناطق الداخلية مباشرة إلى رصيف الميناء للتحميل. وكان الكثير من السفن يمارس عملا عُرِف باسم ديسباركو disbarco، وفيه كانت السفن ترابط بعيدا في البحر حتى تتهرب من دفع رسوم الميناء وكانت تستخدم المراكب المحلية لتوصيل الحمولات إلى البر[25]. يذهب أحد التقديرات إلى أن الإنتاج الزراعي للأناضول تضاعف أربعة أضعاف بين العامين 1845 و1876، وارتفعت نسبة التجارة الدولية العثمانية العابرة من سميرنا من سبعة ونصف في المائة في العام 1850 إلى ثلاثين في المائة في العام 1873. وبحلول العام 1900، كان خمسة وخمسون في المائة من كل الصادرات العثمانية يمر عبر سميرنا. وبُنيت مخازن واسعة بالقرب من الكردون، ولم تعد المدينة عين آسيا فقط، بل مخزنها أيضا[26].

ارتفع عدد السفن التي تزور الميناء من ألف ومائتين وخمس وتسعين في العام 1863 إلى ألفين وأربعمائة وخمس وستين في العام 1900. وكان سبعة عشر خطا ملاحيا يمر بسميرنا. توحي أسماء تلك الخطوط بحقبتها الزمنية: الخط الحميدي Hamidiye Line، وشركة البوسطة الخديوية Khedivial Mail، والخط المشرقي الألماني Deutsche Levantc Linie، والخط الملاحي الفرنسي Messageries Maritimes وخط لويد النمساوي Austrian Lloyd وخط شبه الجزيرة والمشرق Peninsular & Orient [27]. ومنذ العام 1850، وهو وقت مبكر حقا، تذمرت من ذلك صحيفة فرنسية سميرنية تدعى «لامبارسيال» L'Impartial [النزيه] قائلة إنه بسبب كثرة السفن البخارية، أصبحت الحياة «صخبا لا ينقطع»[28]. كانت سميرنا تقع على الطريق السياحي. وكانت الرسائل المدوّنة على البطاقات البريدية المرسلة من سميرنا تحمل معلومات مثل «أغادر

غدا إلى رودس وحلب، الطقس جميل، مع أطيب تحياتي»، أو «سأغادر سميرنا، الشمس مشرقة والبحر هادئ، من الصعب أن تشتري أشياء كثيرة وأن تعبر سريعا كما نفعل، كان عليّ أن أمكث بعض الوقت في البلد للحصول على الأشياء رخيصة»[29]. وكما كانت الحال في المدن المشرقية الأخرى، فتحت القوى الأجنبية مكاتب بريد خاصة بها في سميرنا. وكان المكتبان النمساوي والفرنسي الأكثر رواجا[30].

جمعت سميرنا بين تجارتها التقليدية في التين والزبيب والقطن مع تجارة الأفيون الذي ارتفع استهلاكه كثيرا بعد حـروب الأفيـون (في الأعـوام 1839-1842، والأعـوام 1856-1860) التي شنتها بريطانيا لإجبار الحكومة الصينية على إعطاء التجار البريطانيين حرية بيع الأفيون مباشرة إلى الصينيين(*). فكان الإخوة باركر يعلنون عن أنفسهم على هذا النحو: «تجار الأفيون والفواكه والمحاصيل العامة بسميرنا، تركيا». وكان التجار الهولنديون بسميرنا من أمثال عائلة فان لينيب يصدّرون الأفيون مباشرة إلى المستعمرات الهولندية في إندونيسيا[31]. واكتسحت المدينة حمى تجارة الأفيون، «ليس في المكاتب والأسواق فقط، بل في الشوارع والمقاهي أيضا... وحتى النساء والخادمات كن يتعاطينه»، كما ذكر أحد المقيمين الهولنديين[32]. لكن السميرنيين تخلوا عن الأفيون لمصلحة النبيذ كجزء من عملية الأوربة[33].

لم تكن سميرنا جزيرة مقطوعة الصلة بساحل تركيا، بل كانت صلاتها الاقتصادية والثقافية والسياسية بالداخل التركي وكذلك العالم الخارجي تتعاظم. فكان الميناء يحصل على غذائه عن طريق الخط الحديدي سميرنا - أيدين، وهو ثاني خط حديدي يشيّد في الإمبراطورية العثمانية، بعد الخط الواصل بين الإسكندرية والقاهرة. حصل أربعة رجال أعمال بريطانيون على امتياز تشييد هذا الخط الحديدي في الثالث والعشرين من سبتمبر 1856 بغرض تسريع عملية توصيل فاكهة الوديان إلى الميناء[34]. وفي الثلاثين من أكتـوبر 1858، وضـع السـفير العظيـم ستراتفـورد كاننغ Stratford Canning الذي نال أخيرا لقب لورد ستراتفورد دي ريدكليف Lord Stratford de Redcliffe، حجر الأساس لمحطة سميرنا، وهو في

(*) عندما منعت الحكومة الصينية في العام 1833 تجارة الأفيون التي فرضتها وتربحت منها شركة الهند الشرقية البريطانية وحكومة الهند البريطانية والتجار البريطانيون الخاصون، شنت عليها بريطانيا الحرب التي عرفت باسم حرب الأفيون في الأعوام 1839-1842 (ومرة أخرى في الأعوام 1856-1860) وانتزعت منها هونغ كونغ وفتحت خمسة موانئ قسرا أمام التجارة البريطانية، كان من بينها شنغهاي، وشرّعت تجارة الأفيون. [المترجم].

طريق عودته إلى التقاعد في إنجلترا. بعد أن نجح في حسم حرب القرم (التي اعتبره الكثيرون مسؤولا جزئيا عن اندلاعها)، كشف خطابه في حفل وضع حجر الأساس عن رؤيته للعالم وولعه بالاحتفاء بذاته.

قال كاننغ في هذه المناسبة إنه «وضع حجر الأساس للقوس الذي عمل طويلا من أجله، لربط المصالح الأوروبية بمصالح تركيا». وتطلع إلى اليوم الذي تربط فيه السكك الحديد بين كلكتا ولندن، وكذلك «الممتلكات العثمانية التي أصبحت حاليا خاضعة لهيمنة البريطانيين، يمكن ربطها بشبكة من السكك الحديد». وتمنى كاننغ أن «تتراجع الإساءات والتعصب والعداوات القومية ... أقولها لكم بصدق يا سادة إن أوروبا لها مصلحة كبيرة في نهضة تركيا. وها هي الحضارة الغربية تدق بقوة على أبواب المشرق». كما أعلن خوفه من «الصراع العنيف من أجل تقسيم الإمبراطورية العثمانية الذي ناضل رجال دولتنا المقتدرون طويلا لتفاديه ... لا يمكن أن ننكر أن الأخطاء والكوارث المتتالية أوهنت تركيا وأعاقتها». واختتم كلمته بالقول: «لا تيأسوا. هل بُنيت روما في يوم واحد؟ ... هل جاءت الحرية البريطانية نتيجة لعمل عصر واحد؟ ... لا أجد خاتمة لكلامي أفضل من دعوتكم إلى أن نشرب جميعا في نخب سميرنا الذي لا يساورني شك في أنكم جميعا ستتجاوبون معي فيه، لنشرب نخب الخط الحديد سميرنا - أيدين»[35]. ساعد هذا الخط الذي اكتمل في العام 1866 في دمج وادي ميندر Meander valley في اقتصاد سميرنا المزدهر.

وإلى جانب الميناء، كانت المدينة نفسها تشهد ازدهارا. إذ شُيّدت أحياء جديدة ببيوت أوروبية في شمال المدينة وشرقها[36]. وعبر خليج سميرنا، رُبط حي كورديليو Cordelio أو كارشياكا Karshiyaka الجديد الذي كان الأتراك يفضلونه عن غيره، بعبّارة بوسط المدينة. كان من هؤلاء الأتراك عائلة أوليا زاده Evliyazade الغنية، التي شغل اثنان من أبنائها منصب رئيس بلدية سميرنا، هما حاج محمد أوليا زاده Evliyazade Hajj Mehmed و«الكافر» رفيق Gavur "Refik» أحد مؤسسي نادي سباق الخيل بسميرنا الذي شغل منصب رئيس البلدية في الأعوام من 1913 إلى 1918، ومنها أيضا عائلة غنية أخرى استقرت في سميرنا منذ وقت طويل هي عائلة كاتب زاده Katipzades التي شغل أحد أبنائها، هو عدنان مندريس Adnan Menderes، منصب رئيس وزراء تركيا في الأعوام 1950-1960[37].

قبل فترة طويلة من إصلاحات مصطفى كمال، في الأعوام من 1923 إلى 1938، كان أتراك سميرنا يتخلون عن التقاليد من تلقاء أنفسهم. إذ كانت عادات المدينة وتقاليدها فعالة في تغيير العقليات، تماما كما كانت فعالة في تغيير المراسيم الحكومية. وبينما انصرف اليونانيون إلى بناء البيوت ذات الطابق الأول المرتفع على «طريقة خيوس»، أخذ الأتراك يبنون بيوتهم على الطريقة الباريسية بأثاث غربي وغرف خاصة في البيت لاستقبال الضيوف، بدلا من السلاملك المنفصل في الحديقة. كان توفيق نوزت Tevfik Nevzat محرر صحيفة «الخدمة» Hizmet يرتاد المقاهي على الكردون ومعه زوجته حاسرة الوجه، وبسبب راديكاليته السياسية، نفاه السلطان لاحقا إلى أطنة التي أُعدِم فيها[38]. كما اشتهرت النساء المسلمات في سميرنا بعدم تقيدهن بطريقة اللباس الإسلامية التي كانت قد تعززت بقرارات السلطان عبدالحميد. وعلى رغم الأوامر السلطانية المتكررة بالعودة إلى الشريعة، ظلت نساء سميرنا يمشين على الكردون بأحجبة شفافة أو بلا أحجبة تماما وبعباءات ضيقة تبرز أجسامهن. وعلى خلاف الحال في القسطنطينية، كان الرجال والنساء في سميرنا يسافرون أحيانا معا في الترام والمراكب، بدلا من السفر في عربات أو أجنحة منفصلة لكل منهما[39].

كانت سميرنا تتحول إلى مدينة للمصانع، على رغم أنها لم تكن تُرى من الكردون. أنشأت شركة ماك - أندرو وفوربس McAndrew & Forbes مصانع بخارية في العام 1850، وشيّدت كذلك مصانع في وادي ميندر لمعالجة المصطكاء والعرقسوس للتصدير، وكانت تجمع الضرائب هناك لمصلحة الحكومة العثمانية. وفي العام 1854 قام يوناني ثري يدعى ديمو إيسيغونيس Dimo Issigonis، جد أليك إيسيغونيس Alec Issigonis مصمم السيارة ميني(*)، بإنشاء واحد من أحدث المصانع في الإمبراطورية لصنع المضخات الهيدروليكية وغيرها من المكائن. وكانت هناك أيضا مطاحن للدقيق ومصانع للورق والمنسوجات والكحول والصابون. وفتحت متاجر كبرى مثل أوروزدي باك فروعا لها في سميرنا، كما فعلت في أنحاء المشرق كافة[40]. وكانت العرائس تأتي من القسطنطينية نفسها لشراء جهازهن من سميرنا بفضل

(*) السيارة ميني Mini، سيارة اقتصادية صغيرة أنتجتها الشركة البريطانية للسيارات BMC وطورتها من العام 1959 حتى العام 2000. [المترجم].

شهرة محلاتها. وكان شارع الفرنجة، وهو شارع التسوق الرئيس الذي اصطفت على جانبيه دكاكين حملت أسماء مثل بون مارشيه Bon Marche وبيتيت لوفر Petit Louvre، يكتظ بالمارة لدرجة تُعجِز الناس عن الحركة فيه[41].

وفي العام 1882، قال القنصل الفرنسي إن سميرنا «مدينة مُقدّر لها نمو تجاري هائل، فازدهارها وسكانها الكوزموبوليتانيون ينمون يوما بعد يوم»[42]. وتأسست غرفة عثمانية للتجارة في العام 1885 برئاسة شخص أرمني وأعضاء من الأتراك واليونانيين والأرمن واليهود، وتلتها غرفة بريطانية للتجارة في العام 1888، وفرنسية في العام 1889، وإيطالية في العام 1900، وهولندية في العام 1902[43].

رافق ازدهار سميرنا التجاري نهضة ثقافية. فمثلما كانت الحال في الإسكندرية وبيروت، كانت سميرنا مدينة للمدارس. كان من بينها مدارس فرنسية، أدار اثنتين منها رهبان لازاريست ودومنيكان، تأسستا في العام 1787 والعام 1857 على التوالي، ومدرسة أدارتها رهبانية سير دي شاريتي، كانت مفتوحة للفتيات من كل الأديان لتعليم القراءة والكتابة والرسم والتطريز. وأُنشئت مدرسة تجارية إنجليزية في بورنوفا في العام 1848، ومدرسة نوتردام دي سيون لفتيات النخبة في العام 1875، كما أنشأت رهبانية فرير ديكول كريتيان سبع مدارس أخرى[44]. وبحلول العام 1911، كان هناك سبعة عشر ألفا وثلاثمائة وثلاثة طلاب في سميرنا والأناضول يرتادون مدارس تقدم التعليم باللغة الفرنسية[45].

أنشأت المنظمة التربوية اليهودية المعروفة باسم التحالف الإسرائيلي العالمي Alliance Israelite Universelle مدرسة للبنين وأخرى للفتيات اليهود في العام 1873 والعام 1878 على التوالي، كانتا تقدمان تعليما فرنسيا قائما على التاريخ والجغرافيا الفرنسيين وعبادة باريس «مدينة النور» التي استضافت المقر الرئيس للتحالف. ونتيجة لذلك أصبح اليهود والكاثوليك ناقلين للثقافة الفرنسية في المشرق[46]. وفتحت الإرساليات التبشيرية الأمريكية مدرسة ثانوية للفتيات وأخرى للبنين في العام 1878 والعام 1879 على التوالي. وفي العام 1891، أُنشِئت كلية دولية للبنين وانتقلت خارج المدينة إلى حرم جامعي حديث في باراديسو Paradiso في العام 1913. وعلى غرار فيكتوريا كوليدج بالإسكندرية، أُنشِئت الكلية الدولية لكي تفتح أبوابها «للطلاب من كل القوميات». كانت اللغة الإنجليزية إلزامية في الكلية، وبحلول العام 1912، كان

أربعمائة وخمسون طالبا وثمانمائة طالبة يرتادونها، معظمهم من اليونانيين والأرمن المحليين الذين تحول الكثيرون منهم بعد ذلك إلى بروتستانت[47].

كما فتحت الحكومة العثمانية مدارس للزراعة والفنون والحرف ومدارس للأيتام[48]. ومع ذلك، فقد فضّل العثمانيون الأغنياء إرسال أبنائهم إلى المدارس «الأجنبية»، ومنهم عدنان منديريس الذي تلقى تعليمه في الكلية الدولية بسميرنا. فكما هي الحال مع المدارس الخاصة في معظم البلدان في الوقت الراهن، كانت سمعة المدارس الأجنبية ومدارس الأقليات بميزتها المالية أفضل من المدارس العثمانية، حتى في تعليم اللغة العثمانية ذاتها[49].

كان من أوائل الروائيين الأتراك الذين عاشوا في سميرنا خالد ضياء أوشاكليغيل Halid Ziya Usakligil، مؤلف رواية «العشق الممنوع» (1900)، الذي ولد في العام 1866 لعائلة غنية من تجار السجاد[50]. كتب خالد ضياء في مذكراته أنه على الرغم من شعوره بالحنين إلى القسطنطينية، فإنه تحول تدريجيا إلى حب سميرنا. كان خالد ضياء قد التحق بمدرسة حكومية عثمانية، لكنه لاحظ أن مدرسة التحالف الإسرائيلي العالمي القريبة أكبر وأفضل كثيرا. ففي المدرسة العثمانية، كانت الدروس تقتصر على الأساسيات، مثل اللغة العربية والفارسية والتركية والجغرافيا البسيطة، ثم أضيفت بضع ساعات للغة الفرنسية كما لو كانت ضيفا ثقيلا على حفلة عشاء، ولم تكن المدرسة تعطي واجبا منزليا لطلابها. أما مدرسة التحالف، فكانت تعلم الطلاب (على أيدي مدرسين مدربين في باريس) مواد تساعدهم على النجاح في التجارة، مثل اللغات والرياضيات والاقتصاد. كان الشيء الوحيد الذي لا يتعلمه الطلاب في مدرسة التحالف هو اللغة التركية، وحتى لو كان الطلاب يعرفون النزر اليسير من هذه اللغة، فإنهم كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفونها على الإطلاق، إذ كان ذلك من علامات التفاخر بين غير المسلمين في سميرنا. وبالنسبة إلى الأتراك، كانت التجارة في سميرنا تبدو كشبكة عنكبوت يصعب عليهم اختراقها، وذلك لأن تعليمهم صعّب عليهم التنافس مع المسيحيين واليهود[51].

تلقى خالد ضياء أيضا جزءا من تعليمه في مدرسة كاثوليكية أرمنية، قال إنه كان ثالث مسلم في سميرنا يرتادها. وقد انتقده بعض الأتراك المسلمين لعدم تدينه وإلحاده وحبه للتفرنج، حتى إن أحد المسؤولين حيّاه ساخرا على الكردون بالكلمات

«بونجور مسيو» (كان هذا المسؤول نفسه محلا للسخرية من الأجانب بسبب ارتدائه اللباس التقليدي). كما انتُقِدت رواياته الأولى (نُشِر خمس منها بين العامين 1889 و1900) لمجافاتها للتقاليد الإسلامية[52].

كان الكثير من المسلمين يعتبرون القرآن الكريم تعليما في ذاته والسعادة القصوى التي تسبق حتى السعادة بالعائلة والعمل. ولم «تنبعث الحاجة إلى الدراسة والتعليم» بين الأتراك إلا في السنوات القليلة السابقة على العام 1908[53]. لكن في المقابل، أحب خالد ضياء مدرسته الأرمنية التي كان الكهنة أنفسهم فيها ملمين كذلك بالكيمياء والأحياء ويكرسون كل وقتهم للتلاميذ، من دون أن يسعوا إلى إدخالهم في دينهم، وكان كل يوم جديد فيها يأتي كإعصار عاصف. وقد ساعده تعلم الفرنسية وحب أعمال فولتير وفيكتور هوغو وغوستاف فلوبير وإرنست رينان في أن يصبح كاتبا[54].

كان المرض يفصل بين الجاليات المختلفة، كما تفصل بينها المدارس. فكانت هناك مستشفيات منفصلة تقدم رعايتها للسكان الفرنسيين والبريطانيين والهولنديين واليونانيين والأرمن والكاثوليك واليهود والمسلمين، إذ كانت تعالج المرضى من قوميتها أو دينها في المقام الأول. وكانت الجالية اليونانية تمتلك أيضا مستشفى نفسيا، اعتبرته صحيفة أمالثيا Amalthea اليونانية دليلا على تفوق الرسالة الحضارية لليونانيين في الشرق[55].

كانت المدارس في حاجة إلى الكتب والمطابع. وبحلول العام 1872 ضمت المدينة عشر مطابع يونانية وثلاث مطابع أرمنية ومطبعتين فرنسيتين ومطبعة عثمانية ومطبعة عبرية، وهي إحصائية واحدة تكشف عن الهيمنة اليونانية على سميرنا (وفي العام 1910 كان أربع عشرة من المطابع الست والعشرين في المدينة يونانية)[56]. وبحلول العام 1890 كانت المدينة تنشر أربع صحف يونانية وثلاثا تركية وثلاثا فرنسية وثلاثا لادينووية. تكشف أسماء هذه الصحف عن شخصية المدينة. فأمالثيا التي تأسست في العام 1838 سُميت على اسم العنزة التي أرضعت زيوس، على اعتبار أن «سميرنا الرائعة عقل آسيا الصغرى وقلبها وروحها» تغذي يونانيي الشرق. وتأسست صحيفة «الخدمة» التركية في العام 1886 على يد خالد ضياء، الذي تذكر أنها كانت تُشترى في الأغلب بفضل قوائم أسعار السلع التي كانت تنشرها[57]. وكانت صحيفة آهينك Ahenk (التي

تعني «التوافق» باللغتين التركية والأرمنية) منتشرة بين الأرمن، وصحيفة لابوث ديل بيبلو La Boz del Pueblo (التي تعني «صوت الشعب» باللادينووية) منتشرة بين اليهود. وبين العامين 1892 و1921، أخذ جوزيف نالباس Joseph Nalpas، عم الكاتب المسرحي الفرنسي أنطونين أرتو Antonin Artaud، ينشر الكتاب السنوي للمشرق Annuaire du Levant في سميرنا[58]. وكان من الصحف الرئيسة باللغة الفرنسية لوكوريه دي سمين Le Courrier de Smyrne التي قيل عنها: «إذا أردت الأدب، فاشتري لوفيغارو Figaro أو غولوا Gaulois. وإذا أردت السياسة، فاشترك في تيمب Temps. لكن إذا أردت أن تعرف ماذا يقول الناس في صالونات سميرنا ومقاهيها، فلا بد أن تقرأ لوكوريه دي سمين»[59].

تعهدت المدارس والصحف مؤسسات ثقافية. يشير الكتاب السنوي للشرق Oriental Yearbook لشيفرد Shepherd الصادر في العام 1859 إلى «جمعية سميرنا الأدبية والعلمية» الكائنة في 19 شارع الفرنجة، التي تضم غرفة مطالعة ومكتبة وصحفا بعدة لغات وتقدم دروسا في الفلسفة يوم الاثنين ومحاضرات يوم الخميس. تقابل هذه المؤسسة المعهد العلمي الأوروبي Institut Scientifique Europeen الذي أُنشئ في العام 1849 وانتقل إلى باريس في العام 1877[60]. وكانت أكاديمية الأناضول لعلم الآثار وعلم طبقات الأرض ونادي سباق الخيل بسميرنا يلتقيان في هذه المؤسسة. وكانت الحلقة المشرقية Cercle Levantin للكاثوليك المحليين، وهي منافس الكازينو الفرنجي والنادي اليوناني، تقع في ممر كريمر Kraemer's Passage، والنادي الإنجليزي في 158 شارع الفرنجة. وإلى جانب ذلك، شجعت سميرنا البعثات الأثرية الأولى إلى المنطقة. وبداية من العام 1864 كان أحد المهندسين في الخط الحديد سميرنا - أيدين ينقب في إفسوس[61]. وقامت فرق فرنسية وإيطالية ويونانية بزيارات منتظمة إلى مسرح يوتيربي Theatre of Euterpe ذي الثلاثمائة مقعد الذي افتتح في سميرنا في العام 1841[62]. وفتح مسرح النادي الرياضي، ذو الستمائة مقعد الواقع على الكردون، أبوابه للفرق الزائرة، مع أن أصوات الأجراس المعلقة في أرتال البعير المارة إلى رصيف الميناء كانت تغطي على صوت العروض[63]. كان الجمهور نزاعا إلى النقد. عرضت فرقة زائرة أرمنية (كانت العادات الإسلامية تمنع النساء من الظهور على

المسرح، ولذلك كان الأرمن هم الذين قدموا المسرحيات العثمانية الأولى) واحدة من أولى الأوبرات العثمانية: حتحور بائع الحمص Leblebici Horhor. كتب خالد ضياء أنه بعد وجبة من الأوبرا الإيطالية، جاءت الأوبرا ذات الموضوع المحلي من نوع حتحور بائع الحمص لتدخل المدينة في حالة من الهوس، فحين شاهدها خالد ضياء، ظن أنه في حلم[64].

كانت سميرنا أيضا مركزا للألعاب الرياضية. بدأ أول سباقات الخيل في الإمبراطورية العثمانية في باراديسو/سيرنير Paradiso/Sirinyer حيث نظمه شارلتون ويتال بداية من العام 1840، وذلك بخيول مقدمة من عائلتي قرة عثمان أوغلو وفوربس[65]. كانت هذه السباقات موضع إعجاب العثمانيين بإرثهم الطويل مع الجريد(*) ومباريات رمي الرمح من فوق ظهور الخيل. وفي العام 1850 والعام 1853 زار السلطان عبدالمجيد، الذي اعتاد السفر بانتظام خارج القسطنطينية مثل أبيه، السباقات التي أقيم أحدها على شرفه وأُطلِق عليه اسم كأس السلطان. توافد الآلاف على السباقات، حيث كان الأتراك يتنزهون تحت الأشجار، والمسيحيون يشربون في الخيمة الحمراء والبيضاء لمقهى كوست. تبيّن إحدى بطاقات السباق «لمضمار باراديسو» من العام 1915، نشرها مؤرخ سميرنا ليفيو أميديو ميسي دي لوزنيو Livio Amedeo Missir de Lusignan، مزيجا من الأسماء التركية والمشرقية بين الفرسان وملاك الخيول، منها عمر لطفي أفندي Omer Lutfi Effendi وأليوتي Aliotti ودي بورتو de Portu وكاتب سليمان أفندي Katib Suleyman Effendi وكريمر[66].

بيد أن الألعاب الرياضية في أغلبيتها أكدت هي الأخرى الانقسامات داخل المدينة. تعد سميرنا بعد العام 1880 درسا للنزعة القومية المدمرة. ففي العام 1890 أسس بعض اليونانيين الجمعية البانيونية الرياضية، والاسم مشتق من الاسم اليوناني الكلاسيكي للمنطقة: أيونية(**). كانت هذه الجمعية منظمة

(*) الجريد cirit أو jirid (كلمة من أصل عربي بالتأكيد)، رياضة عثمانية مفضلة كانت تقوم على رمي الرمح من فوق ظهر الخيل. [المترجم].

(**) الأرجح أن أصل تسمية الألعاب البانيونية Panionian Games هو معبد بانيونيون، وإن كانت المنطقة التي تشمل المعبد بالقرب من سميرنا تسمى أيونية Ionia. يقع معبد بانيونيون Panionion (أو بانيونيوم Panionium) على شبه جزيرة ميكالي Mycale جنوب سميرنا وكان مكرسا للإله بوسيدون ومقرا للاتحاد الأيوني، وكان البانيونيون أيضا الموقع الذي تقام فيه الألعاب والاحتفالات الدينية الأيونية المعروفة بالاسم بانيونيا Panionia. [المترجم].

قومية، ذلك أن القوة البدنية كانت تعد إسهاما في العظمة القومية. وفي العام 1896، وهو العام الذي أقيمت فيه أول دورة للألعاب الأولمبية بعد إحيائها في أثينا، أقيمت أول دورة ألعاب بانيونية في بورنوفا، ضمت منافسات في السباحة والعدو والجمباز والمبارزة وركوب الدراجات، توافد عليها رياضيون من القسطنطينية والإسكندرية، فضلا عن أثينا. وكذلك أرسلت المدارس التركية المحلية فرقا للمشاركة فيها، وكانت هناك مقصورة خاصة للحاكم لمشاهدة الفعاليات. وسرعان ما شُيّد ملعب رياضي يسع سبعة آلاف متفرج في بورنوفا، كانت تلتقي فيه جمعية رياضية يونانية أخرى اسمها أبولونيان Apollonian تأسست في العام 1892. وإلى جانب الأندية اليونانية، كانت هناك أندية رياضية إنجليزية وأرمنية وتركية أيضا[67].

وفي العام 1893 افتتح الحاكم حسن فهمي باشا سباق زوارق من النادي الرياضي إلى ألسانجاك. أسهم هذا السباق أيضا في تأكيد الانقسامات القومية، إذ بدأ بفرقة عسكرية تعزف السلام الحميدي تكريما للسلطان، وبعدها جرى السباق أمام عشرة آلاف متفرج يتابعون من الكردون. ضمت المنافسة ثلاثة سباقات منفصلة: واحدا للأوروبيين، وآخر للأهالي، وثالثا لصيادي السمك. فاز بالسباق الأول مسيو جوفراي Monsieur Guiffray (ثمة شخص بهذا الاسم شغل منصب مدير خط الترام بالميناء)، وفاز بالثاني باستيرماجيوغلو بيه Pastirmacioglu Bey، وفاز بالثالث لاظ إبراهيم Laz Ibrahim. وسرعان ما غدت هذه السباقات حدثا سنويا شعبيا في المدينة[68]. وفي العام 1894 أسست الجالية البريطانية نادي كرة القدم بسميرنا، قبل ثلاثة عشر عاما من تأسيس أول نادٍ تركي في القسطنطينية، وقبل تسعة عشر عاما من تأسيس أول فريق تركي في سميرنا على يد جلال بيار Celal Bayar في العام 1913[69].

***

كانت اللغة هي الأخرى عامل توحيد وتقسيم للمدينة. فداخل البيوت دأبت كل جالية على استخدام لغتها الخاصة: التركية والإسبانية (في حالة اليهود السفرديم)[70]، واليونانية والأرمنية والفرنسية. ونتيجة لكثرة أعداد اليونانيين وثرائهم علّمت بعض المدارس التركية اللغة اليونانية إلى جانب اللغة التركية،

بغرض إعداد موظفين ثنائيي اللغة للوظائف الحكومية. وكان الموظفون العثمانيون في سراي الكوناك يلقون التشجيع لتعلم اللغة اليونانية[71](*). كما مارس بعض الكاثوليك الكتابة بالفرانجوشيوتيكا Frango - chiotika، وهي لغة يونانية مكتوبة بحروف لاتينية[72].

كان رجال الأعمال في أغلب الأحيان يستخدمون أربع لغات، إذ كانوا يستخدمون بطاقات الزيارة باللغات العثمانية واليونانية والفرنسية والعبرية، أو اللغتين الأوليين فقط[77](**). وكانت رأسيات الفواتير، مثل فواتير تجار السجاد الإخوة إسبارتالي وشركاهم Spartali Brothers & Co، أو شركة بول فيدوري Pol. Vidori للورق والطباعة، تُطبَع بخمس لغات وأبجديات: العثمانية والفرنسية واليونانية والأرمنية والعبرية. وكان محتوى الفاتورة نفسه يُكتَب بالفرنسية[78]. ومن بين ألف وثلاثمائة كتاب نُشِرت في سميرنا قبل العام 1922، جاء كثير منها ترجمات لأعمال موليير وشاتوبريان وبلزاك وجورج ساند[79](***).

وفي العام 1895 زار أندرو ريان Andrew Ryan، الذي أصبح لاحقا كبير الترجمانات في السفارة البريطانية في القسطنطينية، سميرنا وهو في عمر التاسعة عشرة، حين كان يكمل دراسته في مجال العمل القنصلي المشرقي[80]. وجد ريان رصيف الميناء «رائعا جدا وأنظف كثيرا من موانئ بلاده». كانت المقاهي «في حقيقتها أماكن للمقامرة، وتنتشر فيها أوراق اللعب والطاولة. وكان «مما أثار دهشته أن اللغة الفرنسية كانت أنفع كثيرا من اللغة الإنجليزية حتى داخل القنصلية البريطانية نفسها». وفي الأسواق «تجد اللغة الفرنسية أيضا». وقد وجد «جميع الناس مقبولين» في سميرنا، «باستثناء المناطق الخلفية التي سخروا مني فيها، فلوّحت بعصاي وانصرفت»[81].

كانت المناطق الخلفية من سميرنا تقف على طرف النقيض من أبهة الكردون. ففي الأحياء ذات الأغلبية التركية واليهودية على جبل باغوس Mount Pagus، كما

(*) الكوناك konak، هو اسم سراي حاكم المدينة أو المنطقة. [المترجم].

(**) بطاقة الزيارة visiting card، بطاقة ورقية صغيرة مطبوع عليها اسم شخص وتحمل عادة تصميما فنيا، كان خدم الطبقة الأرستقراطية والملكية إبان القرن الثامن عشر يسلمونها إلى خدم مضيفيهم المتوقعين إعلانا لزيارة سادتهم. تطورت هذه البطاقة لاحقا إلى بطاقة المؤسسة business card التي تحوي معلومات عن أعمال الشركة والموظف الذي يحملها. [المترجم].

(***) جورج ساند George Sand، هو الاسم المستعار للروائية الفرنسية أمانتين أورو لوسيل دوبين Amantine Aurore Lucile Dupin. [المترجم].

كتب أحد القناصل، كانت «العائلات تتكدس في بيوت ضيقة سيئة التهوية». وكانت سميرنا أيضا تشتهر بأنها مقصد «حثالة أوروبا كلها»، وجاءها «المتشردون من موانئ أوروبا كافة». وانتشرت فيها السرقات «وجرائم الطعن والقتل»[82].

***

كانت عائلة بالتازي واحدة من أغنى عائلات سميرنا، وكانت في الوقت عينه أوروبية وعثمانية ويونانية، مثلما كانت حال المدينة نفسها. وفقا لسيرة العائلة، جاء أول أفرادها من البندقية عن طريق خيوس إلى سميرنا في العام 1746. كان بعض أفراد العائلة يحملون جوازات سفر بندقية. وساعدت زوجاتهم اليونانيات في تحويل العائلة إلى الأرثوذكسية. وفي العام 1782 كان أحد أفراد العائلة من بين يونانيي سميرنا الذين شاركوا في دفع الأجر لمطبعة يونانية في البندقية لنشر ترجمة البطريرك غريغوري الخامس لكتاب القديس يوحنا خريسوستوموس بعنوان «حول الكهانة» On the Priesthood[83]. وقد ساعدهم دورهم كجباة ضرائب لمصلحة الحكومة العثمانية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر في تكوين ثروات كبيرة، على نحو ما حدث مع عائلة سرسق في بيروت. كما استفادوا من انتشار أفراد العائلة في أثينا وفيينا ومارسيليا فضلا على القسطنطينية وسميرنا، فأصبحوا ممولين ورجال أعمال وملاك أطيان. كان من بينهم ممول السلطان تيودور بالتازي Theodore Baltazzi الذي تولى إدارة المكوس على جسر غَلَطَة[84]. وفي العام 1850 قدم أخوه إيمانويل بالتازي Emmanuel Baltazzi العون للشاعر العظيم لامارتين لزيارة ضيعة منحها السلطان للأخير في تيره Tire، الواقعة على بعد خمسة وعشرين ميلا من سميرنا، بعد أن اضطر إلى مغادرة فرنسا بسبب إفلاسه بعد ثورة العام 1848 التي ساعد في إطلاقها. مكث لامارتين في ضيعته بضعة أسابيع فقط، وهي فترة كافية لكي يحضر حفلات الاستقبال وحلقات قراءة الشعر في سميرنا ويدرك أنه لن يتمكن من التكسب من ممتلكاته الجديدة[85].

وبحلول العام 1862، وبعد أن اشترت عائلة بالتازي مزيدا من الأراضي حول سميرنا من عائلة قرة عثمان أوغلو، أصبحت أكبر مالك للأراضي في المنطقة. ومع اتساع ضياعهم زاد عدد الفلاحين المطرودين منها، ما أدى إلى زيادة جرائم السرقة[86]. وبفضل الثروة التي كوّنوها في الإمبراطورية العثمانية أصبحوا

مستعدين، مثل عائلة سرسق في بيروت وزغيب ودبانة في الإسكندرية، للظهور كنبلاء أوروبيين.

زار السلطان عبدالمجيد في رحلته إلى سميرنا في يونيو 1850، ممولا كاثوليكيا أرمنيا يدعى جان باباسيان أفندي Jean Papasyan Effendi والممول جورج بالتازي Georges Baltazzi في فيلتيهما في بورنوفا. وكانت زيارة أخيه السلطان عبدالعزيز إلى سميرنا من الحادي والعشرين إلى الرابع والعشرين من أبريل 1863، في طريق عودته من زيارة إلى إسماعيل باشا في مصر، أوج سميرنا المشرقية والعثمانية. عمّت المهرجانات المدينة بالألعاب النارية وأنوار الزينة والحشود من كل الجاليات مع صيحات «يحيا السلطان» بكل اللغات. رافق الصدر الأعظم اللامع فؤاد باشا السلطان عبدالعزيز في زيارته إلى سراي الكوناك وأطلال إفسوس واستقبال القناصل والوجهاء ومنح الأموال للهيئات الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية. وفي الثالث والعشرين من أبريل (عيد القديس جورج)، زار السلطان بيت شارلتون ويتال (الذي جاء إلى سميرنا من ليفربول في شبابه في العام 1809) في بورنوفا. وقد سلمته مفاتيح البيت شابتان من عائلة ويتال ترتديان لباسا تركيا، وهناك أقام السلطان حفل استقبال للوجهاء في سرادقات ضخمة في الحديقة (كانت زجاجات الشمبانيا فيها تفتح بعيدا حتى لا تصدم أصوات فرقعات الفلين آذان المسلمين الملتزمين)، وبعد ذلك زار السلطان - بناء على طلبه - كنيسة القديسة مريم المجدلية التي بنتها عائلة ويتال في مكان قريب قبل ستة أعوام.

في ذلك المساء أقام القبطان باشا عشاء على ظهر يخته، جلس فيه الضيوف المسلمون وغير المسلمين جنبا إلى جنب، وبالمثل اصطفت الأطباق التركية والأوروبية جنبا إلى جنب. وطوال العشاء، كانت اللغة الإنجليزية هي اللغة الرئيسة. وفي اليوم التالي، وهو الجمعة، وبعد مرور الموكب خلال سميرنا للصلاة في جامع القلعة، حضر عبدالعزيز السباقات التي نظمها نادي السباق بسميرنا في باراديسو. ولاحقا، زار السلطان عائلة بالتازي في قصرهم الرائع ذي الشرفات في بوكا خارج سميرنا، ومن باب التعظيم، أُغلِق الباب الذي دخل منه السلطان القصر بعد ذلك. كانت العائلة الحاكمة العثمانية من خلال هذه الاستقبالات

والمراسم تعلن إقرارها لسميرنا وكذلك لطريقة حياة المشرقيين. وقد شعر بعض المسلمين بالتجاهل[87].

بدا أن شيئا لا يمكن أن يكبح انطلاق عائلة بالتازي. حتى إنه عندما توفي إبامينوداس بالتازي Epaminondas Baltazzi في العام 1887 كادت الحياة في سميرنا تتوقف بسبب جنازته التي سار فيها كهنة يونانيون وقواسة بثيابهم المطرزة وجنود أتراك يحملون الشموع. وكان ديموثينيس بالتازي Demosthenes Baltazzi عالم آثار موهوب، ساعد في التنقيب عن بيرغامون(*) وأصبح مدير متحف إسطنبول الأثري[88].

غادر سميرنا أفراد آخرون من أسرة بالتازي. ففي العام 1864، وفي مصلى السفارة البريطانية بالقسطنطينية، تزوجت هيلين بالتازي Helene Baltazzi ابنة تيودور بالتازي من ألبين فيتسيرا Albin Vetsera القنصل العام النمساوي في سميرنا والممثل النمساوي لاحقا في لجنة الدين العام Caisse de la Dette في مصر. كانت هيلين في السابعة عشرة من العمر وكان مهرها ستة ملايين فرنك، وكان ألبين في التاسعة والثلاثين من عمره. انتقلت العائلة إلى النمسا. وأسهم شقيقا هيلين فيتسيرا(**) ألكسندر Alexander وأريستيد Aristide في تأسيس نادي سباق الخيل في فيينا، وفي العام 1876 فاز أحد خيول عائلة بالتازي بكل من سباق دربي Derby وسباق غراند بري Grand Prix (الجائزة الكبرى) في باريس. كان تأثير العائلة كبيرا وصيتها مدويا. من ذلك أن علاقة الحب التي جمعت ابنة أختهم ماري فيتسيرا مع ولي عهد النمسا الأمير ردولف أدت إلى النهاية المأساوية للحبيبين في مايرلينغ في العام 1889[89](***).

***

كان ثراء عائلة بالتازي تأكيدا على صعود يونانيي سميرنا. لكن في حين كانت الإسكندرية كوزموبوليتانية عن قصد، كانت سميرنا واقعة في شرك رقصة الموت بين

(*) بيرغامون Pergamon، مدينة يونانية قديمة في منطقة أيوليس Aeolis تقع على بعد ستة وعشرين كيلومترا من بحر إيجة على رعن على الجانب الشمالي لنهر كايكوس Caicus (باكيرجي حاليا)، كانت عاصمة مملكة بيرغامون خلال الحقبة الهيلينية، توجد حاليا في شمال شرق مدينة بالاسم نفسه في تركيا. [المترجم].

(**) وفقا للعرف الأوروبي، حملت هيلين بالتازي لقب زوجها بعد الزواج فصار اسمها هيلين فيتسيرا. [المترجم].

(***) كان ردولف ولي عهد النمسا (من 21 أغسطس 1838 إلى 30 يناير 1889) ابن الإمبراطور فرانز جوزيف الأول، متزوجا من أميرة تدعىَ ستيفاني، لكنه وقع في غرام ابنة البارون ألبين فيتسيرا والبارونة هيلين فيتسيرا - هيلين بالتازي قبل الزواج - وكان البلاط وزوجة الأمير على علم بذلك. وفي الثلاثين من يناير 1899 وُجد الحبيبان ميتين في بيت صيد للأمير في بلدة مايرلينغ Mayerling وأمامهما زجاجة ومرآة، فقيل إنهما انتحرا بإرادتهما، وقيل إن البارونة الشابة قتلت حبيبها وانتحرت. [المترجم].

اليونانيين والأتراك. فاليونانيون بادعاء أنهم الأكثر عراقة وحداثة بين سكان المدينة، كانوا موجودين في كل مكان، إذ احتلوا الماضي والحاضر والمستقبل، فهم بناة كل من الأطلال الكلاسيكية بالمدينة وصناعاتها العصرية[90]. وكانت أغلبية البنوك - بنك سميرنا وبنك أثينا وبنك بيروس - يونانية، وكذلك مديرو البنوك[91]. وكان نصف كبار التجار والمحامين والأطباء في سميرنا من اليونانيين. كان هؤلاء المهنيون مهمين جدا في حياة المدينة إلى درجة أن عمليات المقاطعة المعادية لليونانيين في الأعوام 1909 - 1911 أثرت في الأتراك أكثر مما أثرت في اليونانيين أنفسهم الذين تحولوا ببساطة إلى الجنسية النمساوية أو الإيطالية[92].

شُيّد كثير من البنايات البارزة بالمدينة، منها ثكنات الجيش في ساحة الكوناك، على أيدي معماريين يونانيين. كانت أعلى بناية في المدينة، أعلى حتى من مآذن المدينة، هي برج الأجراس بكنيسة سانت فوتيني St Photeini اليونانية الأرثوذكسية التي بُنيت في العام 1856[93]. وكانت البنايات حول الكردون مملوكة في معظمها ليونانيين، ومنها مقهى باريس والنادي الرياضي. وكانت بعض البيوت اليونانية تشبه بيت السيد شيطان أوغلو في كرنتينا Karantina(*). ويقال إن بيتا من بيوت الباشوات لم يكن أكبر من بيته الذي كانت تحيطه حديقة من أشجار الليمون والنخيل ويمتلئ بالكتب والصور العائلية[94].

كانت مدارس اليونانيين الثماني والعشرون بتلاميذها الثمانية آلاف وستمائة هي الأفضل في المدينة، وكانت تُكبّر وتُوسّع مع كل عملية إعادة بناء لها[95]. جذبت المدرسة الإنجيلية، وهي إحدى أكثر المدارس حداثة في المدينة، طلابا فرنسيين ومسلمين ويهودا، فضلا على الطلاب اليونانيين، وكانت تضم قسما مميزا لإدارة الأعمال[96]. وأخذ تلاميذ المدارس اليونانيون يتعلمون النظر إلى اليونان باعتبارها أصل الحضارة، وإلى سقوط القسطنطينية في العام 1453 باعتباره كارثة. من ذلك أن الكاتب السميرني العظيم كوسماس بوليتيس Kosmas Politis في روايته «في حي حاجي فرانكو» (1962) In the Hadjifranco Quarter يصف

(*) شيطان أوغلو Shaitanoglu أو Seytanoglu، يعني ابن الشيطان، اسم كان الأتراك يطلقونه على أثرياء اليونانيين والأجانب عموما، ومنهم ميخائيل كانتاكوزينوس الذي أعدِم بأمر السلطان على باب قصره الريفي في العام 1578. [المترجم].

مجموعة من تلاميذ المدارس اليونانيين، بعد أن جازوا خلال الحي التركي المعادي، يريهم مدرسهم سميرنا من القلعة القابعة على جبل باغوس ويحدثهم عن أمجاد هوميروس وسوفوكليس، ويخلُص المدرس وعيناه تترقرقان بالدمع: «كل هذا الماضي والحاضر يوناني وسيظل كذلك إلى الأبد»[97]. وكان لليونانيين السميرنيين أيضا متحف خاص بهم، تأسس في العام 1873 بأربعين ألف كتاب ومجموعات من المنحوتات والنقوش والأوسمة والدراسات المنشورة التي تحتفي بالماضي اليوناني لأيونية[98].

كان بعض اليونانيين يعرفون اللغة التركية التي كانت اللغة الرسمية للإمبراطورية التي كانوا يقيمون فيها. وإبان العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كان أرسطو دكتوريدس Aristotle Doctorides، على سبيل المثال لا الحصر، يدرّس اللغة التركية في المدارس اليونانية، واللغة اليونانية في المدارس التركية، كما نشر قواعد اللغة العثمانية باللغة اليونانية. وكما في حالة خالد ضياء، تذكر أرسطو أوناسيس Aristotle Onassis، الذي كان يُعرَف حينئذ باسم أوناسوغلو Onassoglou (ابن أوناسيس) - ابن أحد مصدّري القطن - كيف أن زملاءه من الطلاب اليونانيين في المدرسة الإنجيلية كانوا يزدرونه لمعرفته اللغة التركية. ولم تكن مدارس الفتيات تعلم تلميذاتها اللغة التركية للحؤول دون زواجهن من أتراك[99].

كتب القنصل العام النمساوي تشارلز دي شيرزر Charles de Scherzer: «اليونانيون أكثر ذكاء وحيوية ودأبا من الأتراك... وينكبون على أعمالهم ليل نهار»، ويتمتعون بأفضل المدارس في المدينة. ووصف الأتراك بأنهم «أمناء وطيبون وصادقون ومضيافون»، لكنهم يفتقرون إلى الحيوية أو الطموح لنسائهم. لكن فات القنصل أن يذكر التجنيد الذي أجبر كثيرا من الرجال الأتراك على الخدمة في الجيش العثماني الذي كان يحاول فرض النظام على إمبراطورية متململة. ووفقا لتقدير القنصل، كانت سميرنا تضم خمسة وسبعين ألف يوناني، وخمسة وأربعين ألف تركي، وخمسة عشر ألف يهودي، وعشرة آلاف كاثوليكي، وستة آلاف أرمني، وأربعة آلاف أوروبي[100]. ومع النمو في عدد السكان اليونانيين كانت نسبة الأتراك تتراجع، «فنتيجة للفقر النسبي للأتراك، كانت معدلات الإجهاض ووفيات الأطفال أعلى بينهم منها بين الجاليات الأخرى». لذلك تراجعت نسبتهم من السكان من نحو

50 في المائة قبل العام 1850 إلى نحو 33 في المائة بحلول العام 1900[101]. حتى إن الصدر الأعظم عالي باشا Aali Pasha نفسه حذّر السلطان من أن أعداد السكان المسلمين كانت تتناقص بمعدل مخيف، في حين كان المسيحيون بحيويتهم التجارية يرسخون «تفوقا مؤثرا وقاتلا على رعايا فخامتك المسلمين». لذا يجب على المسلمين «أن يكرسوا أنفسهم للزراعة والتجارة والصناعة والحرف مثل المسيحيين»[102].

كان من أمارات ثراء الجالية اليونانية وقوتها أن الحاكم نفسه بداية من العام 1878 قسّم بلدية سميرنا التي أُنشئت في العام 1868 إلى بلديتين منفصلتين: واحدة للأحياء ذات الأغلبية المسلمة واليهودية وأرصفة الميناء الجديدة، والأخرى للأحياء ذات الأغلبية الفرنجية واليونانية، مع أن الحق في الترشح للاثنتين كان مكفولا لجميع السكان على اختلافهم. جاء التقسيم إذعانا من الحكومة العثمانية للمسيحيين الأثرياء الذين لم يقبلوا بأن يتحملوا تكاليف الخدمات المقدمة للأحياء المسلمة واليهودية الفقيرة[103].

كان اليونانيون، على رغم افتقارهم إلى أي وسائل عسكرية، يتصرفون كأنهم هم الذين يحكمون سميرنا. فكانت المقاهي اليونانية تعلق على جدرانها صور الملك جورج والملكة أولغا الهلينيين[104]. وخارج الكنائس، اعتاد اليونانيون بعد صلوات عيد الفصح أن يطلقوا نيران أسلحتهم في الهواء. وفي مواكب عيد الفصح أو عيد القديس بوليكارب في الثالث والعشرين من فبراير، التي كان رئيس الأساقفة والقنصل اليوناني ووجهاء الجالية يشهدونها بكامل أبهتهم، كانت الأعلام اليونانية الزرقاء والبيضاء ترفرف في كل مكان. وكانت الحشود تهتف باسم الملك اليوناني، وكذلك باسم السلطان العثماني بالطبع، وإن لم يكن بالقوة عينها[105].

وفي العام 1890، في أثناء نزاع بين البطريركية والحكومة العثمانية حول دور القانون اليوناني في أمور الميراث، أمر رئيس الأساقفة الكنائس في الولاية والمدينة بأن تغلق أبوابها. واحتشد عشرون ألف يوناني خارج سراي الكوناك احتجاجا، واستقبل الحاكم لجنة تمثل المتظاهرين. وفي النهاية تراجعت الحكومة العثمانية، بطلب من الحاكم[106].

بلغ ضبط النفس - أو الضعف بناء على وجهة النظر المتبناة - بالسلطات العثمانية والسكان العثمانيين حد أنهم في العام 1897 سمحوا بمغادرة

اليونانيين (حاملي الجنسية العثمانية واليونانية كلتيهما) بأعلام مرفرفة وفرق تعزف السلام الوطني اليوناني ومعونات وأغذية قدمها القنصل اليوناني، وذلك للقتال ضمن صفوف الجيش اليوناني في أثناء الحرب التركية - اليونانية القصيرة إبان تلك السنة. ربما كان رأي العثمانيين أن المتطوعين من سميرنا لن يشكلوا تأثيرا يذكر، وبالفعل انتصر الجيش العثماني بسهولة. ومع ذلك، فإن البعض يرجعون إلى هذه الحرب بداية القطيعة بين اليونانيين والأتراك في سميرنا. لكنها كانت روح العصر. إذ كانت تحدث قطيعة مماثلة في الوقت عينه بين الألمان والتشيكيين في براغ وفيينا، حين شهدت المدينتان اضطرابات عرقية، وبات على كل المهاجرين إلى فيينا أن يقسموا بالحفاظ على طابعها الألماني، وفي ذلك صرح عمدة المدينة بأن «فيينا ألمانية ويجب أن تظل كذلك»، وحظر المدارس التشيكية[107].

منحت القنصلية البريطانية في سميرنا بعض اليونانيين الجنسية البريطانية للحؤول دون طردهم من جانب السلطات العثمانية التي كانت تسعى إلى إجبارهم على تبني الجنسية العثمانية. وبداية من العام 1898 طُرِد عشرون ألف مسلم من جزيرة كريت بسبب ثورة يونانية قادها سياسي شاب عديم الرحمة يدعى إلفثيريوس فينيزيلوس Eleftherios Venizelos، بدأوا يتوافدون على سميرنا كلاجئين، تماما كما فعل التتر الذين فروا من بلغاريا المستقلة. رأت الحكومة العثمانية في وصول هؤلاء وسيلة لتحقيق التوازن مع العدد المتزايد لليونانيين، ولذلك استوطن كثير من اللاجئين على المنحدرات المؤدية إلى القلعة، وأخذوا يغطونها بأشجار الكرم والزيتون. كان من نتائج طرد هؤلاء أن أعطاهم نزوعا قوميا متطرفا من النوع الذي ميّز التخوم وجعلهم معادين للمسيحيين بدرجة أكبر من أتراك سميرنا. وكما هي الحال في الشجارات التي تنشب على الكردون، كان الغرباء - وليس أهالي المدينة أنفسهم - التهديد الأكبر لطمأنينة سميرنا[108].

اندلعت اضطرابات أخرى بسبب قطاع الطرق في الريف، الذين كان بعضهم أيضا من الكريتيين. فقد كانت المنطقة الداخلية تقتص من مينائها، خصوصا بعد العام 1900، عندما ضربتها سلسلة من نوبات الحصاد السيئ. كان قطاع الطرق - وكذلك ضحاياهم - من كل الأقوام: القبطان أندرياس Captain Andreas وأرناؤوط

أحمد Arnavut Ahmed وسيركيس سامي Cerkes Sami على سبيل المثال(*). وأحيانا كانوا يدعون أنهم يسرقون الأغنياء لمساعدة الفقراء. وفي السادس عشر من مايو 1907 اختطف يونانيون مالك الأطيان وتاجر التبغ الهولندي الثري بارون فان هيمسترا Baron van Heemstra في مزرعته الواقعة على مسافة ساعتين من سميرنا. كان هيمسترا، حرصا منه على المال، قد رفض قبلها بقليل تخصيص حراسة شرطية له. وقد أُطلِق سراحه، بعد ثمانية أيام في الجبال، بعد أن دفع فدية قدرها ستة آلاف ليرة تركية، تفاوض عليها حماه ريتشارد ويتال Richard Whittall. وربما كان بعض موظفيه متورطين في هذا العمل. وقد حاولت الحكومة والجالية الهولنديتان إقناع الحكومة العثمانية بتعويضه بأن تدفع له قيمة الفدية، لكن من دون جدوى(109).

***

أما داخل المدينة نفسها، ومثلما كانت الحال في الإسكندرية قبل العام 1882، فقد تمثل السبب الرئيس للعنف في معاداة السامية من جانب اليونانيين. فربما لأن اليهود كانوا موالين للأتراك عموما، فإن الهجوم عليهم كان يُتَّخَذ وسيلة ضمنية للهجوم على الأتراك، في وقت لم يكن اليونانيون فيه قد تجرأوا بعد على فعل ذلك بطريقة صريحة. اتهم اليونانيون اليهود بالقتل الطقوسي لأطفال مسيحيين في الأعوام 1868 و1872 و1888 و1890 و1896. وفي العام 1868 بلغ خوف اليهود من اليونانيين مبلغا عظيما، حتى إن يهود سميرنا اشتروا من تاجر يهودي أجراس برج دير كان الأتراك قد جرّدوها في أثناء ثورة يونانية في جزيرة كريت، وذلك لتقديمها إلى رئيس أساقفة سميرنا. لكن تلك المبادرة لم تغنِ عنهم شيئا. وفي العام 1872 لم تستطع السلطات العثمانية، أو لم تشأ، أن توقف اليونانيين الذين ظلوا يحاصرون الأحياء اليهودية في المدينة إلى أن تدخل القنصل النمساوي. في ذلك العام قُتِل بعض اليهود، ولجأ بعضهم إلى بيوت الأتراك. وفي العام 1901 دقت أجراس كنيسة سانت فوتيني إعلانا للهجوم على اليهود لتشعل أعمال شغب معادية لليهود(110).

ومع ذلك، فقد تواصل بناء المعابد اليهودية الجديدة، ومن أفخرها بيت إسرائيل

(*) الاسم الأول ليوناني، والثاني لتركي، والثالث لأرمني. [المترجم].

Beth Israel الذي بُني في العام 1900. ربما كانت معاداة السامية بين اليونانيين أيضا رد فعل على الصعود اليهودي المتسارع منذ العام 1873، وقد كان ثلثهم يعيشون على الصدقات. إذ ازدهرت الأعمال التجارية والمدارس اليهودية. وبدأت نساء اليهود يخرجن من البيوت ويلعبن الورق. في هذه المرحلة، لم تجذب الحركة الصهيونية غير أقلية صغيرة من اليهود، وفي ذلك كتبت صحيفة يهودية: «هؤلاء المثاليون يسعون إلى خرابهم بأيديهم ويجروننا معهم نحن الأبناء الأوفياء للوطن العثماني»[111].

كانت سميرنا قانونا في ذاتها، كما كانت على مدار معظم الفترة التي تلت نهضتها إبان أوائل القرن السابع عشر. هزت المظاهرات والهجمات الإرهابية الأرمنية القسطنطينية في العامين 1895 و1896، وردا على ذلك قُتِل ثلاثون ألف أرمني على أيدي المسلمين في شوارع العاصمة، بتشجيع من السلطان، وتحت أعين قوات الجيش والشرطة التركية. بينما في سميرنا، نظم الحاكم العام دوريات للحؤول دون المذابح. وفي القسطنطينية استولى الأرمن في العام 1896 على مقر البنك العثماني، بينما خطط إخوتهم في سميرنا لمهاجمة بنك كريدي ليونيه Credit Lyonnais في العام 1905، لكن محاولتهم أحبطت[112]. ضمنت البوارج الأجنبية السلام في سميرنا، تماما كما كانت الحال في العام 1821. إذ كانت بارجة بريطانية أو فرنسية واحدة على الأقل تتمركز في مكان قريب من المدينة. وبحلول العام 1892 كانت بريطانيا قد أنشأت أسطول البحر الأبيض المتوسط، وإيطاليا سرب البحر الأبيض المتوسط، وفرنسا السرب الدائم للمشرق[113].

بين العامين 1895 و1907 كان الحاكم العام لسميرنا يدعى كامل باشا. تولى هذا المشرقي بطبيعته، الذي ولد في قبرص، مناصب في مصر وبيروت، وكان يتحدث اللغات التركية واليونانية والفرنسية والإنجليزية. وعُرِف بسبب «ميوله الإنجليزية» باسم كامل الإنجليزي، وكان يحرص أيضا على حضور الألعاب البانيونية لليونانيين[114]. في عهده، وبمساعدة صديقه أشرف باشا رئيس البلدية، تحسنت المدارس والطرق وخطوط الترام، وافْتُتِح مستشفى متخصص لعلاج الأمراض التناسلية التي كانت تمثل مشكلة في تلك المدينة المحبة للمتعة[115].

كان اللباس يكشف عن الطابع الأوروبي للمدينة. ففي العام 1894 حُظِر لباس الزيبق الذي كان أهل الجبل يرتدونه، خصوصا بنطالهم الفضفاض الطويل والقصير. وظهرت مهنة جديدة في المدينة، إذ انتشرت بجوار محطتي ألسانجاك وباسمة خانة

Basmahane (نهاية خط سكة حديد ثانٍ شُيّد في الأعوام 1863 - 1866 يربط سميرنا وأفيون قره حصار Afyonkarahsiar) دكاكين يستطيع الرجال القادمون من الريف أن يستأجروا منها البناطيل باليوم. وكان الحاكم يأتي بنفسه للتأكد من أن أحدا لا يسير خلال وسط المدينة ببنطال فضفاض، وأصدرت مراسيم بحظرها في العامين 1904 و1905.

***

كانت سميرنا، مثل الإسكندرية، مدينة ثانية في حيويتها بعد العاصمة على أقل تقدير. من ذلك أن صادراتها في العام 1907 كانت أعلى بمقدار الثلث عنها في العام 1900. كما أصبحت المدينة الأولى في عدة تجديدات، مثل أول صحيفة في الإمبراطورية العثمانية (1828)، وأول مدارس أمريكية (1833)، وأول مضمار لسباق الخيل (1850)، وأول استخدام للكهرباء (1888)، وأول فريق لكرة القدم (1890)، وأول سيارة (1905 كانت ملك ريتشارد ويتال)، وأول دار سينما عامة (1909)[116].

بدت سميرنا في نظر خالد ضياء القادم من القسطنطينية مثل البلاد الأخرى التي تعيش وفقا لقواعدها الخاصة. من ذلك أن الحاكم تجاسر إبان العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر، وهو وقت مبكر فعلا، على إقامة حفلة راقصة رسمية في سراي الكوناك، وبطبيعة الحال كانت النساء المسيحيات واليهوديات المدعوات الوحيدات، بينما كانت النساء التركيات يراقبن من وراء المشربيات. فقد كانت الرقابة في سميرنا أخف منها في القسطنطينية. وكذلك تمتع خالد ضياء بارتياد المسرح ثلاث مرات أسبوعيا، وكان أيضا يحل ضيفا على بيوت اليونانيين الذين كان يعمل معهم في البنك العثماني، وهناك كان يرقص مع أخواتهم[117].

عُرفت الإمبراطورية العثمانية في كثير من المناطق بالتخلف والقمع. لكنها في الإسكندرية وسميرنا وسالونيك وبيروت، بفعل مزيج من الاختيار والضرورة، خلقت أربع مدن حيوية، أو سمحت بوجودها فقط. تبرهن هذه المدن البعيدة كل البعد عن العجز عن اجتراح الإصلاحات أن الإمبراطورية كان في مقدورها فعلا أن تتغير بسرعة كبيرة. حتى إن كثيرين في الوقت الراهن ينظرون إلى العقود الثلاثة السابقة على العام 1914 بوصفها العصر الذهبي لتلك المدن.

ظلت سميرنا مدينة المتع. فكانت الجاليات والأندية المختلفة تتنافس على إقامة أفضل المهرجانات السنوية أو الحفلات الراقصة، وهو ما كان يحدث غالبا في النادي

الرياضي. وكانت الذكرى السنوية لجلوس السلطان على العرش، التي تضاء فيها كل البنايات الكبرى في المدينة ويتوافد الوجهاء على سراي الكوناك لتهنئة الحاكم، تشاهدها حشود تصل إلى ثلاثين ألف شخص. وكان وصول الجَمل الذي يحمل بشائر موسم التين، احتفالا سنويا آخر[118]. وكان اليونانيون يزورون الأحياء اليهودية عندما تضاء لعيد البوريم، والأحياء الإسلامية عندما تضاء لعيدي الفطر أو الأضحى[119]. وفي موسم المهرجانات، على نحو ما كتب زائر ألماني، كانت «تمطرك الدعوات إلى الحفلات الراقصة وحفلات العشاء وحفلات السواريه الكبيرة والصغيرة»[120]. وكانت الطبقات جميعها ترتاد هذه الاحتفالات، وفي أيام الأحد على وجه الخصوص، كانت الضوضاء الناتجة من المواكب لا تطاق، ذلك أن «الطبقة العاملة كانت تحب ارتداء الأقنعة كثيرا»، على حد تعبير إحدى السيدات[121]. فكان رجال في زي نساء، «بفساتين طويلة جميلة تكشف عن سيقانهم الرجولية الضخمة»، أو في زي الزيبق أو المشرقيين أو العرب، يقلدون هجات أصحاب هذه الأزياء فضلا على لباسهم. وكان بعض السميرنيين يفتحون بيوتهم لجميع الزوار، وتظل الدكاكين مفتوحة طوال الليل[122].

غير أن المهرجانات، مثلها مثل المدارس والألعاب الرياضية، كانت في الوقت عينه تعكس القوميات المتنافسة. فلو فاز يوناني بسباق الزوارق السنوي من سراي الكوناك (وسط المدينة) إلى ألسانجاك، كانت فرقة يونانية على رصيف الميناء تعزف السلام الوطني اليوناني. وفي كرنفال العام 1904 عرض الزورق الفائز - في نادي أبولونيان - الرياضي اليوناني جي إيسيغونيس G. Issigonis في زي أبولو يعزف على قيثارته محاطا بفتيات يونانيات بأزياء إلهات الإلهام التسع الكلاسيكية، يغنين أغاني يونانية. وفي الرابع عشر من شهر يوليو احتفلت فرنسا بالذكرى السنوية لسقوط الباستيل بحفلات في القنصلية وعلى متن البارجة الفرنسية الراسية في الميناء، وكانت السلطات العثمانية تدعى عادة إلى هذه الحفلات[123].

في أثناء احتفالات الرابع عشر من يوليو 1909، في وقت كان فيه سرب من السفن الفرنسية في الميناء، كتبت صحيفة لاريفورم La Reforme (الإصلاح): «ونظرا إلى أنهم معروفون بالكياسة والأناقة، فإننا ننصح صديقاتنا بقوة بأن يأتين مستعدات للحرب، ومسلحات بكل مفاتنهن. فمن المؤكد أن هؤلاء الأجانب النبلاء شغوفون بالسيدات ومتحمسون لهن». ووفقا لروايات فرنسية، فإنه في بعض احتفالات الرابع

عشر من يوليو، كان الكردون أكثر ازدحاما من عيد ميلاد السلطان. وكانت سميرنا المغطاة بأعلام فرنسا ثلاثية الألوان والمكتظة بالمغنين المستأجرين خصيصا لغناء السلام الوطني الفرنسي في المقاهي، تبدو مدينة فرنسية. وكانت السلطات تراقب التقارير الصحافية لتجنب إغضاب السلطان(124).

كانت القنصليات الأجنبية في سميرنا، ملاذا للأتراك، كما كانت لغير الأتراك. فخوفا على حياتهما، لجأ اثنان من حكام الولاية - مدحت باشا المُجَدّد في العام 1881، الذي أراد أن يجعل الأحياء المسلمة واليهودية مزدهرة مثل الأحياء المسيحية؛ وكامل باشا في العام 1906 - إلى القنصليتين الفرنسية والبريطانية على التوالي. ولم يغادرا مبنى القنصلية في الحالتين إلا بعد أن ضمِن القناصل الأجانب أمانهما الشخصي، وهو الضمان الذي لم ينجح في حالة مدحت الذي حُوكم لاحقا بزعم تدبيره قُتل السلطان عبدالعزيز، ونُفي إلى اليمن وقُتِل في السجن.

تذكّر خليل منتيشي Halil Mentese، الذي أصبح لاحقا وزيرا في الجمهورية التركية، أنه في عهد عبدالحميد «كان طلاب الحرية في كل مكان يجتمعون في مكان ما ويتخذونه بؤرة لهم... وفي إزمير، كان ملتقانا في فندق كريمر في باتسيري هاي لايف Patisserie Highlife بالحي الفرنجي». وقد ساعدت الطوبوغرافيا الكوزموبوليتانية لسميرنا الأتراك في التخطيط للثورة. وكان «طلاب الحرية»، أي الأتراك المعارضون للحكم المطلق من جانب السلطان، يجتمعون أيضا في مكتبة في خان يوسف أوغلو Yusufoglu وفي المقهى العسكري بالثكنات الرئيسة في كيميرالتي Kemeralti(125).

كانت سميرنا بجوها القائم على الحرية والابتكار والحيوية التجارية تشبه ميناء عظيما آخر متعدد القوميات تميّز بمنطقة داخلية واسعة ونمو سكاني سريع وانتصاب الكنائس والمعابد والمساجد جنبا إلى جنب، هو أوديسا. ألهمت أوديسا التي تعايش فيها الأوكرانيون والروس والبولنديون واليهود واليونانيون والأتراك والإيطاليون الذين كان كثيرون منهم يتحدثون معا باللغة الفرنسية، أقوالا مثل «باريس ليست كفؤا لتلميع حذاء أوديسا». وكانت الموسيقى منتشرة فيها حتى قيل إن الشحاذين كانوا أسعد في أوديسا منهم في أي مكان آخر. وفي أوديسا التي كانت حاضنة للثورة اليونانية في العام 1821، اندلعت الثورة في العام 1905، ولم تشق طريقها إلى سميرنا إلا بعد ثلاث سنوات(126).

الهوامش

التقديم

ما لم يذكر خلاف ذلك، فإن كل الكتب الإنجليزية منشورة في لندن، وكل الكتب الفرنسية منشورة في باريس.

تقديم المترجم

(1) ثمة أسباب تاريخية وسياسية أخرى كثيرة غير تسامح المسلمين ودولتهم العثمانية وتعصب المسيحيين ودولهم الأوروبية، من أهمها وجود الكنائس المسيحية الأم في المشرق، واعتبار الأوروبيين أن حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي والجنوبي مناطقهم «اليونانية» و«الرومانية» قبل أن يستولي عليها المسلمون الفاتحون، وفضول الأوروبيين وميلهم إلى الاستكشاف والمعرفة على خلاف المسلمين الشرق أوسطيين، وقوة الأوروبيين عسكريا وتقنيا وسيادتهم للبحار التي جرأتهم على الاستكشاف ثم الاستعمار، وسيطرة الرأسماليين والتجار على الدولة الأوروبية منذ عصر المركنتيلية في مقابل سيطرة الصراع على السلطة في الشرق الأوسط المسلم.

(2) Lewis, B. (2001). The Muslim Discovery of Europe, USA: W. W. Norton & Company.

(3) في رسالة تهنئة إلى وزير الخارجية البريطاني لورد غرانفيل بنجاح احتلال مصر، كتب سير إدوارد ماليت: «لقد خضتَ معركة المسيحية كلها». وأمام قبر صلاح الدين الأيوبي بدمشق، قال الجنرال الفرنسي هنري غورو بعد أن هزم جيشا سوريا صغيرا في معركة ميسلون في العام 1920 ودخل دمشق غازيا قولته الشهيرة: «ها قد عدنا يا صلاح الدين».

(4) لندنستان Londonistan مصطلح تحريضي يشير إلى تحول لندن وغيرها من مدن أوروبا إلى حالة شبيهة بمدن باكستان وغيرها من دول جنوب ووسط آسيا. وأورابيا Eurabia مصطلح تحريضي أيضا سُكَّ بالجمع بين مصطلح Europe [أوروبا] ومصطلح Arabia [بلاد العرب] للدلالة على تحول أوروبا إلى بلاد عرب جديدة، وإن كان يُستخدَم للدلالة على المسلمين ككل وليس العرب تحديدا. يمكن الرجوع إلى المزيد حول هذه الفكرة في خاتمة كتاب «الدين والدم - إبادة شعب الأندلس»، تأليف ماتيو كار، ترجمة مصطفى قاسم، مشروع كلمة للترجمة - هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2013.

(5) تعرض هذه الفكرة بمزيد من التفصيل في كتاب «العلاقات الحضارية المسيحية - الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع»، تأليف ماريو أبوستولوف وترجمة مصطفى قاسم، المركز القومي للترجمة - مصر، 2010.

(6) التاريخ الأول - 1936 هو تاريخ معاهدة الصداقة المصرية - البريطانية التي أعطت مصر المزيد من الاستقلال وجدولا زمنيا لجلاء القوات البريطانية عن القاهرة والإسكندرية إلى منطقة القناة والتخلص من المستشارين البريطانيين من الوزارات المصرية، وما تلاها في العام 1937 من إلغاء للامتيازات الأجنبية، وإلغاء المحاكم القنصلية في العام 1948، وإلغاء المحاكم المختلطة في العام 1949. ويشير التاريخ الثاني - 1956 - إلى حرب السويس أو العدوان الثلاثي الذي تلته إجراءات عقابية بحق الأوروبيين.

مقدمة

(1) Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, 6 vols. (1776-88), vol. 6, ch , 59.

(2) Nezar Alsayad, Cities and Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism (1991), p. 151.

(3) Patrick Leigh Fermor, Roumeli: Travels in Northern Greece (1966), pp. 100, 107, Alexander de Groot, 'The dragomans of the embassies in Istanbul', in Geert Jan Van Gelder and eds de Moor, cds., Eastward Bound: Dutch ventures and Adventures in the Middle East (Amsterdam, 1994), p. 13,

(4) William Makepeace Thackeray, Notes of a Journey from Comhill to Grand Cairo (2nd edn, I846), p. 62.

(5) Irad Malkin and Robert L. Hohlfelder, Mediterranean Cities: Historical Perspectives (1988), p. 186.

الفصل الأول

(1) Philip Mansel, Constantinople: City of the World's Desire (1995), pp. 7, 16.

(2) Colin Imber, Ebu's-su'ud: The Islamic Legal Tradition (Edinburgh, 1997), pp. 75, 104.

(3) J. Ursu, La Politique orientale de Francois Ier 1515-1547 (1908), p. 18; Gérard Pournarède, Pour en finir avec la Croisade. Mythes et réalitiés de la lutte contre les Turcs aux XVIe et XVIIe siécles (2004), p. 107.

(4) انظر على سبيل المثال، تقارير سفراء البندقية الواردة في
Virginia Aksan and Daniel Goffman, eds., The Early Modern Ottomans: Remapping the State (Cambridge, 2007), pp. 40-4I.

(5) Deno J. Genakopoulos, 'The Diaspora Greeks', in Nikiforos P. Diamandouros et al., eds., Hellenism and the First Greek War of Liberation: Continuity and Change (Thessaloniki, I976), pp. 70-7I.

(6) Ursu, pp. 28-9.

(7) Rudolph Peters, Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History (The Hague, 1979), p. 3; Virginia Aksan, Ottoman Wars 1700-1800: An Empire Besieged (2007), p. 27·

(8) Jean-Louis Bacqué-Gramont, Sinan Kuneralp and Frédéric Hirzel, Représentants permanents de la France en Turquie et de ia Turquie en France (Istanbul, 199I), pp. 2-4·

(9) Ernest Charriére, Negociations de la France dans le Levant, 4 vols. (1848), I, 118; Ursu, pp. 35, 37·

(10) A. Hamilton et al., eds., Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century (Leiden, 2000), p. 191.

(11) Abbé Antoine Degert, 'Une ambassade périlleuse de Francois de Noailles en Turquic', Revue historique, 159 (Nov. 1928), 225-60, pp. 230, 233, 237.

(12) Pierre Duparc, Recueil des instructions données aux ambassadeurs et ministres de France ... Turquie (1969), pp. 202, 448.

(13) Antoine Galland, Voyage à Constantinople 1672-1673, 2 vols. (2002), I, 261, II, 167, 261.

(14) Christiane Villain Gandossi, Les attributions du Baile de Constantinople dans le fonctionnnement des echelles du Levant au xvie siécle, in Les Grandes Escales, vol. II (Brussels, 1974), pp. 227-44; Marie F. Viallon, Venise et la porte ottomane 1453-1566 (1995), p. 90.

(15) Gérard Pournarède, "Negocier pres la Sublime Porte: jalons pour une nouvelle hisroire des capitulations ottornanes", in Lucien Bély, L'Invention de la diploma--tie (1998), pp. 71-5, 79.

(16) Niels Steensgaard, Consuls and nations in the Levant from 1570 to 1650", Scandinavian Economic History Review, 15, 1-2 (1967), p. 18.

(17) See the reproduction, and translation, of the 1740 capitulations in Napoleon III et I' Europe (2006), pp. 24-6.

(18) Eric R. Dursteler, Venetians in Constantinople: Nation, Identity and Coexistence in the Early Modern Mediterranean (Baltimore, 2006), p. 25; Dariusz Kolodziejczyk, Ottoman-Polish Diplomatic Relations 15th-18th Century: An Annotated Edition of Ahdnames and other Documents (Leiden, 2000), pp. 123-5.

(19) Ari Bulent, 'Early Ottoman diplomacy', in Nuri Yurdusev, ed., Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional? (Basingstoke, 2004), p. 40. Capitulations were also granted to Poland in 1533, the Holy Roman Empire in 1719, Sweden in 1736, Naples in 1740, Denmark in 1756, Prussia in 1761, Spain in 1782.

(20) Susan A. Skilliter, 'An ambassador's tayin: Edward Barton's ration on the Egri campaign 1596', Turcica, 25 (1993), PP. 153, 158.

(21) Zeki Celikkol, Alexander de Groot and Ben. J. Slot, It Began with the Tulip: Turkey and the Netherlands in Pictures (Ankara, 2000), pp. 18, 27, 31, 39; Marlies Honekamp-Mazgon, Palais de Hollande in Istanbul (Istanbul, 2002), passim; cf. Duparc, p. 294 for the French ambassador visiting the Mufti in 1728.

(22) F. W. Boal, 'Ethnic residential segregation, ethnic mixing and resource conflict: a study in Belfast, Northern Ireland', in Ceri Peach, Vaughan Robinson and Susan Smith, Ethnic Segregation in Cities (1981), pp. 243, 245.

(23) Jon Calame and Esther Charlesworth, Divided Cities: Belfast, Beirut, Jerusalem, Mostar and Nicosia (Philadelphia, 2009), pp. 30-32; Annie Sacerdoti, The Guide to Jewish Italy (Venice, 2004), p. So.

(24) Dursteler, pp. 29, 39.

(25) Steensgaard, p. 19, Haga to States General, 7 Mar. 1614.

(26) Durstcler, p. 155.

(27) Aksan and Goffman, pp. 7, 71, 73, 86.

(28) Roe to Sir Isaac Wake 1626, quoted in G. R. Berridge, 'Notes on the origins of the diplomatic corps: Constantinople in the 1620s', in Discussion Papers in Diplomacy (Clingandacl, 2004), p. 7.

(29) Durstelcr, p. 66.

(30) George Sandys, Travels: Containing an History of the Original and Present State of the Turkish Empire. (6th edn, 1(70), p. 67.

(31) Dursteler, pp. 93, 95; Alexander de Groot, The Ottoman Empire and the Dutch Republic: A History of the Earliest Diplomatic Relations (Leiden and Istanbul, 1978), pp. 222f; Ronald C. Jennings, Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World 1571-1640 (New York, 1993), p. 133; Youssef Courbage, 'Situation démographique comparée du Bilad al cham au xviie et xixie siecles', in Les Relations entre musulmans et chrétiens dans le bilad al cham. Actes du colloque de 2004 (Beirut, 2004), pp. 35, 46.

(32) Steensgaard, pp. 22-4.

(33) Michael Rogers, 'To and fro: aspects of Mediterranean trade and consumption in the 15th and 16th centuries', in Villes au Levant, Hommage à André Raymond (1990), pp. 57, 59, 64.

(34) See Marie de Testa and Antoine Gautier, Drogmans et diplomates européens auprés de la Porte Ottomane (Istanbul, 2003), pp. 35, 45 and passim; Groot, 'Dragomans', pp. 130-58.

(35) في بداية الفتوحات، كان من المعتاد أن يصلي المسلمون في المناطق المسيحية المفتوحة حديثاً في الكنائس، وذلك لأن المساجد لم تكن قد بنيت بعد.

(36) Dursteler, pp. 178-81; cf. Daniel Goffman, Britons in the Ottoman Empire 1642-1660 (Seattle, 1998), pp. 25-7.

(37) Dursteler, p. 9.

(38) Author of Les quatre premiers livres des navigations et peregrinations orientales (Lyon, 1567-8), with the first semi-accurate illustrations of the Empire.

(39) Author of Observations de plusieurs singularitez (1553).

(40) Richard Fletcher, Moorish Spain (1992), pp. 8, 94, 138, 148; personal communication re cleaning utensils, Suraiya Faroqhi, 8 Dec. 2007.

(41) P. Harvey, Muslims in Spain 1500-1614 (Chicago, 2005), pp. viii, I, 14, 339; Sakina Missouma, Alger à l'epoque ottomane (Aix-en-Provence, 2003), p. 165.

(42) Selim Deringil, 'There is no compulsion in religion; on conversion and apostasy in the late Ottoman Empire 1839-1856', in id., The Ottomans, the Turks and vvorld Power Politics (2000), pp. 109, 130.

(43) Gilles Veinstein, 'Retour sur la question de la tolerance ottomane', in Bartolome Bennassar and Robert Sauzet, cds., Chrétiens et musulmans à la renaissance (I998), pp. 419, 420.

(44) Nabil Matar, In the Lands if the Christians: Arab Travel Writing in the Seventeenth Century (2003), pp. xxv-xxvii.

(45) Durstcler, pp. 59, 160-63, 166-9.

(46) Jocelyne Dakhlia, Lingua Franca: Histoire d'une langue métisse en Mediterranée (2008), pp. 64, 70, 75, 199, 252-3, 297·

(47) Ibid., pp. 105, 148, 169, 193, 262.

(48) Ibid., pp.81, 96-7, 100, 493·

(49) Ibid., p. 137. Many Greeks also spoke 'the Franck language which they call the Frank': W.V Harris, ed., Rethinking the Mediterranean (2005), p. 274·

(50) Dakhlia, pp. 82, 124, 174, 269, 308-9, 363-4; Lord Byron, Letters and joumals, 12 vols. (1972-82), II, 37, to Francis Hodgson, 20 Jan. 1810.

(51) Fermanel Stochove, Le Voyage d'Italie et du Levant (Rauen, 1664), quoting passport issued 4 Mar. 1631, 'notre souverain volonté est que vous les receviez avec respect et bon accueil'; cf. Stephen Olin, Greece and the Golden Hom (New York, 1854), P. 312, 29 June 1853·

(52) John Bramsen , Letters of a Prussian Traveller, 2 vols. (1818), II, 46, 397, '17 zuldadir 1229'.

(53) William Turner, journal of a Tour in the Levant, 3 vols. (1820), II, 60.

(54) Byron, II, 262, letter of 26 Dec. 1812.

(55) Philip Mansel, 'The grand tour in the Ottoman Empire', in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East (Reading, zoot).

الفصل الثاني

(1) Thomas MacGill, Travels in Turkey, Italy and Russia, 2 vols (1808), I, 69·

(2) Sandys, p. 23·

(3) Antoine Galland, Le Voyage à Smvrne, ed. Frederic Bauden (2000), P: 79·

(4) Léon Konrente, Smyrne et l'Occident, de l'Antiquité au XXIe siécle (Montigny, 2005), pp. 251, 279; Daniel Goffman, Izmir and the Lévantine World 1550-1650 (Seattle, 1990), pp. 13, 14·

(5) Apostolos E. Vacalopoulos, The Greek Nation 1453-1669 (New Brunswick, 1976), p. 287·

(6) Ibid., p. 146; Goffman, Britons, p. 82.

(7) Goffman, Izmir, pp. 21, 36, 43.

(8) Andrew C. Hess, The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth Century lbero-African Frontier (Chicago, 1978), pp. 208-9).

(9) Stelios A. Papadopoulos, ed., The Greek Merchant Marine, 1453-1850 (Athens, 1972), p. 19·

(10) Goffman, Izmir, P: 67·

(11) Ibid., pp. 36-7, 40.

(12) Ibid., pp. 43, 44.

(13) Ibid., pp. 61-2.

(14) M. Dapper, Description exacte des isles de l' Archipel et de quelques autres adjacentes (Amsterdam, 1703), p. 224.

(15) Sandys, P: 1 1.

(16) Michael Strachan, The Life and Adventures of Thomas Coryate (Oxford 1962), p. 196, I4 Feb. 1613.

(17) M. Pitton de Tournefort, Relation d'un voyage du Levant, fait par ordre du Roy, 2 vols. (1717), I, 370, 386.

(18) MacGill, I, 50.

(19) Tournefort, I, 375, 379; 'Relation de l'île de Chio' (1747), in Antoine Galland, Recueil des rites et cérémonies du pélerinage de la Mecque (Amsterdam, 1754), pp. 104, 115.

(20) Tournefort, I, 381; Richard Pococke, A Description of the East, 2 vols (I743), II, ii, 3, 11.

(21) Goffman, Izmir, p. 58.

(22) Caroline Finkel, Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire 1300-1923 (2005), pp. 180-81, 185; Sandys, p. 12; Sonia Anderson, An English Consul in Turkey: Paul Rycaut at Smyrna 1667-1678 (Oxford, 200I edn), p. 165.

(23) R. R. Madden, Travels, 2 vols. (1827), 1, 147.

(24) William. Knight, Oriental Outlines, or, a Rambler's Recollections of a Tour in Turkey, Greece and Tuscany in 1838 (1839), pp. 256, 299.

(25) Goffman, Izmir, pp. 41, 55.

(26) Julien Pillaut, Les Consulats du Levant, 2 vols. (Nancy, 1902), II, 16; Groot, The Ottoman Empire and the Dutch Republic, p. 216.

(27) M. Du Mont, Voyages, 4 vols. (The Hague, 1699), II, 364.

(28) Johan van Droffelaar, Flemish Fathers in the Levant', in Geert Jan Van Gelder and Ed de Moor, eds., Eastward Bound: Dutch Ventures and Adventures in the Middle East (Amsterdam, 1994), P. 100n; Kontente, p. 295; Kamal S. Salibi, A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered (2009 cdn), p. 98.

(29) M. Courmenin, Voyage de Levant (1629), p. 52.

(30) Sir Charles Fellows, Travels and Researches in Asia Minor, More Particularly in the Province of Lycia (1852), P: Ion, states that he uses ancient place names 'as being the best known to English readers'; cf. Antiquitates Asiaticae, about classical antiquities, published in 1728 by Edrnund Chishull, Anglican chaplain in Smyrna in 1698-170r.

(31) Sir Thomas Roe, Negotiations of Sir Thomas Roe, in his Embassy to the Ottoman Porte, from the Year 1621 to 1628 Inclusive, 2 vols. (1740), I, 186, 189; Tournefort, II, 491, 498, 501, 513.

(32) Roe, I, 433, 445, 647, 818: Roe to Buckingham 26 Aug. 1625, to Arundel 20 Oct.

1625, to Buckingham 12 May 1627, to Buckingham 27 June 1628.

(33) Francois-René, Vicomte de Chateaubriand, Hinéraire de Paris a jérusalem et de Jérusalem à Paris, 2 vols. (1846 edn), I, 270.

(34) Alexander Drummond, Travels through Different Cities of Germany, Italy, Greece and several parts of Asia as far as the Banks of the Euphrates (1754), p. II9; Richard Chandler, Travels in Asia Minor and Greece, 2 vols. (3rd edn, 1817), I, 63; James Dallaway, Constantinople: Ancient and Modern (1797), p. 205.

(35) Finkel, pp. 225-7, 247; M. Poullet, Nouvelles relations du Levant, 2 vols. (1667), II, 23; Galland, Voyage à Smyrne, p. 260; MacGill, I, 76.

(36) Robert Dankoff, An Ottoman Mentality: The World of Evliya Celebi (Leiden, 2004), PP. 3l, 36, 64, 68, 85, 9I, 109, III, 142.

(37) إنني مدين لكارولين فينكل Caroline Finkel بترجمات أوليا جلبي

(38) Corneille Le Bruyn, Voyages au Levant, 6 vols. (The Hague, 1732), I, 87; Anderson, An English Consul, p. 160.

(39) Anderson, An Enp, lish Consul, p. 59·

(40) Evliya Celebi , Seyahatnamesi, 10 vols. (Istanbul, 1999-2007), ix , 49, 52, 53·

(41) Drummond, p. 119; Chandler, I, 64; Paul Calligas, Voyage à Syros, Smyrne et Constantinople (2004 edn), p. 59, 20 July 1844·

(42) C. B. Elliott, Travels in the Three Great Empires of Austria, Russia and 'Turkey, 2 vols. (1838), 1, 33·

(43) لاتزال سمة للبيوت في الشوارع الجانبية في حي بايوغلو بإسطنبول وحي ألسانجاك بإزمير.

(44) Charles Texier, Description de l'Asie mineure Faite par ordre du gouvernement Francais, 3 vols. (1849), III, 49·

(45) Le Bruyn, I, 76; Chandler, I, 72; Galland, Voyage a Smyme, PP·90, 106-7·

(46) M. Merlijn Olnon, 'KÖprülü imperial policy and the refashioning of lzrnir, in Maurits van den Boogert, ed., Ottoman Izmir (Istanbul, 2007), pp. 45, 48-9; Galland, Voyage a Smvrne, pp. 105-6.

(47) E. Frangakis-Syrett, "Commercial practices and competition in the Levant: the British and the Dutch in eighteenth-century Izmir", in A. Hamilton et al., eds., Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century (Leiden, 2000), pp. 145, 147; Kontente, p. 299·

(48) Goffman, Izmir, p. 22. Camels can still be seen in the region outside the city; they are now used for Tournaments, rather than transport.

(49) Galland, Voyage a Smyrne, p. 182; Tournefort, II, 497; Elena Frangakis-Syrett, The Commerce of Smyrna in the Eighteenth Century' (Athens, 1992), p. 29·

(50) Goffman, Izmir, ?pp. 52-3; Drummond, pp. 114, J 22-3·

(51) Le Bruyn, I, 83.

(52) Goffinan, l rmir, p. 136.

(53) F. W. Hasluck, Christianity and Islam under the Sultans, 2 vols. (New York, 1973 edn), II, 407-10, 414, 423.

(54) Anderson, An English Consul, p. 9·

(55) Ibid., p. 7; Tournefort, II, 495·

(56) Samuel Woodruff, Journal of a Tour to Malta, Greece ... and Spain in 1828 (Hartford, 1831), p. 155, 5. Oct. 1828.

(57) Tournefort, II, 497·

(58) Goffman, Izmir, pp. 82, 87·

(59) Kontente, p. 314.

(60) Anderson, An English Consul, p. 30.

(61) John Freely, The Lost Messiah (2002 edn), pp. 3 1, 66, 68.

(62) Ibid., p. 83; Daniel Goffman, 'Izmir, from village to colonial port city', in Edhem Eldem, Daniel Goffman and Bruce Masters, The Ottoman City between East and West: Aleppo, Izmir and Istanbul (Cambridge, 1999), p. 101.

(63) Freely, pp. 91, 93, 193·

(64) Ibid., pp. 136, 143, 219, 222, 239.

(65) كلمة تنطبق أيضا في تركيا الحديثة على المتحولين جنسياً والمخنثين.

(66) Evliya, IX, 49, 51-2.

(67) Anderson, An English Consul, p. 17; Le Bruyn, I, 81.

(68) Galland, Voyage a Smyrne, pp. 92-3.

(69) إنني مدين بهذه الترجمة إلى كارولين فينكل Caroline Finkel.

(70) Pococke, II, i, 51.

(71) Celikkol, de Groot and Slot, PP. 141, 222; Groot, the Ottoman Empire and the Dutch Republic, p. 335.A Dutch consul was established in Izmir in 1656.

(72) Anderson, An English Consul, pp. 41, 44, 49, 223, 235, 237, 291-2, 294-7· 73·

(73) Ibid., pp. 30, 234n, 244·

(74) Frédéric Hitzel, Relations interculturelles et Scientifique entre I' Empire Ottoman et les pays de l'Europe occidentale (thesis, Paris IV, 1995), pp. 434, 346, 349.

(75) Frédéric Hitzel, ed., Livres et lecture dans le monde ottoman (I999), passim.

(76) Richard Clogg, Studies in Ottoman Greek History (Istanbul, 2004), p. 21 In.

(77) More precisely in I644, 1648, 1650, 1660, 1681, 1688, 1698 and 1794: Vera Tchentsova, 'Le fonds des documents!, 'grecs (F. 52. "Relations de la Russie avec la Gréce") de la collection des archives nationales des acres anciens de la Russie ct leur valeur pour l'histoire de l'Empire Ottoman', Turcica, 30 (1998), 383-96.

(78) Galland, Voyage a Smyrne, pp. 114-28; A. de La Motraye, Voyages du Sr. A. de La Motraye en Europe Asie et Afrique, 2 vols. (La Haye, 1727), I, I84-5·

(79) Galland, Voyage à Smyrne, p. 183. .

(80) Ibid., p. 119; La Motraye, I, 185.

(81) Jonathan I. Israel, 'Trade politics and strategy: the Anglo-Dutch Wars in the Levant', in A. Hamilton et al., eds., Friends and Rivals in the East: Studies

in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century (Leiden, 2000), pp. [7, 18.

(82) van Drotfclaar, pp. 109, 113·

(83) Honekamp-Mazgon, pp. 48, 61.

(84) van Droffelaar, p. 11on.

(85) Anderson, An English Consul, pp. 86, 89, 135·

(86) Goffman, 'From village to colonial port city', p. 97·

(87) T. Simpson Evans, ed., The Life or Robert Frampton, Bishop of Gloucester (1876), P·40.

(88) MacGill, I, 70; British Library (henceforward referred to as BL) Add. MSS 38591, j. O. Hanson, 'Recollections of Smyrna and Greece 1813; f2.

(89) La Motraye, I, I85·

(90) Galland, Voyage a Smvrne, pp. 150-5 I; cf. John Murray, Handbook for Travellers in the Ionian Islands, Greece, Turkey, Asia Minor and Constantinople (1840), p. iv: 'Next to the language of the country Italian will be found the most useful language both in Greece and Turkey.' In 1820 the British consul issued a British passport to a British subject, beginning 'Noi Francesco Werry, Consoie di Sua Majesta Britannica in Smirne e sue dipendenze'.

(91) Tournefort, II, 498.

(92) Anderson, An English Consul, pp. 129, 234; if no presents were given the officials felt defrauded: see Henry Maundrell, A Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter; A.D. 1697 (1810 edn), p. 35, II Mar. 1697.

(93) Francis Hervé, A Residence in Greece and Turkey, 2 vols. (1837), I, 377·

(94) Diary of Rev. John Covel, Nov. 1670, in j. Theodore Bent, ed., Early Voyages and Travels in the Levant (1893), p. 140.

(95) Goffman, 'From village to colonial port city', p. 119; Ismail Hakki Kadi, 'A silence of the guilds? Some characteristics of Izmir's craftsmen organizations in the 18th and early 19th century', in van den Boogert, ed., Ottoman Izmir , pp.82, 84, 88.

(96) Tournefort, II, 498; Martha Nicol, lsmeer; or Smyrna and its British Hospital in 1855 (1856), P: 198; Dallaway, P: 206.

(97) Leon Caignart de Saulcy, Carnets de voyage (1955 edn), P: 70, 2 May 1845.

(98) John E. Emerson, Letters from the East, 2 vols. (3rd edn, 1830), I, 65·

(99) Knight, p. 271; James Emerson, Letters from the Aegean, 2 vols. (1829), I, 76.

(100) Alexis de Valon, Une année dans le Levant: voyage en Sicile, en Gréce et en Turquie, 2 vols. (2nd edn, 1850), II, 64; A.W Kinglake, Eothen (1919 edn) , p. 60.

(101) BL, Hanson, 'Recollections', f. 443; Valon, II, 62-3·

(102) Le Bruyn, I, 87; personal information, Costas Dimitri, 20 Feb. 2009.

(103) Carlo Goldoni, Four Comedies (1922 edn), P: 151. Another play, Le Marchand de Smyrne by S. Chamfort (1785), ends with an old Turkish slave-owner

liberating his slaves.

(104) Poullet, II, 30.

(105) Galland, Voyage a Smyrne, pp. 119, 131, 133.

(106) Poullet, II, 27; Kontente, P: 309.

(107) Marie-Carmen Smyrnelis, Une ville ottomane plurielle: Smyrne aux xviic et xviiie siécles (Iaranbul, 2006), P: 47, consul to 'Choiseul-Gouffier, 3 June 1785.

(108) Goffrnan, Izmir, p. 1 15.

(109) Ibid., p. 139; cf. for other estimates Kontente, P: 337.

(110) Evliya, IX, 54.

(111) Kontente, P: 299; Tournefort, II, 496.

(112) Anderson, An English Consul, pp. 57n, 80; id., 'The Anglo-Dutch "Smyrna fleet" of 1693', in A. Hamilton et al., eds., Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century (Leiden, 2000), pp. 96, 105-7.

(113) Frangakis-Syrett, Commerce, pp. 253-4; Goffman, 'From village to colonial port city', p. [29.

(114) Frangakis-Syrett, Commerce, P: 47.

(115) Le Bruyn, I, 70-72; MacGill, I, 121; Kontente, P: 380.

(116) Frangakis-Syrett, Commerce, pp. 53-S; Kontente, pp. 378-9. 117.

(117) Galland, Voyage à Smyrne, P: 135.

(118) Goffman, Izmir, P: 134; id., 'From village to colonial port city', pp. 95, 118.

(119) Svat Soucek, 'The strait of Chios and the Kaptanpasa's navy', in Elizabeth Zachariadou, ed., The Kapudan Pasha, His Office and His Domain (Rethymnon, 2002), P: 145.

(120) Kontente, P: 343; Tournefort, I, 366.

(121) Tournefort, I, 366.

(122) Frangakis-Syrett, Commerce, pp. 119-21; Kontente, p. 393; Pococke, II, i, 37..

(123) الذي فرت عائلته ذات الأصول اليونانية من كريت في أثناء الفتح العثماني في العام 1669.

(124) Tom Rees, Merchant Adventurers in the Levant (Stawell, 2003), p. 37.

(125) Abdul-Karim Rafeq, The Province of Damascus 1723-1783 (Beirut, 1966), pp. 243, 293, 300.

(126) Joseph de Bauffremont, Journal de campagne de l'amiral de Bauffremont, prince de Listenois, dans les pays barbaresques (1766) (I981), p. 66; Kontente, p. 383.

(127) Aksan, Ottoman Wars, p. 153.

(128) François Charles-Roux, Le Projet Français de conquete de l'Egypte sous le régne de Louis XVI (Cairo, 1929), p. IS, note by M. Saint-Didier, May 1774; Aksan, Ottoman Vf.0rs, p. 154.

(129) Clogg, Studies, pp. 197, 203.

(130) Frangakis-Syrett, Commerce, pp. 59-50; Kontente, p. 384.

(131) An Authentic Narrative of the: Russian Expedition against the Turks by Sea and

Land (1772), pp. 107, 113.

(132) Frangakis-Syrett, Commerce, p. 60, letter of 15 Mar. 1773.

(133) Francois Charles-Roux, La Syrie et Palestine au xviiic siécle (1925), pp. 106, 110.

(134) Daniel Panzac, La Caravane maritime - marins europeens et marchands ottomans en Méditerranée (1680-1830) (2004), p. 204; Kontente, p. 385.

(135) Roderick H. Davison, Essays in Ottoman and Turkish History 1774-1923 (1990) pp. 31, 33, 37, 43, 55.

(136) Christoph K. Neumann, 'Decision-making without decision-makers: Ottoman foreign policy circa 1780', in Caesar E. Farah, ed., Decision-Making and Change in the Ottoman Empire (Kirksville, 1993), pp. 29-38.

(137) Charles-Roux, Le Projet Francais, p. 50.

(138) See Bibliothcca Alexandrina, Alex-Med Newsletter, 12 Aug. 2008, p. 12 and passim.

(139) Charles-Roux, Le Projet Francais, pp. 39, 42, 43, 60, 74, 82, 85.

(140) Claude Charles de Peyssonncl, Examen du livre intitulé Considérations sur la guerre actuelle des Turks (Amsterdam, 1788), pp. 22, 29, 154-5, 166-75, 239.

(141) Henry Laurens, Les Origines intelleauclles de l'expédition d'Egypte. L'Orient islam-isant en France (Istanbul, 1(87), p. 182.

الفصل الثالث

(1) Celikkol, de Groot and Slot, pp. 171, 175; Clogg, Studies, p. 244n; Finkel, P.469.

(2) Clogg, Studies, p. 93, declaration by British consul and merchants, 25 Mar. 1797.

(3) Clogg, Studies, pp. 12, 67 (Francis Werry to Spencer Smith, I7 Mar. 1797), 69, 78, 84 (id. to Levant Company, 2 Apr 1797, 8 Apr., 12 ApL), 85-7 (dispatch of Mr de Cramer, imperial consul-general, 17 Mar), 93 (declaration by British merchants, 25 Mar); Kontente, pp. 404-5.

(4) في القسطنطينية، كان الرجل قبل إعدامه يُجبَر على توقيع اعتراف بجرائمه، كان هذا الاعتراف يُدَسّ بعد ذلك في فم الرأس المفصولة عن جسدها ليقرأه العامة.

(5) Kontente, p. 389; MacGill, I, 131.

(6) Clogg, Studies, P. 242n; Gilles Veinstein, 'Ayan de la region d'Izmir et Ie commerce du levant', in id., Etat et societe dans I' Empire Ottoman, xuiie-xviiie siecles (Aldershot, 1994), pp. 132-44; Frangakis-Syrett, Commerce, pp. 37-40; Kontente, pp. 350, 411.

(7) Kontente, pp. 362, 395, 416; Hyde Clarke, History of the British Community at Smyrna (1862), passim.

في العام 1809، صوّت التجار البريطانيون بالموافقة على إرسال هدية إلى حسين قرة عثمان أوغلو امتناناً على معروفه وحمايته لهم إبان غياب القنصل البريطاني. Frangakis-Syrett, Commerce, p. 116.

(8) Clogg, Studies, pp. 87-9, letter of Joseph Franceschi and declaration of Russian captains, 17 MaL 1797·

(9) Ibid., pp. 104-5, order of 15 May, Werry to Spencer Smith, 2 June 1797·

(10) Constantino Oikonornos, Etude sur Smyrne, tr. and ed. Bonanventure F. Slaars (Smyrna, 1868), pp. 128-9; MacGill, I, 186, cf. Woodruff, p. 153; Clogg, Studies, p. 202n.

(11) BL, Hanson, 'Recollections', ff. 5 I, 54, 55, 65·

(12) Suryaiya Faroqhi, Subjects of the Sultan: Culture and Daily Life in the Ottoman Empire (2000), pp. 237-9·

(13) Chateaubriand, I, 270, 27 1, 274·

(14) J. M. Tancoigne, Voyage à Smyrne, dans l'archipel et l'île de Candie en 1811, 1812, 1813 et 1814, 2 vols. (1817), I, 33·

(15) Rev. R. Walsh, A Residence at Constantinople, during a Period including the Commencement, Progress, and Termination of the Greek and Tukish Revolutions, 2 vols. (1836), I, 43; cf. Duc de Raguse, Voyage de M. Ie Maréchal Duc de Raguse, 5 vols. (1.837), II, 193·

(16) BL, Hanson, 'Recollections', ff. 51, 54, 55, 65·

(17) MacGill, I, 78; Hervé, I, 313, 315; Earl of Carliste, Diary in Turkish and Greek Waters (1854), pp. T27, 128.

(18) Maxime du Camp, Souvenirs et paysages d'Orient (1848), p. 46.

(19) MacGill, I, 98. By some accounts the casino was founded in 1778.

(20) John Cam Hobhouse, diary of 1810, at http://www.hobby-o.com. 8 Mar. 1810.

(21) MacGill, I, 183; Knight, p. 274; Rev. Charles Swan, Journal of a Voyage up the Mediterranean; Principally among the Islands of the Archipelago, and in Asia Minor, 2 vols. (1826), 1, 141, diary 10 Jan. 1825; Oliver Jens Schmitt, Les Levantins: cadres de vie et identités d 'un groupe ethno-confessional de I'Empire Ottoman au 'long' 19e siécle (Istanbul, 2007), pp. 452-3, quoting diary of Pierre Deval, 1826.

(22) Fellows, pp. 4-5, 13 Feb. 1838.

(23) William. Turner, III, 139·

(24) MacGill, I, 99·

(25) Hervé, I, 323, 343, 344·

(26) Clogg, Studies, p. 136; Kontente, p. 360.

(27) Tancoigne, I, 38.

(28) BL, Hanson, 'Recollections', f. 12; MacGill, I, 86; Smyrna, Metropolis of the Asia Minor Greeks (Athens, 2001), p. 127·

(29) Rees, p. 150.

(30) Clogg, Studies, p. 9·

(31) Elena Frangakis-Syrett, 'The Raya Communities of Smyrna in the eighteenth

century', International Journal of Maritime History (1998), passim.

(32) A. Korais, Memoire sur l'etat actuel de la civilisation en Gréce (1803), pp. 37, 41, 45, 5311, 57, 66.

(33) Andreas G. Lemos, The Greeks and the Sea (1976), pp. 66, 70.

(34) Papadopoulos, pp. 17, 30, 102.

(35) Petros Mengous, Narrative of a Greek Soldier (New York, 1830), pp. 65-6.

(36) Frangakis-Syrctt, Commerce, pp. 101-2.

(37) Oikonomos, pp. 16, 17, 23, 57, 59, 61, 69; Clogg, Studies, p. 163, journal of Charles Williamson, Sept. 1819; Marie-Carmen Smyrnelis, ed., Smyrne, la ville oubliée? (2006), p. 68.

(38) Kontente, pp. 381, 408.

(39) Smyrnclis, Une ville ottomane plurielle, pp. 105n, III.

(40) Finkel, p.412.

(41) Vernon J. Puryear, Napoleon and the Dardanelles (Berkcley, 1951), p. 302, lettcr of Alexander I, 12 Mar. 1808.

(42) Richard Clogg, The Movement [or Greek Independence 1770-1821 (1976), p. 115.

(43) Hobhouse diary at http://www.hobby-o.com. 9 Dec. T 809; Mengous, p. 77.

(44) Papadopoulos, p. 42; Aksan, Ottoman Wars, p. 289.

(45) See for example Theophilus C. Prousis, British Consular Reports from the Ottoman Levant in an Age of Upheaval (Istanbul, 2008), pp. 57-9, 61, William Meyer to Lord Maitland, T3 Dec. 1820, 15 Mar. 1821.

(46) John A. Petropoulos, Forms of Collaboration with the Enemy: Memoirs of Kanellos Delegiannes (n.d.), pp. 134-5.

(47) Christinc Philou, 'To be or not to be Roum in the 1820s', paper given at École Française d' Athenes, Feb. 2006.

(48) Hakan Erdem, 'Ottoman responses to the Greek War of Independence', in Faruk Birtek and Thalia Dragonas, eds., Citizenship and the Nation-State in Greece and Turkey (2005), pp. 69, 70, 74.

(49) Clogg, Studies, pp. 205, 207, dispatches of Werry to Levant Company 11 Apr., 3 May 1821; cf. Alvan Bond, Memoir of Rev. Pliny Fisk (Edinburgh, 1828), pp. 142-54, letters lamenting 'the most tragical and bloody scenes', June-Nov. 1821.

(50) Theodophilus C. Prousis, 'Smyrna 1821: a Russian view', quoting the diary of the Russian consul, Apr. 1821, in Modem Greek Studies Yearbook, 7 (1991), pp. 150, 152.

(51) Clogg, Studies, pp. 208, 220-21, 224, dispatches by Werry, 3 May, 16 July, 17 Aug. 1821,

(52) Ibid., pp. 208-18, 223, 226, dispatches of 12 May, 17 May, 18 June, 2 July, 2 Aug., 17 Sept. 1821; Prousis, 'Smyrna 1821', p. 156, diary for 16 june 1821.

(53) Clogg, Studies, pp. 230, 23 1, 232-3, dispatchcs of 15, 30 Nov. 1821.

(54) تواصل شخصي مع H. Sukru Ilicak, 16 May 2008.

(55) Aksan, Ottoman Wars, p. 292; Walsh, II, 69, 70; David Brewer, The Greek War of Independence (New York, 2001), pp. 160-66; Prousis, Consular Reports, p. 146, report of 1 June, 2 July 1822.

(56) Allan Cunningham, Anglo-Ottoman Encounters in the Age of Revolution, 2 vols. (1993), I, 290.

(57) Peter Calvocoressi, Threading My Way (1994), passim.

(58) Lemos, pp. 88, 91; John Travelos and Angelike Kokkou, Hermoupolis (Athens 1984), passim.

(59) Papadopoulos, pp. 408, 410.

(60) Allan Cunningham, Anglo-Ottoman Encounters, I, 300.

(61) Kontente, p. 443.

(62) Allan Cunningham, Anglo-Ottoman Encounters, I, 218.

(63) Georges Douin, Navarin 6 juillet-20 octobre 1827 (Cairo, I927), pp. 98, 169.

(64) Erdern, P: 77; Douin, Navarin, p. 28, declaration of June 1827.

(65) Allan Cunningham, Anglo-Ottoman Encounters, I, 294, 315; Groot, 'Dragomans', p. 155.

(66) David H. Finnie, Pioneers East: The Early American Experience in the Middle East (Cambridge, Mass., 1967 p. 24.

(67) Kontente, pp. 438-9; Nathalie Clayer et al., eds., Presse turque et presse de Turquie (1992), pp. 4-6.

(68) Kontente, pp. 458, 470; Jan Schmidt, From Anatolia to Indonesia: Opium Trade arid the Dutch Community or Izmir 1820-1940 (Istanbul, 1998), pp. 73-4.

(69) F. V J Arundell, Discoveries in Asia Minor, 2 vols. (1834), II, 418, 364-5; John Murray, Handbook (1840), p. 261.

(70) E. C. Wines, Two Years and a Half in the Navy; or, Journal of a Cruise in the Mediterranean and the Levant, 2 vols. (Philadelphia, 1832), II, 134; Gerasimos Augustinos, The Greeks of Asia Minor: Confession, Community and Ethnicitv in the Nineteenth Century (1992), p. 92.

(71) Bond, p. 104, letter of 30 Jan. 1820.

(72) Woodruff, p. 167; cf. Chandler, I, 74.

(73) Wines, II, 137.

(74) Woodruff, p. 153; MacGill, I, 102; Clogg, Studies, p. 107, dispatch of 17 July 1797.

(75) Patricia Crimmin, 'The Royal Navy and the Levant trade c.I795-c.1805', in Jeremy Black and Philip Woodfine, eds., The British Navy and the Use of Naval Power in the Eighteenth Century (Leicester, 1988), pp. 226, 227, 233.

(76) Woodruff, p. 158.

(77) أنا ممتن لصوفي موني Sophia Mooney على هذا المرجع, George Hawthorn journal; sold by Sotheby's, 18 May 2004

(78) Thomas Hope, Anastasius, 2 vols. (1819), I, 184.

(79) James Emerson, I, 85·

(80) Hervé, I, 379·

(81) Knight, pp. 292-3.

(82) Anderson, An English. Consul, p. r a.Valon, II, 434; Knight, p. 293n.

(83) Woodruff, p. 166.

(84) James Emerson, I, 36-7.

(85) Philip Mansel, Dressed to Rule: Royal and Court Costume from Louis XIV to Elizabeth II (2005), pp. 104-5.

(86) Aksan, Ottoman Wars, p. 360.

(87) Sybil Zandi Sayek, 'Fêtes et processions', in Marie-Carmen Smyrnelis, ed., Smyrne, la ville oubliée? , pp. 157-68; Vangelis Kechriotis, 'The Greeks of Izmir at the end of the empire: a non-Muslim community between autonomy and patriotism', DPhil thesis (Leiden University, 2005), pp. 157, I61; Schmitt, PP·354-5·

(88) Hervé II, 44; James Emerson, I, 238.

(89) Kinglake, p. 54·

(90) Kontente, p. 469.

الفصل الرابع

(1) Chateaubriand, II, 141.

(2) W. Birch, Journal of a Voyage up the Mediterranean (Poulton, 1818), pp. 160-61; T. R Jolliffe, Letters from Palestine (2 nd edn, 1820), p. 318, Oct. 1817.

(3) Daniel Panzac, Les Corsaires barbnresques (1999), p. 1 321L

(4) Desmond Gregory, Malta, Britain and the European Powers 1793-1815 (1996), pp. 137, 192, 216; Aksan, Ottoman Wars, P. 236.

(5) Ronald T. Ridley, Napoleon's Proconsul in Egypt: the life and Times of Bernardino Drovetti (1998), p. 33; Sylvie Guichard, cd., Lettres de Bernardino Drovetti, Consul de France à Alexandrie 180.)-18, 0 (2003), p. 103, letter to Pierre Balthalon, 1 June 1804·

(6) Jack A. Crabbs, The Writing of History in Nineteenth-Century Egypt: A Study in National Transiormation (Cairo, 1984), pp. 44, 46; Cheikh Abd-el-Rahman el Jabarti, Merveilles bioographiques et historiques ou chroniques du Cneikh Abd-ElRahman El Djabarti, 10 vols. (Cairo, 1896 , VIII, 111.

(7) Henry Dodwell, The Founder of Modem Egypt: A Study or Muhammad Ali (Cambridge, 1931), PP. 19-20; Jabarti, VIII, 36.

(8) Muhammad H. Kutluoglu, The Egyptian Question (1811-1840) (Istanbul, 1998), p. 36.

(9) Vice-Amiral Durand- Viel , Les Campagnes navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, 2 vols. (1935), I, 41, 60-63, 77·

(10) Jabarti, VIII, 47, 148, 204; Deborah Manley and Peta Ree, Henry Salt: Artist, Traveller, Diplomat, Egyptologist (2001), p. 76.

(11) Khaled Fahrny, All the Pasha's Men: Mehmed Ali, his Army and the Making of Modern Egypt (Cambridge, 1997), p. 84.

(12) F. Robert Hunter, Egypt under the Khedives 1805-1879 (1984), pp. 20-21, 48; Amédée Sacré and Louis Outrebon, L'Egypte et Ismail Pacha (1865), pp. 65-6.

(13) René Cattaui, ed., Le Régne de Mohamed Aly d'aprés les archives russes en Egypte, 2 vols. (1931), I, 3, Boghos to consuls, 22 May 1819.

(14) Georges Douin, ed., La Mission du Baron de Boislecomte: l'Egypte et la Syrie en 1833 (Cairo, 1927), p. 62, report of 19 June 1833.

(15) Edouard Driault, Mohamed Ali et Napoléon (1807-1814): correspondance des consuls de France en Egypte (Cairo, 1925), p. 201, Drovetti bulletin, 26 Nov. 1812.

(16) M. Sabry, L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et la question d'Orient (1811- 1849) (1930), p. 80.

(17) Robert Ilbert, Alexandrie 1830-1930, 2 vols. (Cairo, 1996), I, 67; Durand-Viel, I, 149-50; Raguse, III, 131-2.

(18) Guichard, p. 437, 6 Feb. 1823.

(19) Ridley, p. 44; Manley and Ree, p. 241.

(20) Ridley, pp. 207-8.

(21) Jabarti, VIII, 279, 300, 322, 344 (1810-13); Driault, p. 93, dispatch of Drovetti, 28 Nov. 1810.

(22) Driault, p. 77, dispatch of Drovetti, 17 July1810; Ridley, p. 232; Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, Egypt in the Reign of Muhammad Ali (Cambridge, 1984), p. 147.

(23) Jabarti, IX, 196; Dodwell, p. 58; Marsot, pp. 147, 106-7; Sabry, p. 31, dispatch of Drovetti, 28 Nov. 1812.

(24) Robert Richardson, Travels Along the Mediterranean and Parts Adjacent, in Company with the Earl of Belmore, during the years 1816-1817-1818, 2 vols. (1822), I, 22,-25.

(25) Stephen Olin, Travels in Egypt, Arabia Petraea ami the Holy Land, 2 vols. (New York, 1843), I, 19; Baroness von Minutoli, Recollections of Egypt (1827), p. 2.

(26) W. R. Polk and R. Chambers, The Beginnings of Modernization in the Middle East (Chicago, 1968), pp. 156-7.

(27) Prousis, Consular Reports, p. 206, Salt to Londonderry, 6 Nov. 1821; Gaston Wiet, Mohammed Ali et les beaux-arts (Cairo, 1949), p. 25; Brian Fagan, The Rape of the Nile (Boulder, 2004 edn), pp. 57, 59, 170; Manley and Ree, pp. 81, 98, 104.

(28) Ridley, p. 220.

(29) Jabarti, IX, 237, 239-40, 293-4, 305; Fahmy, All the Pasha's Men, p. 10; Michael J. Reimer, Colonial Bridgehead: Govemment and Society in Alexandria 1807-1882 (Boulder, 1997), p. 59.

(30) Driault, pp. 178, 188, bulletins of Drovetti, May, 2 July 1812; Ilberr, I, 25; Manley and Ree, p. 69.

(31) Cattaui , I, 377, dispatch of 24 June 1830.

(32) Reimer, pp. 60-61; A. B. Clot Bey, Aperçu général sur l'Egypte, 2 vols. (1840), I, 195.

(33) Wiet, pp. 195-9, 209; -13; Sir Gardner Wilkinson, Handbook Jor Travellers in Egypt (1847), p. 101.

(34) C. Rochfort Scott, Rambles in Egypt and Candia, 2 vols. (1837), I, 43.

(35) J. Millie, Alexandrie d'Egypte et le Caire (Milan, 1868), p. 23. 36.

(36) Alfred J. Butler, Court Life in Egypt (1887), p. 121.

(37) H. Noel Williams, The Life and Letters of Admiral Sir Charles Napier KCB (1917), P: 204.

(38) Comte Benedetti, Essais diplomatiqucs (nouvelle série), 2 vols. (1897), II, 178.

(39) E. B. Barker, Syria and Egypt under the Last Five Sultans, 2 vols. (1876), II, 8, 151. 40.

(40) وفقاً لتقدير هذا المؤلف، يوجد ثلاثون كتاب رحلات حول مصر على الأقل، ناهيك عن الكتب التي ذكرت مصر كجزء من رحلة أكبر.

(41) M. Goupil-Fesquet, Voyage en orient fait avec Horace Vernet en 1839 et 1840 (1840), p. 33.

(42) Nubar Pacha, Memoires (Beirut, 1983), p. 67; James Augustus St John, Egypt and Mohammed Ali; or, Travels in the Valley of the Nile, 2 vols. (1834), I, 61.

(43) Francis Schroeder, Shores of the Mediterranean, 2 vols. (1846), II, 6-7; Olin, Travels, I, pp. 32-3; Benedetti, 11, 177-8.

(44) Hon. Sir Charles Augustus Murray KCB, A Short Memoir of Mohammed Ali (1898), pp. 58-9; Scott, Rambles, I, 178-9.

(45) Wiet, pp. 289-300; Prince Puckler-Muskau, Egypt under Mohammed Ali, 2 vols. (1845), I, 72.

(46) Sir Charles Murray, p. 50.

(47) Manley and Ree, p. 252, 16 Sept. 1826.

(48) Ibid., p. 246.

(49) Ibid., pp. 250-51, audience of 16 Sept. 1826; Dodwell, p. 195, quoting Bowring.

(50) Manley and Ree, p. 263, 16 Aug. 1827.

(51) Benedetti, II, 184.

(52) Jabarrr, IX, 190.

(53) James Augustus St john, II, 441.

(54) Reimer, p. 148; Jabarti, IX, 326 ;2-Ibid., I, 41. كان الشيخ مخطئا، لأن الجزار ذبح الحيوان بالطريقة الحلال، إذ قال «بسم الله الرحمن الرحيم» في أثناء الذبح. فقد كان تدينه روحياً، كما قيل لي في مناقشة في مكتبة الإسكندرية في 7 ديسمبر 2008.

(55) Fahmy, All the Pasha's Men, p. 95.

(56) Driault, p. 160, report by Mengin, 20 Jan. 18 r 2.

(57) Eliza Fay, Original Letters from India (1925), pp. 72-3, letter of z ; July 1779·

(58) Jabarti, IX, 225, 325 (1813).

(59) Georges Douin, Une mission militaire Française auprés de Mohamed Aly: correspondance des generaux Belliard et Boyer (1923), p. 39, Belliard to Boyer, 29 Oct. 1824, 30 Nov. 1824.

(60) Guichard, p. 452, letters to Pierre Balthalon, 22 Dcc. 1823.

(61) Fahmy, All the Pasha's Men, p. 94, letter of 20 Jan. 1824.

(62) Gerald de Gaury, Rulers of Mecca (1951), p. 228.

إنني مدين بهذا المرجع لألان دي لاسي روش Alan de Lacy Rush.

(63) Durand-Viel, II, 127; cf. Benedetti, II, 185: 'La vie humaine n'avait à ses yeux qu'une valeur relative.'

(64) Driault, p. 79, dispatch by Saint-Marcel, 2 r July 1810.

(65) Manley and Ree, pp. 191-2, audience of 20 Nov. 1820.

(66) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 87-9, letter of 18 Feb. 1822; Dodwell, p. 232.

(67) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 99, 102, 111; Douin, Une mission militaire Francaise, p. 48.

(68) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. I00-2, 260-1.

(69) Dodwell, p. 227, quoting Muhammad Ali's letters and circulars to officials.

(70) R. Garreau, Un angoumois homme de mer: Besson Bey (Antibes, 1949), passim; Puckler-Muskau, I, 53, 60; Dodwell, p. 225·

(71) Georges Donin, L'Egypte de 1828 à 1830: correspondance des Consuls de France en Egypte (Rome, 1935), p. 160, dispatch of Baron d' Haussez, 25 June 1829; Durand- Viel, II, 20; Fahrny, All the Pasha's Men, pp. 135-7.

(72) Bayle Stjohn, Two Years' Residence in a Levantine Family (1856), p. 38.

(73) Scott, I, 30-31; Edward Hogg, A Visit to Alexandria, Damascus and Jerusalem during the Successful Campaign of Ibrahim Pasha, 2 vols. (1835), I, 89; Schroeder, II, 67.

(74) Wiet, p. 200; Durarid-Viel, II, 47, dispatch of Aug. 1830; Scott, I, 43; Reimer, pp. 55, 56.

(75) Driault, p. 120, dispatch from Saint-Marcel, 6 May 1811.

(76) Pückler-Muskau, I, 6.

(77) Bramsen, I, 172, 177 William Turner, II, 3 I 5, 341.

(78) Reimer, p. 81; Cattaui, I, 263, 336, 356, dispatches of 8 July 1828, 5 Mar 1829, 25 Aug. 1829, Pezzoni to Heyden; Dodwell, p. 229·

(79) Ilbert, I, 108.

(80) Ridley, p. 113, letter of Sept. 1822.

(81) Edmund Spencer, Travels in European Turkey, 2 vols. (1851), II, 297·

(82) Pierre Deval had also served in Alexandria and Baghdad, and as consul in Algiers since 18 14·

(83) J. C. Hurewitz., The Middle East and North Africa in World Politics, 2 vols.

(New Haven, 1975), I, 227-9), dispatch frorn Deval, 30 Apr. 1827, Husseyin Pasha to Grand Vizier, 19 Dec. 1827; Panzac, Les Corsaires babaresques. pp. 197 -9, 273.

(84) Mohamed Awad, 'The metamorphoses of Mansheyeh', Mediterraneans (2000), p. 42; Mrs Charles Lushington, Narrative of a Journey from Calcutta to Europe, by Way of Egypt, in the years 1827 and 1828 (1829), p. 185.

(85) Reimer, p. 73; Ilbert, I, 110-11; Mohamed Awad, Italy in Alexandria: Influences on the Built Environment (Alexandria, 2008), p. 79; Ezio Godolli and Milva Giacomelli, eds., Italian Architects and Engineers in Egypt from the Nineteenth to the Twenty-first Centuries (Florence, 2008), pp. 13-14.

(86) Scott, I, 20; Schroeder, II, 70.

(87) Schroeder, I, 70; Ilbert, I, 80; Major and Mrs George Darby Griffith, A Joumcy Across the Desert from Ceylon to Marseilles, 2 vols. (1845), II, 38; M. Gisquet, l'Egypte, les Turcs et les Arabes, 2 vols. (1846), I, 58; Wilkinson, p. 73.

(88) M. Mengin, Histoire de l'Egypte sous le regne de Mohammed Aly (l823), PP. 52, 413.

(89) Pascal Coste, Toutes les Egyptes (Marseille, 1998), pp. 40, 55, 57, 143, 155.

(90) Driault, p. 132, dispatch by Saint-Marcel, 3 July 1811; Cattaui, I, 07, 85, dispatches of Drovctti to Russian government, 20 May 1826, 5 Aug. 1827; James Augustus St john, II, 532.

(91) Reimer, p. 84; Ilbert, 1, 193.

(92) Guichard, pp. 432, 448, 487, letters of 14 Aug. 1823, 26 Sept. 1824; Giovanni d' Athanasi, A Brief Account of the Researches and Discoveries in Upper Egypt made under the direction of Henry Salt Esq. (1836), P: 2.

(93) Ilbert, I, 22.

(94) Thomas Philipp, The Syrians in Egypt 1725-1975 (Stuttgart, 1985), p. 64; Guichard, 1'1'.432, 448 (14 Aug. 1823).

(95) Prousis, Consular Reports, p. 188.

(96) Reimer, pp. 68-70, 72; Fahmy, All the Pasha's Men, p. 211.

(97) Reimer, pp. 60, 62, 66; Ilbert, I, 113.

(98) Awad, Italy in Alexandria, P: 94.

(99) Ilbert, I, 22; James Augustus St John, I, 2-3.

(100) Ilbert, I, 22; Marsot, pp. 187, 191.

(101) Clot Bey, Aperçu général, II, 328.

(102) Baron d'Armagnac, Nezib et Beyrout: souvenirs d'Orient de 1833 à 1841 (1844), p. 6; David S. Landes, Bankers and Pashas: International Finance and Economic Imperialism in Egypt (1979 edn), p. 196n.

(103) Minutoli, p. 6; Hogg, I, 90, 101n; William A. Bromfield, Letters from Egypt and Syria (1856), p. 21, 22 Oct. 1850.

(104) Bayle St john, p. 17.

(105) Philipp, The Syrians in Egypt, p. 63n.

(106) Durand-Viel, II, 140.

(107) Ilbert, I, 167·

(108) Dodwell, p. 194, dispatch of Murray, 8 July 1847·

(109) See Comte Joseph d'Estourmel, Journal d'un voyage en Orient, 2 vols. (1844), 11, 495-7·

(110) Philip Sadgrove, 'Travellers' rendezvous and cultural institutions in Mohammed Ali's Egypt', in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East (Reading, 2001), p. 259·

(111) James Augustus St John, ll, 358; Ilbert, I, 134·

(112) Minutoli, pp. 154-7; A. Clot, Aperçu général sur L'Egypte, II, 156-7.

(113) Scott, I, 46-7; Manley and Ree, p. 254; Wilkinson, p. 101.

(114) Philip Sadgrovc, The Egyptian Theatre in the Nineteenth Century 1791-1882 (Reading, 1996), pp. 35, 39, 40.

(115) Cf. Baron de Kusel Bey, An Englishman's Reminiscences of Egypt (1915), p. 38: 'Alexandria and its European suburb Ramleh are hard to beat for openhanded and open-hearted hospitality.'

(116) Raguse, III, 2I6n, 218.

(117) Bayle St John, p. 131.

(118) H. R. Ross, Letters From the East (1902), p. 199n.

(119) Florence Nightingale, Letters from Egypt (1998 edn) , p. 24·

(120) David Millard, Journal of Travels in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land during 1841-2 (Rochester, NY, 1843), pp. 30, 34·

(121) James Augustus St John, II, 358, 376.

(122) Ed. de Cadalvéne and J. de Breuvery, L'Egypte et la Turquie de 1829 à 1836, 2 vols. (1836), I, 27; Hogg, I, 145; cf. for a similar account A. B. Clot Bey, Memoires (Cairo, I949), p. 38.

(123) Wilkinson, P.72; Nassau Williarn Senior, A Journal Kept in Turkey and Greece in the Autumn of 1857 and the Beginning of 1858 (1859), p. 18, 19 Nov. 1855.

الفصل الخامس

(1) Manley and Ree, pp. 226, 256; Dodwell, p. 73·

(2) Durarid-Viel, 1, 314, 316, 367; Cattaui, I, 150, dispatch of 13 Dec. 1827; Manley and Ree, pp. 238, 266, 273.

(3) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 38, 48; Sabry, p. 44, dispatch of 7 July I813·

(4) Durand-Viel, 1, 163.

(5) Fahmy, All the Pasha's Men, p. 52.

(6) Kate Fleet, TIle Muslim Bonaparte: Diplomacy and Orientalism in Ali Pasha's Greece (Princeton, 1999), pp. 23-4, 31, 5 1, 79, 105-7, 116.

(7) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 53-5, letter of 23 Jan. 1822. In 1832 he complained

that the Ottomans had been tyrannical and treacherous for five hundred years: ibid., p. 71.

(8) Ibid., pp. 56-9, letters of 24 Dec. 1825, 28 Oct. 1827.

(9) Cattaui , II, 11, 2I, 45, Lavison to Bouteneff, 24 Apr., 26 May 1836. 10.

(10) Landes, p. 331.

(11) James Augustus St John, II, 363; Bromfield, p. 20, letter of 22 Oct. 1850; Wiet, p.249·

(12) Douin, Boislecomte, pp. 85, 98, report of 29 June 1833.

(13) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 61-6; Cattaui , I, 448, Lavison to Bouteneff, Nov. 1831.

(14) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 67, 16I.

(15) Ibid., pp. 270-6.

(16) Douin, Boislecomte, pp. 286, 287, 292, report of 19 Sept. 1833; Kontente, p. 457·

(17) Kutluoglu, p.73.

(18) Ibid., p. 91; Douin, Boislecomtc, pp. xxvii, xxxiv to Admiral Roussin, 8 Sept. 1832.

(19) Kutluoglu, pp. 98-104.

(20) Ibid., pp. 109, 113; Sabry, pp. 377, 379, report of Campbell, 1836.

(21) Dominique Chcvallicr, La Société du Mont Liban al'époque de la révolution industrielle en Europe (1971), pp. 14, 96, 99, 102.

(22) Cattaui, I, 463, 532, 542, dispatches of I Feb. and 12, 3 I Aug. I832.

(23) Sabry, p. 182. '

(24) Henry Laurens, 'La France et le califat', Turcica, 31 (1999), pp. 152-3.

(25) Fahrny, All the Pasha's Men, p. 71, to Ibrahim, 3 June 1832.

(26) Sabry, pp. 219, 227, letters of 28 Dec. 1832, 3 Feb. 1833.

(27) E. B. Barker, II, 118, letter of John Barker to James Calvert, 1 Apr. 1830.

(28) Manley and Ree, p. 239; Dodwell, p. 86; Driault, p. 209, circular of 13 Cemma al-Awal 1255·

(29) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 285-9·

(30) Ehud R. Toledano, State and Society in Mid-Nineteenth-Century Egypt (Cambridge, 2003 edn), pp. 158-60.

(31) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 89, 282, letters of 1822, 30 June 1833·

(32) Byron, who travelled in the Ottoman Empire in I809-II, wrote that 'The Turks abhor the Arabs (who return the compliment a hundred fold) even more than they hate the Christians.'

(33) Cattaui. II, ii, 352, Duhamel to Nesselrode, 6 July 1837.

(34) Jabarti, VIII, 204, IX, 53, 153·

(35) Fahmy, All the Pasha's Men, pp. 91, 245-6, 252-4, 269.

(36) Ibid., pp. 253, 256, 245, 5 Sept. 1832·

(37) Sabry, p. 153, letter of 12 Dec 1827.

(38) Ibid., p. 550.

(39) Ibid., p. 473, Ibrahim to Muhammad Ali, 4 Sept. 1839.

(40) Zeynep Çelik, Urban Forms and Colonial Confrontations: Algiers under French Rule (1997), pp. 27, 30; Missouma, pp. 34, 46.

(41) Kutluoglu, pp. 191-2.

(42) Toledano, p. 98.

(43) Fahmy, All the Pasha's Men, p. 283.

(44) Manley and Ree, p. 251.

(45) Kutluoglu, pp. 119-20.

(46) Athanase G. Politis, ed., Le Conjlit turco-égyptien. de 1838-1841 et les derniéres années du regne de Mohamed Aly d'aprés les documents diplomatiques grecs, (Cairo, 1931), pp. xv, xxxii.

(47) Kutluoglu, p. 94, letter of 4 Feb. 1833.

(48) Sabry, p. 292, report of Farren, British consul in Damascus, 29 May 1834.

(49) Dodwell, pp. 171, 408, reports of Medern, 20 Mar. 1838, 2 May 1838.

(50) Athanase Politis, pp. xiv, 41, dispatches of 4 May and 6 Apr. 1838.

(51) Fahmy, All the Pasha's Men, p. 284.

(52) Douin, Boislecomte, pp. 141, 239, 249, reports of 3 July, 30, 31 Aug. 1833; Dodwell, p. 156.

(53) A.J. Rustum, The Royal Archives of Egypt and the Disturbances in Palestine, 1834 (Beirut, 1938), pp. 13, 17.

(54) Kutluoglu, p. 140.

(55) Ibid., pp. 26-7.

(56) Commodore Sir Charles Napier, The War in Syria, 2 vols. (1842), I, xlivn, account by the dragoman of the British consul.

(57) Sabry, pp. 454-5.

(58) Dodwell, p. 105, dispatch by Consul Barker, 8 Mar. 1830.

(59) Ibid., p. 189; Durand-Viel, II, 210, 223.

(60) Sabry, p. 499, dispatch from Hodges, 23 Aug. 1840.

(61) Francois Charles-Roux, Thiers et Mehemet Ali (1951), pp. 167, 171 (9 Sept. 1840), 201 (17 Sept. 1840), 231 (9 Oct. 1840).

(62) Durand-Viel, II, 228, 239, 244.

(63) Gabriel Dardaud, 'Un officier francais du génie: Gallice Bey', Revue des Conférences Francaises en Orient, Dec. 1947, 657-70.

(64) Charles-Roux, Thiers, p. 243.

(65) W. P. Hunter, Narrative of the Late Expedition to Syria Under the Command of Admiral the Hon, Sir Robert Stopjord GCB, GCMG, 2 vols. (1842), I, 7, 70.

(66) Charles-Roux, Thiers, pp. 239, 243.

(67) Philip Mansel, Paris between Empires (2001), pp. 362-3.

(68) Charles-Roux, Thiers, p. 242.

(69) W. P. Hunter, I, 272, 293, II, 309.

(70) Sir Charles Napier, I, 255; Williams, p. 205.

(71) Sir Charles Napier, I, 260, 11, 168; Charles-Roux, Thiers, pp. 245-6.

(72) Mansel, Paris between Empires, p. 364.

(73) Toledano, p. 2; Charles-Roux, Thien, pp. 243-5, 250, letter of 24 Oct. 1840.

(74) Durand-Viel, II, 200; Charles-Roux, Thiers, p. 252.

(75) Kutluoglu, pp. 178-87, 195; Charles-Roux, Thiers, p. 255; Sabry, pp. 533-4; Toledano, pp. 1-2.

(76) Charles-Roux, Thiers, p. 315.

(77) Ibid., pp. 257, 260.

(78) Bayle St John, p. 11.

(79) Reimer, pp. 90-93; Wilkinson, p. 97.

(80) Gabriel Baer, Studies, p. 137.

(81) Nubar Pacha, p. 86.

(82) Ilbert, I, 47; Sabry, p. 578, Stoddart dispatch, 29 Aug. 1846.

(83) Juan Cole, Colonialism and Revolution in the Middle East: Social and Cultural Origins of Egypt's Urabi movement (Princeton, 1993), p. 84; Rosemary Said Zahlan, 'George Baldwin', in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East (Reading, 2001), p. 32.

(84) Dodwdl, p. 179.

(85) Gustave Haubert, Correspondance générale (1973-), I, 565, to Dr Clocquet, 15 Jan. 1850.

(86) Wier, PP. 387-8.

(87) Angelo Sammarco, Les Régne d'Abbas, de Said et d'Ismail (Rome, 1935, p. 56; cf Dardaud, p. 668.

(88) Reimer, pp. 86-7.

(89) Bayle St John, pp. 290, 292.

(90) Driault, pp. 34, 199, letters of Drovetti 9 Apr. 1809, 4 Nov. 1812.

(91) Jabarti, IX, 142, 170 July 1813).

(92) Fahmy, All the Pasha's Men, p. 131.

(93) Jabarti, IX, 199 (1816).

(94) Dodwell, p. 194.

(95) Ibid., pp. 262-3, dispatch by Murray; Aug. 1849.

الفصل السادس

(1) Lt-CoL Edward Napier, Reminiscences of Syria and Fragments of a Journal and Letters from the Holy Land, 2 vols. (1843), 1, 94, 96.

(2) Gustave Flaubert, Voyage en Orient 1849-1851 (2006 edn) , p. 230.

(3) Muhammad Adnan Bakhit, 'The Christian population of Damascus in the

sixteenth century', in Benjamin Braude and Bernard Lewis, Christians and Jews in the Ottoman Empire, 2 vols. (1982), II, 39.

(4) Chevalier d'Arvieux, Mémoires, 6 vols. (1735), II, 337, 345, 360-61.

(5) May Davie, 'Les chrétiens dans l'espace et la société de Beyrouth', in Les Relations entre musulmans ct chrétiens dans le bilad al cham. Actes du colloque de 2004 (Beirut, 2004), p. 179.

(6) Kamal Salibi, 'Maronite historians of Lebanon', in P. M. Holt and B. Lewis, eds., Historians of the Middle East (1962), pp. 212, 221, 238.

(7) Abdul Rhhim Abu Husayn, The View from Istanbul: Lebanon and the Druze Emirate in the Ottoman Chancery Documents (2004), p. 52.

(8) Allan Cunningham, ed., The Early Correspondence of Richard Wood, 1831-1841 (1966), p. 45, to Mr Ongly, 5 Apr. 1832.

(9) Hurewitz, I, 28, 34; René R. Ristelhuber, Les Traditions Francaises au Liban 2nd edn, 1925), pp. 121, 130, 273, 276, letter of 1 Nov. 1715.

(10) Douin, Boislecomte, p. 258, 1 Sept. 1833; Charles Issawi, The Fertile Crescent 1800-1914 Ac Documentary Economic History (Oxford, 1988), p. 160.

(11) Henri Guys, Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrout et dans le Liban, 2 vols. (1847), 1, 20, 225.

(12) Thomas Philipp, Acre: the Rise and Fall of a Palestinian City (2001), pp. 128, 130, 133.

(13) Leila Kamel, Un quartier de Beyrouth: Saint Nicolas. Structures familiales et structure fonciéres, 2 vols. (Beirut, 1998), passim.

(14) Alphonse-Marie-Louis de Prat de Lamartine, Correspondance Générale de 1830 à 1848, 2 vols. (1943), 1, 305, letters to Edmond de Cazales, 24 July and 6 Sept. 1832.

(15) Leila Fawaz, Merchants and Migrants in Nineteenth-Century Beirut (2000 edn), p. 46; Samir Kassir, Histoire de Beyrouth (2003), p. 128.

(16) Charles Issawi, 'British trade and the rise of Beirut 1830-1860', International Journal of Middle East Studies (Aug. I977), 91-101, pp. 92, 93, 94, 98, dispatch of 16 Nov. 1835.

(17) Fawaz, Merchants, pp. 81-2.

(18) Kassir, Beyrouth, p. 133.

(19) Derek Hopwood, The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914: Church and Politics in the Near East (Oxford, 1969), p. 15.

(20) Allan Cunningham, Early Correspondence, p. 137, Wood to Ponsonby, I4 Oct. 1839; C. E. Farah, Arabs and Ottomans: A Chequered Relationship (Istanbul, 2002), p. 228.

(21) Ristelhuber, pp. I47, 148; Salibi, A House of Many Mansions, p. 113; Chevallier, P.249.

(22) C. B. Elliott, II, 217, 218, 222; Guys, II, 17; Farah, Arabs and Ottomans, p. 214.

(23) Joseph Hajjar, L'Europe et les destinées du Proche Orient, 4 vols. (Damascus, 1988), I, 160, 164-5, dispatch of French consul Duhamel, 11 Nov. 1835·

(24) Fawaz, Merchants, p. 37·

(25) Kassir, Beyrouth, p. 135·

(26) William Turner, II, 55; Olin, Travels, II, 460-62.

(27) Edward Napier, I, 86; Schroeder, II, 159-60.

(28) E. B. Barker, II, 2-3; Issawi, Fertile Crescent, p. 87·

(29) Chevallier, p. 204.

(30) Farah, Arabs and Ottomans, p. 153; Ussama Makdisi, The Culture of Sectarianism: Community, History and Violence in Nineteenth-Century Ottoman Lebanon (Berkeley, 2000), pp. 54-5, 193·

(31) Sir Charles Napier, II, 303, 306, 308.

(32) Farah, Arabs and Ottomans, pp. 140-42; Allan Cunningham, Early Correspondence, pp. 143, 147·

(33) Edward Napier, I, 87n, 88.

(34) Ibid., I, 93·

(35) Durand-Viel, II, 232.

(36) Williams, pp. 159, 182-90; Farah, Arabs and Ottomans, P. 150.

(37) Sir Charles Napier, I, 119, report of 7 Oct. 1840; W. P. Hunter, I, 175, 218, II, 306-7; Durand-Viel, II, 232, 235·

(38) Chevallier, P: 52·

(39) C. W M. van de Velde, Narrative of a Journey through Syria and Palestine in 1851 and 1852, 2 vols. (1854), I, 62.

(40) Carlisle, p. 220, 19 Dec. 1853·

(41) Flaubert, Voyage, pp. 328-9; Patrick Cabanel, ed., Une France en Méditerranée: écoles, langue et culture françaisc (2006), pp. 67, 90, 208- II and passim.

(42) Fouad C. Debbas, Beirut our Memory (2nd rev. edn, Beirut, 1986), pp. 143-4·

(43) F. A. Neale, Eight Years in Syria, Palestine and Asia Minor from 1842 to 1850, 2 vols. (1851), I, 209, 211; Kassir, Beyrouth, P- 195·

(44) Kamel, p. 141.

(45) Neale, I, 220-1, 225, 249·

(46) Ibid., I, 214.

(47) A. P. Terhune, Syria from the Saddle (1897), P: 19·

(48) Gregory M. Wortabet, Syria, and the Syrians: or, Turkey in the Dependencies, 2 vols. (1856), I, 35-7, 40, 43; Neale, I, 209, 247·

(49) Chevallier, p: 196.

(50) Allan Cunningham, Early Correspondence, p. 243, to Ponsonby, 17 May 1841.

(51) Ussama Makdisi, pp. 37-8.

(52) Hurewitz, I, 284; Engin Akarli, The Long Peace: Ottoman Lebanon 1861-1920

(Berkeley, 1993), pp. 19, 20, 21, 28; Ussama Makdisi, pp.79-80.

(53) Ussama Makdisi, pp. 91-2, 224·

(54) Ibid., pp. II5, II8, 135, 138-9); Leila Fawaz, An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860 (1994), pp. 54, 62.

(55) Akarli, p. 30; Fawaz, Merchants, p. 24·

(56) Debbas Archives, Beirut (henceforward referred to as DA), journal of Madame de Perthuis, 27 Apr., 27, 29 May, 1, 2 June 1860. I am grateful to Robert Debbas for permission to consult the journal.

(57) Fawaz, Occasion, p. 75; DA, Perthuis Journal, 23, 25 June 1860.

(58) Fawaz, Occasion, pp. 132-4.

(59) DA, 'Autobiographie de Dimitri Youssef Debbas', f. 56, consulted by kind permission of Robert Debbas.

(60) Fawaz, Occasion, pp. 48-9, 51, 131.

(61) Antoine Hokayem, Les Provinces arabes de l'Empire Ottoman aux archives du Ministére des Affaires Etrangéres de France 1793-1918 (Beirut, 1988), pp. 337, 386, 388.

(62) Ussama Makdisi, pp. 150, 153, 157; Fawaz, Occasion, p. 205.

(63) Fawaz, Merchants, pp. 112-13; DA, Perthuis journal, 9 May, 9 July 1861.

(64) Akarli, pp. 40-41, 45, 58, 71; John P Spagnolo, France and Ottoman Lebanon 1861-1914 (1977), pp. 46, 74, 66; Fawaz, Occasion, pp. 107, 118, 194, 203, 205.

الفصل السابع

(1) Sammarco, pp. 133-5; Sabry, pp. 208, 221; Ilbert, 1, 142

(2) Anouar Louca, Voyageurs et écrivains Francais en Egypte (Cairo, 1956), p. 282; cf. Reimer, p: 143; Eustace Murray, The Roving Englishman in Turkey: Sketches from Life (1855), pp. 39 (claiming that British consuls can cause 'almost any amount of mischief unchecked'), 42, 50-5 I.

(3) NubarPacha, pp. 171, 343.

(4) Ilbert, I, 115·

(5) Reimer, p. 115·

(6) Ibid., p. 146; Khaled Fahmy, "Towards a social history of modern Alexandria', in Anthony Hirst and Michael Silk, eds., Alexandria, Real and Imagined (Aldershot, 2009), p. 294·

(7) Sabry, pp. 147, 218.

(8) Mansel, Constantinople, pp. 283, 286-7·

(9) Reimer, pp. 130-31.

(10) Middle East Centre, St Antony's College, Oxford (henceforward referred to as MEC), GB 165 0246, petition of 8 Feb. 1864·

(11) Gabriel Baer, Studies in the Social History of Modern Egypt (Chicago, 1969), pp. 192-9 (similar schemes had already been aborted in 1861); Sabry, pp. 39, 231

(12) Toledano, pp. 34, 127, 145, 147, 198; Benedetti, II, 208.

(13) Toledano, pp. 52, 83-8, 131.

(14) Ross, p. 172, 7 May 1852.

(15) Toledano, pp. 59, 63, 121, 280.

(16) Sabry, p. 37, dispatch of French consul, 2 Oct. 1854; Sammarco, p. 21, dispatch of Austrian consul, 31 July 1854.

(17) Ilbert, I, 39; Nubar Pacha, p. 66.

(18) Toledano, p. 133.

(19) Landes, p. 135, Dervieu to André, 27 Mar. 1863.

(20) Sabry, pp. 20, 43-44, 223, Bulwer letter, 9 Aug. 1864.

(21) Ghislain de Diesbach, Ferdinand de Lesseps (2004), pp. 41, 43, 119, 124.

(22) Landes, pp. 224, 315; Diesbach, pp. 143, 154, 241.

(23) Landes, p. 88n.

(24) Sacré and Outrebon, p. 70.

(25) John Ninet, Lettres d'Egypte 1879-1882, ed, Anouar Louca (1979), p. 163, letter of 18 Sept. 1881.

(26) Lucien Basch, 'Les jardins des morts', Mediterraneans, 8 (2006), p. 366.

(27) Sabry, p. 221, dispatch of French consul, 19 Nov. 1865.

(28) Daniel J. Grange, L'Italie et la Mediterranee 1896-1911, 2 vols. (Rome, 1994), I, 516, 521n.

(29) Laurence Grafftey-Smith, Bright Levant (1970), pp. 32-3.

(30) Ilbert, 1, 117.

(31) Prancois Charles-Roux, Souvenirs diplomatiques (1956), p. 220.

(32) Mohamed Awad and Sahar Hamouda, The Zoghebs: An Alexandrian Saga (Alexandria, 2005), pp. 9, 37, 59, 75, 122 and passim.

(33) Ilbert, I, 158.

(34) Landes, p. 125; Reimer, p. 114.

(35) Ilbert, I, 37; Landes, p. 85.

(36) Ilbert, I, 45-6.

(37) Stephen Halliday, The Great Stink of London (1998), passim.

(38) Ilbert, I, 126, 186; Sacré and Outrebon. pp. 69, 74, 77.

(39) E. de Kay, Sketches of Turkey in 1831 and 1832 (New York, 1833), p. 287.

(40) Cole, pp. 198, 199, 202; Kusel Bey, pp. 61-3.

(41) Reimer, pp. 143-4.

(42) Ilbert, I, 114.

(43) Achille Biovés, Francais et Anglais en Egypte 1881-1882 (1910), pp. 130, 150; Laurent Dornel, 'Cosmopolitisme et xenophobie: Francais et Italiens à Marseille 1870-1914', in Cahiers de la Méditerranée. 67 (Dec. 2003), p. 249n.

(44) libert, I, 183, 206.

(45) Charles Royle, The Egyptian Campaigns 1882 to 1885 (rev. edn, 1900), p. 7.

(46) Sabry, p. 210; Reimer, p. 128.

(47) Nubar Pacha, p. 354.

(48) Landes, p. 242.

(49) Nubar Pacha, p. 251.

(50) Landes, pp. 157-8, 299.

(51) Ibid., pp. 189, 286.

(52) Ibid., pp. 311, 312.

(53) Edwin de Leon, Egypt under its Khedives (1882), pp. 222-4; Ilbert, I, 176.

(54) Ilbert , I, 180, [96; Marie-Cécile Navet-Grenillet, Penelope Delta et Alexandrie une femme grecque a la confluence des langues et des cultures (unpublished thesis, Montpellier University, 1998), p. 309; Cahiers d' Alexandrie, série II, fasc 2, 1964, p. 87n; Charles-Roux, Souvenirs, pp. 218-19.

(55) Godolli and Giacomelli, p. 16; Gaston Zananiri, Entre mer et désert: mémoires (1996), p. 51.

(56) اتصال شخصي مع John Nahmam 20 سبتمبر 2008.

(57) Ilbert, I, 56-7; Zananiri, p. 52; E. M. Forster, 'Cotton from the outside', in id., Alexandria: A History and a Guide: And Pharos and Pharillon (2004 edn), pp. 234-6.

(58) Reimer, p. 127.

(59) Pierre Giffard, Les Francais en Egypte (1883), p. 59.

(60) Gabriel Charmes, Cinq mois au Caire et dans la basse Egypte (1880), pp. 23-4; A. B. de Guerville, La Nouvelle' Egypte (1905), p. 10.

(61) Ilbert, I, 82; Mira el-Azhary Sonbol, ed., Beyond the Exotic: Women's Histories in Islamic Societies (Syracuse, NY, 2005), p. 203.

(62) Alexander Scholch, Egypt for the Egyptians! The Socio-Political Crisis in Egypt 1878-1882 (Oxford, 1981), p. 74; W. S. Blunt, Secret History of the English Occupation of Egypt (1907), p. 46.

(63) Godolli and Giacomelli, p. 34.

(64) Sabry, p. 197.

(65) Ilbert, I, 208.

(66) MEC, GB 165 0293, Sir RichardVaux, 'Egyptian and other episodes, personal, political and legal' (194 I), f. 111.

(67) Ilbert, 1, 139; Reimer, p. 153.

(68) Godolli and Giacomelli, p. 21.

(69) Sadgrove, Egyptian Theatre, pp. 43, 68-70, 129, 139, 143.

(70) Landes, p. 128; Polk and Chambers, p. 287n.

(71) Blunt, Secret History, p. 178.

(72) Ninet, pp. 58, 60, 1 July 1879; Scholch, pp. 96-8; cf. Sir Charles Rivers Wilson, GCMG, CB, Chapters from My Official Life (1916), p. 137, letter of 22 June 1878 on 'the Prince Hereditaire': 'This one is an immense improvement in every way on his august father, and I am gradually coming to the opinion that the

substitute of the one for the other is the only way out of the Egyptian difficulty.

(73) Flaubert, Correspondance. 1, 528, letter of 17 Nov. 1849 to Madame Flaubert; Ninet, pp. 52, 97, 15 June 1879, 1 Dec. 1880.

(74) Mediterraneans. 8 (2006), p. 83.

(75) Scholch, p. 341; Blunt, Secret History, pp. 131, 139.

(76) Cole, pp. 204-5; Scholch, pp. 23, 44, 62.

(77) Blunt, Secret History, pp. 47-8.

(78) Ninet, pp. 184-5, 23 May 1882.

(79) Michael Llewellyn Smith, Athens: A Cultural and Literary History (2004), p. 143.

(80) Navet-Grenillet, p. 649; Jacques Hassoun, Alexandrie et autres récits (2001), pp. 223-7; Ninet, p. 122, 25 Mar. 1881; one of the Menasce had already paid off the Greek colony in 1880.

(81) Robert Ilbert and Ilias Yannakakis, Alexandrie 1860-1960: un modéle éphémére de convivialité: communautes et identité cosmopolite (1992), p. 245.

(82) Cole, p. 244; Sabry, p. 208; Ilbcrt, I, 143, 425.

(83) Scholch, p. 159.

(84) Ibid., p. 193.

(85) Ibid., p.203 .

(86) Ibid., pp. 231-2.

(87) David Nicholls, The Lost Prime Minister: A Life of Sir Charles Dilke (1995), pp. 101-2.

(88) Paul Auchterlonie, 'A Turk of the West. Sir Edgar Vincent's career in Egypt and the Ottoman Empire', British Journal of Middle Eastern Studies, 27, 1 (2000), p. 51; Roy Jenkins, Gladstone (1995), p. 507; Richard Shannon, Gladstone: Heroic Minister 1865-1898 (2000 edn), pp. 298, 303.

(89) Shannon, p. 302.

(90) Major-General Sir Alexander Bruce Tulloch, Recollections of Forty Years' Service (1903), pp. 250-52.

(91) Dardaud, p. 670.

(92) Royle, pp. 36, 38.

(93) Cole, p. 245.

(94) Blunt, Secret History, p. 286.

(95) Royle, p. 40.

(96) Sir Edward Malet, Egypt 1879-1883 (1907), pp. 365, 371, 372, 29 May 1882.

(97) Malet, pp. 434, 437, 8 June 1882; Ninet, p. 188, 11 June 1882; Royle, p. 42.

(98) Blunt, Secret History, pp. 257, 260, Ahmed Ratib to Arabi, 22 Feb. 1882, Mohammed Zafir to Arabi, 22 Feb. 1882; Royle, p. 57.

(99) Blunt, Secret History, p. 306; Scholch, p. 286.

(100) John Philip, Reminiscences of Gibraltar, Egypt and the Egyptian War

(Aberdeen, 1893), p. 130.

(101) Ninet, p. 187, 12 June 1882; Royle, p. 45·

(102) Cole, pp. 254-5, 258; Reimer, pp. 177-8.

(103) Blunt, Secret History, p. 326, letter from Sabunji, 11 June 1882.

(104) Ibid., p. 311.

(105) Ibid., p. 314; W S. Blunt, Gordon at Khartoum (1911), pp. 551, 552 (letter of July 1883 to Lady Anne Blunt), 556, 557·

(106) Royle, pp. 46-52, 55.

(107) Ninet, pp. 187-8, 12 June 1882; Malet, p. 402, 11 June 1882; Kusel Bey, pp. 72, 74, 176; Cole, pp. 254-5, 281; Reimer, p. 172; E. E. Farman, Egypt and its betrayal (1908) , pp. 304, 306.

(108) Malet, p. 404, 12 June 1882; Royle, p. 56; Scholch, p. 250.

(109) Royle, p. 56; B. Girard, Souvenirs maritimes 1881-1883: Journal de bord (1895), pp. 150-52, 10, 11, 13 June 1882.

(110) Malet, p. 422, 17 June; Kusel Bey, p. 76; Scholch, p·335)·

(111) Scholch, PP· 246, 254·

(112) Sir Walter Frederick Mieville, KCMG, Under Queen and Khedive: The Autobiography of an Anglo-Egyptian Official (1899), P. 89, 9 July; Royle, p. 59·

(113) Royle, P. 58.

(114) Blunt, Secret History; p. 317: عرف الأدميرال بسبب لباسه الأنيق وشخصيته اللطيفة باسم «موجة المحيط».

(115) Ibid., p. 379; Scholch, pp. 261, 264·

(116) Girard, pp.152-3, 10-14 July 1882; Diesbach, p. 330.

(117) Royle, p. 63·

(118) Kusel Bey, pp. 199-201; Tulloch, p. 276; Ilbert, I, 226; Royle, p. 85·

(119) Ninet, p. 198, 15 July; Royle, p. 87·

(120) Royle, p. 94.

(121) Royle, p. 131.

(122) Ilbert., I, 228-9; Royle, p. 102; MBC, 'Plan croquis indiquant les maisons qui ont été brulées aprés le bombardement du 11 juillet, dressé par l'ingénieur UlisseCalvi, Alexandrie le 11 aout 1882.

(123) Royle, p. 95·

(124) A. G. Hulme Beaman, Twenty Years in the Near East (1898), p. 46.

(125) Admiral Lord Charles Beresford, Memoirs, 2 vols. (1914), 1, 191, letter of 25 July 1882.

(126) Philip, p. 34·

(127) Kusel Bey, pp. 209-10; Charles Chaille-Long, My Life in Four Continents, 2 vols. (1912), l, 265.

(128) Ilbert , I, 231.

(129) Royle, p. 69n. يستطيع الزوار إلى مطعم أثينيوس على كورنيش الإسكندرية الباقي

من تصميم الآرت ديكو إبان الثلاثينيات أن يستمتعوا ببعض هذه الصور المعلقة على جدران المطعم كبيان وطني من عائلة نصار، التي اشترت المطعم من الحكومة المصرية في العام 1970، بعد رحيل مؤسسيه اليونانيين: عائلة أثينيوس.

(130) Ibid., pp. 89, 104-5; cf. Admiral Sir Dudley de Chair, The Sea is Strong (1961), pp. 37-9.

(131) Colonel J. E. Maurice, Military History of the Campaign of 1882 in Egypt (1887), pp. 20, 22; Royle, p. 105.

(132) Kusel Bey, p. 216; Arnold Wright, Twentieth Century Impressions of Egypt (1909), p. 459; Beresford, I, 191-2, letter of 25 July 1882.

(133) Ilbert, I , 232n; Tulloch, p. 286.

(134) Blunt, Secret History, pp. 379-81, 387-8.

(135) Chaille-Long, I, 263; Ninet, p. 190, 13 July 1882.

(136) Jack Fisher, Fear God and Dread Nought: The Correspondance of Admiral of the Fleet Lord Fisher of Kilverstone, 3 vols. (1952-6), I, 107, letters of 20, 31 July 1882; Beresford, I, 180; Royle, p. 100.

(137) Royle, p. 111; Blunt, Secret History, p. 389.

(138) Royle, p. 109.

(139) Shannon, p. 304.

(140) Royle, p. 132.

(141) Gilbert Delanoue, Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du xixe siécle, 2 vols. (Cairo, 1982), II, 504, 515, 526, 517.

(142) Royle, p. 132.

(143) Ibid., p. 187.

(144) Maurice, p. 22; Beresford, I, 1-82; Royle, p. 198.

(145) Malet, p. 455, letter to Lord Granville, 18 Sept. 1882.

(146) Esther Zimmerli Hardman, From Camp de César to Cleopatra's Pool (Alexandria, 2008), p. xxx; Coles Pasha, Recollections and Reflections (1918), p. 21.

(147) ELIA, Cavafy Archive, John to Constantine Cavafy, I2 Aug., 17 Sept. 1882.

(148) Philip, pp. 122-4.

(149) ELIA, Cavafy Archive, John to Constantine Cavafy, 30 Oct. 1882.

(150) ELIA, Cavafy Archive.

(151) Shannon, p. 306; Miéville, pp. 90, 95.

(152) E. H. D. Moberly Bell, The Life and Letters of C. F Moberly Bell (1927), pp. 25, 32.

(153) Joseph Lehmann, All Sir Garnett (1964), p. 319.

(154) Ninet, p. 109, 14 July 1882.

(155) Ilbert, I, 247-8, 295; Coles Pasha, pp. 24, 41.

الفصل الثامن

(1) Roger Owen, Lord Cromer (2002), pp. 177, 216, 224, 241, 251; Shannon, p. 317.

(2) Eça de Queiros, Les Anglais en Egypte (2008), pp. 8, 9, 11, 36, 42, 47, 83, 91.

(3) Guerville, p. 134; Queiros, p. 91; Michael Haag, Alexandria: City of Memory (2004), p. 103.

(4) Ilbert, I, 258.

(5) Butler, p. 184.

(6) Ilbert, II, 686; Le Phare d'Alexandrie, 11 Dec. 1898.

(7) Guerville, p. 127.

(8) Abbas Hilmi II, The Last Khedive of Egypt: Memoirs, ed. Amira Sonbol (Cairo, 2006), p. 89.

(9) Ibid., p. 103.

(10) Ilbert and Yannakakis, pp. 17, 34, presents the case for a cosmopolitan city; cf. E. Breccia, Alexandria ad Aegyptum (Bergamo, 1914), p. 22, and John Murray, Handbook for 'Iravellers in Turkey in Asia, 2 vols. (4th rev. edn, 1878), 1, 60: 'The races have nothing that joins them; with the exception of commerce there are no relations between them; everyone lives in a state of permanent trepidation of each other.'

(11) S. E. Poffandi, Indicateur égyptien (Alexandria, 1892), pp. 4-5; Abbas Hilmi, p.177.

(12) Ilbert, I, 472, 480.

(13) Sahar Hamouda, Omar Toussoun: Prince of Alexandria (Alexandria, 2005), pp. 11, 23, 38, 50, 56, 89 and passim.

(14) Coles Pasha, p. 43.

(15) Rees, pp. 191-3.

(16) Ilbert, I, 423-4.

(17) Mediterraneans, 8 (2006), p. 132.

(18) J. K. L. Goddard, 48! (Tunbridge Wells, 2003), pp. 166-7, 171, 220-21, 310 and passim.

كان له أيضاً حراس ليليون وعشرة كلاب حراسة وحراس للمناسبات الخاصة «توفرهم مديرية الأمن بمحافظة الإسكندرية».

(19) Gabriel Baer, Studies, p. 202.

(20) La Bourse égyptienne, commemorative articles 6 Jan. 1940, and personal information supplied by Chakour's granddaughter Madame Fernande Nissaire, Alexandria, 10 Dec. 2008; Poffandi, pp. 160-61; Ilbert, I, 469n.

(21) Ilbert, I, 282, 286.

(22) Ibid.; I, 288; Gabriel Baer, Studies, pp. 206-8.

(23) Wright, pp. 427, 443.

(24) Mediterraneans, 8 (2006), p. 29. من بين 84 عضواً انتُخبوا للمجلس الإداري بين العامين 1912 و1956، كان تسعة وأربعون بالمائة من الإنجليز وتسعة عشر بالمائة من المصريين المسلمين.

(25) Zananiri, p. 49; Union Club, Alexandria, jubilee brochure, Alexandria, 1954, passim.

(26) Poffandi, pp. 170-81.

(27) Ilbert, I, 260, 482.

(28) Ibid., I, 361.

(29) Guerville, pp. 8-10.

(30) Godolli and Giacomelli, p. 34; Wright, pp. 424, 436.

(31) Ilbert, I, 326, 335-6, 339, 353; Wright, p. 436.

(32) Basch, pp. 364-373; cf. ينتصب تمثال بالحجم الطبيعي لجورج أفيروف محاطاً بأربع إلهات في فناء البطريركية الأورثوذكسية أعدته في العام 1896 الجالية اليونانية التي كان رئيساً لها في الأعوام 1885-1899.

(33) R. Storrs, Orientations (def. edn, 1943), P: 43·

(34) Henri el-Kayem, Par grand vent d'est avec rafles: memoires d'un Alexandrin (1999), pp. 66-7·

(35) Samir W. Raafat, Cairo, the Glory Years: Who Built What, When, Why and for Whom (Alexandria, 2003), pp. 22-3·

(36) Zimmerli Hardman, pp. 56-8.

(37) Haag, Alexandria, pp. 90, 92, 111.

(38) Jacques Hassoun, juifs d'Egypte: images et textes (1984), pp. 161, 196.

(39) Ilbert, II, 697·

(40) Magda Wassef, ed., Egypte: cent ans de cinéma (1995), pp. 18-20, 62-3· Later, Alexandria had the Institut Cinernatographique Egyptien, started in 1932 by Mohanuned Bayoumi.

(41) Ilbert, I, 446, 455; Haag, Alexandria, p. 158.

(42) Ilbert, II , 682-3.

(43) Sahar Hamouda and Colin Clement, Victoria College: A History Revealed (Cairo, 2004), pp. 15-17, 35. 44.

(44) Ibid., pp. 39, 43·

(45) Ibid., pp. 17, 28, 51, 55, 56-7.

(46) Hamouda and Clement, pp. 55-7; La Réforme illustrée, 29 Feb. 1948.

(47) Hamouda and Clement, pp. 11-12.

(48) Ilbert, I, 458, 466.

(49) Breccia, p. 2.

(50) MEC, 165 0246, letter of 31 Jan. 1906 from Mr Rowlatt.

(51) الأسماء مأخوذة من التماس ضد مراجعة معاهدة سيفر للعام 1921. ELIA, MSS 124

(52) Grafftey-Smith, PI'· 34-5·

(53) Wright, p. 321.

(54) Navet-Grenillet, p. 500. 55·

(55) Ibid., pp. 473-4·

(56) Ibid., p. 337·

(57) Ibid.. pp. 353, 474, 867-71.

(58) Michael Haag, Vintage Alexandria: Photographs of the City 1860-1960 (Cairo, 2008), p. 51; Le Livre d'or dujournal La Riforme (Alexandria, 1945), pp. 121, 184·

(59) Navet-Grenillet, pp. 525, 595·

(60) Katerina Trimi, 'La fa mille Benakis: un paradigme de la bourgeoisie grecque alexandrine', in Meropi Anastassiadou and Bernard Heybergcr, eds., Figures anonymes, Figures d'elite: pour une anatomic de l'Homo ottomanicus (Istanbul, 1999), pp. 83-102; Navet-Grenillet, pp. 614-15; Mediterraneans, 8 (2006), p. 93·

(61) Herwig Maehler, 'The Mouseion and Cultural Identity', in Anthony Hirst and Michael Silk, eds., Alexandria, Real and Imagined (Aldershot, 2009), pp. 3, 7.

(62) Navet-Grenillet, pp. 627, 633, 637-8, 661.

(63) Information kindly communicated by Alex Zannas, zo Feb. 2009.

(64) Navet-Grenillet, pp. 565-6, 798, 846; Marc Terrades, Le Drame de l'Héllenisme: Ion Dragoumis (1878-1920) et la question nationale en Gréce au début du xxe siécle (2005), pp. 128-9.

(65) Ilbert, II, 615; John Carswell, 'The Greeks in the East. Alexandria and Islam', in Stephen Verno it, ed., Discovering Islamic Art: Scholars, Collectors and Collections 18501999) 1950-), p. 139

ثمة سكندريون آخرون مثل عائلة غليمينوبولو Glymenopoulo وهيلينا وأنطوني ستاثيوتيس Helena and Anthony Stathiotis تركوا مقتنياتهم من الآثار المصرية للمتحف الأثري الوطني بأثينا.

(66) George Savidis, cd., C. P. Cavafy: Collected Poems (rev. cdn, 1992), p. 275; Haag, Alexandria, p. 66; Robert Liddell, Cavafy (2002 edn), p. 37·

(67) Liddell, Cavafy, pp. 19, 21, 27, 33·

(68) Savidis, pp. 28, 44, 102.

(69) Ibid., pp. 76, 144, 157, 193, 199.

(70) Mediterraneans, 8 (2006), p. 101.

(71) إنني مدين بهذه النقطة إلى أحدث مترجم لكافافي Evangelos Sahpeyroglou.

(72) Savidis, pp. 19, 107·

(73) Ilbert. II , 614, 631.

(74) Ibid., II, 633; Arthur Goldschmidt Jr, The Egyptian Nationalist Party 1892-1919 (1968), pp. 315, 321.

(75) Schmitt, p. 177, report of 15 Sept. 1806.

(76) Sir Charles Napier, II, 1511.

(77) Prisse d'Avennes, Memoires secrets sur la cour d'Egypte (1930), pp. 29, 30.

(78) Jabarti, IX, 162-3, 260; Walter G. Andrews and Mehmet Kalpakli, The Age of Beloveds: Love and the Beloved in Early Modern Ottoman and European Culture and Society (2005), p. 237 and passim.

(79) Savidis, pp. 38, 122; Haag, Alexandria, pp. 41-2, 50.

(80) E. M. Forster, Selected Letters, ed. Mary Lago, 2 vols. (1983), I, 269, to Syed Ross Masood, 8 Sept. 1917· 81.

(81) Savidis, pp. 57, 171.

(82) C. P. Cavafy, Collected Poems (Oxford, 2007), pp. xxix-xx, xxxil.

(83) Coles Pasha, p. 41 بعد عشرين عاماً، وصفهن داريل في خطاب إلى هنري ميللر بأنهن «أكثر نساء العالم سحراً وتململاً».

(84) Charmes, Cinq mois, p. 25·

(85) Hector. Dinning, By- Ways on Service: Notes from an Australian Journal (1918), pp. 140-43.

(86) Butler, p. 152.

(87) llbert, I, 459n.

(88) Gabriel Baer, Studies, p. 176.

(89) Judith E. Tucker, Women in Nineteenth Ceniury Egypt (1985), pp. 151, 154, 191.

(90) Zananiri, p. 50.

(91) John Murray, Handbook (1840), p. 19.

(92) Shadia el-Sousssi, 'Borrowed words from Italian in Alexandrian Arabic', In Bibliotheca Alexandriria, Alex-Med Newsletter, 7 (july 2007), p. 9·

(93) Edgar Morin, Vidal et les siens (1989), p. 28.

(94) Maurice Pernot, Rapport sur un Voyage d'étude à Constantinople, en Egypte et en Turquie d'Asie (janvier-aoÛt 1912) (1912), p. 334·

(95) Ibid., pp. 48, 283.

(96) Jean Riffier, 'Les CEuvres francaises et I'invention de la Syrie', in Bernard Delpal et al., eds., France-Levant, de la fin du xviie siécle à la Premiére Guerre mondiale (2005), p. 234·

(97) Gaston Deschamps. A Constantinople (1913), p. 5; Leyla Duran to the author, Istanbul, 1996; Gilles Veinstein, ed., Salonique 1850-1918: la ville des juifs et le réveil des Balkans (1992), p. 83·

(98) Valentin Chirol, Fifty Years in a Changing World (1927), pp. 25, 29·

(99) مقابلة مع مارسيني زغيب Marcienne de Zogheb في 6 فبراير 2006.

(100) Iri M. Kupferschmidt, 'Who needed department stores in Egypt? From Orosdi Back to Omar effendi', International Journal of Middle East Studies, 43, 2 (Mar. 2007), I75-92, PP. 177, 180.

(101) Henri Nahum, Juifs de Smyme, xixe-xxe siecle (1997), pp. 97, 104, 106-12, 124; Joel Beinin, The Dispersion of Egyptian Jewry: Culture, Politics and the Formation of a Modem Diaspora (Cairo, 2005), pp. 46, 50.

(102) Quoted in a brochure on the exhibition 'The Ottomans in Paris', Ottoman Bank Museum, Istanbul, Oct.-Dec. 2008, passim.

(103) Ilbert, I, 96, 465; Grange, I, 507, 53 I, 69 I, dispatch of Bottesini. 9 Jan. 1898;

Marc Kober, Entre Nil et sable: écrivains d'Egypte d'expression Française (1999), passim.

(104) Abbas Hilmi, pp. 276-7.

الفصل التاسع

(1) Akarli, pp. 43, 44, 51, 78; Spagnolo, France and Ottoman Lebanon, pp. 163, 290.

(2) Akarli, pp. 60, 99, 152, 194; Spagnolo, France and Ottoman Lebanon, pp. 114, 210.

(3) Chevallier, pp. 127 (dispatch of the French consul, 20 Nov. 1869), 289-90; Spagnolo, France and Ottoman Lebanon, p. 141.

(4) Schmitt, p. 442.

(5) Bernard Heyberger, 'Livres et pratique de la lecture chez les chrétiens (Syrie Liban) xviie-xviiie siécles', in Frédéric Hirzel, ed., Livres et lecture dans le monde ottoman (1999), pp. 21 1, 214, 216.

(6) Farah, Arabs and Ottomans, p. 53.

(7) Dagmar Glass and Geoffrey Roper, 'The printing of Arabic books in the Arab world', in Geoffrey Roper, ed., Middle Eastern Languages and the Print Revolution (Westhofen, 2002), pp. 193-4; Franck Merrnicr, Le Livre et la ville: Beyrouth et l'edition arabe (2005), 32.

(8) George N. Atiyeh, 'The book in the modern Arab world', in id., ed., The Book in. the Islamic World (Albany, 1995), p. 42.

(9) James A. Field Jr, America and the Mediterranean World 1776-1882 (Princeton, 1969), pp.97,286.

(10) Finnie, p. 199; Field, p. 179, pp. 97, 286.

(11) Kassir, Beyrouth, p. 223.

(12) Jens Hanssen, Fin de Siecle Beirut: The Making of an Ottoman Provincial Capital (New York, 2005), pp. 171, 185.

(13) Ibid., p. 138; Issawi, Fertile Crescent, p. 231.

(14) Mermier, p. 28; Louis Bertrand, Le Mirage oriental (1913), pp. 238, 318.

(15) Hanssen, Fin de Siécle Beirut, p. I8S; Kassir, Beyrouth, pp. 210, 213, 238.

(16) Chantal Verdeil, 'Les écoles d' orient: Ie réseau scolaire congréganiste en Syrie', in Bernard Delpal et al., eds., France-Levant, de la fin du xviie siecle a la Premiére Guerre mondiale (2005), pp. 145-66; Riffier, p. 234.

(17) Kassir, Bcyrouth, p. 255.

(18) Anne Mollenhauer, 'The Central Hall House: regional commonalities and local specificities: a comparison between Beirut and al-Salt', in Jens Hanssen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire (Beirut, 2002), pp. 275-96; Nada Sehnaoui, L'Occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth 1860-1914 (Beirut, 2002),

pp. 95, 102, 119, 135, 152; Kassir, Beyrouth, pp.248-52.

(19) Hanssen, Fin de Siècle Beirut, pp. 41, 88; Hasan Kayali, Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism and Islarnisrn in the Ottomatt Empire 1908-1918 (1997), p. 28.

(20) Chevallier, p. 292.

(21) Jens Hanssen, 'Practices of Integration', in Jens Hanssen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., The Empire in the City: Arab Provincial Capitals itt the Late Ottoman Empire (Beirut, 2002), p. 69.

(22) John P. Spagnolo, cd., Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective (Reading, 1992), pp. 12-13, 14, 21, 24.

(23) Jens Hanssen, 'Your Beirut is on my desk: Ottomanizing Beirut under Sultan Abdulhamid II 1876-1909', in H. Sarkis and P. Rowe, eds., Projecting Beirut (Munich, 1998), pp. 47-9, 55-6.

(24) Kassir, Beyrouth, pp. 172-3.

(25) May Davie, Beyrouth 1825-1975: un Siècle et demi d'urbanisme (Beirut, 2001), p. 59.

(26) Samir Khalaf, Heart of Beirut: Reclaiming the Bourj (2006), p.68.

(27) Hanssen, Fin de Siècle Beirut, p. 246; Sawsan Agha Kassab and Khaled Omar Tadmouri, Beirut and the Sultan: 200 Photographs from the Albums of Sultan Abdul Hamid II (Beirut, 2003), pp. 41, 59, 69, 1.61.

(28) Hanssen, Fin de Siecle Beirut, pp. 87-92, 101; Fawaz, Merchants, p. 72; photographs in Debbas, pp. 18-40.

(29) Albert Hourani and Nadim Shehadi, eds., The Lebanese in the World: A Century of Emigration (1992), pp. 7, 31, II6, 125, 129 and passim; Alixa Naff, Becoming American: The Early Arab Immigrant Experience (Carbondale, 1985), pp. 78-100; Richard Davenport-Hines.

إنني مدين بهذه المراجع إلى ريتشارد دافينبورت هاينز

(30) Sawsan andTadmouri, p. 147.

(31) Hanssen, Fin de Siécle Beirut, pp. 106, 110, 125.

(32) Robert Saliba, Beirut 1920-1940: Domestic Architecture between Tradition and Modernity (Beirut, 1998), p. 31.

(33) Hanssen, Fin de Siécle Beirut, p. 192; DA, Perthuis journal, 20 Sept., 1 Oct. 1860, 1 Jan., 6 Feb. 1861.

(34) See for example MEC, GB 0132, diary of Mr Hallward, 9 June 1890: 'At 4 started with to make a round of calls on natives - Soursoks, Twanys and Bustros; they occupy a quarter at the other end of the town we saw mostly only the ladies, some of whom are pleasant enough, they have fine large houses.'

(35) Gabriel Charmes, Voyage en Syrie: impressions et souvenirs (1891), p. 137.

(36) Sehnaoui, p. 174.

(37) Kassir, Beyrouth, p. 256; Sehnaoui, pp. 31- 2.

(38) Fawaz, Merchants, p. 115·

(39) Ohannes Pacha Kouyoumdjian, Le liban a la veille et au debut de la guerre: memoires d'un gouverneur 1913-1915 (2003), pp. 48-50; Spagnolo, France and Ottoman Lebanon, pp. 21 1, 240.

(40) Michael Johnson, Class and Client in Beirut (1986), p. 19·

(41) Edward Atiyah, An Arab Tells his Story: A Study in Loyalties (1946), p. 5; Fawaz, Merchants, p. 42.

(42) Atiyah, pp. 3-5, 10-12.

(43) Johnson, Class and Client, pp. 20-21, 82; Kayali, p. 120; Kassir, Beyrouth, pp. 280-81.

(44) Atiyah, pp.28, 41, 48, SI, 63, 132.

الفصل العاشر

(1) Hervé Georgelin, La Fin de Smyrnc: du cosmopolitisme aux nationalismes (2005), p. 38; Smyrnelis, Smvrne, pp. 129-33.

(2) Vasilis Colonas, Creek Architects in the Ottoman Empire (19th-20th Centuries) (Athens, 2005), p. 9S.

(3) Eleni Frangakis-Syrett, 'The nuking of an Ottoman port: the quay of Izmir in the nineteenth century', Journal of transport History, 22, 1 (2001), pp. 23-46.

(4) Colonas, p. 98; Kontente, pp. 623-4; Schmidt, From Anatolia to Indonesia, p. 73·

(5) Paul Eudel, Constantinople, Smyrnc et Athénes: journal de voyage (1885), pp. 303, 319, 318.

(6) Akgernan Collection, Izmir, consulted by kind perrnission of Mr Onur Akgerman, 31 July 2006.

(7) Smyrnelis, Smyrnc, p. 120; cf. Eudel, p. 302: 'Elle n'a rien de turc à première vue; sa physionomie est plutôt celle d'une ville occidentale.'

(8) Schmitt, p. 447.

(9) Smyrnelis, Une ville ottomane plurielle, p. 137, dispatch of French consul, 27 Mar. 1880.

(10) Lt-Col. R. L. Playfair, Handbook to the Mediterranean: Its Cities, Coast and Islands (1881), p. 85.

(11) Smyrnelis, Smyrne, pp. 145, Iso-S6.

(12) George Horton, The Blight of Asia (Indianapolis, 1926), p. 105; Elias Petropoulos and Ed Emery, Songs of the Greek Underworld: The Rebetika Tradition (2000), pp. 23, 29, 38, 43; cf. Smyrna before the Catastrophe (Athens, 1992), p. 70.

(13) Smyrne: Estudiantina nea ionia (compact disc: Athens, 2003); Petropoulos and Emery, p. 23.

(14) Petropoulos and Emery, pp. 16-17; Markos Dragoumis, 'The music of the rebetes', in id., ed., From Byzantium to Rembetiko (Kerkyra, 2007), pp. 239-49·

(15) Stathis Gauntlett, 'Between orientalism and occidentalism', in Renée Hirschori, ed., Crossing the Aegean (Oxford, 2004), p. 251.

(16) Smyma, Metropolis, pp. 1929; Terrades, p. 183n.

(17) John Murray, Handbook (1878), I, 247·

(18) Schmitt, pp. 454-S.

(19) Kontente, p. 580.

(20) Georgelin, p. 114; Kontente, p. 616.

(21) Norman Douglas, Looking Back (1934), p. 167.

(22) Colonas, pp. 109-10.

(23) Kontente, pp.610-1I.

(24) Smyrna, Metropolis, pp. 67, 75·

(25) Kontente, p. 592 and n.

(26) Smyrna, Metropolis, pp. 84-6.

(27) Ibid., pp. 46, 101, 113·

(28) Schmitt, p. 351, quoting issue of 26 June 1850.

(29) Basar Eryoner Collection, consulted Nov. 2008 by kind permission of Basar Eryoner: cards dated 27 Oct. 1910 and 27 Feb. (unknown year).

(30) Charles de Scherzer, La Province de Smyrne considerce au point de vue geogmphique, econornique et intellcctuelle (Vie nne, 1873), p. 77; Kontente, p. 471.

(31) Smyrna before the Catastrophe, p. 80.

(32) Schmidt, From Anatolia to Indonesia, p. 45 and passim.

(33) Scherzer, pp. 125-7.

(34) Smyrnelis, Smyrne, pp. 126-7·

(35) Shepherd's Oriental Yearbook for 1860 (Smyrna, 1859), pp. 134-44·

(36) Schmitt, p. 103.

(37) Pinar M.Yarmakli Parrnaksiz, 'A Muslim. family in infidel Izmir at the turn of the century: the Evliyazades', in Maurits van den Boogert, ed., Ottoman lzmir (Istanbul, 2007), pp. 151, 153, 155, 162; Kontente, p. 410.

(38) Konrente, pp. 582, 583, 604 .

(39) Ipek Calislar, Latife Hanim (Istanbul, 2, 006), pp. 43-5.

(40) Schmitt, p. 259; Kontente, pp. 492, 513; Ilhan Tekeli and Selim Ilkin, 'The public works program and the development of technology in the Ottoman Empire in the second half of the nineteenth century', Turcica, 28 (1996), p. 214-16.

(41) Kontente, p. 610; Horton, p. 104·

(42) Georgelin, p. 39, dispatch of 13 Feb. 1882.

(43) Smyrna, Metropolis, p. 91; Kontente, p. 577·

(44) Georgelin, pp. 64-5; Du Camp, p. 38; Kontente, p. 483.

(45) Pernot, p. 334·

(46) Nahum, juifs de Smyrne, pp. 114, 115, 119·

(47) Rev. Joseph K. Greene, Leavening the Levant (Boston, 1916), pp. 224-5:

Kontente, pp. 591, 593; Georgelin, p. 67; Pernot, p. 265.

(48) William Cochran, Pen and Pencil in Asia Minor; or, Notes from the Levant (1887), pp. 139, 173·

(49) Feroz Ahmad, From Empire to Republic: Essays on the Late Ottoman Empire and Modem Turkey, 2 vols. (Istanbul, 2008), I, 108.

(50) Kontente, p. 577·

(51) Halid Ziya Usakligil , Kirk yil. Anilar (Istanbul, 1987 edn), pp. 99-104, 110, 165; thanks for the translation to Pelin Uysal.

(52) Ibid., pp. 125, 127, 226, 25)-60.

(53) Necati Cumali, Macedoine 1900 nouvelles, ed. Faruk Bilici (2007), pp. 34, 192.

(54) Usakligrl, pp. 110, 116, 117, 120, 166.

(55) Kechriotis, 'The Greeks of Izmir, pp. 66-7, 71; Scherzer, p. 51.

(56) Scherzer, p. 67; Smyrna, Metropolis, pp. 168-9.

(57) Uskligil, pp. 212-13.

(58) Kontente, pp. 603, 619; Livia Missir de Lusignan, Vie latine de l'Empire Ottoman (Istanbul, 2004), p. 62.

(59) Alessandro Pannuti, Les ltaliens d'Istanbul au xxe siécle (Istanbul, 2008), p. 232; another French-language weekly, L'Impartial, Iasted from 1841 to 1915.

(60) Schmitt, p. 456.

(61) lbid., p. 453; Kontente, p. 595·

(62) Kontente, p. 480.

(63) Smyrnelis, Smyme, p. 146.

(64) Kontente, pp. 570, 581.

(65) Williams, p. 163.

(66) Srnyrnelis, Smyrne, p. 61; Smyrna, Metropolis, p. 157; Error! Hyperlink reference not valid. itage.corn.

(67) Georgelin, pp. 88, 135-7; Smyrna, Metropolis, p. 156; Ugur Yegin, ed., Once Upon a Time ... Izmir from the Collection of Ugur Goktas (Izmir, 2009), pp. 188-9.

(68) Kontcnte, p. 599·

(69) A. C. Wratislaw, A Consul in the East (1924), p. 85.

(70) Nahum, juifs de Smymc, p. 46.

(71) Kontente, p. 613.

(72) Schmitt, pp. 344, 346.

(73) Ibid., p. 340, dispatch of 8 June 1863; cf. pp. 3 r 0, 342.

(74) Nahum, juifs de Smyrne, pp. I04, 100, 107, 109·

(75) Roderick Beaton, George Seferis: Waitingjor the Angel (2003), p. 14·

(76) Usakligil , pp. 200, 203, 323·

(77) Smyrna, Metropolis, pp. 97, 11, 105.

(78) See the invoice dated 25 Aug. I901 reproduced in Kechriotis, 'The Greeks of Izmir", p. 327; Bulent Senocak , Levant'in yildizi Izmir (Izmir, 2003), p. 54·

(79) Smyrna, Metropolis, pp. 145, 147, 164-5, 168-9.

(80) قسم من الخدمة القنصلية عمل بين العامين 1875 و1933. كان من بين موظفيه جيمس إلروي فليكر James Elroy Flecker وريدر بولارد Reader Bullard ووالتر سمارت Walter Smart، كان نطاق صلاحياته أوسع من المشرق، إذ غطى المنطقة الممتدة من مدينة مشهد الإيرانية إلى مدينة الصويرة المغربية.

(81) MEC, GB 165/0248, diary of Andrew Ryan, 3 Aug. I895·

(82) Smyrnelis, Smyrne, p. 172, report of 15 Feb. 188 I; Schmitt, pp. III (report of Italian consul, 1862), 375 (24 Oct. 1846, report of archbishop); John Murray, Handbook (1978), I, 254·

(83) Smyrna, Metropolis, p. 35·

(84) Mihail-Dimitri Sturdza, Dictionnaire historique et généalogique des grandes families de Gréce, d' Albanie et de Constantinople (I983), pp. 224-6; Korrtenre, P·463·

(85) Willy Sperco, 'Lamartine et son domaine en Asie Mineure', Revue de France, 15 Oct. 1938, pp. 1-22.

(86) Kontente, pp. 600-50I.

(87) Louis Gardey, Voyage du sultan Abd-ul-aziz de Stamboul au Caire (1865), pp. 219-53; Schmitt, pp. 483-4, based on Smyrna Mail, 28 Apr. 1863; Exeter University, Special Collections (henceforward referred to as EUSC), Barker MSS 259, letter of 8 Aug. 1863; Senior, p. 204.

(88) Kontente, p. 595·

(89) Sturdza, pp. 224-5·

(90) Georgelin, pp. 21-2.

(91) Smyrna, Metropolis, pp. 3 1, 93-4.

(92) Elena Frangakis-Syrett, 'The economic activities of the Greek conununity of Izmir in the second half of the nineteenth and early twentieth centuries', in D. Gondicas and C. Issawi, cds., Ottoman Greeks in the Age of Nationalism (Princeton, 1999), pp. 19, 22, 33, 26.

(93) Smyrna, Metropolis, p. 120. 94.

(94) Colonas, pp. 99, roo, 121.

(95) Kontente, p. 621.

(96) Elia Mss, 'Report on intellectual and artistic activity', c. 1921.

(97) Georgelin, pp. 91, 94; Kechriotis, 'The Greeks of Izmir', p. 257·

(98) Giovanni Salmeri, 'The contribution of Greeks to the local historiography of Smyrna' (unpublished typescript, 2006).

(99) Georgelin, pp. 57, 80.

(100) Scherzer, pp. 17, 40-41, 4-3, 44.

(101) Georgelin, pp. 25, 30; Kontente, pp. 516, 54-2.

(102) Finkel, P: 471.

(103) Kontente, p. 558. 104.

(104) Georgelin, p. 102.

(105) Kechriotis. 'The Greeks of Izmir', pp. 262, -3; Smyrna, Metropolis, p. 118.

(106) Georgelin, p. 155·

(107) Kontente, pp. 605-6; Gary B. Cohen, The Politics of Ethnic Survival: Germans in Prague 1861-1914 (Princeton, 1981), p. 3; Brigitte Hamann, Hitler's Vienna (1999 edn), pp. 105, 178, 24-7, 264-, 275, 298, 316.

(108) Georgelin, p. 169; Kechriotis, 'The Greeks of Izmir, p. 24-0.

(109) Kontente, pp. 567, 591n, 629, 635; Jan Schmidt, Through the Legation Window: Four Essays on Dutch, Dutch Indian and Ottoman History (Istanbul, 1992), pp. 2-6, 10, 14·

(110) Kontente, pp. 525, 531, 539, 549, 631; Nahurn, juifs de Smyme, p. 81; Smyrnelis, Smyrne, p. 100.

(111) Kontente, p. 620; Nahum, juifs de Smyrne, pp. 137, 139, 155, 234·

(112) Georgelin, pp. 158, 161-6.

(113) Kontente, p. 592.

(114) Unpublished memoirs of R. Lang of the Ottoman Bank (n.d.), consulted by kind permission of Peter Clark, ff. 62, 64-.

(115) Kontente, pp. 602, 625; Georgelin, p. 127.

(116) Kontente, pp. 467, 557, 598-9, 602, 637; Yegin, p. 143·

(117) Usakligil, pp. 205, 235, 238-9, 281.

(118) Kontente, p. 626.

(119) Smyrnelis, Une ville ottomane plurielle, p. 136.

(120) Schmitt, pp. 274-6, 279·

(121) Osman Koker, ed., Bir zamanlar Izmir (2009), p. 126, postcard of 24- Feb. 1905 from 'Léontine' to 'Georges'.

(122) Schmitt, p. 4-4-9; Georgelin, pp. 103-5·

(123) Georgelin, pp. 103, 108-9, 156-7.

(124) Schmitt, p. 371; Vangelis Kechriotis, 'Allons, enfants de la ville! National celebrations and political mobilisation and urban space in Izmir at the turn of the 20th century' (unpublished typescript, (.2008), pp. 129)-32.

(125) Smyrnelis, Smyrne, p. 133; Konrerite, pp. 560, 640.

(126) Nicolas V Iljine, ed., Odessa Memories (Seattle, 2003), pp. XXXIV, 11, 14, 17, 25, 29, 66, 102, 302.

ببليوغرافيا

Manuscript sources

BGA: Brian Giraud Archives, Izmir: diary of Hortense Woods, June 1922–May 1923
BL: British Library Add. MSS 38591, J. O. Hanson, 'Recollections of Smyrna and Greece 1813'
CEA. Centre d'Etudes Alexandrines, Alexandria: diary of Mary de Zogheb
DA. Debbas Archives, Beirut: journal of Madame de Perthuis 1854–61; 'Autobiographie de Dimitri Youssef Debbas'
ELIA (Hellenic Literary and Historical Archive), Athens: Cavafy Archive (consulted online at http://www.elia.org.gr)
EUSC: Exeter University, Special Collections: Barker and Whittall family papers
George Hawthorn journal (sold by Sotheby's, 18 May 2004)
John Cam Hobhouse, diary of 1810, at http://www.hobby-o.com
R. Lang of the Ottoman Bank, unpublished memoirs (n.d.)
MEC: Middle East Centre, St Antony's College, Oxford: diary of Andrew Ryan, 1895; Sir Richard Vaux, 'Egyptian and other episodes, personal, political and legal' (1941)
National Archives, London, documents FO 195/1306 and FO 371/7917
SA. Sursock Archives, Beirut: papers of Alfred Sursock

Unpublished typescripts

Auchterlonie, Paul, 'A British family in the Middle East: the Barkers of Smyrna, Aleppo and Alexandria' (c.2009)
Ayoub, Christian, 'Le français comme langue au moyen orient' (Montreal, 1971)
Kechriotis, Vangelis, 'Allons, enfants de la ville! National celebrations and political mobilisation and urban space in Izmir at the turn of the 20th century' (*c*.2008)
Mansel, Philip, 'The Siren of the Nile' (*c*.1998)
Nugteren, Anke van, and Nugteren, Lienke van, 'The Belgian language question' (typescript, Brussels, 2009)
Sabit, Adel, 'Life in Alexandria in the 1940s' (Cairo, *c*.2000)
Salmeri, Giovanni, 'The contribution of Greeks to the local historiography of Smyrna' (2006)

Books

Unless otherwise stated, all books in English are published in London, all books in French in Paris.

Abbas Hilmi II, *The Last Khedive of Egypt: Memoirs*, ed. Amira Sonbol (Cairo, 2006)
Abbott, G. F., *The Tale of a Tour in Macedonia* (1903)
Abécassis, Frédéric, 'Alexandrie, 1929', *Cahiers de la Méditerranée*, 67 (2003)
Abou, Selim, *Le Bilinguisme arabe–français au Liban* (1962)
Aburish, Said K., *The St George Hotel Bar* (1989)
Adonis, *The Desert: The Diary of Beirut under Siege* (1982)
Ahmad, Feroz, *From Empire to Republic: Essays on the Late Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 vols. (Istanbul, 2008)
Ahmed, Leila, *Border Passage* (1999)
Akarli, Engin, *The Long Peace: Ottoman Lebanon 1861–1920* (Berkeley, 1993)
Aksan, Virginia, *Ottoman Wars 1700–1800: An Empire Besieged* (2007)

—— and Goffman, Daniel, eds., *The Early Modern Ottomans: Remapping the State* (Cambridge, 2007)
Aktar, Ayhan, 'Turkifying the economy', in Renée Hirschon, ed., *Crossing the Aegean* (Oxford, 2004)
Alameddine, Rabih, *Koolaids* (1999 edn)
Alcalay, Amiel, *After Jews and Arabs: Remaking Levantine Culture* (Minneapolis, 1993)
Alhadeff, Gina, *The Sun at Midday* (New York, 1997)
Ali Vasib Efendi, *Bir Sehzadenin Hatirati* (Istanbul, 2004)
Alsayad, Nezar, *Cities and Caliphs: On the Genesis of Arab Muslim Urbanism* (1991)
Altay, Fahrettin, *10 Yil Savas Ve Sonrasi 1912–1922* (Istanbul, 1970)
Anderson, Sonia, 'The Anglo-Dutch "Smyrna fleet" of 1693', in A. Hamilton et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)
—— *An English Consul in Turkey: Paul Rycaut at Smyrna 1667–1678* (Oxford, 2001 edn)
Andrew, of Greece, HRH Prince, *Towards Disaster: The Greek Army in Asia Minor in 1921* (1930)
Andrews, Walter G., and Kalpakli, Mehmet, *The Age of Beloveds: Love and the Beloved in Early Modern Ottoman and European Culture and Society* (2005)
Annuaire oriental (Constantinople, 1922)
Antonius, George, *The Arab Awakening* (1938)
Armagnac, Baron d', *Nezib et Beyrout: souvenirs d'Orient de 1833 à 1841* (1844)
Arundell, F.V. J., *Discoveries in Asia Minor*, 2 vols. (1834)
Arvieux, Chevalier d', *Mémoires*, 6 vols. (1735)
Arvor, Olivier Poivre d', *Alexandrie Bazar: le roman d'une ville* (2009)
al-Askari, Jafar, *A Soldier's Story: From Ottoman Rule to Independent Iraq* (2003)
Asseily, Youmna, and Asfahani, Ahmad, *A Face in the Crowd: The Secret Papers of Emir Farid Chehab OBE 1942–1972* (2007)
Atay, Falih Rifki, *Le Mont des oliviers* (2009)
Athanasi, Giovanni d', *A Brief Account of the Researches and Discoveries in Upper Egypt made under the direction of Henry Salt Esq.* (1836)
Atiyah, Edward, *An Arab tells his Story: A Study in Loyalties* (1946)
Atiyeh, George N., 'The book in the modern Arab world' in id., ed. *The Book in the Islamic World* (Albany, 1995)
Les Atrocités grecques en Asie mineure (Constantinople, 1922)
Attie, Caroline, *Struggle in the Levant: Lebanon in the 1950s* (2004)
Auchterlonie, Paul, 'A Turk of the West. Sir Edgar Vincent's career in Egypt and the Ottoman Empire', *British Journal of Middle Eastern Studies*, 27, 1 (2000), 49–67
Augustinos, Gerasimos, *The Greeks of Asia Minor: Confession, Community and Ethnicity in the Nineteenth Century* (1992)
Austin, Douglas, *Malta and British Strategic Policy 1925–1943* (2004)
An Authentic Narrative of the Russian Expedition against the Turks by Sea and Land (1772)
Avelin, Claude, *La Promenade égyptienne* (1934)
Avennes, Prisse d', *Mémoires secrets sur la cour d'Egypte* (1930)
Awad, Mohamed, *Italy in Alexandria: Influences on the Built Environment* (Alexandria, 2008)
—— 'The metamorphoses of Mansheyeh', *Mediterraneans*, 8 (2006)
—— and Hamouda, Sahar, *The Birth of the Seventh Art in Alexandria* (Alexandria, 2007)
—— *The Zoghebs: An Alexandrian Saga* (Alexandria, 2005)
—— eds., *Voices from Cosmopolitan Alexandria* (Alexandria, 2006)
Awwad, Tawfiq Yusuf, *Death in Beirut* (1992 edn)
Bacqué-Gramont, Jean-Louis, Kuneralp, Sinan, and Hitzel, Frédéric, *Représentants*

permanents de la France en Turquie et de la Turquie en France (Istanbul, 1991)
Badran, Margot, and Cooke, Miriam, eds., *An Anthology of Arab Feminist Writing* (2nd edn, Bloomington, 2004)
Badrawi, Malak, *Ismail Sidqi 1875–1950* (1996)
—— *Political Violence in Egypt 1910–1924* (2000)
Baer, Gabriel, *Fellah and Townsman in the Middle East* (1982)
—— *Studies in the Social History of Modern Egypt* (Chicago, 1969)
Baer, Robert, *See No Evil* (2002 edn)
Baghdadi, Maroun, and de Freige, Nayla, 'The Kalashnikov generation', in Elizabeth Warnock Fernea, ed., *Women and the Family in the Middle East: New Voices of Change* (Austin, 1985)
Bakhit, Muhammad Adnan, 'The Christian population of Damascus in the sixteenth century', in Benjamin Braude and Bernard Lewis, *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, 2 vols. (1982), II
Balfour-Paul, Glencairn, *Bagpipes in Babylon: A Lifetime in the Arab World and Beyond* (2006)
Barakat, Hoda, *The Stones of Laughter* (Northampton, Mass., 2006)
Bardsley, Gillian, *Issigonis: The Official Biography* (Thriplow, 2005)
Barker, E. B., *Syria and Egypt under the Last Five Sultans*, 2 vols. (1876)
Barker, Gabriella, *Desert Angels* (1956)
Barthélémy, Cécile, *Georges Moustaki* (Paris, 1970)
Basch, Lucien, 'Les jardins des morts', *Mediterraneans*, 8 (2006), 364–73
Bauffremont, Joseph de, *Journal de campagne de l'amiral de Bauffremont, prince de Listenois, dans les pays barbaresques (1766)* (1981)
Beaman, A. G. Hulme, *Twenty Years in the Near East* (1898)
Beaton, Cecil, *The Years Between* (1965)
Beaton, Roderick, *George Seferis: Waiting for the Angel* (2003)
Beinin, Joel, *The Dispersion of Egyptian Jewry: Culture, Politics and the Formation of a Modern Diaspora* (Cairo, 2005)
Bell, E. H. D. Moberly, *The Life and Letters of C. F. Moberly Bell* (1927)
Benedetti, Comte, *Essais diplomatiques* (nouvelle série), 2 vols. (1897)
Bent, J. Theodore, ed., *Early Voyages and Travels in the Levant* (1893)
Bérard, Victor, *La Macédoine* (1897)
Beresford, Admiral Lord Charles, *Memoirs*, 2 vols. (1914)
Berque, Jacques, *L'Egypte: impérialisme et révolution* (1967)
Berridge, G. R., 'Notes on the origins of the diplomatic corps: Constantinople in the 1620s', in *Discussion Papers in Diplomacy* (Clingandael, 2004)
Bertrand, Louis, *Le Mirage oriental* (1913)
Bibliotheca Alexandrina, *Alex-Med Newsletter*, 2004–
Biovès, Achille, *Français et Anglais en Egypte 1881–1882* (1910)
Birand, Mehmet Ali, *Shirts of Steel: An Anatomy of the Turkish Armed Forces* (1991)
Birch, W., *Journal of a Voyage up the Mediterranean* (Poulton, 1818)
Blanford, Nicholas, *Killing Mr Lebanon: The Assassination of Rafik Hariri and its Impact on the Middle East* (2006)
Blunt, W. S., *Gordon at Khartoum* (1911)
—— *Secret History of the English Occupation of Egypt* (1907)
Boal, F. W., 'Ethnic residential segregation, ethnic mixing and resource conflict: a study in Belfast, Northern Ireland', in Ceri Peach, Vaughan Robinson and Susan Smith, eds., *Ethnic Segregation in Cities* (1981)
Bond, Alvan, *Memoir of Rev. Pliny Fisk* (Edinburgh, 1828)
Boogert, Maurits van den, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Booth, Marilyn L., *Bayram al-Tunisi's Egypt: Social Criticism and Narrative Strategies* (Exeter, 1990)
Borden, Mary, *Journey Down a Blind Alley* (1946)

Bosch, Baron Firmin van den, *Vingt années d'Egypte* (1932)
Botman, Selma, *Egypt from Independence to Revolution 1919–1952* (Syracuse, NY, 1991)
Bouquet, Olivier, 'Du haut de Péra: étude du jeu diplomatique de l'Europe dans l'Empire Ottoman 1909–1914', thesis (Paris, 1993)
Bouvier, Jean François, *L'Ordre du Nil: vie et combats d'Antoine Arcache Bey* (n.d.)
Boveri, Margret, *Mediterranean Cross-Currents*, tr. Louisa Marie Sieveking (1938)
Bower, Tom, *Fayed* (1998)
Boyar, Ebru, *Ottoman Turks and the Balkans: Empire Lost, Relations Altered* (2007)
Bramsen, John, *Letters of a Prussian Traveller*, 2 vols. (1818)
Braude, Benjamin, and Lewis, Bernard, *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, 2 vols. (1982)
Breccia, E., *Alexandria ad Aegyptum* (Bergamo, 1914)
Brewer, David, *The Greek War of Independence* (New York, 2001)
Bromfield, William A., *Letters from Egypt and Syria* (1856)
Brown, Nathan J., 'The precarious life and slow death of the mixed courts of Egypt', *International Journal of Middle East Studies*, 25 (1993), 33–52
Buheiry, Marwan, *Beirut's Role in the Political Economy of the French Mandate 1919–39* (Oxford, 1990)
Bulent, Ari, 'Early Ottoman diplomacy', in Nuri Yurdusev, ed., *Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?* (Basingstoke, 2004)
Butler, Alfred J., *Court Life in Egypt* (1887)
Byron, Lord, *Letters and Journals*, 12 vols. (1972–82)
Cabanel, Patrick, ed., *Une France en Méditerranée: écoles, langue et culture française* (2006)
Cadalvène, Ed. de, and de Breuvery, J., *L'Egypte et la Turquie de 1829 à 1836*, 2 vols. (1836)
Cavafy, C. P., *Collected Poems* (Oxford, 2007)
Calame, Jon, and Charlesworth, Esther, *Divided Cities: Belfast, Beirut, Jerusalem, Mostar and Nicosia* (Philadelphia, 2009)
Çalislar, Ipek, *Latife Hanim* (Istanbul, 2006)
Calligas, Paul, *Voyage à Syros, Smyrne et Constantinople* (2004 edn)
Calvocoressi, Peter, *Threading My Way* (1994)
Camp, Maxime du, *Souvenirs et paysages d'Orient* (1848)
Canudo, I., *Combats d'Orient* (1917)
Carlino, Tziana, 'The Levant: A Transmediterranean Literary Category?' (online, 2006)
Carlisle, Earl of, *Diary in Turkish and Greek Waters* (1854)
Carol, Jacqueline, *Cocktails and Camels* (Alexandria, 2008)
—— *Scribbles* (Geneva, 2004)
Carswell, John, 'The Greeks in the East. Alexandria and Islam', in Stephen Vernoit, ed., *Discovering Islamic Art: Scholars, Collectors and Collections 1850–1950* (1999)
—— 'Henri Pharaon', obituary, *Independent*, 8 Aug. 1993
—— 'Kutahya ware', *Hali*, 121 (Mar./Apr. 2002), 78–9
Carver, Michael, *Dilemmas of the Desert War* (1986)
Cattaui, René, ed., *Le Règne de Mohamed Aly d'après les archive russes en Egypte*, 2 vols. (1931)
Çelebi, Evliya, *Seyahatnamesi*, 10 vols. (Istanbul, 1999–2007)
Çelik, Zeynep, *Urban Forms and Colonial Confrontations: Algiers under French Rule* (1997)
Celikkol, Zeki, de Groot, Alexander, and Slot, Ben. J., *It Began with the Tulip: Turkey and the Netherlands in Pictures* (Ankara, 2000)
Chaille-Long, Charles, *My Life in Four Continents*, 2 vols. (1912)
Chair, Admiral Sir Dudley de, *The Sea is Strong* (1961)
Chami, Joseph G., *Chronicle of a War 1975–1990* (Beirut, 2005)

—— *Le Mandat Charles Helou* (Beirut, 2004)
—— *Le Mandat Fouad Chehab* (Beirut, 2003)
—— *Le Mémorial du Liban* (Beirut, 2002)
—— *Du Mont Liban à l'indépendence* (Beirut, 2002)
Chandler, Richard, *Travels in Asia Minor and Greece*, 2 vols. (3rd edn, 1817)
Charles-Roux, François, *Le Projet français de conquête de l'Egypte sous le règne de Louis XVI* (Cairo, 1929)
—— *Souvenirs diplomatiques* (1956)
—— *La Syrie et Palestine au XVIIIe siècle* (1925)
—— *Thiers et Mehemet Ali* (1951)
Charmes, Gabriel, *Cinq mois au Caire et dans la basse Egypte* (1880)
—— *Voyage en Syrie: impressions et souvenirs* (1891)
Charrière, Ernest, *Négociations de la France dans le Levant*, 4 vols. (1848)
Chateaubriand, François-René, Vicomte de, *Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris*, 2 vols. (1846 edn)
Chater, Melville, 'History's greatest trek', *National Geographic* (Mar. 1923)
Chedid, Andrée, *The Return to Beirut* (1989)
Chehabi, H. E., 'An Iranian in the First World War', in id., ed., *Distant Relations: Iran and Lebanon in the Last 500 Years* (2006)
Chevallier, Dominique, *La Société du Mont Liban à l'époque de la révolution industrielle en Europe* (1971)
Chiha, Michel, *Palestine* (Beirut, 1957)
Chirol, Valentin, *Fifty Years in a Changing World* (1927)
Chishull, Edmund, *Antiquitates Asiaticae* (1728)
Churchill, Winston, *The Second World War*, vol. 4. *The Hinge of Fate* (1951)
—— *The World Crisis: The Aftermath* (1929)
Cialente, Fausta, *The Levantines* (1963)
Clark, Bruce, *Twice a Stranger: How Mass Expulsion Forged Modern Greece and Turkey* (2006)
Clarke, Hyde, *History of the British Community at Smyrna* (1862)
Clayer, Nathalie, et al., eds., *Presse turque et presse de Turquie* (1992)
Clogg, Richard, *The Movement for Greek Independence 1770–1821* (1976)
—— *Studies in Ottoman Greek History* (Istanbul, 2004)
Clot Bey, A. B., *Aperçu général sur l'Egypte*, 2 vols. (1840)
—— *Mémoires* (Cairo, 1949)
Cochran, William, *Pen and Pencil in Asia Minor; or, Notes from the Levant* (1887)
Cocteau, Jean, *Maalesh* (1949)
Cohen, Gary B., *The Politics of Ethnic Survival: Germans in Prague 1861–1914* (Princeton, 1981)
Cole, Juan, *Colonialism and Revolution in the Middle East: Social and Cultural Origins of Egypt's Urabi Movement* (Princeton, 1993)
Coles Pasha, *Recollections and Reflections* (1918)
Colonas, Vasilis, *Greek Architects in the Ottoman Empire (19th–20th Centuries)* (Athens, 2005)
Colyton, Henry, *Occasion, Chance and Change: A Memoir 1902–1946* (Wimborne, 1993)
Connell, John, *Auchinleck* (1959)
—— *Wavell: Soldier and Scholar* (1964)
Constantine, King, *A King's Letters to a Friend* (1927)
Cooper, Artemis, *Cairo in the War 1939–1945* (1989)
Cooper, Jacqueline, *Tales from Alexandria* (Geneva, 1994)
Coste, Pascal, *Toutes les Egyptes* (Marseille, 1998)
Cotter, Suzanne, et al., *Out of Beirut* (Oxford, 2006)
Courbage, Youssef, 'Situation démographique comparée du Bilad al cham au xviie et xixie siècles', in *Les Relations entre musulmans et chrétiens dans le bilad al cham. Actes du colloque de 2004* (Beirut, 2004)

Courmenin, M., *Voyage de Levant* (1629)
Coward, Noël, *Middle East Diary* (1944)
Crabbs, Jack A., *The Writing of History in Nineteenth-Century Egypt: A Study in National Transformation* (Cairo, 1984)
Craig, James, *Shemlaan. A History of the Middle East Centre for Arab Studies* (1998)
Crimmin, Patricia, 'The Royal Navy and the Levant trade *c.*1795–*c.*1805', in Jeremy Black and Philip Woodfine, eds., *The British Navy and the Use of Naval Power in the Eighteenth Century* (Leicester, 1988)
Cumali, Necati, *Macédoine 1900 nouvelles*, ed. Faruk Bilici (2007)
Cunningham, Allan, *Anglo-Ottoman Encounters in the Age of Revolution*, 2 vols. (1993)
—— ed., *The Early Correspondence of Richard Wood, 1831–1841* (1966)
Cunningham of Hyndhope, Admiral of the Fleet Viscount, *A Sailor's Odyssey* (1951)
Curie, Eve, *Journey among Warriors* (1943)
al-Daif, Rashid, *Dear Mr Kawabata* (1995)
Dakhlia, Jocelyne, *Lingua franca: Histoire d'une langue métisse en Méditerranée* (2008)
Dakin, Douglas, *The Greek Struggle in Macedonia 1897–1913* (Thessaloniki, 1966)
Dallaway, James, *Constantinople: Ancient and Modern* (1797)
Dankoff, Robert, *An Ottoman Mentality: The World of Evliya Çelebi* (Leiden, 2004)
Dapper, M., *Description exacte des isles de l'Archipel et de quelques autres adjacentes* (Amsterdam, 1703)
Dardaud, Gabriel, 'Un officier français du génie: Gallice Bey', *Revue des Conférences Françaises en Orient*, Dec. 1947, 657–70
Darques, René, *Salonique au vingtième siècle* (2000)
Davie, May, *Beyrouth 1825–1975: un siècle et demi d'urbanisme* (Beirut, 2001)
—— 'Les chrétiens dans l'espace et la société de Beyrouth', in *Les Relations entre musulmans et chrétiens dans le bilad al cham. Actes du colloque de 2004* (Beirut, 2004)
Davie, Michael F., *A Post-War Urban Geography of Beirut* (1993)
—— and Elaine Gebrane, *Beyrouth, regards croisés* (1997)
Davison, Roderick H., *Essays in Ottoman and Turkish History 1774–1923* (1990)
Dawson, Lionel, *Mediterranean Medley* (1933)
Debbas, Fouad C., *Beirut our Memory* (2nd rev. edn, Beirut, 1986)
Deeb, Marius, 'The socio-economic role of the foreign minorities in Egypt 1805–1961', *International Journal of Middle East Studies*, 19 (1978), 11–22
Degert, Abbé Antoine, 'Une ambassade périlleuse de François de Noailles en Turquie', *Revue Historique*, 159 (Nov. 1928), 225–60
Delanoue, Gilbert, *Moralistes et politiques musulmans dans l'Egypte du xixe siècle*, 2 vols. (Cairo, 1982)
Denis, Eric, 'Alexandrie: seconde ville d'Egypte ou métropole méditerranéenne', *Revue géographique de l'Est*, 2–3 (1997), 163–88
Deringil, Selim, 'There is no compulsion in religion; on conversion and apostasy in the late Ottoman Empire 1839–1856', in id., *The Ottomans, the Turks and World Power Politics* (2000)
Deschamps, Gaston, *A Constantinople* (1913)
Desmet-Grégoire, Hélène, *Cafés d'orient revisités* (1997)
Diamandouros, Nikiforos P., et. al., eds., *Hellenism and the First Greek War of Liberation: Continuity and Change* (Thessaloniki, 1976)
Diesbach, Ghislain de, *Ferdinand de Lesseps* (2004)
Dikkaya, Kahri, et al., *Avrupali mi, Levanten mi?* (Istanbul, 2006)
Dinning, Hector, *By-Ways on Service: Notes from an Australian Journal* (1918)
—— *Nile to Aleppo with the Light-Horse in the Middle East* (1920)
Dodwell, Henry, *The Founder of Modern Egypt: A Study of Muhammad Ali* (Cambridge, 1931)
Donia, Robert, *Sarajevo: A Biography* (2006)

Dornel, Laurent, 'Cosmopolitisme et xenophobie: Français et Italiens à Marseille 1870–1914' *Cahiers de la Méditerranée*, 67 (Dec. 2003)

Douglas, Keith, *Alamein to Zem Zem* (1966 edn)

Douglas, Norman, *Looking Back* (1934)

Douglas, Sholto, *Years of Command* (1966)

Douin, Georges, *L'Egypte de 1828 à 1830: correspondance des consuls de France en Egypte* (Rome, 1935)

—— *La Mission du Baron de Boislecomte: l'Egypte et la Syrie en 1833* (Cairo, 1927)

—— *Une mission militaire française auprès de Mohamed Aly: correspondance des généraux Belliard et Boyer* (1923)

—— *Navarin 6 juillet–20 octobre 1827* (Cairo, 1927)

Doukas, Stratis, *A Prisoner of War's Story* (Birmingham, 1991)

Dragoumis, Markos, 'The music of the rebetes', in id., ed., *From Byzantium to Rembetiko* (Kerkyra, 2007)

Driault, Edouard, *Mohamed Ali et Napoléon (1807–1814): correspondance des consuls de France en Egypte* (Cairo, 1925)

Drummond, Alexander, *Travels through Different Cities of Germany, Italy, Greece and Several Parts of Asia as far as the Banks of the Euphrates* (1754)

Du Mont, M., *Voyages*, 4 vols. (The Hague, 1699)

Duda, Dorothea, *Innenarchitektur Syrischer Stadthäuser des 16 bis 18 Jahrhunderts: Die Sammlung Henri Pharaon in Beirut* (Beirut, 1971)

Duparc, Pierre, *Recueil des instructions données aux ambassadeurs et ministres de France Turquie* (1969)

Durand-Viel, Vice-Amiral, *Les Campagnes navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim*, 2 vols. (1935)

Durrell, Lawrence, *The Alexandria Quartet* (1968 edn)

Dursteler, Eric R., *Venetians in Constantinople: Nation, Identity and Coexistence in the Early Modern Mediterranean* (Baltimore, 2006)

Edde, Carla, *Beyrouth. Naissance d'une capitale 1918–1924* (2009)

Edib, Halide, *The Turkish Ordeal* (1928)

Edwards, Kenneth, *The Grey Diplomatists* (1938)

Egremont, Max, *Under Two Flags* (1997 edn)

Eliot, N., Mansfield, Y., and Kotek, J., *Divided Cities* (1999)

Elliott, C. B., *Travels in the Three Great Empires of Austria, Russia and Turkey*, 2 vols. (1838)

Elliott, Peter, *The Cross and the Ensign. A Naval History of Malta 1798–1979* (Cambridge, 1980)

Emerson, James, *Letters from the Aegean*, 2 vols. (1829)

Emerson, John E., *Letters from the East*, 2 vols. (3rd edn, 1830)

Eminoglu, Munevver, *A Beyoglu Photo-Romance* (Istanbul, 2000 edn)

Empereur, Jean-Yves, *Alexandrie: Hier et demain* (2001)

Enright, D. J., *Academic Year* (1984 edn)

—— *Season Ticket* (Alexandria, 1948)

Erdem, Hakan, 'Ottoman responses to the Greek war of independence', in Faruk Birtek and Thalia Dragonas, eds., *Citizenship and the nation-state in Greece and Turkey* (2005)

Erickson, Edward J., *Defeat in Detail: The Ottoman Army in the Balkans 1912–1913* (Westport, 2003)

Estourmel, Comte Joseph d', *Journal d'un voyage en Orient*, 2 vols. (1844)

Eudel, Paul, *Constantinople, Smyrne et Athènes: Journal de Voyage* (1885)

Evans, T. Simpson, ed., *The Life of Robert Frampton, Bishop of Gloucester* (1876)

Fagan, Brian, *The Rape of the Nile* (Boulder, 2004 edn)

Fahmy, Khaled, *All the Pasha's Men: Mehmed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt* (Cambridge, 1997)

—— 'Towards a social history of modern Alexandria' in Anthony Hirst and Michael Silk, eds., *Alexandria, Real and Imagined* (Aldershot, 2009)

Fani, Michel, *Alphabet de Beyrouth* (2000)

—— *Une histoire de la photographie au Liban* (Beirut, 2005)

Farah, C. E., *Arabs and Ottomans: A Chequered Relationship* (Istanbul, 2002)

Farman, E. E., *Egypt and its Betrayal* (1908)

Faroqhi, Suryaiya, *Subjects of the Sultan. Culture and Daily Life in the Ottoman Empire* (2000)

Fawaz, Leila, *Merchants and Migrants in Nineteenth-Century Beirut* (2000 edn)

—— *An Occasion for War: Civil Conflict in Lebanon and Damascus in 1860* (1994)

Fay, Eliza, *Original Letters from India* (1925)

Fedden, Robin, ed., *Personal Landscape: An Anthology of Exile* (1945)

Fellows, Sir Charles, *Travels and Researches in Asia Minor, More Particularly in the Province of Lycia* (1852)

Fermor, Patrick Leigh, *Roumeli: Travels in Northern Greece* (1966)

Field, James A., Jr, *America and the Mediterranean World 1776–1882* (Princeton, 1969)

Finkel, Caroline, *Osman's Dream: The Story of the Ottoman Empire 1300–1923* (2005)

Finnie, David H., *Pioneers East: The Early American Experience in the Middle East* (Cambridge, Mass., 1967)

Fisher, Jack, *Fear God and Dread Nought: The Correspondance of Admiral of the Fleet Lord Fisher of Kilverstone*, 3 vols. (1952–9)

Fisk, Robert, *Pity the Nation: Lebanon at War* (2001 edn)

Flaubert, Gustave, *Correspondance générale* (1973–)

—— *Voyage en Orient 1849–1851* (2006 edn)

Fleet, Kate, *The Muslim Bonaparte: Diplomacy and Orientalism in Ali Pasha's Greece* (Princeton, 1999)

Fletcher, Richard, *Moorish Spain* (1992)

Foreign Relations of the United States 1952–1954, IX, 2 (Washington, 1986)

Forster, E. M., *Alexandria: A History and a Guide: And Pharos and Pharillon* (2004 edn)

—— *Selected Letters*, ed. Mary Lago, 2 vols. (1983)

Forster, Margaret, *Daphne du Maurier* (1993)

Fournié, Pierre, and Riccioli, Jean-Louis, *La France et le Proche-Orient 1916–1946* (1996)

Frangakis-Syrett, Elena, *The Commerce of Smyrna in the Eighteenth Century* (Athens. 1992)

—— 'Commercial practices and competition in the Levant: the British and the Dutch in eighteenth-century Izmir' in A. Hamilton et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)

—— 'The economic activities of the Greek community of Izmir in the second half of the nineteenth and early twentieth centuries' in D. Gondicas and C. Issawi, eds., *Ottoman Greeks in the Age of Nationalism* (Princeton, 1999)

—— 'The making of an Ottoman port: the quay of Izmir in the nineteenth century' *Journal of Transport History*, 22, 1 (2001), 23–46

—— 'The Raya communities of Smyrna in the eighteenth century', *International Journal of Maritime History* (1998)

Freely, John, *The Lost Messiah* (2002 edn)

Freiha, Asma, and Ghanem, Viviane, *Les Libanais et la vie au Liban, de l'indépendance à la guerre 1943–1975*, 2 vols. (Beirut, 1992)

Gage, Nicholas, *Greek Fire* (2001)

Galland, Antoine, *Voyage à Constantinople 1672–1673*, 2 vols. (2002)

—— *Le Voyage à Smyrne*, ed. Frédéric Bauden (2000)

Gandossi, Christiane Villain, 'Les attributions du Baile de Constantinople dans le fonctionnnement des echelles du Levant au xvie siècle', in *Les Grandes Escales*, vol. 11 (Brussels, 1974)

Gardey, Louis, *Voyage du sultan Abd-ul-aziz de Stamboul au Caire* (1865)

Garreau, R., *Un angoumois homme de mer: Besson Bey* (Antibes, 1949)

Gates, Carolyn, *The Merchant Republic of Lebanon: Rise of an Open Economy* (1998)

Gaunson, A. B., *The Anglo-French Clash in Lebanon and Syria 1940–45* (1987)

Gauntlett, Stathis, 'Between orientalism and occidentalism', in Renée Hirschon, ed., *Crossing the Aegean* (Oxford, 2004)

Gaury, Gerald de, *Rulers of Mecca* (1951)

Gelvin, James L., *Divided Loyalties: Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire* (Berkeley, 1998)

Genakopoulos, Deno J., 'The Diaspora Greeks', in Nikiforos P. Diamandouros et al., eds., *Hellenism and the First Greek War of Liberation: Continuity and Change* (Thessaloniki, 1976)

Georgelin, Hervé, *La Fin de Smyrne: du cosmopolitisme aux nationalismes* (2005)

Ghoussoub, Mai, *Leaving Beirut: Women and the Wars Within* (1998)

Gibbon, Edward, *The Decline and Fall of the Roman Empire*, 6 vols. (1776–88)

Giffard, Pierre, *Les Français en Egypte* (1883)

Gilbert, Martin, ed., *Winston Churchill*, vol. 4. 1917–1922. *Companion Documents*, 3 vols. (1977)

Gilmour, David, *Lebanon: The Fractured Country* (Oxford, 1983)

Gilsenan, Michael, *Lords of the Lebanese Marches: Violence and Narrative in an Arab Society* (1996)

Girard, B., *Souvenirs maritimes 1881–1883: journal de bord* (1895)

Gisquet, M., *L'Egypte, les Turcs et les Arabes*, 2 vols. (1846)

Glass, Charles, *Tribes with Flags* (1999)

Glass, Dagmar, and Roper, Geoffrey, 'The printing of Arabic Books in the Arab world' in Geoffrey Roper, ed., *Middle Eastern Languages and the Print Revolution* (Westhofen, 2002)

Goddard, J. K. L., *48!* (Tunbridge Wells, 2003)

Godefroy, Vice-Amiral, *L'Aventure de la Force X à Alexandrie, 1940–1943* (1953)

Godolli, Ezio, and Giacomelli, Milva, eds., *Italian Architects and Engineers in Egypt from the Nineteenth to the Twenty-first Centuries* (Florence, 2008)

Goff, A., and Fawcett, Hugh A., *Macedonia: A Plea for the Primitive* (1921)

Goffman, Daniel, *Britons in the Ottoman Empire 1642–1660* (Seattle, 1998)

—— *Izmir and the Levantine World 1550–1650* (Seattle, 1990)

—— 'Izmir, from village to colonial port city', in Edhem Eldem, Daniel Goffman and Bruce Masters, *The Ottoman City between East and West: Aleppo, Izmir and Istanbul* (Cambridge, 1999)

Goldoni, Carlo, *Four Comedies* (1922 edn)

Goldschmidt, Arthur, Jr, *The Egyptian Nationalist Party 1892–1919* (1968)

Gordon, Joel, *Nasser's Blessed Movement: Egypt's Free Officers and the July Revolution* (New York, 1992)

Goupil-Fesquet, M., *Voyage en orient fait avec Horace Vernet en 1839 et 1840* (1840)

Grafftey-Smith, Laurence, *Bright Levant* (1970)

Grange, Daniel J., *L'Italie et la Méditerranée 1896–1911*, 2 vols. (Rome, 1994)

Graves, Sir Robert, *Storm Centres of the Near East* (1933)

Greene, Rev. Joseph K., *Leavening the Levant* (Boston, 1916)

Gregory, Desmond, *Malta, Britain and the European Powers 1793–1815* (1996)

Griffith, Major and Mrs George Darby, *A Journey across the Desert from Ceylon to Marseilles*, 2 vols. (1845)

Groot, Alexander de, 'The dragomans of the embassies in Istanbul', in Geert Jan Van Gelder and Ed de Moor, eds., *Eastward Bound: Dutch Ventures and Adventures*

in the Middle East (Amsterdam, 1994)
—— *The Ottoman Empire and the Dutch Republic: A History of the Earliest Diplomatic Relations* (Leiden and Istanbul, 1978)
Guerville, A. B. de, *La Nouvelle Egypte* (1905)
Guichard, Sylvie, ed., *Lettres de Bernardino Drovetti, consul de France à Alexandrie 1803–1830* (2003)
Guingand, F. W. de, *Operation Victory* (1978)
Gunther, John, *Twelve Cities* (1968)
Guys, Henri, *Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrout et dans le Liban*, 2 vols. (1847)
Haag, Michael, *Alexandria: City of Memory* (2004)
—— *Vintage Alexandria: Photographs of the City 1860–1960* (Cairo, 2008)
Hacisalihoglu, Mehmet, 'The negotiations for the solution of the Macedonian question', *Turcica*, 36 (2004)
Haddad, William W., and Ochsenwald, William, *Nationalism in a Non-National State: The Dissolution of the Ottoman Empire* (Columbus, Ohio, 1977)
Hajjar, Joseph, *L'Europe et les destinées du Proche Orient*, 4 vols. (Damascus, 1988)
Halas, Malu, and Khalaf, Roseanne Saad, eds., *Transit Beirut: New Writings and Images* (2004)
Halim, Hala, 'Waiting for the Zervudachis', *Mediterraneans*, 8 (1996)
Halliday, Stephen, *The Great Stink of London* (1998)
Hamann, Brigitte, *Hitler's Vienna* (1999 edn)
Hamilton, A., et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)
Hamilton, Nigel, *Monty: The Making of a General 1887–1942* (1981)
Hamouda, Sahar, *Omar Toussoun: Prince of Alexandria* (Alexandria, 2005)
—— and Clement, Colin, *Victoria College: A History Revealed* (Cairo, 2004)
Hampton, Christopher, *White Chameleon* (1991)
Hanania, Tony, *Unreal City* (2000)
Hanssen, Jens, *Fin de Siècle Beirut: The Making of an Ottoman Provincial Capital* (New York, 2005)
—— 'Practices of integration', in Jens Hanssen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire* (Beirut, 2002)
—— 'Your Beirut is on my desk: Ottomanizing Beirut under Sultan Abdulhamid II 1876–1909', in H. Sarkis and P. Rowe, eds., *Projecting Beirut* (Munich, 1998)
Harris, W. V., ed., *Rethinking the Mediterranean* (2005)
Harris, William, *The New Face of Lebanon* (2006)
Harvey, P., *Muslims in Spain 1500–1614* (Chicago, 2005)
Hasluck, F. W., *Christianity and Islam under the Sultans*, 2 vols. (New York, 1973 edn)
Hassan, Hassan, *In the House of Mohammed Ali: A Family Album 1805–1952* (Cairo, 2000)
Hassoun, Jacques, *Alexandrie et autres récits* (2001)
—— *Juifs d'Egypte: Images et textes* (1984)
Heath-Stubbs, John, *Hindsights* (1993)
Heikal, Azza, *L'Education Alexandrine* (Alexandria, 1996)
Hertmans, Stefan, *Intercities* (2001)
Hervé, Francis, *A Residence in Greece and Turkey*, 2 vols. (1837)
Hess, Andrew C., *The Forgotten Frontier: A History of the Sixteenth Century Ibero-African Frontier* (Chicago, 1978)
Heyberger, Bernard, *Les Européens vus par les Libanais à l'époque ottomane* (Beirut, 2004)
—— 'Livres et pratique de la lecture chez les chrétiens (Syrie Liban) xviie–xviiie

siècles', in Frédéric Hitzel, ed., *Livres et lecture dans le monde ottoman* (1999)
Hildyard, Myles, *It is Bliss Here: Letters Home 1939–1945* (2005)
Hirschon, Renée, *Heirs of the Greek Catastrophe* (1998)
Hirst, Anthony, and Silk, Michael, eds., *Alexandria, Real and Imagined* (Aldershot, 2009)
Hirst, David, and Beeson, Irene, *Sadat* (1981)
Hitzel, Frédéric, *Relations interculturelles et scientifiques entre l'Empire Ottoman et les pays de l'Europe occidentale* (thesis, Paris-IV, 1995)
—— ed., *Livres et lecture dans le monde ottoman* (1999)
Hodgson, Geraldine, *The Life of James Elroy Flecker* (Oxford, 1925)
Hogg, Edward, *A Visit to Alexandria, Damascus and Jerusalem during the Successful Campaign of Ibrahim Pasha*, 2 vols. (1835)
Hokayem, Antoine, *Les Provinces arabes de l'Empire Ottoman aux archives du Ministère des Affaires Etrangères de France 1793–1918* (Beirut, 1988)
Holden, David, 'Letter from Alexandria 1963' in Christopher Pick, ed., *Egypt: A Travellers' Anthology* (1991)
Honekamp-Mazgon, Marlies, *Palais de Hollande in Istanbul* (Istanbul, 2002)
Hope, Thomas, *Anastasius*, 2 vols. (1819)
Hopwood, Derek, *The Russian Presence in Syria and Palestine 1843–1914: Church and Politics in the Near East* (Oxford, 1969)
Hormouzios, Stelios, *No Ordinary Crown* (1972)
Horton, George, *The Blight of Asia* (Indianapolis, 1926)
Hourani, Albert, and Shehadi, Nadim, eds., *The Lebanese in the World: A Century of Emigration* (1992)
Hunter, F. Robert, *Egypt under the Khedives 1805–1879* (1984)
Hunter, W. P., *Narrative of the late Expedition to Syria under the Command of Admiral the Hon. Sir Robert Stopford GCB, GCMG*, 2 vols. (1842)
Hurewitz, J. C., *The Middle East and North Africa in World Politics*, 2 vols. (New Haven, 1975)
Husayn, Abdul Rahim Abu, *The View from Istanbul: Lebanon and the Druze Emirate in the Ottoman Chancery Documents* (2004)
Ibrahim, Ibrahim, 'Taha Husayn: the critical spirit' in John P. Spagnolo, ed., *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective* (Reading, 1992)
Ilbert, Robert, *Alexandrie 1830–1930*, 2 vols. (Cairo, 1996)
—— and Yannakakis, Ilias, *Alexandrie 1860–1960: un modèle éphémère de convivialité: communautés et identité cosmopolite* (1992)
Iljine, Nicolas V., ed., *Odessa Memories* (Seattle, 2003)
Imber, Colin, *Ebu's-su'ud and the Islamic Legal Tradition* (Stanford, 1997)
Ioannou, Yorgos, *Refugee Capital: Thessaloniki Chronicles* (Athens, 1997)
Israel, Jonathan I., 'Trade politics and strategy: the Anglo-Dutch Wars in the Levant' in A. Hamilton et al., eds., *Friends and Rivals in the East: Studies in Anglo-Dutch Relations in the Levant from the Seventeenth to the Early Nineteenth Century* (Leiden, 2000)
Issawi, Charles, 'British trade and the rise of Beirut 1830–1860', *International Journal of Middle East Studies* (Aug. 1977), 91–101
—— *The Fertile Crescent 1800–1914. A Documentary Economic History* (Oxford, 1988)
Jabarti, Abd al-Rahman, *Merveilles biographiques et historiques ou chroniques du Cheikh Abd-El-Rahman El Djabarti*, 10 vols. (Cairo, 1896)
Jeancard, Paul, *L'Anatolie* (1919)
Jenkins, Roy, *Gladstone* (1995)
Jennings, Ronald C., *Christians and Muslims in Ottoman Cyprus and the Mediterranean World 1571–1640* (New York, 1993)
Johnson, Michael, *All Honourable Men* (2001)

—— *Class and Client in Beirut* (1986)
Johnston, Shirley, with Sonbol, Sherif, *Egyptian Palaces and Villas* (2006)
Jolliffe, T. R., *Letters from Palestine* (2nd edn, 1820)
Josipovici, Gabriel, *A Life* (2001)
Kabbani, Nizar, *Republic of Love* (2003)
Kadi, Ismail Hakki, 'A silence of the guilds? Some characteristics of Izmir's craftsmen organizations in the 18th and early 19th century' in Maurits van den Boogert, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Kamel, Leila, *Un quartier de Beyrouth. Saint Nicolas. Structures familiales et structures foncières*, 2 vols. (Beirut, 1998)
Kansu, Aykut, *Politics in Post-Revolutionary Turkey 1908–1913* (Leiden, 2000)
—— *The Revolution of 1908 in Turkey* (Leiden, 1997)
Karanasou, Floresca, 'The Greeks in Egypt from Mohammed Ali to Nasser 1805–1961', in Richard Clogg, ed., *The Greek Diaspora in the Twentieth Century* (1999)
Karnikas, Alexander and Helen, *Elias Venezis* (New York, 1969)
Kassab, Sawsan Agha, and Tadmouri, Khaled Omar, *Beirut and the Sultan: 200 Photographs from the Albums of Sultan Abdul Hamid II* (Beirut, 2003)
Kassir, Samir, 'Entre chien et loups' in Jad Thabet, ed., *Beyrouth: la brûlure des rêves* (2001)
—— *Histoire de Beyrouth* (2003)
Kaufman, Asher, *Reviving Phoenica: In Search of Identity in Lebanon* (2004)
Kay, E. de, *Sketches of Turkey in 1831 and 1832* (New York, 1833)
Kayali, Hasan, *Arabs and Young Turks: Ottomanism, Arabism and Islamism in the Ottoman Empire 1908–1918* (1997)
el-Kayem, Henri, *Par grand vent d'est avec rafles: mémoires d'un Alexandrin* (1999)
Kechriotis, Vangelis, 'Between professional duty and national fulfillment: the Smyrniot medical doctor Apostolos Psaltoff 1862–1923', in Merope Anastassiadou and Paul Dumont, eds., *Médecins et ingenieurs ottomans à l'âge des nationalismes* (1998)
—— 'Greek Orthodox, Ottoman Greek or just Greek? Theories of coexistence in the aftermath of the Young Turk Revolution', *Etudes balkaniques*, 1 (2005), 51–72
—— 'The Greeks of Izmir at the end of the empire: a non-Muslim community between autonomy and patriotism', DPhil thesis (Leiden University, 2005)
Kelly, Sir David, *The Ruling Few* (1952)
Keyder, Caglar, *The Definition of a Peripheral Economy: Turkey 1923–1929* (Cambridge, 1981)
Khalaf, Samir, *Heart of Beirut: Reclaiming the Bourj* (2006)
Khalidi, Tarif, 'Unveiled: Anbara Salam in England 1925–1927', in *The Arabs and Britain: Changes and Exchanges* (Cairo, 1999)
el-Khalil, Zeena, *Beirut I Love You* (2009)
Khalili, Laleh, 'Beirut's southern suburbs in the aftermath of the July War', *Middle East in London* (Oct. 2006), 6–10
el-Khazen, Farid, *The Breakdown of the State in Lebanon 1967–1976* (2000)
—— *The Making and Politics of the 1943 National Pact* (Oxford, 1991)
Khoury, Gérard D., *La France et l'Orient arabe: Naissance du Liban moderne* (2009 edn)
—— ed., *Selim Takla 1895–1945. une contribution à l'indépendance du Liban* (Beirut, 2004)
Kiel, Machiel, *Studies on the Ottoman Architecture of the Balkans* (Aldershot, 1990)
Kinglake, A. W., *Eothen* (1919 edn)
Kinross, Lord, *Ataturk: The Rebirth of a Nation* (Nicosia, 1981 edn)
Kitromilides, Paschalis M., ed., *Eleftherios Venizelos: The Trials of Statesmanship* (Edinburgh, 2006)

—— *Enlightenment, Nationalism, Orthodoxy: Studies in the Culture and Political Thought of South-Eastern Europe* (1994)
Knight, William, *Oriental Outlines, or, a Rambler's Recollections of a Tour in Turkey, Greece and Tuscany in 1838* (1839)
Kober, Marc, *Entre Nil et sable: écrivains d'Egypte d'expression française* (1999)
Koker, Osman, *Souvenir of Liberty: Postcards and Medals from the Collection of Orlando Carlo Calumeno* (Istanbul, 2008)
—— ed., *Bir zamanlar Izmir* (2009)
Kolodziejczyk, Dariusz, *Ottoman–Polish Diplomatic Relations 15th–18th Century: An Annotated Edition of Ahdnames and Other Documents* (Leiden, 2000)
Kontente, Léon, *Smyrne et l'Occident, de l'Antiquité au XXIe siècle* (Montigny, 2005)
Korais, A., *Mémoire sur l'état actuel de la civilisation en Grèce* (1803)
Kouyoumdjian, Ohannes Pacha, *Le Liban à la veille et au début de la guerre: mémoires d'un gouverneur 1913–1915* (2003)
Kramer, Gudrun, *The Jews in Modern Egypt 1914–1952* (1989)
Kupferschmidt, Iri M., 'Who needed department stores in Egypt? From Orosdi Back to Omar effendi' *International Journal of Middle East Studies*, 43, 2 (Mar. 2007), 175–92
Kurat, Y. T., 'How Turkey drifted into World War I', in Kenneth Bourne and D. C. Watt, eds., *Studies in International History* (1960)
Kusel Bey, Baron de, *An Englishman's Reminiscences of Egypt* (1915)
Kutluoglu, Muhammad H., *The Egyptian Question (1831–1840)* (Istanbul, 1998)
La Motraye, A. de, *Voyages du Sr. A. de La Motraye en Europe, Asie et Afrique*, 2 vols. (La Haye, 1727)
Lacouture, Jean, and Lacouture, Simone, *L'Egypte en mouvement* (1957)
Lagnado, Lucette, *The Man in the White Sharkskin Suit* (New York, 2007)
Lamartine, Alphonse-Marie-Louis de Prat de, *Correspondance Générale de 1830 à 1848*, 2 vols. (1943)
Lampson, Sir Miles, *Politics and Diplomacy in Egypt: The Diaries of Sir Miles Lampson 1935–1937* (Oxford, 1991)
Landes, David S., *Bankers and Pashas: International Finance and Economic Imperialism in Egypt* (1979 edn)
Larsson, Theo, *Seven Passports for Palestine: Sixty Years in the Levant* (Pulborough, 1995)
Laurens, Henry, 'La France et le califat', *Turcica*, 31 (1999)
—— *Les Origines intellectuelles de l'expédition d'Egypte. L'Orient islamisant en France* (Istanbul, 1987)
Le Bruyn, Corneille, *Voyages au Levant*, 6 vols. (The Hague, 1732)
Lees, Andrew and Lees, Lynn Hollen, *Cities and the Making of Modern Europe 1750–1914* (Leicester, 2007)
Lehmann, Joseph, *All Sir Garnett* (1964)
Lemos, Andreas G., *The Greeks and the Sea* (1976)
Leprette, Fernand, *Egypte: terre du Nil* (1939)
—— *La Muraille de silence: Notes d'un Français d'Egypte pendant la guerre* (Cairo, 1942)
Leon, Edwin de, *Egypt under its Khedives* (1882)
Leune, Jean, *Une revanche, une étape* (1914)
Levene, Mark, 'Port Jewry of Salonika between neo-colonialism and the nation state', in David Cesarani, ed., *Port Jews: Jewish Communities in Cosmopolitan Maritime Trading Centres 1550–1950* (2002)
LeVine, Mark, *Overthrowing Geography: Jaffa, Tel Aviv and the Struggle for Palestine* (2005)
Levy, Sam, *Salonique à la fin du XIXe siècle* (Istanbul, 2000)
Liddell, Robert, *Cavafy* (2002 edn)
—— *Unreal City* (1993 edn)

Lincoln, W. Bruce, *Sunlight at Midnight: St Petersburg and the Making of Modern Russia* (2001)
Le Livre d'or du journal La Réforme (Alexandria, 1945)
Llewellyn Smith, Michael, *Athens: A Cultural and Literary History* (2004)
—— *Ionian Vision: Greece in Asia Minor 1919–1922* (2nd edn, 1998)
Long, C. W. R., *British Pro-Consuls in Egypt 1914–1929: The Challenge of Nationalism* (2005)
Loti, Pierre, *Aziyade* (Livre de Poche, 1970)
Loucar, Anouar, *Voyageurs et écrivains français en Egypte* (Cairo, 1956)
Lowry, Heath, 'The Evrenos dynasty of Yenice Vardar', *Journal of Ottoman Studies*, 32 (2008), 1–192
Lushington, Mrs Charles, *Narrative of a Journey from Calcutta to Europe, by Way of Egypt, in the Years 1827 and 1828* (1829)
Lusignan, Livio Missir de, *Vie latine de l'Empire Ottoman* (Istanbul, 2004)
Maasri, Zeina, *Off the Wall: Political Posters of the Lebanese Civil War* (2009)
Mabro, Robert, 'Nostalgic literature on Alexandria', in Jill Edwards, ed., *Historians in Cairo* (Cairo, 2002)
McBride, Barrie St Clair, *Farouk of Egypt* (1967)
McCarthy, Justin, *Death and Exile: The Ethnic Cleansing of Ottoman Muslims 1821–1922* (Princeton, 1995)
MacGill, Thomas, *Travels in Turkey, Italy and Russia*, 2 vols (1808)
Mackridge, Peter, 'The myth of Asia Minor in Greek fiction', in Renée Hirschon, ed., *Crossing the Aegean* (Oxford, 2003)
McLeave, Hugh, *The Last Pharaoh: The Ten Faces of Farouk* (1969)
MacNiven, Ian S., ed., *The Durrell–Miller Letters 1935–1980* (1988)
Madden, R. R., *Travels*, 2 vols. (1827)
Maehler, Herwig, 'The Mouseion and Cultural Identity', in Anthony Hirst and Michael Silk, eds., *Alexandria, Real and Imagined* (Aldershot, 2009)
Mahfouz, Naguib, *Autumn Quail* (1990)
—— *Miramar* (2000 edn)
Makdisi, Jean Said, *Beirut Fragments: A War Memoir* (New York, 1990)
Makdisi, Ussama, *The Culture of Sectarianism: Community, History and Violence in Nineteenth-Century Ottoman Lebanon* (Berkeley, 2000)
Malarkey, James M., 'Notes on the psychology of war in Lebanon', in Halim M. Barakat, ed., *Towards a Viable Lebanon* (1988)
Malet, Sir Edward, *Egypt 1879–1883* (1907)
Malkin, Irad, and Hohlfelder, Robert L., *Mediterranean Cities: Historical Perspectives* (1988)
Mango, Andrew, *Ataturk* (2000)
Manguel, Albert, 'Once again Troy', in Anna Wilson, ed., *Lebanon, Lebanon* (2006)
Manley, Deborah, and Ree, Peta, *Henry Salt: Artist, Traveller, Diplomat, Egyptologist* (2001)
Manning, Olivia, *The Levant Trilogy* (2003 edn)
Mansel, Philip, *Constantinople: City of the World's Desire* (1995)
—— *Dressed to Rule: Royal and Court Costume from Louis XIV to Elizabeth II* (2005)
—— 'The grand tour in the Ottoman Empire' in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
—— *Paris between Empires* (2001)
Marr, David, *Patrick White: A Life* (1991)
—— ed., *Patrick White Letters* (1994)
Marsot, Afaf Lutfi al-Sayyid, *Egypt in the Reign of Muhammad Ali* (Cambridge, 1984)
Matar, Nabil, *In the Lands of the Christians: Arab Travel Writing in the Seventeenth Century* (2003)
Maundrell, Henry, *A Journey from Aleppo to Jerusalem at Easter, A.D. 1697* (1810 edn)

Maurice, Colonel J. F., *Military History of the Campaign of 1882 in Egypt* (1887)
Mazower, Mark, *Salonica, City of Ghosts: Christians, Muslims and Jews 1430–1950* (2004)
Menargues, Alain, *Les Secrets de la Guerre du Liban* (2004)
Mengin, M., *Histoire de l'Egypte sous le règne de Mohammed Aly* (1823)
Mengous, Petros, *Narrative of a Greek Soldier* (New York, 1830)
Mermier, Franck, *Le Livre et la ville: Beyrouth et l'édition arabe* (2005)
Miéville, Sir Walter Frederick, KCMG, *Under Queen and Khedive: The Autobiography of an Anglo-Egyptian Official* (1899)
Millard, David, *Journal of Travels in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land during 1841–2* (Rochester, NY, 1843)
Millie, J., *Alexandrie d'Egypte et le Caire* (Milan, 1868)
Milton, Giles, *Paradise Lost: Smyrna 1922* (2008)
Minutoli, Baroness von, *Recollections of Egypt* (1827)
Missouma, Sakina, *Alger à l'époque ottomane* (Aix-en-Provence, 2003)
Molho, Rena, *Salonica and Istanbul: Social, Political and Cultural Aspects of Jewish Life* (Istanbul, 2005)
Mollenhauer, Anne, 'The Central Hall House: regional commonalities and local specificities: a comparison between Beirut and al-Salt', in Jens Hanssen, Thomas Philipp and Stefan Weber, eds., *The Empire in the City: Arab Provincial Capitals in the Late Ottoman Empire* (Beirut, 2002)
Le Mondain égyptien (Cairo, 1939)
Monroe, Elizabeth, *Philby of Arabia* (1973)
Montefiore, Simon Sebag, *Stalin: The Court of the Red Tsar* (2003)
Montgomery, Viscount, *The Memoirs of Field-Marshal the Viscount Montgomery of Alamein, KG* (1958)
Moorehead, Alan, *African Trilogy* (1944)
Morewood, Steven, *The British Defence of Egypt 1935–1940: Conflict and Crisis in the Eastern Mediterranean* (2005)
Morin, Edgar, *Vidal et les siens* (1989)
Morin, Jean, *Souvenirs d'un banquier français* (1983)
Morris, James, *Among the Cities* (1985)
—— *Farewell the Trumpets: An Imperial Retreat* (1998 edn)
—— *The Market of Seleukia* (1957)
Mott-Radclyff, Charles, *Foreign Body in the Eye: A Memoir of the Foreign Service, Old and New* (1975)
Moustaki, Georges, *Les Filles de la mémoire* (1989)
Murphy, Robert, *Diplomat among Warriors* (1964)
Murray, Hon. Sir Charles Augustus, KCB, *A Short Memoir of Mohammed Ali* (1898)
Murray, Eustace, *The Roving Englishman in Turkey: Sketches from Life* (1855)
Murray, John, *Handbook for Travellers in the Ionian Islands, Greece, Turkey, Asia Minor and Constantinople* (1840)
—— *Handbook for Travellers in Turkey in Asia*, 2 vols. (4th rev. edn, 1878)
Naff, Alixa, *Becoming American: The Early Arab Immigrant Experience* (Carbondale, 1985)
Naggar, Jean, *Sipping from the Nile: My Exodus from Egypt* (New York, 2008)
Nahum, Henri, *La Grande Guerre et la guerre greco-turque vues par les instituteurs de l'Alliance Israélite Universelle d'Izmir* (Istanbul, 2003)
—— *Juifs de Smyrne, xixe–xxe siècle* (1997)
Najjar, Alexandre, *The School of War* (2006)
Napier, Commodore Sir Charles, *The War in Syria*, 2 vols. (1842)
Napier, Lt-Col. Edward, *Reminiscences of Syria and Fragments of a Journal and Letters from the Holy Land*, 2 vols. (1843)
Napoléon III et l'Europe (2006)

Navet-Grenillet, Marie-Cécile, *Penelope Delta et Alexandrie: une femme grecque à la confluence des langues et des cultures* (unpublished thesis, Montpellier University, 1998)
Nea Smyrna (map with history) (Athens, 1999)
Neale, F. A., *Eight Years in Syria, Palestine and Asia Minor from 1842 to 1850*, 2 vols. (1851)
Neguib, Mohammed, *Egypt's Destiny* (1955)
Neumann, Christoph K., 'Decision-making without decision-makers: Ottoman foreign policy circa 1780', in Caesar E. Farah, ed., *Decision-Making and Change in the Ottoman Empire* (Kirksville, 1993)
Nicholls, David, *The Lost Prime Minister: A Life of Sir Charles Dilke* (1995)
Nicol, Martha, *Ismeer; or Smyrna and its British Hospital in 1855* (1856)
Nightingale, Florence, *Letters from Egypt* (1998 edn)
Ninet, John, *Lettres d'Egypte 1879–1882*, ed. Anoua Louca (1979)
Nostitz, Pauline, Countess, *Travels of Doctor and Madame Helfer in Syria, Mesopotamia*, 2 vols. (1878)
Nubar Pacha, *Mémoires* (Beirut, 1983)
Oikonomos, Constantino, *Etude sur Smyrne*, tr. and ed. Bonanventure F. Slaars (Smyrna, 1868)
Olin, Stephen, *Greece and the Golden Horn* (New York, 1854)
—— *Travels in Egypt, Arabia Petraea and the Holy Land*, 2 vols. (New York, 1843)
Olnon, M. Merlijn, 'Köprülü imperial policy and the refashioning of Izmir', in Maurits van den Boogert, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Owen, H. Collinson, *Salonica and After: The Sideshow that Ended the War* (1919)
Owen, Roger, *Lord Cromer* (2002)
Oztuncay, Bahattin, ed., *100th Anniversary of the Restoration of the Constitution* (Istanbul, 2008)
—— *Hatira-i uhuvvet Portre Fotograflarin Cazibesi 1846–1950* (Istanbul, 2005)
Page, Bruce, Leitch, David, and Knightley, Phillip, *Philby: The Spy who Betrayed a Generation* (1968)
Panayotopoulos, A. J., 'Early relations between the Greeks and the Young Turks', *Balkan Studies*, 21 (1980), 87–95
Pannuti, Alessandro, *Les Italiens d'Istanbul au xxe siècle* (Istanbul, 2008)
Panzac, Daniel, *La Caravane maritime – marins européens et marchands ottomans en Méditerranée (1680–1830)* (2004)
—— *Les Corsaires barbaresques* (1999)
Papadopoulos, Stelios A., ed., *The Greek Merchant Marine, 1453–1850* (Athens, 1972)
Parish, Michael Woodbine, *Aegean Adventures 1940–1943* (Lewes, 1993)
Parmaksiz, Pinar M. Yarmakli, 'A Muslim family in infidel Izmir at the turn of the century: the Evliyazades', in Maurits van den Boogert, ed., *Ottoman Izmir* (Istanbul, 2007)
Paton, A. A., *The Modern Syrians* (1844)
Peach, Ceri, Robinson, Vaughan, and Smith, Susan, eds., *Ethnic Segregation in Cities* (1981)
Pentzopoulos, Dimitri, *The Balkan Exchange of Minorities and its Impact on Greece* (2002 edn)
Pernot, Maurice, *Rapport sur un voyage d'étude à Constantinople, en Egypte et en turquie d'Asie (janvier–août 1912)* (1912)
Peters, Rudolph, *Islam and Colonialism: The Doctrine of Jihad in Modern History* (The Hague, 1979)
Petropoulos, Elias, *Old Salonica* (Athens, 1982)
—— *La Présence ottomane à Salonique* (Athens, 1980)
—— and Emery, Ed, *Songs of the Greek Underworld: The Rebetika Tradition* (2000)
Petropoulos, John A., *Forms of Collaboration with the Enemy: Memoirs of Kanellos*

Delegiannes (n.d.)
Peyssonnel, Claude Charles de, *Examen du livre intitulé Considérations sur la guerre actuelle des Turcs* (Amsterdam, 1788)
Philip, John, *Reminiscences of Gibraltar, Egypt and the Egyptian War* (Aberdeen, 1893 edn)
Philipp, Thomas, *Acre: The Rise and Fall of a Palestinian City* (2001)
—— *The Syrians in Egypt 1725–1975* (Stuttgart, 1985)
Philou, Christine, 'To be or not to be Roum in the 1820's', paper given at École Française d'Athenes, Feb. 2006
Picard, Elizabeth, 'Les Syriens, l'envers du décor', in Jad Thabet, ed., *Beyrouth: la brûlure des rêves* (2001)
Pierides, G. Philippou, *Memories and Stories from Egypt* (Nicosia, 1992)
Pillaut, Julien, *Les Consulats du Levant*, 2 vols. (Nancy, 1902)
Pintak, Larry, *Beirut Outtakes* (Lexington, 1988)
Playfair, Lt-Col. R. L., *Handbook to the Mediterranean. Its Cities, Coast and Islands* (1881)
Pococke, Richard, *A Description of the East*, 2 vols (1743)
Poffandi, S. E., *Indicateur égyptien* (Alexandria, 1892)
Poitou, Eugène, *Un hiver en Egypte* (1860)
Politis, Athanase G., ed., *Le Conflit turco-égyptien de 1838–1841 et les dernières années du règne de Mohamed Aly d'après les documents diplomatiques grecs* (Cairo, 1931)
Politis, Kosmas, 'At Hadzifrangos' *The Charioteer*, 11 (1969–70)
Polk, W. R., and Chambers, R., *The Beginnings of Modernization in the Middle East* (Chicago, 1968)
Le Portrait à Alexandrie dans les collections particulières (Alexandria 1955)
Poullet, M., *Nouvelles relations du Levant*, 2 vols. (1667)
Poumarède, Gérard, 'Négocier près la Sublime Porte: jalons pour une nouvelle histoire des capitulations ottomanes', in Lucien Bély, *L'Invention de la diplomatie* (1998)
—— *Pour en finir avec la croisade: Mythes et réalitiés de la lutte contre les Turcs aux XVIe et XVIIe siècles* (2004)
Pratt, Lawrence R., *East of Malta, West of Suez* (1975)
Presland, John, *Deedes Bey* (1941)
Prousis, Theophilus C., *British Consular Reports from the Ottoman Levant in an Age of Upheaval* (Istanbul, 2008)
—— 'Smyrna 1821: a Russian view', *Modern Greek Studies Yearbook*, 7 (1991)
Psomiades, Harry J., *The Eastern Question: The Last Phase* (Thessaloniki, 1968)
Pückler-Muskau, Prince, *Egypt under Mohammed Ali*, 2 vols. (1845)
Puryear, Vernon J., *Napoleon and the Dardanelles* (Berkeley, 1951)
Queiros, Eça de, *Les Anglais en Egypte* (2008)
Raafat, Samir W., *Cairo, the Glory Years: Who Built What, When, Why and for Whom* (Alexandria, 2003)
Rafeq, Abdul-Karim, *The Province of Damascus 1723–1783* (Beirut, 1966)
Raguse, Duc de, *Voyage de M. le Maréchal Duc de Raguse*, 5 vols. (1837)
Randal, Jonathan, *The Tragedy of Lebanon* (1990 edn)
Rawnsley, Andrew, *The Party is Over* (2010)
Rees, Tom, *Merchant Adventurers in the Levant* (Stawell, 2003)
Reimer, Michael J., *Colonial Bridgehead: Government and Society in Alexandria 1807–1882* (Boulder, 1997)
'Relation de l'île de Chio' (1747), in Antoine Galland, *Recueil des rits et ceremonies du pèlerinage de la Mecque* (Amsterdam, 1754)
Richardson, Robert, *Travels Along the Mediterranean and Parts Adjacent, in Company with the Earl of Belmore, during the years 1816–1817–1818*, 2 vols. (1822)
Ridley, Ronald T., *Napoleon's Proconsul in Egypt: The Life and Times of Bernardino Drovetti* (1998)
Riffier, Jean, 'Les Œuvres françaises et l'invention de la Syrie', in Bernard Delpal et

al., eds., *France–Levant, de la fin du xviie siècle à la Première Guerre mondiale* (2005)
Risal, P., *La Ville convoitée: Salonique* (1914)
Ristelhuber, René R., *Les Traditions françaises au Liban* (2nd edn, 1925)
Roe, Sir Thomas, *Negotiations of Sir Thomas Roe, in his Embassy to the Ottoman Porte, from the Year 1621 to 1628 Inclusive*, 2 vols. (1740)
Rogers, Michael, 'To and fro: aspects of Mediterranean trade and consumption in the 15th and 16th centuries', in *Villes au Levant: Hommage à André Raymond* (1990), 57–74
Rondeau, Daniel, *Alexandrie* (1997)
Ross, H. R., *Letters from the East* (1902)
Royle, Charles, *The Egyptian Campaigns 1882 to 1885* (rev. edn, 1900)
Rustum, A. J., *The Royal Archives of Egypt and the Disturbances in Palestine, 1834* (Beirut, 1938)
Sabit, Adel M., *A King Betrayed* (1989)
Sabry, M., *L'Empire Egyptien sous Mohammed Ali et la question d'Orient (1811–1849)* (1930)
Sacerdoti, Annie, *The Guide to Jewish Italy* (Venice, 2004)
Sacré, Amédée, and Outrebon, Louis, *L'Egypte et Ismail Pacha* (1865)
el-Sadat, Anwar, *Revolt on the Nile* (1957)
Sadgrove, Philip, *The Egyptian Theatre in the Nineteenth Century 1799–1882* (Reading, 1996)
—— 'Travellers' rendezvous and cultural institutions in Mohammed Ali's Egypt' in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
Saghie, Hazim, 'Crossings: Beirut in the eighties' in Malu Halas and Roseanne Saad Khalaf, eds., *Transit Beirut: New Writings and Images* (2004)
Said, Edward, *After the Last Sky: Palestinian Lives* (1986)
—— 'Cairo and Alexandria', in id., *Reflections on Exile* (2001)
St John, Bayle, *Two Years' Residence in a Levantine Family* (1856)
St John, James Augustus, *Egypt and Mohammed Ali; or, Travels in the Valley of the Nile*, 2 vols. (1834)
Salam, Nawaf, and Sassine, Fares, *Lebanon: A Century in Pictures* (Beirut, 2003)
Saliba, Robert, *Beirut 1920–1940: Domestic Architecture between Tradition and Modernity* (Beirut, 1999)
Salibi, Kamal S., 'Beirut under the Young Turks as depicted by the political memoirs of Salim Ali Salam 1868–1938', in Jacques Berque, ed., *Les Arabes par leurs archives* (1976)
—— *A House of Many Mansions: The History of Lebanon Reconsidered* (2009 edn)
—— 'Maronite historians of Lebanon', in P. M. Holt and B. Lewis, eds., *Historians of the Middle East* (1962)
Sammarco, Angelo, *Les Règnes d'Abbas, de Said et d'Ismail* (Rome, 1935)
Sandalci, Mert, *Max Fuchtermann Kartpostallari*, 3 vols. (Istanbul, 2000)
Sandys, George, *Travels: Containing an History of the Original and Present State of the Turkish Empire* (6th edn, 1670)
Sattin, Anthony, *Lifting the Veil: British Society in Egypt 1768–1956* (1988)
Saulcy, Léon Caignart de, *Carnets de voyage* (1955 edn)
Savidis, George, ed., *C. P. Cavafy: Collected Poems* (rev. edn, 1992)
Sayek, Sybil Zandi, 'Fêtes et processions', in Marie-Carmen Smyrnelis, ed., *Smyrne, la ville oubliée?* (2006)
Sayigh, Rosemary, *Too Many Enemies: The Palestinian Experience in Lebanon* (1994)
Scheikevitch, Antoine, *Hellas? Hélas! Souvenirs de Salonique* (1922)
Scherzer, Charles de, *La Province de Smyrne considérée au point de vue géographique, économique et intellectuelle* (Vienne, 1873)
Schilcher, Linda Schatkowski, 'The famine of 1915–1918 in Greater Syria', in John P. Spagnolo, ed., *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective*

(Reading, 1992)
Schmidt, Jan, *From Anatolia to Indonesia: Opium Trade and the Dutch Community of Izmir 1820–1940* (Istanbul, 1998)
—— *Through the Legation Window: Four Essays on Dutch, Dutch Indian and Ottoman History* (Istanbul, 1992)
Schmitt, Oliver Jens, *Les Levantins: cadres de vie et identités d'un groupe ethno-confessionel de l'Empire Ottoman au 'long' 19e siècle* (Istanbul, 2007)
Scholch, Alexander, *Egypt for the Egyptians! The Socio-Political Crisis in Egypt 1878–1882* (Oxford, 1981)
Schroeder, Francis, *Shores of the Mediterranean*, 2 vols. (1846)
Schulze, Kirsten E., *The Jews of Lebanon: Between Coexistence and Conflict* (Brighton, 2001)
Sciacky, Leon, *Farewell to Ottoman Salonica* (Istanbul, 2000)
Scott, C. Rochfort, *Rambles in Egypt and Candia*, 2 vols. (1837)
Seale, Patrick, *Assad of Syria* (1988)
—— *The Struggle for Arab Independence: Riad al-Solh and the Makers of the Modem Middle East* (Cambridge, 2010)
—— and McConville, Maureen, *Philby: The Long Road to Moscow* (rev. edn, 1978)
Seferis, George, *A Poet's Journal: Days of 1945–1951* (Cambridge, Mass., 1974)
Sehnaoui, Nada, *L'Occidentalisation de la vie quotidienne à Beyrouth 1860–1914* (Beirut, 2002)
Seikaly, May, *Haifa: The Transformation of an Arab Society 1918–1939* (1998 edn)
Selwyn, Victor, et al., *Return to Oasis: War Poems and Recollections from the Middle East 1940–1946* (1980 edn)
Senior, Nassau William, *A Journal Kept in Turkey and Greece in the Autumn of 1857 and the Beginning of 1858* (1859)
Senoçak, Bulent, *Levant'in yildizi Izmir* (Izmir, 2003)
Shannon, Richard, *Gladstone: Heroic Minister 1865–1898* (2000 edn)
Sharif, Omar, *L'Eternel masculin* (1977)
Shaw, Stanford J., *From Empire to Republic: The Turkish War of National Liberation· 1918–1923. A Documentary Study*, 5 vols. (Ankara, 2000)
al-Shaykh, Hanan, *The Story of Zahra* (1993 edn)
Shepherd's Oriental Yearbook for 1860 (Smyrna, 1859)
Simpson, Michael, ed., *The Cunningham Papers*, 2 vols. (Aldershot, 1999–2006)
Şimşir, Bilal N., ed., *British Documents on Ataturk*, 8 vols. (Ankara, 1984–2006)
Sinoué, Gilbert, *Le Colonel et l'enfant roi* (2006)
Skilliter, Susan A., 'An ambassador's tayin: Edward Barton's ration on the Egri campaign 1596', *Turcica*, 25 (1993)
Smyrna before the Catastrophe (Athens, 1992)
Smyrna, Metropolis of the Asia Minor Greeks (Athens, 2001)
Smyrne: Estudiantina nea ionia (compact disc: Athens, 2003)
Smyrnelis, Marie-Carmen, ed., *Smyrne, la ville oubliée?* (2006)
—— *Une ville ottomane plurielle: Smyrne aux xviie et xviiie siècles* (Istanbul, 2006)
Solomonidis, Victoria, 'Greece in Asia Minor: the Greek administration of the vilayet of Aydin, 1919–1922', PhD thesis (University of London, 1984)
Sonbol, Mira el-Azhary, ed., *Beyond the Exotic: Women's Histories in Islamic Societies* (Syracuse, NY, 2005)
Sonnini, Charles-Sigisbert, *Voyage en Grèce et en Turquie fait par ordre de Louis XVI* (1997 edn)
Sotiriou, Dido, *Farewell Anatolia* (Athens, 1991)
Soucek, Svat, 'The Strait of Chios and the Kaptanpaşa's navy', in Elizabeth Zachariadou, ed., *The Kapudan Pasha, his Office and his Domain* (Rethymnon, 2002)
el-Sousssi, Shadia, 'Borrowed words from Italian in Alexandrian Arabic' in

Bibliotheca Alexandrina, *Alex-Med Newsletter*, 7 (July 2007)
Spagnolo, John P., *France and Ottoman Lebanon 1861–1914* (1977)
—— ed., *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective* (Reading, 1992)
Spears, Sir Edward, *Fulfillment of a Mission: The Spears Mission to Syria and Lebanon, 1941–1944* (1977)
Spencer, Edmund, *Travels in European Turkey*, 2 vols. (1851)
Sperco, Willy, 'Lamartine et son domaine en Asie Mineure', *Revue de France*, 15 Oct. 1938, 1–22
Stadiem, William, *Too Rich* (1992)
Starkey, Paul, and Starkey, Janet, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
Starr, Deborah, *Remembering Cosmopolitan Egypt: Literature, Culture and Empire* (2009)
Steensgaard, Niels, 'Consuls and nations in the Levant from 1570 to 1650', *Scandinavian Economic History Review*, 15, 1–2 (1967), 13–55
Stewart, Desmond, *Orphan with a Hoop: The Life of Emile Bustani* (1967)
—— *Turmoil in Beirut: A Personal Account* (1958)
Stochove, Fermanel, *Le Voyage d'Italie et du Levant* (Rouen, 1664)
Stone, Christopher, *Popular Culture and Nationalism in Lebanon: Fairuz and the Rahbani Nation* (2008)
Storrs, R., *Orientations* (def. edn, 1943)
Strachan, Michael, *The Life and Adventures of Thomas Coryate* (Oxford, 1962)
Sturdza, Mihail-Dimitri, *Dictionnaire historique et généalogique des grandes familles de Grèce, d'Albanie et de Constantinople* (1983)
Sulzberger, C. L., *A Long Row of Candles: Memoirs and Diaries 1934–1952* (1969)
Sureau, François, *Les Alexandrins* (2003)
Swan, Rev. Charles, *Journal of a Voyage up the Mediterranean, Principally among the Islands of the Archipelago, and in Asia Minor*, 2 vols. (1826)
Sykes, John, *The Levantine* (1952)
Symes, Sir Stewart, *Tour of Duty* (1946)
Tabbara, Lina Mikdadi, *Survival in Beirut: A Diary of Civil War* (1979)
Tancoigne, J. M., *Voyage à Smyrne, dans l'archipel et l'île de Candie en 1811, 1812, 1813 et 1814*, 2 vols. (1817)
Tapp, A. Griffin, *Stories of Salonica and the New Crusade* (1922)
Tauber, Eliezer, *The Emergence of the Arab Movement* (1993)
Tchentsova, Vera, 'Le fonds des documents grecs (F. 52. "Relations de la Russie avec la Grèce") de la collection des archives nationales des actes anciens de la Russie et leur valeur pour l'histoire de l'Empire Ottoman', *Turcica*, 30 (1998), 383–96
Tedder, Marshal of the RAF Lord, *With Prejudice: War Memoirs* (1966)
Tekeli, Ilhan, and Ilkin, Selim, 'The public works program and the development of technology in the Ottoman Empire in the second half of the nineteenth century, *Turcica*, 28 (1996)
Terhune, A. P., *Syria from the Saddle* (1896)
Terrades, Marc, *Le Drame de l'Héllenisme: Ion Dragoumis (1878–1920) et la question nationale en Grèce au début du xxe siècle* (2005)
Terry, Janice J., *The Wafd* (Beirut, 1981)
Testa, Marie de, and Gautier, Antoine, *Drogmans et diplomates européens auprès de la Porte Ottomane* (Istanbul, 2003)
Texier, Charles, *Description de l'Asie mineure faite par ordre du gouvernement français*, 3 vols. (1849)
Thabet, Jad, ed., *Beyrouth: la brûlure des rêves* (2001)
Thackeray, William Makepeace, *Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo* (2nd edn, 1846)
Thomas, Hugh, *The Suez Affair* (1986 edn)

Thompson, Victoria, *Losing Alexandria* (Sydney, 1998)
Tignor, Robert, *Capitalism and Nationalism at the End of Empire* (Princeton, 1998)
—— *State, Private Enterprise and Economic Change in Egypt 1918–1952* (Princeton, 1984)
Timofeev, Igor, *Kamal Joumblatt et le tragique destin du Liban* (Beirut, 2000)
Toledano, Ehud R., *State and Society in Mid-Nineteenth-Century Egypt* (Cambridge, 2003 edn)
Tomes, Jason, *King Zog: Self-Made Monarch of Albania* (2003)
Totten, Michael J., 'From Baghdad to Beirut', *City Journal*, 10 Jan. 2010 (online)
Tournefort, M. Pitton de, *Relation d'un voyage du Levant, fait par ordre du Roy*, 2 vols. (1717)
Trading in the Levant (Manchester, 1912)
Travelos, John, and Kokkou, Angelike, *Hermoupolis* (Athens, 1984)
Trimi, Katerina, 'La famille Benakis: un paradigme de la bourgeoisie grecque alexandrine', in Meropi Anastassiadou and Bernard Heyberger, eds., *Figures anonymes, figures d'élite: pour une anatomie de l'Homo ottomanicus* (Istanbul, 1999)
Tucker, Judith E., *Women in Nineteenth Century Egypt* (1985)
Tulloch, Major-General Sir Alexander Bruce, *Recollections of Forty Years' Service* (1903)
Turner, Barry, *Suez 1956* (2007 edn)
Turner, William, *Journal of a Tour in the Levant*, 3 vols. (1820)
Turrell, Ray, *Scrap Book 1809–1922* (Englefield Green, 1987)
Tzalas, Harry E., *Farewell to Alexandria* (Cairo, 2003 edn)
al-Udhari, Abdallah, tr. and ed., *Modern Poetry of the Arab World* (1986)
Ugur, Ugur U., 'A reign of terror: CUP rule in Diyarbekir province 1913–1919', MA thesis (University of Amsterdam, 2005)
Upward, Allen, *The East End of Europe* (1908)
Ursu, J., *La Politique orientale de François Ier 1515–1547* (1908)
Uşakligil, Halid Ziya, *Kirk yil. Anilar* (Istanbul, 1987 edn)
Vacalopoulos, Apostolos E., *The Greek Nation 1453–1669* (New Brunswick, 1976)
—— *A History of Thessaloniki* (Thessaloniki, 1972)
Vailland, Roger, *Choses vues en Egypte* (1982 edn)
Valon, Alexis de, *Une année dans le Levant: voyage en Sicile, en Grèce et en Turquie*, 2 vols. (2nd edn, 1850)
van Droffelaar, Johan, '"Flemish Fathers" in the Levant', in Geert Jan Van Gelder and Ed de Moor, eds., *Eastward Bound: Dutch Ventures and Adventures in the Middle East* (Amsterdam, 1994)
Vatikiotis, P. J., *Nasser and his Generation* (1978)
Vaucher, G., *Gamal Abdel Nasser et son équipe*, 2 vols. (1959)
Veinstein, Gilles, 'Ayan de la region d'Izmir et le commerce du Levant', in id., *Etat et société dans l'Empire Ottoman, xviie–xviiie siècles* (Aldershot, 1994)
—— 'Retour sur la question de la tolérance ottomane', in Bartolome Bennassar and Robert Sauzet, eds., *Chrétiens et musulmans à la renaissance* (1998)
—— ed., *Salonique 1850–1918: la ville des juifs et le réveil des Balkans* (1992)
Velde, C. W. M. van de, *Narrative of a Journey through Syria and Palestine in 1851 and 1852*, 2 vols. (1854)
Verdeil, Chantal, 'Les écoles d'Orient: le réseau scolaire congréganiste en Syrie', in Bernard Delpal et al., eds., *France–Levant, de la fin du xviie siècle à la Première Guerre mondiale* (2005)
Viallon, Marie F., *Venise et la porte ottomane 1453–1566* (1995)
Wailly, Henri de, *Syrie 1941. la guerre occultée* (2006)
Walker, Hugh H., *The Anglo-American Guide Book to Alexandria* (Cairo, 1938)
Walker, Mary A., *Through Macedonia to the Albanian Lakes* (1864)
Walsh, Rev. R., *A Residence at Constantinople, during a Period including the Commencement, Progress, and Termination of the Greek and Turkish Revolutions*, 2 vols. (1836)

Wassef, Magda, ed., *Egypte: cent ans de cinéma* (1995)
Waterfield, Gordon, *Egypt* (1967)
Waugh, Alec, *The Mule on the Minaret* (1964)
Waugh, Evelyn, *The Letters of Evelyn Waugh*, ed. Mark Amory (1980)
White, Patrick, *Flaws in the Glass: A Self-Portrait* (1983 edn)
Wiet, Gaston, *Mohammed Ali et les beaux-arts* (Cairo, 1949)
Wilkinson, Sir Gardner, *Handbook for Travellers in Egypt* (1847)
Williams, H. Noel, *The Life and Letters of Admiral Sir Charles Napier KCB* (1917)
Wilson, Sir Charles Rivers, GCMG, CB, *Chapters from My Official Life* (1916)
Wilson, Field Marshal Lord, *Eight Years Overseas* (1948)
Wines, E. C., *Two Years and A Half in the Navy; or, Journal of a Cruise in the Mediterranean and the Levant*, 2 vols. (Philadelphia, 1832)
Winton, John, *Cunningham* (1998)
Wissa, Hanna F., *Assiout: The Saga of an Egyptian Family* (Lewes, 1994)
Woodruff, Samuel, *Journal of a tour to Malta, Greece and Spain in 1828* (Hartford, 1831)
Woodsworth, Nicholas, *The Liquid Continent*, 3 vols. (2008)
Wortabet, Gregory M., *Syria, and the Syrians: or, Turkey in the Dependencies*, 2 vols. (1856)
Wratislaw, A. C., *A Consul in the East* (1924)
Wright, Arnold, *Twentieth Century Impressions of Egypt* (1909)
Wynn, Antony, *Three Camels to Smyrna: The Story of the Oriental Carpet Manufacturers Company* (2008)
Yeğin, Ugur, ed., *Once Upon a Time Izmir from the Collection of Ugur Goktaş* (Izmir, 2009)
Yehya, Lutfi A. W., 'Alexandria reminiscences of an old historian' *Mediterraneans*, 8 (2006), 365–7
Yiannakopoulos, Georgios A., ed., *Refugee Greece: Photographs from the Archive of the Centre for Asia Minor Studies* (Athens, 1992)
Yurdusev, Nuri, ed., *Ottoman Diplomacy: Conventional or Unconventional?* (Basingstoke, 2004)
Zahlan, Rosemay Said 'George Baldwin', in Paul Starkey and Janet Starkey, eds., *Interpreting the Orient: Travellers in Egypt and the Near East* (Reading, 2001)
Zananiri, Gaston, *Entre mer et désert: mémoires* (1996)
Zimmerli Hardman, Esther, *From Camp de César to Cleopatra's Pool* (Alexandria, 2008)
Zisser, Eyal, *Lebanon: The Challenge of Independence* (2000)
Zogheb, Count Patrice de, *Red Cross and Red Crescent: Work in Alexandria under the Patronage of HRH Prince Mohammed Ali* (Alexandria, 1943)

المؤلف في سطور

فيليب مانسيل

- مؤرخ البلاطات والعائلات الحاكمة.
- من أهم أعماله «بلاط فرنسا 1789-1830»، وتاريخ «باريس بين الإمبراطوريات 1814-1852»، وحياة الأمير دي لاين «أمير أوروبا».
- يعد كتابه «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453-1924» (سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، عددا يوليو وأغسطس 2015) من أمتع ما كتب عن تاريخ المدينة والإمبراطورية العثمانية.
- زميل «الجمعية التاريخية الملكية» ومعهد البحوث التاريخية، ومحرر مجلة «مؤرخ البلاط»، يكتب في مجلات وصحف كثيرة مثل «فاينانشال تايمز» Financial Times و«إنترناشونال هيرالد تريبيون» International Herald Tribune و«ملحق تايمز الأدبي» Times Literary Supplement و«سبكتاتور» Spectator.

المترجم في سطور

د. مصطفى محمد عبدالله قاسم

- مترجم مصري، حاصل على جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة في دورتها السابعة 2014 في فرع العلوم الإنسانية من اللغات الأخرى إلى العربية عن كتابه «مأساة سياسة القوى العظمى».
- من أعماله المترجمة: «المملوك الأخير» – رواية (تحت النشر، المركز القومي للترجمة - مصر)؛ «الشبكة الإنسانية» – نظرة محلقة على التاريخ العالمي (تحت النشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت)؛ «عباد الله – المسلمون بين العبيد الأفارقة في الأمريكتين» (تحت النشر، دار جامعة

الملك للنشر)؛ «حضارات السند البائدة» (مشروع كلمة للترجمة - الإمارات، 2016)؛ «من أجل المستقبل – تعليم الأطفال لعالم متغير» (دار جامعة الملك للنشر، 2016)؛ «مقدمة إلى ريادة الأعمال» (مركز الترجمة بوزارة التعليم العالي السعودية، 2015)؛ «القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم - 1453-1924» (سلسلة عالم المعرفة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، عددا يوليو وأغسطس 2015)؛ «الوقاية من المشكلات السلوكية – برامج على مستوى المدرسة وممارسات على مستوى الصف» (الناشر الدولي للنشر والتوزيع، الرياض، 2015)؛ «القوة والوفرة – التجارة والحرب والاقتصاد العالمي في الألفية الثانية» (دار جامعة الملك سعود للنشر، 2015)؛ «الدِين والدم: إبادة شعب الأندلس» (هيئة أبوظبي للسياحة والتراث - مشروع كلمة، 2013)؛ «الحياة اليومية في مصر القديمة» (المركز القومي للترجمة - مصر، 2013)؛ «مأساة سياسة القوى العظمى» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)؛ «مولد الوفرة – كيف تشكل رخاء العالم الحديث» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)؛ «التقنية والثقافة في العصور القديمة» (هيئة أبوظبي للثقافة والتراث- مشروع كلمة، 2011)؛ «الاقتصاد السياسي لمصر: دور علاقات القوة في التنمية» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «الفرض في التربية الليبرالية الجديدة» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «الأطفال واللعب» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «العلاقات الحضارية المسيحية - الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «صعود الصين» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)؛ «الإعاقة العقلية: الماضي والحاضر والمستقبل» (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)؛ «مقدمة إلى التطور اللغوي» (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)؛ «التاريخ الاجتماعي للوسائط من غُتنبرغ إلى الإنترنت» (سلسلة عالم المعرفة، العدد 315 مايو 2005، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت). فضلا على تحكيم الكثير من الكتب المترجمة لعدد من مؤسسات وجوائز الترجمة في عدد من الدول العربية.

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ ـ فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ـ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته وفي حالة الترجمة ترسل نسخة مصورة من الكتاب بلغته الأصلية كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشره. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألفا دينار كويتي وللمترجم مكافأة بمعدل ثلاثين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي (وبحد أقصى مقداره ألفان وخمسمائة دينار كويتي).

هذا الكتاب...

يشير المشرق إلى الأراضي الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وهي تحديدا الدول الحديثة: اليونان وتركيا وسورية ولبنان وفلسطين ومصر، التي كانت من القرن السادس عشر حتى القرن العشرين، جزءا من الإمبراطورية العثمانية.

في عصر الحروب الدينية، كان هذا المشرق، وتحديدا موانئه، بوتقة للتجاور بين مختلف الأديان والأقوام، وانتصبت فيه المساجد والكنائس والمعابد جنبا إلى جنب، وتجاورت فيه اللغات والثقافات والمواريث القومية. لكن هل كان هذا المشرق فعلا جنة للتعايش بين الأديان والأقوام، كما في المخيلة المعاصرة الميّالة إلى الحنين إلى الماضي وتمجيده، ونسيان أهواله وصفحاته المظلمة، وكما تصوّر الروايات السكندرية المشرقية العربية الكثيرة؟ وعلى نحو أوسع من ذلك السؤال، هل كان من الممكن - في هذا الجو العالمي «الجهادي» إسلاميا و«الصليبي» مسيحيا و«الاستعماري» و«المتعالي حضاريا» أوروبيا - أن يسود تعايش حقيقي قائم على الوئام والتعارف والاحترام؟

ينتمي الكتاب الحالي إلى نوعية الكتابات التي تتباكى على المشرق الكوزموبوليتاني، ومع ذلك فإن الحقائق التاريخية التي يقدمها تنقض فكرة «جنة التعايش»، وتبرز الانفصال بين الجماعات المشرقية، وحالة الاستغلال المعمم من جانب الجاليات الأوروبية بحق الأهالي في مدن المشرق. وإن لم يكن المشرق «المتوسطي» جنة الحرية والتعايش، فإن فكرة المشرق الكوزموبوليتاني قد كسرت حدود الزمان والمكان، وشقت طريقها إلى مدن الغرب والشرق في صورة العولمة، وإن كانت المشارق الجديدة أكثر تعايشا وحرية ومساواة وعدالة، وأبعد عن الاستغلال والاحتقار الديني والقومي، على الأقل مقارنة بمشرقنا القديم.

إصدارات المجلس متوافرة إلكترونيا على موقعنا:
WWW.NCCAL.GOV.KW/PUBLICATIONS